الرواية الفائزة بجائزة البوليتزر لسنة 2016

المتعاطف
THE SYMPATHIZER

للكاتب الفيتنامي

فاييت ثانه نغويين

Viet Thanh Nguyen

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

المتعاطف

THE SYMPATHIZER

الرواية الفائزة بجائزة البوليتزر لسنة 2016

للكاتب الفيتنامي

فاييت ثانه نغويين

Viet Thanh Nguyen

ترجمة

مصطفى ناصر

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE SYMPATHIZER
by Viet Thanh Nguyen
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من
Sobel Weber Associates, Inc
146 East 19th Streed, New York, NY 10003-2404
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2015 Viet Thanh Nguyen
All rights reserved
Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل 2017 م - 1438 هـ

ردمك 9786140232419

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

لنتريث قليلاً فلا نكتئب حالما نسمع بكلمة «تعذيب»:

ضمن هذا السياق تحديداً، هناك أشياء كثيرة تُعطى في المقابل

من شأنها أن تخفف حدة الكلمة -

حتى يكاد معناها يبدو مثيراً للسخرية.

(نيتشه - أصل الأخلاق)

مكتبة الكندل العربية

مكتبة أحمد

Telegram @read4lead

الفصل الأول

أعترفُ بأني جاسوس، من الخلايا النائمة، أو الأشباح المرعبة؛ باختصار أنا شخصية تؤدي دورين. ربما ليس من المستغرب أيضاً أن يحتوي رأسي على عقلين أو أكثر. لا تسئ الظن بي الآن فتحسبني كائناً خرافياً من إحدى مجلات الصور الهزلية أو شخصية من أفلام الرعب، مع أن بعض الناس كانوا يعاملونني على هذا الأساس. إنني ببساطة أمتلك موهبة النظر إلى أي مسألة من جوانبها كافة. أحياناً أفتخر بنفسي فأقول إنها موهبة نادرة، لكن لا بد من القول إن ذلك شيءٌ تافه، أو إنه أقصى ما لدي من مواهب. وفي أحيان أخرى، حين أفكر في عدم قدرتي على كبح نزواتي فأضطر للنظر إلى العالم كله بتلك النظرة، أتساءل عما إذا كان الأمر يستحق أن يُسمّى موهبة. على كل حال، الموهبة شيءٌ تستثمره وتنتفع منه، وليست بالشيء الذي يستغلك وينغّص عليك حياتك. الموهبة التي ليس بإمكان المرء استثمارها، أو التي تستحوذ عليك وتكاد تخنقك - حتماً تشكل خطراً، أعترف بهذا. لكن في الشهر الذي تبدأ فيه اعترافاتي هذه، كانت نظرتي إلى العالم ما تزال أقرب إلى النعمة بدلاً من أن تكون خطراً مؤكداً، ويبدو لي أن كل الفضائل التي ينعم بها الإنسان تبدأ على هذا المنوال.

نيسان، الشهر الذي أتكلم عنه، من أكثر الشهور قسوة. إنه الشهر الذي وضعت فيه الحربُ أوزارها، تلك الحرب التي اندلعت ودامت لزمنٍ طويل، كغيرها من الحروب في أغلب الأحيان. ذلك الشهر كان يعني كلّ شيء للناس الذين يعيشون في بقعةٍ صغيرة

من العالم ولا يكاد يعني شيئاً لأغلب الناس في باقي أرجاء العالم. إنه الشهر الذي شهد نهاية لتلك الحرب الطاحنة وبداية.. طيب، يبدو أن السلام ليس بالكلمة المناسبة، أليس كذلك، يا عزيزي القائد؟ نيسان الذي انتظرتُ فيه نهاية لتلك الحرب بينما كنت أقبع خلف جدران القصر الذي عشتُ فيه طوال السنوات السبع الأخيرة، تلك الجدران التي تتلون دائماً بانعكاسات الضوء على الزجاج البني المتكسّر لنوافذ تحيط بها من الخارج أسلاكٌ شائكة صدئة. كانت لي غرفتي الخاصة في القصر، مثلما أعطيتموني غرفة في معسكركم، أيها القائد. بطبيعة الحال، التعبير الذي يصلح لوصف غرفتي هذه أنها زنزانة انفرادية، وبدلاً من مدبرة منزل تأتي لتقوم بأعمال التنظيف كل يوم، هناك حارسٌ وجهه يوحي ببراءة الأطفال مع أنه لا ينظف أي شيء. لكني لا أتذمر. العزلة، وليست النظافة، ما أحتاج إليه للإدلاء بهذه الاعترافات.

بينما كنت أستمتع بخصوصيةٍ كافية في قصر الجنرال أثناء الليل، فقد حرمت من هذه النعمة نهاراً. إنني الوحيد من بين الضباط التابعين للجنرال الذي يعيش معه في قصره، الأعزب الوحيد من بين الكادر ومساعده الذي يعتمد عليه أكثر من سواه. في صباح كل يوم، قبل توصيله بالسيارة إلى مكتبه الذي لا يبعد كثيراً، نتناول طعام الإفطار معاً، ونفتح الطرود البريدية على طرفٍ من طاولة الطعام المصنوعة من خشب الصاج بينما تراقب زوجته عن كثب أربعة أولادٍ مهذبين يجلسون على الطرف الآخر، تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة، والسادسة عشرة، والرابعة عشرة، والثانية عشرة، ويبقى دائماً كرسيٌ شاغراً لابنتهم التي تدرس في أمريكا. ربما لا يخاف كل الناس من هذه النهاية، لكن يبدو أن الجنرال يشعر بالخوف الآن لأسباب عقلانية. إنه رجلٌ نحيف يحتل منصباً رفيعاً، من المحاربين القدامى، وشارك في العديد من الحملات وحصل على ميداليات كثيرة عن استحقاق وجدارة. مع أنه ليس في يديه سوى تسعة أصابع وثمانية في قدميه، بعد أن فقدها من أثر الرصاص وشظايا الألغام، إلا أن عائلته والمقربين منه فقط يعرفون ما أصاب قدمه اليسرى. طموحاته التي لا حدود لها مُنيت بالإحباط باستثناء ما يتعلق برغبته في الحصول على زجاجة من شراب بورغندي الفاخر على أن يحتسيها مع رفاقه الذين يعرفون أشياء أفضل من إلقاء مكعبات الثلج في كؤوسهم. الرجل أبيقوري[1] المزاج ونصراني ملتزم، ضمن هذا السياق، هو رجل إيمان وتقوى، يعشق فن الطهي والملذات دون أن يُهمل الجانب الروحي؛ ويقدّس الحياة الزوجية ويحب أطفاله؛ ولا فرق لديه بين

الفرنسيين والأمريكان. من وجهة نظره، هم يوفرون لنا حماية أفضل من أولئك الأجانب والمرابين الذين يخدّرون مشاعر إخوتنا في الشمال وبعض إخوتنا في الجنوب: كارل ماركس، ف. أ. لينين، والرئيس ماو. ليس لأنه سبق أن قرأ لأيّ من هؤلاء الحكماء! تلك هي مهمتي بالتعاون مع مساعديه وضباط الاستخبارات ذوي الرتب الصغيرة، لإعطائه معلومات منتحلة أو مغشوشة، على سبيل المثال، عن (مانيفستو الشيوعية) أو (الكتاب الأحمر المختصر). والأمر يعود إليه لإيجاد شتى المناسبات لاستعراض خبرته ومعلوماته عن أساليب تفكير الأعداء؛ وكانت أفكار لينين قضيته المفضلة، ينتحلها كلما استدعت الحاجة: أيها السادة، يقول أحياناً وهو ينقر على طاولة المكتب بشدة، «ما الذي علينا أن نفعل؟» إذا أردنا أن نخبر الجنرال بأن نيكولاي شيرنيشفسكي[2] في الواقع طرح هذا السؤال في روايته التي تحمل العنوان نفسه فذلك لن ينطوي على أهمية تذكر. من يتذكر شيرنيشفسكي الآن؟ لينين هو الذي يهمنا، إنه رجل الأفعال لا الأقوال الذي استوعب السؤال وجعله قضيته التي يناضل من أجلها.

في نيسان الكئيب دون غيره من سائر الشهور، بعد أن واجه الجنرال هذا السؤال عما ينبغي فعله، وبعد أن كان دائماً يجد ما يفعله، وجد نفسه عاجزاً عن فعل أي شيء. الرجل الذي لديه إيمانٌ لا يتزعزع بالمهمة الحضارية للمستعمر والتجربة الأمريكية هزمته أخيراً جرثومة الجحود. على حين غرة، صار يكتفي بالتجول في دهاليز قصره وقد تغلب عليه شحوبٌ يميل إلى اخضرار ذابل كأنه مصاب بالملاريا. منذ أن انهارت جبهتنا الشمالية قبل بضعة أسابيع في آذار، كثيراً ما رأيته يتوقف عند باب مكتبي أو يأتي إلى غرفتي الخاصة في القصر ليعطيني نبذة عن آخر الأخبار، والكآبة لا تكاد تفارقه. هل تصدق هذا؟ يسألني، فأجيبه بأحد أمرين: كلا، يا سيدي! أو، إنه شيءٌ لا يُصدق! ما كنا لنصدق أن تلك البلدة الجميلة الهادئة التي تشتهر بقهوتها المميزة، بان مي ثيوت، بلدتي أنا، التي تغفو على الهضاب، استبيحت في أوائل آذار. ما كنا لنصدق أن رئيسنا ثيو، الذي تكاد شفتا المرء تتوسلان لبصق اسمه من الفم، أصدر أمراً غير قابل للتفسير، إلى قواتنا التي تدافع عن تلك الهضاب لكي تنسحب. ما كنا لنصدق أن مدينتي دا نانغ ونيها ترانغ سقطتا أيضاً، أو أن قواتنا كانت تطلق النار على المدنيين فتصيبهم في ظهورهم أثناء محاولاتهم الفرار في السفن أو القوارب. في عزلتي السرية التي يوفرها لي مكتبي، كنت أحرص على التقاط الصور لهذه التقارير، وذلك ما يُسعد الرجل الذي دربني في هذا

الصدد. ورغم أن تلك الصور كانت تبعث البهجة في النفس، لأنها علامات مؤكدة على التآكل المحتوم للنظام، لم أتمالك نفسي من الحزن على المصير المؤسف الذي ينتظر هؤلاء الناس. ربما ليس من الصحيح - أتكلم من الناحية السياسية - أن أتعاطف معهم، لكن أمي حتماً ستكون واحدة منهم لو أنها ما زالت على قيد الحياة. يا لها من امرأة فقيرة! وأنا ابنها الوحيد؛ لا أحد هنا يسأل الفقراء إن كانوا يريدون الحرب. وما من أحد أيضاً يسأل هؤلاء إن كانوا يفضلون الموت من العطش والعيش في العراء على ساحل البحر، أو أن يُسرقوا وتنتهك أعراضهم من قبل جنود بلادهم. لو كان آلاف الموتى من ضحايا الحرب ما زالوا أحياءً، ما كانوا ليصدقوا كيف ماتوا، تماماً كما نعجز نحن عن تصديق كيف أن الأمريكان، أصدقاءنا المحسنين إلينا والذين يحموننا، رفضوا طلبنا بإرسال المزيد من الأموال. وماذا نفعل بتلك الأموال؟ نشتري الذخيرة، والغاز والمواد الاحتياطية للأسلحة، والطائرات والدبابات التي منحنا إياها الأمريكان أنفسهم مجاناً. بعد أن زودونا بالحقن الطبية، غيروا رأيهم الآن ورفضوا إعطاءنا المخدر. (لا شيء، تمتم الجنرال، ينطوي على قيمة نعتز بها مثل الأشياء التي تمنح مجاناً).

في نهاية وجبات الطعام التي ترافقها المناقشات عادة، كنت أشعل سيجارة للجنرال وهو شارد الذهن يحملق في الفراغ، ناسياً السيجارة الفاخرة من نوع لاكي سترايك تشتعل وتستهلك تبغها رويداً بين أصابعه. في أيام منتصف نيسان، كثيراً ما كان الرماد يلسعه ويجعله يفيق من شروده ويتفوه بكلمات غير لائقة، والمدام تطلب من الأولاد الهدوء وهم يقهقهون وتقول له، إذا انتظرت طويلاً، لن نتمكن من المغادرة. عليك أن تطلب من كلود إرسال طائرة الآن. تظاهر الجنرال بأنه لا يسمع المدام. كان عقلها مثل الحاسبة، أو الهيكل البدني لمدربٍ رياضي، وجسدها مشدود كأنها عذراء حتى بعد أن أنجبت خمسة أطفال. هذا القوام الممشوق من شأنه أن يلهم رسامينا المحترفين استعمال أجمل أنواع الباستيل أو الألوان المائية في لمسات فرشاةٍ عفوية تتمخض عنها تحفة نادرة. إنها باختصار النموذج المثالي للمرأة الفيتنامية. بإزاء هذا المصير الذي جمع بينهما، كان الجنرال يشعر طوال حياته بالامتنان والذعر معاً. وبينما كان يفرك إصبعه الذي لسعته الجمرة، نظر باتجاهي وقال، أتصور أن الوقت قد حان لأن نطلب من كلود إرسال طائرة. وعندما عاد إلى تأمل إصبعه المتقرح نظرتُ إلى المدام، التي رفعت أحد حاجبيها فحسب. إنها فكرة صائبة، يا سيدي، قلت.

كلود من أكثر أصدقائنا الأمريكان الذين نثق بهم، وعلاقتنا به حميمة إلى درجة أنه كان يمازحني في بعض الأحيان فيقول لي إنني ربما كنت من أصول زنجية. آه، قلت في ذلك الوقت، وقد اختل توازني من أثر شراب بوربون.. ذلك يفسر سواد شعرك، ولماذا لونك أسمر ضارب إلى الاصفرار، ولماذا تبرع في رقصة التشاتشا كأنك واحدٌ منا. بيتهوفن، قال، كان مثلك من أصول زنجية. إذن، قلت.. وهذا يفسر أيضاً كيف أنك تؤدي أغنية «عيد ميلاد سعيد» أفضل من غيرك. كان أحدنا يعرف الآخر منذ عقدين من الزمن، منذ أن لمحني في مركبٍ للاجئين سنة 1954 واكتشف مواهبي. كنت فتى يافعاً في التاسعة تعلم قدراً لا بأس به من الإنكليزية، تعلمتها على يد أحد المبشرين الأمريكان الرواد. من المفترض أن كلود يعمل في مجال الإعانة ضمن مخيمات اللاجئين. والآن لديه مكتبه الخاص في السفارة الأمريكية، ومن الواجبات الملقاة على عاتقه تطوير السياحة في بلادنا التي دمرتها الحرب. هذا العمل، كما نتصور، كان يتطلب كل قطرة يمكن أن يعصرها من منديلٍ مبلل بعرق الروح الأمريكية المخلصة لقضايا الشعوب. لكن في واقع الأمر كان كلود من رجال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وتعود فترة إقامته في البلاد إلى الأيام التي كان فيها الفرنسيون يحكمون إمبراطوريتهم هنا. في تلك الأيام، كانت السي آي أي تسمى مكتب الخدمات الاستراتيجية OSS، وكان هوشي مينه يتطلع إليهم لمساعدته على محاربة الفرنسيين. حتى إنه اقتبس بعض العبارات من الآباء المؤسسين لأمريكا في خطابه بمناسبة إعلان استقلال بلادنا. يقول أعداء العم هوشي إنه منافقٌ في كلامه المعسول، إلا أن كلود يرى أن الرجل يمتلك نظرة ثاقبة عن الجانبين. اتصلتُ بكلود هاتفياً من مكتبي في الردهة على مقربة من مكتب الجنرال، وأبلغته بالإنكليزية أن الجنرال لم يعد لديه أي أمل. كانت لهجة كلود الفيتنامية سيئة جداً وفرنسيته أسوأ منها، لكن إنكليزيته ممتازة. أشير إلى هذا فقط لأن الشيء نفسه لا يصح أن يقال عن أبناء بلده جميعاً.

انتهى الأمر، قلت، وحين سمع كلود مني ذلك بدا الأمرُ حقيقياً أكثر من أي وقت. تصورت أنه ربما يعترض ويقول إن القاذفات الأمريكية تملأ سماءنا، أو إن فرسان الجو الأمريكان سرعان ما يهرعون بالمروحيات لنجدتنا، لكن لم يبدُ أنه أصيب بخيبة الأمل. سوف أرى ما يمكنني عمله، قال، وسمعت همهمات وأصوات في الخلفية. تخيلت السفارة في حالة فوضى، فالمكالمات على أشدها، والبرقيات تتنقل بين سايغون وواشنطن، والموظفون يكدحون دون إبطاء والذعر من الهزيمة واضحٌ ومهيمن على الأجواء، روائحه

تتسلل مع هواء المكيفات. رغم أعصابه المنهارة، بقي كلود هادئاً رابط الجأش، لقد عاش مدة طويلة في هذا البلد حتى إن جسمه بالكاد يعرق من الرطوبة الاستوائية. كان بإمكان هذا الرجل أن يتسلل في الظلام حتى تجده جاثماً فجأة فوق رأسك، لكنه بالتأكيد سوف يعجز عن الاختفاء في بلادنا. ورغم أنه يُعتبر من المثقفين، إلا أنه من أرومة أمريكية شاذة، ذلك النوع المفتول العضلات الذي يمكن أن يتشاجر لأتفه الأسباب. بينما يميل مثقفو بلادنا لأن يكونوا شاحبين، حاسري النظر، ومعاقين، كان كلود وهو في الثانية والستين، له رؤيته المثالية عن الحياة ويحرص دائماً على أن يتمتع بلياقة بدنية عالية بأن يقوم بمائتي شناو3 صباح كل يوم، بينما خادمه نونغ يقرفص على ظهره. أثناء أوقات الفراغ كان يقرأ، وكلما جاء إلى القصر رأيناه يتأبط كتاباً مغلفاً بورقٍ بني كأنه طالب مدرسة. عندما وصل آخر مرة إلى القصر كان يحمل معه نسخة من كتاب ريتشارد هيد (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار).

كان الكتاب هدية لي، بينما استلم الجنرال زجاجة شراب جاك دانيالز - كنت سأرفض تلك الهدية لو تُرك الأمر لي. ومع ذلك تفحصتُ غلاف الكتاب جيداً، وكان مليئاً بالإطناب الممل والمغالاة في الترويج لأفكاره بشكل منهكٍ للأنفاس بحيث يمكن أن يظن المرء أنها عبارات كتبها المعجبون لإحدى المراهقات، لولا حقيقة أن تلك الكلمات المثيرة للضحك أتت على لسان اثنين من وزراء الدفاع، وسيناتور كان يزور البلاد لأسبوعين للاطلاع على آخر المستجدات، وإعلامي تلفزيوني معروف صاغ تصريحاته على غرار شارلتون هستون وهو يؤدي دور موسى في فيلم الوصايا العشر. السبب في حماسهما يعود إلى صيغة العنوان الثانوي المثير للجدل «عن استيعاب ودحر التهديد الماركسي لآسيا». قال كلود إن الكثير من الناس الآن يقرؤون هذا الكتيب التعليمي، فأخبرته أنني أريد قراءته أيضاً. أما الجنرال، الذي فتح سدادة الزجاجة دون تردد، فلم يسمح مزاجه آنذاك بمناقشة الكتب أو كل هذا الهراء، ليس مع وجود ثماني عشرة فرقة من الأعداء تحاصر العاصمة. كان يريد حسم مسألة الطائرة، وكلود يقلب الكأس بين راحتي يديه ويقول إن أفضل ما يستطيع أن يوفره رحلة متواضعة على متن طائرة عسكرية سي 130، خارج نطاق مهماتها المحددة. بإمكان الطائرة أن تحمل اثنين وتسعين من المظليين مع تجهيزاتهم، وكما يعلم الجنرال، فقد سبق له أن خدم مع المحمولين جواً قبل أن يستدعيه الرئيس نفسه ليتولى قيادة الشرطة الوطنية. لكن المشكلة، كما أوضح لكلود، أن عائلته ومعارفه وحدهم

الذين ينتشرون هنا وهناك في البلاد يصل عددهم إلى ثمانية وخمسين فرداً. ومع أنه لا يحب البعض منهم، أو في الواقع يمتعض من أكثرهم، إلا أن المدام لن تغفر له أبداً إذا لم ينقذ جميع أقاربها.

وماذا عن الأشخاص الذين يشتغلون معي، كلود؟ تكلم الجنرال بلهجة إنكليزية رسمية. ماذا عنهم؟ ونظر الجنرال وكلود مباشرة لي. حاولت أن أتحلى بالصبر والشجاعة. لم أكن الضابط الأعلى رتبة ضمن الكادر، لكني كمساعدٍ له والضابط المطلع أكثر من غيره على الثقافة الأمريكية، كنت أحضر كل اجتماعات الجنرال مع الأمريكان. البعض من سكان بلدي يتكلمون الإنكليزية مثلي، مع أن في كلامهم لكنة غريبة. لكن لا أحد غيري يستطيع مناقشة مسائل البيسبول، وتألق جين فوندا، أو مزايا فرقة رولنغ ستونز وتفوقها على البيتلز. إذا ما أغمض أي أمريكي عينيه وسمعني أتكلم، حتماً سوف يتصور أنني واحدٌ منهم. في الواقع، على الهاتف، كان كل من يتكلم معي يتصور أنني أمريكي. في أي اجتماع أحضره يستغرب من يحاورني دائماً من مظهري ويلح في الاستفسار عن سر إتقاني للإنكليزية بهذه الطلاقة. في جمهورية الكاكايا4 هذه التي تقوم بدور العميل للولايات المتحدة، يتوقع الأمريكان أن أكون مثل ملايين الناس الذين لا يتكلمون الإنكليزية، أو يتكلمون إنكليزية إما أن تكون مبسّطة أو مشددة خارج نطاق المألوف. كم كنت أمتعض من توقعاتهم! وذلك هو سبب تلهفي الدائم، سواءً في الحوار أو الكتابة، لاستعراض مدى إتقاني للغتهم. المفردات التي أحفظها أكثر مما يعرفون، وقواعد اللغة التي أتكلمها أدق بالمقارنة مع أي أمريكي متوسط التعليم. كنت أتمكن من الوصول إلى أعلى النبرات وأدناها، وبهذا لم تواجهني أي صعوبة في استيعاب وصف كلود للسفير بأنه غبي «putz» أو «jerkoff» أو «رأسه فوق مؤخرته» ويرفض الاعتراف بأنه السبب في سقوط المدينة الوشيك. من الناحية الرسمية، ليس هناك عملية إخلاء، كما قال كلود، لأننا لن نخرج من البلاد خلال وقتٍ قريب.

لكن الجنرال، الذي بالكاد كان يرفع صوته في السابق، فعلها الآن. من الناحية غير الرسمية، أنتم تتخلون عنا، صرخ بأعلى صوته. طوال النهار والليل نرى الطائرات تقلع من المطار. كلّ شخص يعمل مع الأمريكان يريد الآن الحصول على تأشيرة للخروج. إنهم يتوافدون على السفارة للحصول على التأشيرات. لقد أخليتم نساءكم. أخليتم الأطفال

والأيتام. لماذا يحصل أن الوحيدين الذين لا يعرفون أن الأمريكان يتركون البلاد هم الأمريكان أنفسهم؟ كان كلود يتمتع بالكياسة بحيث بدا محرجاً ظاهرياً وهو يشرح كيف أن المدينة سوف تدخل في هرج ومرج إذا أعطيت الأوامر بالإخلاء، ربما ينقلب الناس عندئذ على الأمريكان الباقين هنا. هذا ما حدث في دا نانغ وفي نيها ترانغ، حين هرب الأمريكان للنجاة بحياتهم وتركوا المقيمين يقاتل بعضهم بعضاً. وصلت أعداد القتلى إلى آلاف. لكن على الرغم من هذه السابقة، فالوضع لا يزال يوحي بالهدوء المريب في سايغون، أغلب مواطني المدينة يتصرفون كأنهم في حفلة رقصٍ معربدة، ويتحلون بالشجاعة ويحاولون مقاومة الغرق بأن يتمسك بعضهم بالآخر ما دام لا أحد يفصح عن حقيقة ما يجري. الحقيقة في هذا الشأن أن على الأقل مليوناً من البشر يعملون أو سبق أن عملوا لصالح الأمريكان هنا أو هناك، ابتداءً من تلميع أحذيتهم إلى الانخراط في الجيش المصمم من قبل الأمريكان وفقاً لرؤيتهم الخاصة وانتهاءً بتلبية متطلبات المتعة لهم مقابل قطعة برغر في مدنٍ أمريكية مثل بيوريا أو بوكيبسي. نسبة كبيرة من هؤلاء يعتقدون أنه إذا ربح الشيوعيون المعركة - وهذا احتمالٌ يرفضون تصديقه - فما ينتظرهم هو السجن أو الموت خنقاً، أما عن العذارى، فالإكراه على الزواج من البرابرة. ولماذا لا؟ هذه هي الشائعات التي تروج لها الـ (سي آي أي).

إذن - ما إن بدأ الجنرال يتكلم، حتى قاطعه كلود. لدينا طائرة واحدة ويجب أن تعتبر نفسك محظوظاً، يا سيدي. لم يكن الجنرال بالرجل الذي يستجدي أحداً. انتهى من احتساء الشراب، كما فعل كلود، ثم هز يد كلود مصافحاً وقال له وداعاً، ولم يرفع عينيه عن وجه كلود أبداً. الأمريكان يحبون أن ينظروا إلى الناس وجهاً لوجه، هكذا أخبرني الجنرال ذات مرة، خاصة وهم يطعنوهم في الظهر. لكن كلود لم ينظر إلى الموقف على هذا النحو. هناك جنرالات آخرون يوفرون المقاعد لعائلتهم الخاصة فقط، قال لنا كلود وهو يغادر. حتى نوح لم يتمكن من إنقاذ كل البشر. أو لم يرد ذلك على كل حال.

هل هذا صحيح؟ ماذا كان سيقول أبي؟ كان كاهناً كاثوليكياً، لكنني لا أتذكر أن هذا الرجل الفقير الرث الثياب كان يلقي المواعظ عن نوح، رغم أنني بصراحة كنت أذهب إلى القداس فقط لكي أغط في أحلام اليقظة. لكن بصرف النظر، فلا مجال للشك في أن أي شخصٍ من العاملين مع الجنرال، إذا أعطي الفرصة، سوف ينقذ مائة من أقاربه الحقيقيين

إضافة إلى أي أقارب على الورق يمكنهم دفع الرشوة. العائلات الفيتنامية ذات طبيعة معقدة، ولها طبائعها الخاصة، وبينما كنت في بعض الأحيان أتمنى الانتماء إلى واحدةٍ منها، أنا الابن الوحيد لأمٍ منبوذة، الآن ليس من المحبذ تمني ذلك.

***

في وقتٍ لاحق من اليوم نفسه، قدّم الرئيسُ استقالته. كنت أتوقع أن يغادر البلاد منذ أسابيع بما يتماشى مع سلوك أي دكتاتور، لذلك لم أكترث للأمر بينما كنت منشغلاً بإعداد قائمة بالأشخاص الذين سيغادرون. كان الجنرال صعب المزاج ويتدخل بالتفاصيل، وحدث أن اتخذ قرارات متعجلة وصعبة، إلا أن هذا من الواجبات التي كلفني بها مؤخراً. كان مهتماً بأمور مكتبه: قراءة تقارير الإيجاز الصباحي، وحضور اجتماعات المقر العام المشترك، والاتصال بمستشاريه الذين يناقشون كيف يسيطرون على المدينة ومع ذلك فإنهم على أهبة الاستعداد لمغادرتها، وهي مناورة ماكرة مثل التلاعب بالأوتار الموسيقية بما يتناسب مع النغمة التي يحبها المرء. الموسيقى الآن تشغل ذهني، لأني أثناء عملي على القائمة في ساعات الليل المتأخرة، كنت أستمع إلى الإذاعة الأمريكية على راديو سوني في غرفتي الخاصة. كانت أغاني فرق الايغلز ورولنغ ستونز وجانيس جوبلن عادة تجعل الأزمات قابلة للتحمل والأشياء الجميلة أروع، ولكن ليس في مثل هذه الأيام. كل ضربة من قلمي أدوّن بها اسماً كأنها حكم بالإعدام على أحدهم. كلُّ أسمائنا، ابتداءً من أصغر ضابط إلى الجنرال، وجدتها في أحد الأيام ضمن قائمة حُشرت في فم إحدى رفيقاتنا بينما كنا نقتحم منزلها في العام الماضي. الإنذار الذي أرسلتُه إلى صديقي مان يبدو أنه لم يصل إليها في الوقت المناسب. وبينما كان رجال الشرطة يكبلونها ويسقطونها أرضاً، لم تتسنَ لي فرصة سوى للوصول إلى فم هذه العميلة الشيوعية وانتزاع الورقة التي تهرّأت بين أسنانها وامتزجت باللعاب. واتضح من فحص عجينة الورق أن فرعنا الخاص، المفروض أنه مكلف بأعمال المراقبة والتحرّي، كان يخضع للمراقبة. حتى لو حصلت على لحظات أمضيها معها، لما تمكنت من المجازفة بإفشاء أسراري بأن أخبرها أنني أقف إلى جانبها. كنت أعرف المصير الذي ينتظرها. الجميع يعترفون في زنزانات الاستجواب في الفرع الخاص، وهي ستخبرهم بأسراري رغماً عنها. إنها فتاة شابة، أصغر بكثير مني، لكنها كانت ذكية بما يكفي لأن تعرف المصير الذي ينتظرها أيضاً. للحظة رأيتُ الحقيقة الصارخة في

عينيها، إنها تكرهني لما خمّنته من الأشياء عن شخصيتي، عميل لنظام قمعي فاسد. وبعد ذلك، مثلها مثلي، تذكرت الدور الذي عليها أن تؤديه. أرجوكم، يا سادتي! صاحت بهم. إنني بريئة! أقسم على ذلك!

بعد ثلاث سنوات، ما زالت هذه العميلة الشيوعية قابعة في زنزانة. أبقيتُ ملفها على مكتبي، تذكاراً لفشلي في إنقاذها. إنها غلطتي، أيضاً، قال مان. حين يأتي يوم التحرير، فأنا الذي سيفتح زنزانتها. كانت في الثانية والعشرين عندما اعتقلوها، وفي الملف صورة لها تعود إلى زمن اعتقالها، وصورة أخرى التقطت قبل بضعة أشهر، عيناها ذاويتان وشعرها خفيف. الزنزانات في سجننا ماكينات تقضم الزمن، النزلاء فيها يكبرون بشكل أسرع من المعتاد. كلما نظرت إلى وجهها هنا وهناك أجد أنها تساعدني في اختيار بضعة رجال لأنقذهم وأتخلى عن الكثيرين غيرهم، ومنهم بعض الأشخاص الذين أحبهم. منذ عدة أيام كنت منكباً على العمل دون كلل لأنتهي من القائمة بينما المدافعون عن اكسوان لوك يتعرضون للإبادة، وعبر حدودنا، سقطت فنوم بينه بأيدي الخمير الحُمر[5]. وبعد ليالٍ قليلة، هرب رئيسُنا السابق سراً إلى تايوان. أما كلود، الذي أوصله بالسيارة إلى المطار، فقد لاحظ كم كانت حقائب الرئيس ثقيلة بشكل مستغرب وتصدر منها أصواتُ ارتطام أشياء معدنية، لعلها حصة كبيرة من ذهب بلادنا. أخبرني كلود بهذا في صباح اليوم التالي، عندما جاء ليقول إن طائرتنا سوف تقلع بعد يومين. أنهيتُ القائمة في وقتٍ مبكر من ذلك المساء، وأخبرت الجنرال أنني تصرفت بديموقراطية، واخترتُ أحد الضباط من ذوي الرتب الرفيعة، والذي يعتقد الجميع أنه الأكثر إخلاصاً ونزاهة، والذي أحبُّ مرافقته أكثر من غيره، وما إلى ذلك. وتقبل الجنرال رأيي بما يترتب عليه من نتائج محتملة، على أن يبقى عددٌ لا بأس به من الضباط الكبار الذين لديهم خبرة جيدة تناسب العمل في الفرع الخاص. واتفقت مع عقيد، ورائد، ونقيب آخر، واثنين من الملازمين. أما أنا فحجزت مقعداً وثلاثة مقاعد أخرى لبون، وزوجته وطفلهما، ابني بالمعمودية.

عندما زارني الجنرال في تلك الليلة لكي ينفّس عن همومه وهو يحمل زجاجتين شبه فارغتين الآن، رجوته أن يسمح لبون بمرافقتنا. رغم أنه ليس أخي، إلا أنه يكاد يكون أخاً لي من دمي ولحمي منذ أيام الدراسة. وكان مان الرجل الآخر، ثلاثتنا أقسمنا على الإخلاص حتى الموت وجرح كل منا راحة يده في مرحلة المراهقة واختلطت دماؤنا بعد

أن صافح أحدنا الآخر. في محفظتي هناك صورة بالأسود والأبيض لبون وعائلته. كان بون رجلاً سمحاً وقسماته توحي بنقاء السريرة، وتلك نعمة من الله يُحسد عليها، مع أن بيرية المظليين والشريط الذي عليه صورة النمر يمكن أن تصرف الانتباه عن أذنيه العريضتين، وذقنه الذي يغطس بين طيات رقبته، وأنفه المفلطح ينحني بزاوية حادة، ربما الشيء نفسه يمكن أن يقال عن أفكاره في السياسة. أما زوجته، لينه، وهي شاعرة فيمكن تشبيهها بالقمر في موسم الحصاد، لا يلمح المرءُ منه اكتماله واستدارته فحسب، وإنما تلك البقع والندب التي كأنها بقايا من حب الشباب. كيف أنجب هذان الزوجان طفلاً محبوباً مثل دوك، ذلك يبقى سراً، أو ببساطة من غير المنطقي أن يجتمع متناقضان ليسفرا عن شيءٍ إيجابي. أعطاني الجنرال الصورة وقال، هذا أقل ما يمكنني القيام به. إنه من المحمولين جواً. لو كان كل جيشنا من المحمولين جواً لكسبنا هذه الحرب.

لو... لكن لا توجد لو الآن، هناك فقط حقيقة لا يمكن دحضها، الجنرال وهو جالس على حافة كرسيي وأنا أقف قرب النافذة، أتجرع ما تبقى في الكأس. في الفناء كان بعض حرس الجنرال يلقون حزماً من الأوراق السرية إلى نار مضطرمة في برميل سعته خمسة وخمسون غالوناً، مما جعل الليل أشد حرارة. نهض الجنرال وراح يذرع غرفتي الصغيرة، والكأس بيده، كأنه شخصية يائسة من إحدى مسرحيات تينيسي وليامز، لم يكن يلبس غير بنطلون قصير وقميص بلا كمين، وظلال منتصف الليل تزيد سواد ذقنه. فقط خادمات المنزل، وعائلته، وأنا كنا نراه في مثل هذا الوضع. في ساعات النهار حين يتوافد الضيوف إلى القصر، نراه يدهن شعره ويرتدي بزته الخاكي المكوية جيداً، والصدر مزينٌ بأشرطة وأوسمة ونياشين أكثر مما يوجد من إكسسوارات على شعر ملكة جمال. لكن في هذه الأمسية، والقصر يلفه سكونٌ لا تقطعه إلا إطلاقات طائشة، سمح لنفسه أن يشتكي من المولوخ6 الأمريكي الذي سبق أن وعدنا بالخلاص من الشيوعية لو فعلنا فقط ما يأمرنا به. أولئك الذين بدأوا هذه الحرب، الآن بعد أن سئموا منها، باعونا بأرخص الأثمان، كما قال، وكان يسكب الشراب في كأسٍ أخرى. لكن على من نلقي اللوم غير أنفسنا؟ كنا حمقى بما يكفي لأن نتصور أنهم سوف يوفون بوعودهم. الآن لا مكان نلجأ إليه سوى أمريكا. هناك أماكن أسوأ، قلت. ربما، قال. على الأقل سوف نعيش لنقاتل من جديد. لكن في الوقت الحالي نحن تعرضنا للخيانة حقاً. أيُّ نخبٍ يصلح لهذا الموقف؟

لم أفهم الكلمات إلا بعد لحظات.

لنشرب نخب الدم الذي أراه في عينيك، قلت.

هذا صحيح، تباً!

لقد نسيت الشخص الذي تعلمت منه هذا النخب، أو حتى معناه، لكني أتذكر أنني تعلمته خلال السنوات التي أمضيتها في أمريكا. الجنرال كان هناك أيضاً، ولو لبضعة أشهر كضابط برتبة صغيرة، كان يتدرب مع أحد الفصائل من رفاقه في فورت بيننغ سنة 1، حيث كلفته القوات الخاصة بمهمة مقاومة الشيوعية. أما أنا فلم أكلف بشيء من ذلك. كانت مهمتي الخاصة، كطالب بعثة، وجاسوس تحت التدريب، المندوب الوحيد لشعبنا في كليةٍ صغيرة تقع وسط الآجام والغابات يسمونها الكلية الغربية، وشعارها «تعزيز التقارب بين الغرب والشرق»، هناك أمضيت ست سنوات وأنا غارق في أحلامي الوردية، تحت الشمس اللافحة لجنوب كاليفورنيا في الستينيات. لم يكن الغرض من بعثتي دراسة المنشآت العملاقة والطرق السريعة، والأضرار المحتملة على البيئة، ومنظومات التصريف الصحي، وغيرها من المشاريع النافعة للبشر. بدلاً من ذلك، المهمة التي كلفني بها مان، رفيقي في التآمر، أن أتعلم طرق التفكير الأمريكية. الحرب التي يفترض أن أخوضها حربٌ نفسية. ولتحقيق ذلك، كنت أقرأ التاريخ والأدب الأمريكي، وأتقن قواعد اللغة وأستوعب اللهجات العامية، أدخن وأشرب وأجري المراهنات وأفقد براءتي. باختصار، لم أحصل فقط على شهادة البكالوريوس لكني أكملت الماجستير أيضاً، وأصبحت خبيراً في الدراسات الأمريكية بجوانبها كافة. حتى الآن يمكنني أن أتذكر أين قرأت للمرة الأولى كلمات الفيلسوف الأمريكي العظيم، امرسون7، على مرجٍ قزحي الألوان لأشجار الجكراندة8. كان انتباهي منجذباً إلى منظرٍ غريب للوريقات المسمرة وأخرى فاتحة ضاربة إلى البرتقالي ونهاياتها متساوية أو قصيرة وطويلة كالمشانق تتشمس على بساطٍ من براعم العشب التي ظهرت في حزيران والكلمات العبقرية الباهتة في خيالي على ورقة بيضاء - التناسق بعبعٌ تخاف منه العقول الصغيرة. ليس هناك من شيءٍ كتبه امرسون عن أمريكا أكثر صدقاً من هذا، لكنه ليس السبب الوحيد الذي جعلني أضع خطاً تحت كلماته مرة، ومرتين، وثلاثاً. ما سحرني آنذاك، ويذهلني حتى الآن، أن الشيء نفسه يمكن قوله عن وطننا، حيث ينتهي أمرنا إذا لم نؤمن بالتعايش والانسجام.

***

في صباح اليوم الأخير، أوصلتُ الجنرال بالسيارة إلى مكتبه في مقر الشرطة الوطنية. كان مكتبي على الردهة قريباً من مكتب الجنرال، وهناك استدعيتُ الضباط الخمسة الذين اخترتهم وعقدت معهم اجتماعاً، واحداً بعد الآخر. سوف نغادر الليلة؟ سألني العقيد وهو يرمقني بعينين واسعتين نديتين كأنهما عينا فتاة صغيرة. نعم. وماذا عن أبي وحماي؟ سألني الرائد، وهو رجلٌ بدين من عشاق المطاعم الصينية في شو لون. كلا. يُمنع اصطحاب الإخوة والأخوات وأطفال هؤلاء؟ كلا. وماذا عن الخدم ومدبّرات المنزل؟ كلا. حقائب يدوية، خزانات صغيرة، صناديق الأواني الخزفية؟ كلا. النقيب، الذي يعرج قليلاً بسبب مرضٍ تناسلي، هدد بأنه سوف ينتحر ما لم أخصص له بعض المقاعد الإضافية. وعرضت عليه مسدسي الشخصي فتوارى عن الأنظار. في مقابل ذلك، أبدى الملازمان الشابان امتنانهما، وكيف لا وقد حصلا على منصبين مرموقين عبر علاقات عائلية، تقبلا الوضع بأريحية مفتعلة فيها شيءٌ من نزق الرسوم المتحركة.

ثم أوصدتُ الباب بوجه المعترضين. كان هديرُ مدافع بعيدة يهز النوافذ، رأيت ناراً ودخاناً من جهة الشرق. لقد فجرت مدفعية العدو مستودع الذخيرة في لونغ بينه. أحسست برغبة في البكاء والفرح في الوقت نفسه، اتجهتُ إلى درجٍ في الخزانة، حيث احتفظت بخمس زجاجات جيم بين لم يبقَ فيها غير عدة أونصات. إذا سألتني عما إذا كنت مدمناً على الكحول فذلك لن يختلف عن السؤال عما تلبسه الراهبات. لو كانت أمي المسكينة حية، لقالت، لا تشرب كثيراً، يا ولدي. هذا ليس جيداً لصحتك. لكن ألا يمكن أن يكون ذلك مفيداً، يا أمي؟ عندما يجد المرءُ نفسه في موقفٍ صعب مثلي، جاسوساً في موكب الجنرال، يلجأ إلى الزجاجة طلباً للراحة فيجدها كلما سعى إليها. أنهيت ما تبقى في الكأس، ثم عدتُ مع الجنرال إلى منزله مخترقين العاصفة، والأمطار الغزيرة تنهمر كالشلالات على المدينة وتنبئ بموسمٍ قادم. بعضُ الناس يتمنون أن تبطئ الرياح الموسمية سرعتها وهي تقترب من المناطق الشمالية، لكني أيقنت أن ذلك بعيد المنال. تناولتُ الغداء على عجل وحزمت أمتعتي في كيس: أدوات حلاقة ومعجون أسنان، زوج من البدلات الخاكية وقميص خفيف اشتريته من محلات بيني في لوس أنجلس، وحذاء، وعدة ملابس تحتية، وفرشاة أسنان كهربائية من أسواق ثايفز، وصورة ذات إطار

لأمي، ومغلفات تحتوي صوراً فوتوغرافية التقطتها في أماكن شتى ومنها أمريكا، وكاميرا كوداك، وكتاب (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار).

كان كيسُ الأمتعة هدية لي من كلود بمناسبة تخرجي من الكلية. إنه أجمل شيء احتفظت به حتى ذلك الوقت، فهو يمكن أن يُحمل على الظهر أو مع تغيير شريط هنا وهناك، يتحول إلى حقيبة يد. كان مصنوعاً من جلدٍ بني مرن في معمل يدوي مرموق في نيوانكلند، تفوح منه روائح غريبة لأوراق الخريف، أو لسرطان بحري مشوي، أو للسائل المنوي لأولاد في مدرسة داخلية. الحروف الأولى من اسمي منقوشة على جانبٍ منه، لكن الشيء المميز فيه قعره المخفي. كل إنسان لا بد أن يكون لديه مكان سري ضمن أمتعته، هكذا قال كلود. لا تدري متى تحتاج إليه. وفعلاً استخدمت ذلك المكان لإخفاء كاميرتي المينوكس الصغيرة جداً. تصل كلفة كاميرا المينوكس - وهي هدية من مان - إلى أضعاف راتبي السنوي. وسبق أن استخدمتها في التقاط صور لبعض الوثائق السرية التي استطعت الوصول إليها، فكرت الآن في أنها ربما تنفعني مرة أخرى. وأخيراً، رتبت ما تبقى من كتبي وأشرطة الكاسيت، وأغلبها اشتريتها في الولايات المتحدة وكلها تحمل بعض الذكريات. لم يبقَ حيزٌ لالفيس أو دايلان، فولكنر أو أليسون، وبينما كان بالإمكان استبدالها بغيرها، إلا أن مزاجي لم يزل معكراً عندما كتبت اسم مان على صندوق الكتب والأشرطة. كان الوزن ثقيلاً وليس من السهل حمله، وبقي الغيتار على السرير كأنه أفخاذ تؤنبني وأنا أخرج.

بعد حزم الأمتعة، أخذت سيارة السيتروين لكي أُحضر بون. كان رجال الشرطة العسكرية في نقاط التفتيش يحيونني ويظنون أن الجنرال في السيارة. أردت الذهاب إلى ما وراء النهر، ريفيرا بائسة من أكواخ اللاجئين، عمرانها التافه من صناديق كارتونٍ رماها الأمريكان. يسكن في تلك البقعة الواسعة من العشوائيات قرويون محبطون مهانون بعد أن نُهبت مزارعهم منذ زمنٍ طويل. هنا أصيب كلُّ شيء بالتلوث من المبيدات الكيماوية التي من ابتكار علماء حصلوا على شهاداتهم من أرقى الجامعات التي تقع في مناطق لا تعرف التلوث، أزيلت المروج الخضراء بفعل مخربين يسمونهم أبطال القاصفات، أو أحرقت وسوّيت بالأرض على يد جنود استبد بهم الجنون لإحراق كل شيء؛ بعضهم كانوا يعودون أحياناً إلى قراهم ليروا مناطقهم أكلتها نيران الشغب والعنصرية. عبر النهر، في أعماق المنطقة الرابعة، كان بون ومان ينتظران في حديقة اعتدنا أن نشرب في كازينوهاتها

نحن الثلاثة وتمضي الساعات ثملين مرات أكثر مما يمكنني تذكره. كان جنود المارينز يتزاحمون على الطاولات، والبنادق تحت كراسيهم، وشعر الرؤوس مقصوص من قبل حلاقين عسكريين ساديين تعمدوا الكشف عن كل ما خفي من تضاريس الجمجمة لغرض ربما له علاقة بفراسة الدماغ.

لقد التأم شملنا من جديد، قال بون، وكان يملأ كأسي حتى طفح بالرغوة. سوف نلتقي في الفلبين! قلت سنلتقي في غوام، لأن الدكتاتور ماركوس ضاق ذرعاً باللاجئين ولم يعد يتقبل المزيد منهم. خبط بون جبهته بالكأس وهو يدمدم. لم أتصور أن الأمور ستبلغ هذا الحد، قال. الآن الفلبينيون يترقبوننا؟ انسَ الفلبينيين، قال مان رافعاً كأسه. اقترح بدلاً من ذلك أن نشرب على شرف غوام، هناك، كما قال، يبدأ يوم أمريكا. وينتهي يومنا، تمتم بون.

على العكس مني ومن مان، كان بون وطنياً فريداً بلا شك، من الجمهوريين الذين تطوعوا للقتال، بعد أن كره الشيوعيين منذ أجبر كادرهم المحلي والده، عمدة القرية، أن يركع في ميدان القرية ويدلي باعترافه قبل أن يطلقوا النار عليه خلف أذنه. وجد بون نفسه مضطراً لاختيار مصيره وحده، وكان مصمماً على الذهاب إلى اليابانيين والقتال إلى النهاية أو حتى يصوب بندقيته إلى رأسه، لذلك أقنعناه، أنا ومان، بأن يفكر بزوجته وابنه الصغير. الرحيل إلى أمريكا لا يعني التخلي عن القضية، هكذا قلنا. إنه انسحابٌ استراتيجي. أخبرنا بون أن مان سيهرب أيضاً مع عائلته غداً، لكن في الحقيقة مان سوف يبقى ليشهد تحرير الجنوب من قبل شيوعيي الشمال الذين يكرههم بون. والآن ربّت مان على كتفه بأصابعه النحيفة وقال، نحن إخوة في الدم، نحن الثلاثة. وسوف نبقى إخوة حتى لو خسرنا هذه الحرب، أو خسرنا بلادنا. ونظر إليّ بعينين تترقرقان بالدموع. بالنسبة إلينا لا نتوقع أي نهاية.

أنت على حق، قال بون، وكان يشيح بوجهه عنا ليخفي الدموع التي تترقق في عينيه. إذن كفى حزناً وكآبة. دعونا نشرب للأمل. سوف نعود إلى القتال من جديد. أليس كذلك؟ كان ينظر باتجاهي. لم أشعر بالحرج من الدموع التي في عيني. هذان الرجلان أفضل من أي إخوة حقيقيين من أبي وأمي، لأن أحدنا اختار الآخر. رفعت كأسي، لنشرب نخب العودة إلى الديار، قلت: ونخب أخوة لن تنتهي إلى الأبد. وأفرغ كل منا كأسه في

جوفه، وطلبنا المزيد من الشراب، ووضع كلّ منا ذراعيه حول كتف الآخر، واستمتعنا بتلك اللحظات من الحب الأخوي ونحن نغني، والموسيقى تأتينا من ثنائي عند الطرف الآخر من الحديقة. صاحب الغيتار شعره طويل كذيل الحصان ولونه شاحب كأنه مريض لأنه عاش السنوات العشر الأخيرة بين جدران منزل صاحب الحانة خلال النهار، بينما يظهر في الليل فقط. ورفيقته امرأة ذات شعر ناعم منسدل على كتفيها وصوتها رخيم، وجسدها النحيف تلوح تضاريسه من خلف قماشٍ حريري ويغلب عليها خجل العذارى. كانت تغني قصائد ترانيه كونغ سون، المغني الشعبي الذي يحبه المظليون. غداً سوف أرحل، يا حبيبتي... ويرتفع صوتها طاغياً على الثرثرة والمطر. تذكري أن تزوريني في مثواي الأخير... وقلبي ينتفض. لم نكن بالأشخاص الذين يندفعون لخوض غمار الحرب بإيماءة إصبعٍ أو استجبنا للطبول والأبواق. كلا، لقد قاتلنا على إيقاع أغاني الحب، لأننا كنا إيطاليي آسيا.

غداً سوف أرحل، يا حبيبتي. لم تعد ليالي المدينة جميلة كالسابق... لو كان بون يعرف أن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها مان لسنوات قادمة، أو ربما لن تقع عليه عيناه مرة ثانية، لما صعد على متن الطائرة. منذ أيامنا في لايسي، كنا نتخيل أنفسنا كالفرسان الثلاثة، الكل من أجل الفرد والفرد من أجل الكل. مان هو الذي عرّفنا على دوماس، أولاً لأنه روائي عظيم، وثانياً لأنه كان رُبع زنجي. ومن هنا فهو نموذجٌ لنا، عانى من الاستعمار الفرنسي الذي كان يحتقره بسبب أصوله العرقية. بما أن مان قارئ نهم وخبير في الحكايات الفولكلورية، ربما أصبح مدرّساً للأدب في بلدتنا لايسي لو عاش في زمن السلام. إلى جانب ترجمة ثلاث روايات بوليسية عن مغامرات بيري ماسون للكاتب إيرل ستانلي غاردنر[9] إلى لغتنا الأم، كتب أيضاً رواية منسية على أسلوب زولا باسمٍ مستعار. ودرس كل شيء عن أمريكا لكنه لم يزرها أبداً، كما هي الحال مع بون، الذي طلب المزيد من الشراب وتساءل عما إذا كانت في أمريكا حدائق وكازينوهات مثل هذه. بطبيعة الحال لديهم حانات وأسواق تجارية يمكنك دائماً الحصول فيها على الشراب، قلت له. لكن هل لديهم نساء جميلات ينشدن هذه الأغاني؟ سأل. وملأتُ كأسه ثانية وقلت، لديهم نساءٌ جميلات لكنهن لا يعرفن هذه الأغاني.

ثم بدأ عازفُ الغيتار يداعب الأوتار استعداداً لأغنية أخرى. إنهم فعلاً يجيدون

هذه الأغاني، قال مان. بالأمس، كل متاعبي كانت تبدو بعيدة... وشاركنا نحن الثلاثة في الأغنية: الآن يبدو كما لو أن تلك المتاعب جاءت لتبقى، أوه كم أشتاق إليك أيها الأمس! يملؤني الشوق فجأة... وازدادت الدموع في عيني. كيف سيبدو الأمر لو عشنا في زمنٍ لا يتعلق فيه مصير الإنسان بالحرب، ولا يسود فيه الجبناء والفاسدون، والبلاد يمكن أن تبقى على قيد الحياة دون أن تحتاج إلى التقطير الوريدي للمساعدات الأمريكية؟ لم أكن أعرف أحداً من هؤلاء الجنود اليافعين الذين حولي باستثناء إخوتي من دمي ولحمي ومع ذلك أعترف بأنني أحسست بالتعاطف معهم، لأنهم ضائعون تحت وطأة الإحساس بأنهم في غضون أيام ربما أصبحوا في عداد الموتى، أو الجرحى، أو الأسرى، أو المذلين المهانين، أو الذين يتخلى عنهم غيرهم، أو المنسيين. كانوا أعدائي، ومع ذلك فإنهم إخوتي في السلاح. مدينتهم الحبيبة على وشك أن تسقط، ومدينتي سرعان ما تتحرر. إنها نهاية عالمهم، ولكنها بداية عالم جديد بالنسبة إليّ. وبقينا نغني لمدة دقيقتين ونصيح من أعماق قلوبنا، لا نحسّ إلا بالماضي الجميل ونتجنب التطلع إلى المستقبل، مثل سبّاحين يوجهون بأيديهم ضربات ارتدادية باتجاه الشلال.

***

وأخيراً، توقف المطر مع مغادرتنا. نفثنا دخان السيجارة الأخيرة في الهواء الرطب، ومررنا من تحت قوس شجيرات متشابكة يقطر منها الماء للخروج من الحديقة فصادفنا ثلاثة من المارينز الثملين يخرجون مترنحين من جوف الظلام. سايغون الجميلة! كانوا يغنون. أوه، سايغون، أوه سايغون! مع أن الساعة كانت السادسة ليس إلا، غير أنهم كانوا ثملين تماماً، وأنفاس الإعياء تختلط برائحة الشراب. كل واحد منهم لديه بندقية م - 16 تتدلى من كتفه بشريط، مع زوج احتياطي من كريّات غريبة الشكل. ولدى الاقتراب منهم وتفحصهم، اتضح أنها مجرد قنبلتين يدويتين مشدودتين على كل جانب بإبزيمات على الحزام. على الرغم من بزاتهم النظامية، وأسلحتهم، وخوذهم الأمريكية الصنع، مثل التي نلبسها نحن، لم نصدق أنهم من الأمريكان، فالخوذ منبعجة كأنها قدور فولاذية لا تكاد تتناسب مع رؤوس الأمريكان الضخمة. كان رأس المارينز الأول يتمايل يميناً وشمالاً قبل أن يرتطم بي ويشتمني، ونزلت حافة خوذته تدريجياً حتى وصلت إلى أنفه. ولما دفعها إلى الأعلى رأيت عينين زائغتين تحاولان التركيز بانشداه. مرحباً! قال، وأنفاسه تفوح منها

رائحة خانقة، ولهجته جنوبية ركيكة بحيث واجهت صعوبة في فهم كلماته. ما هذا؟ رجل شرطة؟ ماذا تفعل هنا مع جنودٍ حقيقيين؟

نفض مان رماد السيجارة عليه. رجل الشرطة الذي تتحدث عنه هو نقيب. عليك أن تؤدي التحية إليه، أيها الملازم.

أما المارينز الثاني، وهو برتبة ملازم أيضاً، فقال، كما تشاء، أيها الرائد، وهنا قال المارينز الثالث، وهو ملازم أيضاً، إلى الجحيم بكل الرواد والعقداء والجنرالات. لقد غابت شمس الرئيس. الجنرالات - بف! تبخروا كالدخان. تبخروا. أرادوا النجاة بجلودهم مثلما يفعلون دائماً. أتعرفون شيئاً؟ ذلك يجعلنا نغطي عملية الانسحاب. مثلما نفعل دائماً. وأي انسحاب؟ قال المارينز الثاني. لا مكان نذهب إليه. ووافق المارينز الثالث على ذلك: نحن موتى. سوف نرتاح مثل الموتى، قال المارينز الأول. مهمتنا أن نموت.

ألقيت عقب سيجارتي. أنتم لم تموتوا بعد. ينبغي عليكم الرجوع إلى مواقعكم. ركّز المارينز الأول نظره مرة أخرى على وجهي، واقترب مني حتى كاد أنفه يلامس أنفي.

- من أنتم؟

- لقد تركتم مواقعكم، أيها الملازم! صاح بون.

- سوف أخبرك من أنتم. دفع المارينز إصبعه في صدري.

- لا تقل ذلك، قلت.

- إنه جبان! صاح. وضحك الآخران ورددا كلامه. جبان!

سحبتُ مسدسي ووضعت فوهته بين عيني المارينز. ومن خلفه، تلمّس أصدقاؤه بنادقهم بعصبية لكنهم لم يفعلوا شيئاً. كانوا ثملين، لكن ليس بالقدر الذي يكفي للتفكير بالانسحاب من أصدقائي الذين لم يلعب الشراب برؤوسهم.

- أنتم سكارى، أليس كذلك، أيها الملازم؟ ورغم إرادتي كان صوتي يرتعش.

- نعم، قال المارينز. يا سيدي.

- إذن لن أطلق النار عليك.

في ذلك الوقت، بإزاء ارتياحي الشديد، سمعنا أولى القنابل تسقط. واتجهت الرؤوس إلى جهة الانفجار، الذي تبعه انفجارٌ آخر ثم آخر، إلى الشمال الغربي. إنه المطار، قال بون. قنابل من عيار خمسمائة رطل. واتضح أنه على حق في الحالتين. من مكاننا الآمن، لم نرَ شيئاً خلال لحظات غير أعمدة دخانٍ تتصاعد. ثم بدا كما لو أن كل من لديه سلاحٌ في المدينة كان يهرع من الميادين نحو المطار، والأسلحة الخفيفة تقعقع والمدافع تدمدم، وموجات الدخان واللهب تتصاعد في دواماتٍ نحو السماء. تلك الفوضى جعلت كل المقيمين في الشارع البائس يطلون من نوافذهم ومداخل بيوتهم، فأرجعت مسدسي إلى غمده. وعاد ضباط المارينز إلى رشدهم مثلي بعد ما شاهدوه، وصعدوا إلى سيارتهم الجيب دون أن يتفوهوا بكلمة وانطلقوا مخترقين بعض الدراجات البخارية التي على الشارع حتى وصلوا إلى التقاطع. ثم ضغط السائق على الفرامل فتوقفت الجيب ونزل المارينز مترنحين وبنادقهم بأيديهم، وكانت الانفجارات مستمرة والمواطنون يتدافعون على الأرصفة. وهنا تسارعت نبضات قلبي لما رأيت المارينز ينظرون إلينا تحت الضوء الأصفر لمصباح الشارع، لكن كل ما فعلوه أن صوبوا بنادقهم إلى الأعلى، وكانوا يصرخون كالذئاب وهم يطلقون وابلاً من الرصاص إلى أن فرغت مخازن أسلحتهم. كان قلبي يخفق سريعاً وحباتُ العرق تسيل أسفل ظهري، لكني ابتسمت لأصدقائي وأشعلتُ سيجارة أخرى.

أيها الأغبياء! صاح بون على المواطنين الذين تجمعوا عند مداخل بيوتهم. وأطلق علينا المارينز بعض العبارات النابية قبل أن يرجعوا إلى سيارتهم التي استدارت عند المنعطف، وسرعان ما اختفوا عن الأنظار. ودّعنا مان، وبعدما انطلق بسيارته الجيب، دفعتُ المفاتيح إلى بون. حينذاك توقف القصف وإطلاق النار، وبينما مضى بسيارة الستروين متجهاً إلى شقته راح يشتم ويلعن جنود المارينز طوال الطريق. أما أنا فلزمت الصمت. المرءُ لن يعول كثيراً على المارينز في أمور تتعلق بحسن التصرف والتهذيب حين يجلسون معك إلى طاولة. إنهم يتصرفون بمقتضى الغريزة حين تكون المسألة إما الحياة أو الموت. أما عن الشتائم التي وجهوها لي، فلم تزعجني بقدر ما أزعجتني ردة فعلي إزاءها. كان ينبغي أن أكون معتاداً على تلك الشتائم اللعينة، لكني بشكلٍ أو بآخر لست كذلك.

كانت أمي امرأة ساذجة، وأبي رجل أجنبي، والغرباء والمعارف كانوا يستمتعون بأن يذكروني بهذا منذ طفولتي، يبصقون في وجهي وينعتونني بابن الحرام، مع أنهم أحياناً، على سبيل التغيير، ينادونني بابن الحرام قبل أن يبصقوا عليّ.

الفصل الثاني

حتى الآن ما زال الحارسُ ذو الوجه الطفولي يأتي ليتأكد من وجودي كل يومٍ وينعتني بابن الحرام عندما يرغب في ذلك. لم يكن هذا ليدهشني، رغم أنني كنت أطمح إلى تعامل أفضل من رجالكم، أيها القائد العزيز. أعترف بأن تلك الشتائم تؤذيني. ربما، على سبيل التغيير، كان يمكنه أن يناديني بالهجين أو وضيع الأصل، كما اعتاد بعضهم في الماضي؟ وماذا عن كلمة خلاسي[10] التي يناديني بها بعض الفرنسيين عندما لا ينعتوني بالأوراسي[11]؟ الكلمة الأخيرة تضفي رونقاً رومانسياً وهي تأتي على لسان الأمريكان لكنها لا تحقق شيئاً مع الفرنسيين أنفسهم. كنت أراهم بين الحين والحين يتسكعون في شوارع سايغون، بقايا من نرجسية الاستعمار يصرّون على التشبث بالبلاد حتى بعد زوال إمبراطوريتهم. يلتقون في حانات ومطاعم لوسيركل سبورتف، يحتسون شراب البيرنود ويمضغون شرائح اللحم بالصلصة التترية ويجترّون ذكريات ما حدث لهم في ميادين سايغون التي يعطونها أسماءهم الفرنسية القديمة، لاغرانديز، السوم، شارنير. إنهم يفرضون على السكان المحليين التعاون معهم بغطرسة، وحين أقترب منهم يرمقونني بعيون ملؤها الريبة كأنهم حراس الحدود يتفحصون جوازات السفر.

لكنهم ليسوا الذين ابتكروا تسمية الأوراسي. تلك الأقاويل تعود للإنكليز المقيمين في الهند، الذين وجدوا من المستحيل أن لا ينتقدوا الشوكولاته السوداء. مثل أولئك الإنكليز ذوي الخوذ المصنوعة من النسيج الإسفنجي، لم تتمكن القوات الأمريكية الاستكشافية في الباسيفيكي من مقاومة إغراءات السكان المحليين. هم أيضاً ابتكروا كلمة منحوتة لوصف العرق الذي أنتمي إليه، اميراسيان[12]. رغم هذا الخطأ في التسمية التي يطلقونها عليّ،

لكني لا ألوم الأمريكان إذا ما اعتبروني واحداً منهم، لأن أمة صغيرة بالإمكان أن تنشأ من سلالة استوائية نشأت مما يعرف اختصاره في أمريكا بـ GI، وهذا يعني مسألة حكومية، كما هي الحال مع الاميراسيان. الناس في بلادنا يفضلون العبارات ذات المعاني اللطيفة على المختصرات، فهم يسمون الأشخاص من أمثالي غبار الحياة. من الناحية الفنية البحتة، كشف قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية الذي اطلعت عليه في الغرب أنني يمكن أن أدعى «طفلاً طبيعياً»، بينما القانون في كل بلدان العالم التي أعرفها يرحب بي رغم أنني لست الابن الشرعي له. أمي كانت تسمّيني ابن غرامها، لكني لا أحب التطرق إلى هذا الآن. في النهاية، أبي فعل الصواب. لم يعطني أي اسم.

لا تعجب إذن من لجوئي إلى الجنرال، فهو يشبه صديقيّ مان وبون، أبداً لم يحتقر أصولي المختلطة. بعد أن اختارني للعمل معه، قال الجنرال، الشيء الوحيد الذي يعنيني هو مدى كفاءتك في عملك، حتى إذا كانت الأشياء التي أطلبها منك سيئة. وأثبتُّ كفاءتي أكثر من مرة؛ كانت عملية الإخلاء مجرد العرض الأخير لقدراتي على الإبداع في تلمّس الخيط الرفيع بين ما هو قانوني وما هو غير قانوني. الأشخاص تم اختيارهم بعناية، والحافلات متوفرة، والأكثر أهمية أن الرشاوى التي تعطى في مقابل العبور الآمن استُلمت. لقد دفعتُ الرشاوى من حقيبة مليئة بعشرة آلاف دولار أخذتها من الجنرال، الذي أخذها بدوره من المدام. إنه مبلغٌ استثنائي، قالت لي بينما كنت أشرب العصير في صالونها. إنه زمنٌ استثنائي، قلت. وهي صفقة إجمالية لنقل اثنين وتسعين شخصاً سوف يتم إخلاؤهم. لم تستطع الرفض لأن أي شخصٍ يضع أذنيه على قضبان السكة الحديدية في المدينة لا بد أن يسمع الشائعات. المشكلة أن قيمة التأشيرات، وجوازات السفر والمقاعد على طائرات الإخلاء تصل إلى آلاف الدولارات، اعتماداً على الصفقة التي يختارها المرء ومدى صعوبة موقفه أو المأزق الذي هو فيه. لكن قبل أن تتمكن من دفع الرشوة، عليك الوصول أولاً إلى متآمرين على استعداد للقبول بالعرض. في حالتنا نحن، كان الحل الذي اقترحته يتمثل في رائدٍ بدين تعرفت عليه في نادي بنكنايت على شارع نغوين هيو. سمعته يوماً يصيح بأعلى صوته الذي تشوش عليه الدمدمة المخدرة لقنوات التلفزيون أو موسيقى البوب لفرقة ابتايت، وعلمت فيما بعد أنه ضابط مناوب في المطار. في مقابل مبلغ متواضع نسبياً لا يتجاوز ألف دولار، أعطاني أسماء حراس المطار الذين سوف يؤمنون لنا المغادرة، وعنوان الضابط المسؤول عنهم.

بعد ترتيب هذه الأمور ذهبت مع بون لإحضار زوجته وطفلهما، تجمعنا استعداداً للرحيل في الساعة السابعة. وجدنا حافلتين لونهما أزرق تنتظران خارج بوابات القصر، ورأينا النوافذ تغطيها شبكات من الأسلاك خشية أن يقذف عليها الإرهابيون قنابل يدوية، أما إذا كانت المقذوفات من الصواريخ ففي هذه الحالة ليس للمرء إلا الصلاة. وجدنا هناك عائلات تنتظر متلهفة في باحة القصر بينما وقفت المدام على مدرجات المدخل مع حاشيتها وخدمها. وجلس أولادها المتجهمون في المقاعد الخلفية لسيارة السيتروين، على محياهم نظرات بليدة وإيحاءات دبلوماسية وهم يراقبون كلود والجنرال يدخنان أمام أضواء السيارة. ناديت الرجال وعائلاتهم، وقائمة المسافرين في يدي، وطلبت منهم الاقتراب، ودققت أسماءهم ووجهتهم إلى الحافلات التي سوف تقلهم. وحسب التوجيهات، كل رجل بالغ أو مراهق لم يكن يحمل معه أكثر من حقيبة صغيرة أو كيس، مع بعض الأطفال يمسكون أغطية خفيفة أو دمى، وجوههم متجهمة، وعلى شفاههم تكشيرة استهجان وتعصب. وقف بون في آخر الصف، يمسك لينه من مرفقها، وهي تمسك يد دوك. كان ابنه يبلغ من العمر ما يكفي للمشي بلا وجل، ويده الأخرى مكوّرة حول لعبة اليويو13 الصفراء التي جلبتها له كتذكار من الولايات المتحدة. حييت الصبي، وكان مقطب الجبين مهموماً، توقف ليحرر يده عن يد أمه وردّ على تحيتي. الجميع هنا، قلت للجنرال. إذن حان وقت الرحيل، قال، وسحق سيجارته تحت قدمه.

آخر واجب كان يتعين على الجنرال القيام به أن يودع كبير الخدم، والطاهي، ومدبرة المنزل، وثلاث خادمات للأولاد يغطي النمش وجوههن. البعض منهم سبق أن قدم التماساً ليؤخذ مع المغادرين، غير أن المدام كانت حازمة في الرفض، فهي على قناعة مسبقة أنها أبدت ما يكفي من الكرم مع ضباط الجنرال. وكانت على حق، بطبيعة الحال. إنني أعرف على الأقل أحد الجنرالات، بعد أن خصصت بعض المقاعد لمرافقيه، باعها إلى من دفعوا له أكثر. والآن المدام وحاشيتها كانوا ينتحبون، باستثناء شيخهم رئيس الخدم الذي ربط عقدة أرجوانية عريضة الطرفين حول رقبته الغليظة. لقد عمل الرجل في القصر منذ زمنٍ طويل عندما كان الجنرال مجرد ملازم، أثناء حكم الفرنسيين، وتحديداً مع موسم الجحيم في ديان بيان فو14. لأنه وقف أسفل الدرجات، لم يتمكن الجنرال من تحمل نظرات الرجل العجوز. إنني آسف، قال، ورأسه الحاسر منحن، والبيرية بيده. إنها المرة الوحيدة التي سمعته فيها يعتذر لأحدٍ غير المدام. أنت خدمتنا بكل إخلاص، لكننا لم

نخدمك كما ينبغي. لا أحد منكم سوف يصاب بالأذى. خذ ما شئت من القصر، ثم ارحل. إذا سألك أحدهم، عليك أن تنكر أنك تعرفني ولا تقل إنك كنت تعمل لديّ. بالنسبة إليّ، أقسم لكم الآن، أنني لن أتخلى عن القتال من أجل بلادي! بدأ الجنرال يبكي، فأعطيته منديلي. في لحظات الصمت التي أعقبت ذلك، قال كبيرُ الخدم، لا أطلب غير شيءٍ واحد، يا سيدي. وما هو، يا صديقي؟ مسدسك، لكي أنتحر! هز الجنرال رأسه ومسح عينيه بمنديلي. لن تفعل ذلك. ارجع إلى بيتك وانتظر عودتي. عندئذ سوف أعطيك مسدساً. وحين حاول كبير الخدم أن يؤدي التحية، مدّ الجنرال له يده بدلاً من ذلك. مهما تكن الأشياء التي يقولها الناس عن الجنرال اليوم، يمكنني فقط أن أشهد على نزاهته وإيمانه بكل الأشياء التي يقولها، وإن كان كاذباً، فهو لا يختلف عن معظم الناس.

أعطت المدام كلّ واحد من الخدم مغلفاً يحتوي على كمية من الدولارات، سمكها يتناسب مع مقام كل منهم. وأرجع الجنرال المنديل لي ورافق المدام إلى السيتروين. خلال هذه الرحلة الأخيرة، تولى الجنرال القيادة بنفسه وأمسك بالمقود المغلف بالجلد وتحرك أمام الحافلتين متجهاً إلى المطار. سوف أتولى أمر الحافلة الثانية، قال كلود. اصعد أنت مع الحافلة الأولى، وتأكد من أن السائق لن يضيّع الطريق. وقبل أن أصعد، توقفت عند البوابات لألقي نظرة أخيرة على القصر، وكأنه قد عاد بلمسةٍ سحرية إلى زمن أصحابه الكورسيكيين الذين كانوا يملكون مزرعة للمطاط. رأيت شجرة تمر الهند القديمة تطل من فوق الإفريز، أغصانها الطويلة الخانعة تحمل فاكهتها الحامضة التي تتدلى كأنها أصابع الموتى. كان العاملون في القصر منذ زمنٍ طويل يقفون عند الواجهة في أعلى السلم. وعندما لوّحت لهم مودعاً، حركوا أيديهم بإذعان رداً على تحيتي، وبأيديهم الأخرى تلك المغلفات البيضاء التي أصبحت، على ضوء القمر، بطاقات رحلة إلى المجهول.

***

الطريق من القصر إلى المطار غير معقد أبداً مثل أي شيء في سايغون، وهذا لا يختلف عن القول إنه ليس غير معقد. على المرء أن ينعطف فوراً إلى اليمين بعد الخروج من البوابات، مخترقاً شارع ثاي كزوان، ومن ثم يساراً نحو لو فان كوايت، ويميناً نحو هونغ ثاب تو باتجاه السفارات، ويساراً على جادة باستور، ثم يساراً أيضاً إلى نغوين دينه شيو، ويميناً إلى كونغ لأي، ومن هناك مباشرة إلى المطار. لكن بدلاً من أن نسلك الطريق

الأيسر إلى لو فان كوايت، انعطف الجنرال يميناً. لقد أخطأ في الاتجاه، قال سائقي. كانت أصابعه ملطخة بالنيكوتين الأصفر والأظافر حادة تنذر بالخطر. اتبعه فقط، قلت. وقفتُ عند المدخل وقتاً كافياً، والأبواب مفتوحة على مصراعيها للسماح لهواء الليل بالدخول. على الكرسي الخلفي جلس بون ولينه، بينما انحنى دوك على حضن أمه لينظر من فوق كتفي. كانت الشوارع خالية من المارة بسبب ما سمعناه في الراديو، حظر للتجوال لمدة 24 ساعة بسبب الإضراب الذي في المطار. والأرصفة تكاد تكون خالية أيضاً، لا تلمح عليها غير بدلات عسكرية تخلى عنها الهاربون. في بعض الأحيان، ترى التجهيزات في كومةٍ صغيرة مرتبة، والخوذة تتربع على البلوزة المطوية والحذاء العسكري تحت البنطلون، كما لو أن سلاحاً بالأشعة جعل صاحبها يتبخر. في مدينةٍ لا شيء فيها يُلقى في القمامة، لم يلمس أحد هذه التجهيزات.

كانت حافلتي تقل عدداً من الجنود بملابس مدنية للتمويه، مع أن الباقين من العائلة الكبيرة للجنرال وأبناء عمومته أغلبهم من النساء والأطفال. هؤلاء المسافرون كانوا يتمتمون بينهم وبين أنفسهم، يشتكون من هذا الشيء أو ذاك، لكني تجاهلتهم. حتى إذا وجدوا أنفسهم في الجنة، لا بد أن يختلق الفيتناميون مناسبة للتذمر قائلين إنها ليست دافئة مثل الجحيم. لماذا يسلك هذا الطريق؟ قال السائق. هناك حظر للتجوال! سوف نُصاب جميعاً، أو على الأقل نعتقل. تنهد بون وهز رأسه. إنه الجنرال، قال، كما لو أن ذلك يفسّر كل شيء، وهذا ما حدث فعلاً. رغم ذلك استمر السائق في الشكوى ونحن نجتاز السوق المركزي وننعطف إلى لو لوي، ولم يتوقف حتى توقفت سيارة الجنرال أخيراً عند ميدان لام سون. أمامنا مباشرة رأينا الواجهة الإغريقية للجمعية الوطنية، والتي كانت في السابق داراً للأوبرا في المدينة. من هنا كان سياسيونا يديرون المشهد الهزلي الذي يستخف بمواطني بلادنا مثل مغنيات الأوبرا البدينات بملابسهن البيضاء اللواتي يأنفن من البدلات العسكرية. مددتُ رأسي ونظرت، فرأيت نوافذ البار تسطع بالأضواء في الطابق الأعلى لفندق كارافيل، هناك كثيراً ما رافقتُ الجنرال لتناول المقبلات وإجراء لقاءات مع الصحفيين. تلك الشرفات توفر منظراً لا مثيل له لسايغون وضواحيها، ومن هناك سمعت قهقهات خافتة. لا بد أنهم الصحفيون الأجانب، يقيسون نبض الشارع أو درجة حرارة المدينة في صراعها الأخير مع الموت، إضافة إلى الملحقين العسكريين لدول عدم الانحياز، يراقبون حريق مخزن الذخيرة في لونغ بينه والنار تتصاعد منه لتغطي الأفق بينما تزحف

ألسنة الدخان في الليل مثل أفكار ضائعة.

أحسستُ برغبة لأن أطلق الرصاص باتجاه الضاحكين، لكي أحييهم وأبعث الحماس أكثر في أمسيتهم. عندما ترجل الجنرال من السيارة، تصورت أنه كان يتبع الحافز نفسه، لكنه استدار في الاتجاه المعاكس، بعيداً عن الجمعية الوطنية وتوجه نحو النصب التذكاري الضخم وسط ميدان لو لوي المعشوشب. ندمت لأني أبقيت كاميرتي الكوداك في كيس أمتعتي بدلاً من وضعها في جيبي، لأني أردت آنذاك أن ألتقط صورة للجنرال وهو يؤدي التحية إلى جنديين من المارينز على شكل نصبٍ تذكاري هائل وهما يتوثبان للقتال، البطل الذي في المؤخرة كأنه يبدي اهتماماً مريباً بمؤخرة رفيقه. وبينما أدى بون التحية أيضاً للنصب التذكاري، مع الرجال الذين في الحافلة، كل ما فكرت فيه ما إذا كان هؤلاء المارينز يحمون الناس الذين يجوبون الشوارع القريبة في ذلك اليوم المشمس، أم كانوا، وهذا شيءٌ محتمل، ينوون اقتحام الجمعية الوطنية التي يصوبون إليها بنادقهم. ولأن أحدهم كان يبكي في الحافلة، ولأني كنت أؤدي التحية، أذهلني أن المعنى الذي يوحي به النصب التذكاري ليس بهذا الغموض. لقد قصفت قواتنا الجوية القصر الرئاسي، وجيشنا أطلق النار وطعن حتى الموت أول رئيس لنا مع أخيه، وجنرالاتنا المتخاصمون شكلوا ميليشيات أكثر مما أستطيع أن أحصيها يطمحون من خلالها للاستيلاء على السلطة. بعد محاولة الانقلاب العاشرة، تقبلتُ الحالة العبثية لدولتنا في مزيجٍ من اليأس والغضب، مع نفحة من المرح، كوكتيل تحت تأثيره تجددت التزاماتي الثورية.

لما انتهى الجنرال من تلك المراسم، عاد إلى سيارة السيتروين، وانطلق الموكب من جديد، عابراً تقاطع تودو الذي تسير فيه السيارات باتجاه واحد دخولاً وخروجاً من الميدان. ألقيت نظرة أخيرة على مقهى جيفرال، حيث سبق أن استمتعت بمذاق المثلجات الفرنسية بنكهة الفانيلا في مواعيدي مع فتيات سايغون الجميلات وعماتهن ووصيفاتهن اللواتي يشبهن المومياوات. وراء المقهى هناك مطعم برودار، حيث سبق أن شذبت ذوقي بتناول المقبلات الشهية، بينما كنت أسعى لتجاوز صفوف الفقراء والمتسكعين وهم يقفزون ويعرجون هنا وهناك. أولئك الذين جعلوا أيديهم أطباقاً تتلقى الصدقات، الذين يفتقرون إلى أيادٍ يمسكون بها العصا فيستعيضون عن ذلك بأسنانهم، من معوقي الحرب أو مبتوري الأطراف يرفرفون بأكمام فارغة كأنهم طيور عاجزة عن الطيران، وشحاذين

معمّرين فقدوا القدرة على النطق يثبتون عيوناً كعيون الكوبرا عليك، ومشردي الشوارع كقنافذ البحر يحكون قصصاً لا يمكن أن تصدق عن حياتهم البائسة، وأرامل شابات يهدهدن أطفالاً ممغوصين حديثي الولادة ربما استأجرنهن، ومعوقين ومشلولين من مختلف الأجناس يستعرضون كل ما يمكن تخيله من الأمراض والعلل الشنيعة. وفي مكانٍ بعيد إلى الشمال على شارع تودو هناك نادٍ ليلي للقمار حيث كنت أمضي الأمسيات أرقص التشاتشا مع شابات تنوراتهن قصيرة على آخر صيحات الموضة وأحذيتهن عالية الكعب تلوي العمود الفقري. هذا الشارع كان يصطحب إليه الفرنسيون المتعجرفون عشيقاتهم المبهرجات، وتبعهم الأمريكان الأكثر كياسة يجوبون الشوارع ويقضون أوقاتهم في حانات قذرة كأنهم في سان فرانسيسكو، أو نيويورك، أو تينيسي، أسماؤها مضاءة بالنيون، ومسجلاتهم تزعجنا بموسيقاهم المحلية. أولئك الذين يشعرون بوخزة من تأنيب الضمير في نهاية أمسيات العربدة ويترنحون باتجاه الشمال نحو كنيسة مشيدة بالآجر الأحمر في نهاية شارع تودو، المكان نفسه الذي قادنا إليه الجنرال مروراً بطريق هاي با ترنغ. قبالة مدخل الكنيسة يشمخ تمثالٌ أبيض لسيدتنا، يداها مفتوحتان للسلام والمغفرة، ونظراتها كسيرة تتجرع المرارة. هي وابنها على استعداد للترحيب بكل الخاطئين في تودو، بينما يرفض الخاطئون المتزمتون والكهنة - وأبي واحدٌ منهم - توبتي ويحتقرونني في أكثر الأحيان. تلك هي حال الكنيسة التي جعلتني أطلب من مان اللقاء هناك لإنجاز أعمالنا السرية، وكلانا يستمتع بمذاق المهزلة بأن يُحسب من الورعين. كنا نركع ولكننا في الواقع من الملحدين الذين يفضلون الشيوعية على الدين.

اعتدنا أن نلتقي في ظهيرة كل أربعاء، والكنيسة فارغة إلا من بعض الأرامل بوجوههن العبوسة، ورؤوسهن تغطيها أوشحة مزركشة أو تلفيعات سوداء يرتلن «أبانا الذي في السموات، تبارك اسمك...» لم أكن أصلي، لكن لساني لم يتوقف عن التمتمة مع كلمات العجائز. إنهن قويات الشكيمة بشكل عجيب مثل جنود المشاة، يجلسن بهدوءٍ وسكينة في قداسات نهاية الأسبوع حيث تكتظ الكنيسة بالضعفاء والكبار في السن الذين يُغشى عليهم أحياناً من شدة الحرارة. الناس هنا فقراء جداً فلا يتمكنون من تأمين مكيفات الهواء، لكن ضربات الشمس ببساطة طريقة أخرى للتعبير عن الثبات على الإيمان. من الصعب العثور على كاثوليكيين أكثر تقوى من هؤلاء الموجودين في سايغون، أغلبهم مثل أمي وأنا نفسي، سبق لهم على الأقل أن هربوا مرة من الشيوعيين في 1954

(كنت في التاسعة فلا رأي لي في المسألة). كان اللقاءُ في الكنيسة يُفرح مان، فهو كاثوليكي سابق مثلي. وبينما كنا نتظاهر بأننا من الضباط الورعين الذين لا يكتفون بالقداس الأسبوعي، كنت أعترف له بإخفاقاتي السياسية وعلى المستوى الشخصي. وهو يؤدي بإخلاص دور الكاهن الذي يتلقى الاعتراف، ويهمس لي بكلمات الغفران على شكل توجيهات بدلاً من الصلوات.

أمريكا؟ قلت.

نعم أمريكا، قال مؤكداً.

أخبرته بشأن خطة الجنرال للإخلاء حالما علمت بها، وفي يوم الأربعاء الماضي في الكنيسة أبلغني بمهمتي الجديدة. هذه المهمة أوكلت بي من قبل رؤسائه، لكني لا أعرف من هم. من الأفضل من الناحية الأمنية أن تجري الأمور هكذا. إنه النظام الذي نتبعه منذ أيامنا في لايسي، وكنا نسلك طرقاً ملتوية خوفاً من جماعة التثقيف السياسي بينما يتابع بون السير على طريقته التقليدية. كانت جماعة التثقيف من بنات أفكار مان، وهي خلية تضم ثلاثة رجال، هو واحد منهم، وأنا، وزميل آخر. مان كان المرشد لنا في قراءة الأعمال الكلاسيكية الثورية ويعلمنا عقائد وأيديولوجية الحزب. في ذلك الوقت علمت بأن مان كان جزءاً من خلية سرية أخرى يشكل فيها عضواً ثانوياً، رغم أن هويات أعضائها الآخرين بقيت من الأسرار التي لا أعرفها. السرية والتسلسل الهرمي هما مفتاح نجاح الثورة. وهناك لجنة عليا تشرف على نشاطاته، كما قال مان، من شخصيات ملتزمة. وفوقها لجنة أخرى من شخصيات أكثر التزاماً، وفوقها لجنة أخرى، وهكذا إلى أن نصل على ما يبدو إلى العم هوشي نفسه، على الأقل عندما كان على قيد الحياة، الرجل الأكثر التزاماً في البلاد، الذي يؤكد على أن «لا شيء أكثر قيمة من الاستقلال والحرية». هذه الكلمات كنا على استعداد للموت من أجلها. هذه اللغة، فضلاً عن مناقشات تجري وسط جماعات التثقيف، واللجان والأحزاب، سرعان ما انتقلت إلى مان. لقد ورث الجينات الثورية من العم العظيم الذي اضطهده الفرنسيون وأجبروه على الخدمة في أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى. ثم عمل حفاراً للقبور، وليس من شيءٍ يمكن أن يحرّك وجدان الإنسان المقهور الخاضع للمستعمر أكثر من رؤية جثث الرجال البيض وهم عرايا، يقول العم العظيم، أو هكذا أخبرني مان. لقد دس يديه في أحشائهم المخملية النحيفة، وتفحص

ملياً ارتياعهم المخزي، وتقيأ وهو يرى أدمغتهم تسيل كالبيض الفاسد. هكذا دفن آلاف الشبان الشجعان، الذين خدعتهم شراك العنكبوت والكلام المعسول وقصائد بطولية ينسجها سياسيون مراوغون عن مآثرهم، يراد منها استيعاب أن فرنسا بذلت ما بوسعها من أجل ترابها، وتسرّب كل هذا ببطء في خلايا وعيه. وأرسلت الإعانات إلى الهند الصينية15، مما أتاح لفرنسا أن تقحم بيروقراطييها الاستعمارية وتتنمر على من هم أضعف منها، في مباراة شطرنج غير متكافئة، برز على أثرها المغمورون، إداريون ومحاسبون لم يتلقوا ما يكفي من التعليم، يكتفون بمراقبة خجولة للمشهد دون مشاركة فاعلة فيه، من الذين عينهم العم العظيم الآن في موطنهم الأصلي وبقوا على حالهم من المنبوذين الخاسرين. هؤلاء المنبوذون، من سقط المتاع، كما كان يقول عنهم بانفعال، من الناس الذين علمونا النظر إليهم على أنهم من أنصاف الآلهة؟ لقد تعززت نظرته المتطرفة في مناهضة الاستعمار عندما وقع في حب ممرضة فرنسية، تروتسكية الأفكار أقنعته بالانضمام إلى الشيوعيين الفرنسيين، الجهة الوحيدة التي تمنح جواباً مقبولاً لقضية الهند الصينية. بالنسبة إليها كان يتجرع مرارة المنفى. وفيما بعد رزق هو والممرضة بابنة، وأعطاني مان ذات يوم قصاصة ورق وهمس قائلاً إنها لا تزال هناك، أي عمته. على قصاصة الورق كتب اسمها وعنوانها في الدائرة الثالثة عشرة من باريس، هذه الرفيقة المجهولة التي تعيش بعيداً لم يسبق أن انضمت إلى الحزب الشيوعي، ومن غير المحتمل أن تتعرض للمراقبة. إنني أشك في أنك ستتمكن من إرسال الرسائل إلى الوطن، لذلك فهي ستكون بمثابة الوسيط. إنها تعمل خياطة ولديها ثلاث قطط سيامية، وليس عندها أطفال، ولا ارتباطات مريبة. سوف ترسل رسائلك على ذلك العنوان.

بينما كنت أمسك تلك القصاصة تذكرتُ المشهد الذي حضرته، عندما رفضت الصعود إلى طائرة كلود بينما الجنرال يتوسل بي يائساً أن أغادر معه. أريد أن أبقى، قلت. انتهى الأمر تقريباً. من خلف أيادينا التي تتصافح، كان مان يتنهد. يكاد يكون الأمر منتهياً؟ مملكة تأتي، وأخرى ينتهي أمرها. جنرالك ليس الوحيد الذي يخطط للاستمرار بالقتال. المحاربون القدامى لا ينتهون. الحرب سوف تستمر طويلاً بالنسبة إليهم ولن يتوقفوا ببساطة. نحن نحتاج إلى شخص يُبقي عينيه عليهم ونتأكد من أنهم لن يتورطوا في المتاعب. ما الذي يحدث إذا لم أذهب؟ سألت. رفع مان عينيه نحو أيقونة المسيح المحفورة بملامح أوروبية، المسيح المعلق على الصليب العالي فوق المذبح، والمئزر الكاذب

يلتفّ حول خصره، علماً أن المسيح حسب كل الاحتمالات مات عارياً. التكشيرة على وجه مان كشفت عن أسنان ناصعة البياض في مكانٍ كل شيء فيه من العاج المُصفر بمرور السنين أو أسود كالخنفساء. سوف تؤدي عملاً أفضل هناك مما لو بقيت هنا، هذا الرجل ابن طبيب الأسنان قال ذلك. إذا لم تفعل هذا من أجل نفسك، افعلها من أجل بون. لن يذهب إذا تصور أننا سنبقى. على كل حال، أنت تريد الذهاب فعلاً. اعترف بالأمر!

هل أجرؤ على الاعتراف؟ هل أجرؤ على ذلك؟ أمريكا، أرض الأسواق التجارية الكبرى والطرقات السريعة، بلاد الطائرات ذات المحركات النفاثة الأسرع من الصوت، بلاد سوبرمان، والملاعب الكبرى، والقباب الشامخة! أمريكا، بلاد لا تقتنع ببساطة بأن تعطي نفسها اسماً صريحاً في عيد ميلادها الدموي، لكنها تصرّ على حمل الاسم الأول في التاريخ الذي يتكون من حروف مختصرة غامضة USA، ويا لها من توليفة مذهلة لحروفٍ فقدت بريقها لاحقاً مع ابتكار أربعة حروفٍ أخرى USSR! مع أن كل البلدان تتصور أنها متفوقة بطريقتها الخاصة، فهل من بلدٍ يصوغ مصطلحات توحي بالتفوق يستمدها من البنك الفدرالي لنرجسيته، ولا يكتفي بالثقة المفرطة في النفس، ويا لها من قدرة فائقة، إلى أن يخضع كل بلد في العالم لإرادته ويجعلهم يهتفون باسم العم سام؟ لا بأس، أعترف بهذا! قلت. اعترف. ضحك وقال، اعتبر نفسك محظوظاً. لم يسبق لي شخصياً أن تركت أرضنا الجميلة. محظوظ، أنا؟ على الأقل أنت تشعر بأنك في موطنك هنا. الوطن لا يقدر بثمن، قال. من السهل عليه قول ذلك، فأبوه وأمه يعيشان عيشة راضية، بينما ينظر أشقاؤه إلى الناحية الأخرى حين يتعلق الأمر بميوله الثورية. هذا شيءٌ مألوف بما يكفي فهناك الكثير من العائلات مشتتة ومنقسمة على نفسها، البعضُ يقاتل مع الشمال والآخر مع الجنوب، وآخرون يقاتلون من أجل الشيوعية وغيرهم من أجل القومية. ومع ذلك، بصرف النظر عن الانقسامات، الجميع يعتبرون أنفسهم وطنيين يقاتلون من أجل بلادهم. حين ذكرته بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان، قال، أنت لا تنتمي إلى أمريكا أيضاً. قلت، ربما. لكنني لم أولد هناك، وإنما ولدت هنا.

خارج الكنيسة، ودع أحدنا الآخر الوداع الحقيقي، وليس الوداع المدبر مع بون. سوف أترك لك أشرطتي المسجلة وكتبي، قلت. أعرف أنك كنت دائماً تحبها. قال، شكراً، وضغط على يدي بقوة. أتمنى لك حظاً سعيداً. متى يمكنني العودة إلى الوطن من جديد؟

سألت. رمقني بنظرة فيها الكثير من التعاطف، وقال، يا صديقي، إنني رجل مُخرّب ولست عرافاً. موعد عودتك يعتمد على ما يخطط له جنرالك. ولأن الجنرال زار الكنيسة، بالإمكان توقع الخطط التي ينوي القيام بها إلى جانب الهرب من البلاد. أتصور أن ذهنه منشغل بأشياء أهم من الكلمات التافهة المكتوبة على الرايات التي تحيط بالقصر الرئاسي، والتي دمرها أحد الطيارين المنشقين في وقتٍ سابق من هذا الشهر. لا مكان للشيوعيين! لن يبقى الشيوعيون في الجنوب! لا لحكومة التحالف! لا مفاوضات! رأيتُ أحد الحراس يقف متسمّراً كالوتد على أهبة الاستعداد تحت سقيفته، لكن قبل وصولنا إلى القصر، أشفق علينا الجنرال وأمر أخيراً بالتوجه إلى المطار فاستدرنا إلى اليمين نحو جادة باستور. من مكانٍ بعيد جداً، سمعنا إطلاقات بندقية رشاشة في رشقات متقطعة. ثم دمدم مدفع هاون بصوت مكتوم، فتشبث دوك بذراعي أمه وراح يبكي. اهدأ، يا عزيزي، قالت. نحن ذاهبون في رحلة قصيرة فقط. ومسّد بون على شعره الناعم وقال، ترى هل نرى هذه الشوارع مرة أخرى؟ قلت، علينا أن نؤمن بأننا سنراها مرة أخرى، أليس كذلك؟

وضع بون ذراعه على كتفي والتففنا معاً في عمود السلم، وأخرجنا رؤوسنا من الباب ورفعنا أيدينا بينما كانت الشقق السكنية الكئيبة تمر بنا، والأضواء وعيون مبحلقة من خلف الستائر والدرفات. واجهنا بأنوفنا الريح، واستنشقنا أنواع الروائح، دخان الفحم وأريج الياسمين، وفواكه متعفنة ويوكالبتوس، والغازولين والأمونيا، تيار متدفق من بالوعات ومجاري المدينة الطافحة. ولدى اقترابنا من المطار، لاح لنا صليبٌ مبهم لطائرة تدوّي فوق رؤوسنا، والأضواء مطفأة في كل مكان. عند البوابات شاهدنا لفائف سميكة من الأسلاك الشائكة المتراخية كأنها أصيبت بالإحباط في منتصف العمر. خلف الأسلاك وقفت مفرزة من رجال الشرطة العسكرية المتجهمين مع ضابط برتبة ملازم يقودهم، والبنادق بأيديهم والهراوات تتدلى من أحزمتهم. انقبض صدري عندما اقترب الملازم من سيارة السيتروين التي فيها الجنرال، وانحنى على نافذة السائق ليتبادل معه بضع كلمات، ثم نظر باتجاهي حيث كنت أقف منحنياً خارج الحافلة. كنت في الفترة الأخيرة أتولى مراقبته حسب المعلومات التي أعطاها لي الرائد البدين، وعلمتُ أنه يسكن في أحد الأحياء الفقيرة على جانب القناة مع زوجته وأطفاله الثلاثة ووالديه وحماته، كلهم يعيشون على راتبٍ لا يكاد يسد رمقهم. هذا نموذج حقيقي لحياة الكثير من الضباط

الصغار، لكن واجبي في تلك الظهيرة من الأسبوع الماضي عندما زرته أن أعرف أي نوعٍ من الرجال يعيشون في هذه العشوائيات. وجدته يلبس قميصاً وسروالاً قصيراً ويجلس على حافة سرير خشبي مع زوجته وأطفاله؛ الملازم الذي يكاد يكون عارياً بدا لنظرتي الجانبية كأنه سجين سياسي أُدخل تواً إلى قفص النمر، كان حذراً، وخائفاً بعض الشيء لكنه ليس منكسراً بعد. تريد مني أن أطعن بلادي في الظهر، قال بصوتٍ لا يكاد يسمع، والسيجارة غير المشتعلة التي أعطيتها له ما تزال بيده. تريد أن تدفع لي الرشوة لكي أدع الجبناء والخائنين يهربون. تريد أن أشجع رجالي على أن يفعلوا الشيء نفسه.

لن أستهين بذكائك فأتظاهر أنني أريد شيئاً آخر، قلت. كنت أتكلم في أكثر الوقت مع هيئة المحلفين من الحاضرين: زوجته، ووالديه، ووالديها، الذين جلسوا مقرفصين، أو وقفوا ضمن الحدود الضيقة للكوخ والعرق يتصبب منهم تحت سقف القصدير. الجوع أخذ منهم كل مأخذ وجعلهم هزيلين وعظام خدودهم ناتئة، ذلك النوع من الهزال الذي رأيته على أمي التي عانت كثيراً من أجلي. إنني معجب بك، أيها الملازم، قلت، أنا فعلاً معجب بك. أنت رجل نزيه، ومن الصعب إيجاد رجال شرفاء خصوصاً حين يكون لديهم عائلات تحتاج إلى طعام. أقل شيء يمكنني أن أفعله لمكافئتك أن أعرض عليك ثلاثة آلاف دولار. هذا المبلغ يعادل راتب شهرٍ كامل للفصيل الذي يقوده. وهنا تدخلت زوجته فطلبت عشرة آلاف. وفي النهاية اتفقنا على خمسة، نصفها يدفع حالاً، والنصف الآخر في المطار. وبينما كانت حافلتي تقترب منه انتزع من يدي المغلف الذي فيه النقود، ورأيتُ في عينيه نظرة العميلة الشيوعية التي رمقتني بها حين انتزعتُ قصاصة الورق التي تحمل الأسماء من فمها. ومع أنه كان يستطيع أن يطلق النار عليّ أو يرجعنا إلى المكان الذي جئنا منه، إلا أنه قام بما راهنتُ عليه مع رجلٍ شريف مجبر على أن يأخذ الرشوة. سمح لنا بالعبور، وكان يمسك المغلف الذي يتضمن الجزء الأخير من الصفقة كأنه ورقة التوت التي تحمي شرفه. حوّلت نظري بعيداً عنه لكي أتجنب إذلاله. لو كان - دعوني أنغمس في الموقف للحظة - جيشُ الجنوب كلهم من أمثاله لانتصروا. وكم أتمنى لو أنني بشكل أو بآخر كنت مثله! من الأفضل دائماً الاقتداء بأفضل الرجال من أعدائنا بدلاً من أسوأهم وسط أصدقائنا. ألا تتفق معي، أيها القائد؟

كانت الساعة تشير إلى التاسعة تقريباً عندما دخلنا المطار، مضينا على شوارع

مبلطة جيداً مروراً بثكنات، وأكواخ، ومكاتب غريبة التصاميم ومخازن أنبوبية الشكل، نحو ما يشبه مدينة مصغرة في سايغون لكنها تقع خارجها. هذه المقاطعة شبه المستقلة كانت ذات مرة من أكثر مطارات العالم ازدحاماً، ومنطلقاً لأنواع الغارات القاتلة وغير القاتلة، ومنها تلك التي يشنها سلاح الجو الأمريكي، ورحلات جوية لوكالة الاستخبارات المركزية. كان جنرالاتنا ينقلون عائلاتهم من هنا، بينما يمارس الجنرالات الأمريكان تكتيكاتهم الاستراتيجية في مكاتب أنيقة تكتظ بالأثاث الفولاذي المستورد. الوجهة التي كنا نقصدها مجمع فيه مقر الملحق العسكري. بما يتماشى مع وقاحتهم المعهودة كان الأمريكان يطلقون عليه لقب دودج سيتي، البلدة كلها يحكمها سماسرة الرذيلة وفتيات صالوناتهم اللواتي يرقصن الكانكان، والحال فيها مماثلة كثيراً لما هو موجود هنا في سايغون. لكن بينما يحافظ المأمور هناك على الأمن في دودج الحقيقية، نجد المارينز الأمريكان يشرفون على إخلاء المركز هنا. لم يسبق أن رأيت هذا العدد منهم منذ 1973، عندما كانوا زمراً رثة الثياب، تغادر هذا المطار مدحورة. غير أن هؤلاء الجنود الشباب لم يعرفوا القتال الحقيقي أبداً وجاءوا إلى هذه البلاد منذ أسابيع قليلة. عيونهم منبهرة، وذقونهم حليقة، ولا ترى على أذرعهم أي أثر للوشم أو تتلمس نفحة للماريغوانا في عرقهم وأنفاسهم، يراقبون المكان بتجردٍ بينما كان الركاب ينزلون من الحافلات ويتجمعون في كراج مزدحم مسبقاً بمئات النازحين الذين انهارت أعصابهم من الانتظار. اتجهتُ نحو الجنرال وكلود قرب السيتروين، حيث كان الجنرال يسلم مفاتيح السيارة. سوف أعيدها إليك في الولايات المتحدة، يا سيدي، قال كلود. لا، أترك المفاتيح، قال الجنرال. لا أريد أحداً أن يتلف السيارة وهو يحاول سرقتها، لأنها سوف تسرق على أي حال. تمتع بها ما دمت تستطيع ذلك، كلود.

راح الجنرال يتجول باحثاً عن المدام والأولاد، قلت، ما الذي يحدث هنا؟ إنها فوضى. تنهد كلود. الوضع اعتيادي، الجميع محبطون، يحاولون إخلاء أقاربهم وطباخيهم وصديقاتهم. عليك أن تعتبر نفسك محظوظاً. أعرف ذلك، قلت. أراك في الولايات المتحدة؟ ربّت على كتفي متعاطفاً. مثلما فعل حين استولى الشيوعيون على مقدرات الأمور في سنة 1954، قال. من يتصور أننا سنكون هنا من جديد؟ لكني أخرجتك من الشمال في تلك المرة، وسوف أخرجك الآن من الجنوب. ستكون على ما يرام.

بعد مغادرة كلود، عدتُ إلى الأشخاص الذين سنخليهم. كان هناك جندي من المارينز يحثهم عبر مكبر الصوت على الوقوف في صفٍ منتظم، لكن هذا من الأشياء الغريبة على سكان بلادنا. طريقتنا العادية في مثل هذه المواقف، حين يزداد الطلب ويقل العرض أن يدفع أحدنا الآخر بالمناكب، نتزاحم، نحتشد، نتذمر، فإذا فشلت كل تلك المساعي، نقدم الرشوة، وكلمات المديح، ونبالغ في ذلك ونكذب. لم أكن متأكداً ما إذا كانت هذه النزعات وراثية، أم متأصلة في ثقافتنا، أم أنها ببساطة مؤشرات على تحوّل سريع. لقد أجبرنا الزمنُ على التكيف بعد عشر سنوات من العيش في مستعمرة كأنها فقاعة تنفخها بالدرجة الأساسية المستوردات الأمريكية، ثلاثة عقود من الحروب المستمرة، واقتطاع نصف البلاد في 1954 من قبل مشعوذين أجانب، والفترة اليابانية الوجيزة التي شهدت فراغ العرش أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي القرن الماضي جاء العدوان الفرنسي الغاشم. إلا أن المارينز لم يكترثوا لمثل هذه الأعذار، إحساسهم المحبط أجبر النازحين على الوقوف في الصف. ولما راح المارينز يفتشون بحثاً عن الأسلحة، امتثلنا نحن الضباط بطبيعتنا في احترام النظام وتغاضينا عن أي شيء آخر فأظهرنا مسدساتنا. كنت أحمل مسدساً بائساً عيار 38، يصلح فقط للنشاطات السرية، وللاعبي الروليت الروسي، وللانتحار، بينما بون لديه مسدس عيار 45 شبه أوتوماتيكي، مصمم للإطاحة بمحاربي المورو في الفلبين بإطلاقة واحدة، قلت مخاطباً دوك. لقد عرفت هذا من كلود نفسه؛ كان ذلك من الأسرار التي يعرفها.

الأوراق! قال موظف السفارة بعد انتهاء التفتيش عن الأسلحة، وهو شاب ذو لحية غريبة الشكل تعود إلى القرن التاسع عشر، ويلبس سترة بيجية اللون تصلح لرحلات السفاري. ورفع عن عينيه نظارة ملونة. كان لدى كل عائلة موافقات عبور ووثائق مصدّقة من وزارة الداخلية جلبتها لهم لقاء خصمٍ لا بأس به، إضافة إلى تعهدات رئاسية أحضرها كلود، مختومة من الموظف المسؤول في السفارة. أكدت لنا تلك الوثائق ونحن نقف بامتثالٍ في الصف مع بعض الشخصيات المرموقة، أننا وصلنا إلى نهاية الرحلة قبل الملايين من اليائسين الذين جاءوا من أصقاع الدنيا يسعون لاستنشاق هواء الحرية. حملنا أوراق مواساتنا إلى مدرّجات كأنها ملاعب التنس، حيث وجدنا نازحين آخرين احتلوا المقاعد قبلنا على المدرج المكشوف. انضممنا إلى تلك الأرواح المنهكة التي تسعى لاقتناص لحظاتٍ تغفو بها على الإسمنت الأخضر. كانت مصابيح تعتيمٍ حمراء تلقي وهجاً مريعاً

على الحشود، ووسط الساحة بعض الأمريكان يتوزعون هنا وهناك. ربما كانوا أزواج نساءٍ فيتناميات، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كيف تحيط بكلٍّ منهم عائلة فيتنامية، أو كيف تحتضن كل امرأة فيتنامية ذراع رجل أمريكي. جلستُ مع بون، ولينه، ودوك على فسحة فارغة. في أحد الجوانب، أثار انتباهنا جمعٌ من الفتيات الصاخبات، يلبسن تنورات قصيرة جداً وجوارب كأنها شبكات صيد السمك. وفي مكانٍ آخر رأيتُ رجلاً أمريكياً وزوجته، وأطفالهما، صبي وفتاة عمرهما ربما خمس وست سنوات. الزوج كان يستلقي على ظهره ويضع ساعده القوي على عينيه، الجزء الوحيد من وجهه الذي بدا مرئياً طرفا شاربه الكث الذي يوحي بالفظاظة، وشفتان ورديتان، وأسنان معوجة قليلاً. جلست زوجته وقد وضعت رأسي الطفلين في حجرها، وكانت تمسد بيدها على شعرهم البني. كم مضى عليكم هنا؟ سألتها لينه، وكانت تهدهد دوك النائم بين ذراعيها. كنا هنا طوال النهار، قالت المرأة. كان يوماً فظيعاً، حاراً جداً. لا يوجد شيءٌ للأكل أو للشرب. إنهم ينادون بأرقام الرحلات وليس بأسمائنا. صدرت عن لينه أصوات تعاطف بينما اكتفينا أنا وبون بالجلوس والانتظار كعادة كل العسكريين في أي مكانٍ من العالم.

دخنّا سيجارتين وحوّلنا اهتمامنا إلى السماء المعتمة، بين الحين والحين كانت بعض الشعل الضوئية تهبط بمظلات لتبدد السكون والظلام، رؤوسها المنيرة تترك ذيلاً طويلاً من الدخان يتمايل وهي تنجرف إلى الأسفل. هل أنت مستعد للإدلاء باعتراف؟ قال بون. كان يستخدم كلماتٍ كالرصاص، في رشقات قصيرة يصوبها بدقة. كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي، لكني لم أقل ذلك بصوت مسموع. ذلك نوعٌ من الإنكار، صحيح؟ هززت رأسي وقلت، أنت ارتكبت الخطايا نفسها التي شارك فيها كل شخصٍ في سايغون. كنا جميعاً نعرف لكننا لم نفعل شيئاً، أو هكذا تصورنا، على كل حال. ومع ذلك فأي شيء يمكن أن يحصل في أي وقت. هذا هو معنى الأمل. نظر في تأملٍ واستهجان إلى عقب سيجارته. الأملُ ضعيف، قال. واليأسُ ثقيل، مثل الدم. وأشار إلى الخطوط التي على راحة يده الممسكة بالسيجارة وهي ترسم قوساً لمجرى الحياة. هل تتذكر؟

رفعتُ راحة يدي اليمنى ونظرت إلى خطوطها التي تحاكي الخطوط التي على يد مان.

كنا ننظر إلى هذه الخطوط كلما فتحنا أيدينا لنأخذ زجاجة، أو سيجارة، أو سلاحاً،

أو امرأة. مثل المحاربين في الأساطير، أقسم أحدنا على الموت من أجل الآخر، بعد أن وقعنا في فخ صداقتنا التي تعود لأيام المدرسة، جمعتنا أشياء أبدية رآها كل منا في الآخر: الإخلاص، الأمانة، الالتزام، الاستعداد للوقوف إلى جانب الأصدقاء والتمسك بالمعتقدات، حتى إذا كان بعضها يتعارض مع الآخر. ما الذي كنا نؤمن به ونحن في الرابعة عشرة من العمر؟ مساندة بعضنا بعضاً، الأخوة، بلادنا والاستقلال. لقد آمنا بأن نضحي بأنفسنا إذا تطلب الأمر من أجل الصداقة والوطن، لكننا لم نعرف كيف نلبي حاجة البلاد، ولم نعرف أي مصير ينتظرنا. لم أتوقع أن بون ذات يوم ينضمّ إلى برنامج فوينكس انتقاماً لمقتل أبيه، وأن يكون واجبه قتل الناس الذين يعتبرهم مان وأنا من الرفاق. وبون طيّبُ القلب، المخلص لم يعرف أنني ومان نؤمن سراً بأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ بلادنا أن نصبح من الثوار. نحن الثلاثة اتبعنا معتقداتنا السياسية، فقط للأسباب التي دفعتنا إلى قطع عهد الأخوّة في الدم في المقام الأول. لو أجبرتنا الظروف يوماً على موقفٍ يكون فيه الموت ثمناً لأخوتنا، فلا أشك أن مان وأنا سوف ندفع ذلك الثمن. عهدنا الذي قطعناه على أنفسنا مكتوبٌ على أيدينا، تحت الضوء المرتعش الذي تلقيه شعل المغنيسيوم البعيدة. رفعتُ راحة يدي بالخطوط التي عليها وتتبعتها بإصبعي. دمك دمي، ودمي دمك، قلت، ذلك القسم الذي تعاهدنا عليه منذ أيام المراهقة. ألا تعرف شيئاً غير ذلك؟ قال بون. اليأسُ قاتم، والصداقة أشد مرارة. بعد ذلك، لا شيء يمكن أن يقال، محبة أحدنا للآخر تكفي ونحن نتعقب أزيز صواريخ الكاتيوشا التي تتهافت من بعيد، كأنها نداء موظف مكتبة يطالب فيه الحاضرين بالتزام الصمت.

الفصل الثالث

أشكرك، عزيزي القائد، على الملاحظات التي أعطيتني إياها أنتم والمفوّض16 الحزبي بشأن الاعتراف. سألتموني عما أعنيه بقولي «نحن»، في بعض الأحيان عندما أتكلم عن علاقتي بالجنود الجنوبيين والنازحين الذين أرسلت للتجسس عليهم. لماذا لم أشر إلى هؤلاء، وهم أعدائي، بأن أقول عنهم «هم»؟ أعترف أنني بعد أن أمضيتُ معظم حياتي بينهم لا يمكنني إلا التعاطف معهم، كما أتعاطف مع آخرين غيرهم. نقطة الضعف التي أعاني منها في التعاطف مع الآخرين لها علاقة بحالتي كشخص ابن حرام، رغم أن هذا لا يعني أنه إذا كان المرء ابن حرام فمن الطبيعي أن يتعاطف مع هذا وذاك. هناك الكثيرُ من أبناء الحرام يتصرفون كأبناء حرام فحسب، وأعترف هنا بفضل أمي الحنون في تعليمي فكرة أن إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس ربما كانت سلوكاً يستحق الثناء. على كل حال، لو أنها لم تمزق الروابط التي بين الخادمة والكاهن، أو سمحت لها أن تتمزق، لما جئتُ إلى الدنيا.

بعد أن جئت إلى الدنيا خارج نطاق رابطة الزواج، أعترف بأنني أشعر بالانزعاج من فكرة الزواج. العزوبية من المكاسب غير المتوقعة التي يجنيها الأوغاد، فأغلب العائلات لم تعتبرني مكسباً مهماً. هناك استثناءات أذكر منها فتاة ذات أصول مختلطة، مع أن الفتيات في حالاتٍ مماثلة يحاولن التشبث بسلم الطبقات الاجتماعية من خلال الزواج بشخصٍ من نسبٍ عريق. بينما الأصدقاء والغرباء يتحسّرون على عزوبيتي ويعتبرونها جزءاً من مآسي الأوغاد، لكني أرى أن العزوبية لا تعني فقط الحرية وإنما هي تناسب حياتي العابرة للأقاليم كجاسوسٍ أو جرذ يُحسن الاختباء في الجحور بسهولة إذا تُرك

وحده. العزوبية تعني أيضاً أنني أستطيع الثرثرة دون أن أتعرض للمساءلة وتحمّل تبعات التسكع مع فتيات الشوارع، وهن يستعرضن سيقانهن العاجية الجذابة وسط النازحين ويستخدمن الصحف الشعبية القديمة كمروحات يدوية لتجفيف العرق على صدورهن المكتنزة التي تبدو أكثر ضخامة مع حمالات الصدر التي من ابتكار عصر الذرة. هؤلاء الفتيات يمنحن أنفسهن أسماء من قبيل ميني، فيفي، تيتي وغيرها من الأسماء الشائعة في أوساط الغواني، يشكلن ثالوثاً يكفي لإثارة البهجة في قلبي. لعلهن يخترعن تلك الأسماء في التو واللحظة، وهي تتغير بكل سهولة مع تغير الزبائن. إذا كان الأمر كذلك، فإن تصنعهن ببساطة استجابة بارعة اكتسبت عبر سنواتٍ من الخبرة والمثابرة وممارسة المهنة بإخلاص. كنت أنحني بإجلال للمهنية في أداء الغواني، اللواتي يحملن أوزارهن بأريحية أكثر مما يفعل المحامون، وكلاهما يتقاضى أجره بالساعة. لكن إذا تكلمنا فقط عن الجانب المالي سوف يتشتت الموضوع حتماً ويضيع المغزى. الطريقة الصائبة لوصف عمل فتيات الشوارع والتقرب إليهن أن تكون مثل رواد المسرح، إذ يجلس أحدهم باسترخاء ويتوقف عن التفكير بالمعتقدات طوال مدة العرض. والطريقة غير الصحيحة الإصرار البليد على أن المسرحية لا تعني شيئاً غير مجموعة من الأشخاص يقومون بالتهريج لأنك دفعت ثمن التذكرة، أو، على العكس من ذلك، التصديق التام بحقيقة ما تشاهده ومن هنا الاستسلام لإيحاءات السراب. على سبيل المثال، العقلاء الذين يرفضون بازدراء فكرة وجود وحيد القرن سوف يقرّون بإصرار يرثى له بوجود أنواع من الحيوانات أكثر ندرة، بل وأكثر أسطورية. الواحدة من فتيات الشوارع توجد في المواخير النائية، وأكثر الحانات ظلمة وقذارة، بينما ينبض في صدرها قلبٌ مثالي في النقاء كأنه مصنوع من الذهب. لكن دعوني أؤكد لكم، إذا كان هناك جزءٌ من فتاة الشارع مصنوع من الذهب، فهو ليس قلبها. أما إذا كان هناك شخص يعتقد بغير هذا، فتلك من مزايا الممثل البارع الذي يمتلك ضميراً حياً.

يبدو أن الفتيات الثلاث كن أعضاء في فرقة للتمثيل، وهذا لا يمكن أن يقال عن سبعين أو ثمانين بالمائة من غواني العاصمة والمدن البعيدة المحيطة بها، اللواتي أثبتت الدراسات الرصينة، والدلائل المأخوذة من الحكايات، والعينات العشوائية وجود عشرات وربما مئات الآلاف منهن. أغلبهن فقيرات نزحن من القرى والأرياف، لا يعرفن القراءة والكتابة، أو من أصقاع منكوبة كالتي أشرنا إليها سابقاً. مع مرض الوالدين، وكثرة الإنجاب

وتدهور مستويات التعليم، لا تتوفر لديهن أي فرص للعيش الكريم سوى على نفحات شاب أمريكي ثري في التاسعة عشرة يؤمن بالحلم الأمريكي. جيوب ملابسه حتى الداخلية منها ممتلئة بلفائف من الدولارات ورأسه المراهق متورم بالحمى الصفراء التي تصيب الكثير من الغربيين الذين يأتون إلى بلد آسيوي، هذا الشاب الأمريكي يكتشف بإزاء استغرابه وبهجته أنه في هذا العالم المستباح لم يعد المدعو كلارك كينت[17] مثلاً لكنه صار سوبرمان، على الأقل فيما يتعلق بالنساء. بمساعدة (أم بغزو؟) السوبرمان، بلادنا الصغيرة الخصبة لم تعد تنتج الأرز، والمطاط، والقصدير، بل صارت تنتج محصولاً سنوياً من الغانيات، لم يسبق أن رقصن على أنغام الروك أمام قوّادين وسكارى من رعاة البقر يضربونهن على أردافهن وصدورهن المرتجة وينخسونهن بمهاميز ألسنتهم السليطة. والآن هل أجرؤ على اتهام المخططين الاستراتيجيين الأمريكان بتجريف القرى والأرياف عن قصد وإحراقها كي تضطر فتياتنا اليافعات للخروج وليس أمامهن فرصة للعمل غير إرضاء نزوات الشباب الذين قصفوا، ودمروا، وهاجموا، وأحرقوا، واستباحوا، أو حتى أخلوا بالقوة القرى التي نتكلم عنها؟ أشير هنا فقط إلى أن خلق جيلٍ جديد من الغواني المحليات يعملن على خدمة الجنود الأجانب هو نتيجة محتومة للحرب التي كان هدفها الاحتلال، أو أحد التأثيرات الجانبية الشنيعة التي تتظاهر كل الزوجات، والأخوات، والصديقات، والأمهات، والقساوسة، والسياسيين في برنامج سمالفيل[18]، الولايات المتحدة الأمريكية، بأنهم يتجاهلونها ويخفونها وراء ابتسامة تكشف عن أسنانهم الصقيلة وهم يرحبون بعودة أبنائهم الجنود إلى الوطن، قائلين إنهم على استعداد للتعامل مع أي كوارث لا يمكن التغاضي عنها باللجوء إلى بنسلين الطيبة الأمريكية.

هذا الثالوث الغنائي للمواهب المتألقة كان يبشر بنوعٍ آخر من الطيبة، النوع السيئ من الطيبة. إنهن ينظرن بلا خجل ويشاكسن بون والرجل الأمريكي صاحب الشارب الكث الذي استيقظ الآن. كلاهما بدا مشوش الذهن وهما يكشران ويحاولان التحلي بالهدوء والرزانة قدر الإمكان، مع انتباههما إلى الصمت المريب المتجهم للزوجتين. أما أنا، من ناحية أخرى، فكنت أبادلهن نظرات العشق بسعادة لا توصف، مدركاً أن كل واحدة منهن لديها قصة تفطر قلبي، ومن المحتمل أيضاً أن تحطم حسابي المصرفي. ألم تكن لدي مثل هذه القصص المخزية؟ مع أن الممثلين البارعين يؤدون أدوارهم على الأقل من أجل أن ينسوا حزنهم جزئياً، وتلك نزعة أعرفها حق المعرفة. في مثل هذه المواقف

من الأفضل ممارسة اللهو والغزل، فذلك يتيح للإنسان فرصة للتظاهر بأنه سعيد ما دام في الحقيقة لا يعرف هذه السعادة. كان من دواعي سروري أن أنظر إليهن! ميمي طويلة القامة، وشعرها فاحم السواد وناعم كالحرير وصبغت أظافر يديها وقدميها بطلاءٍ وردي لامع فبدت أظافرها كأنها فاصوليا هلامية. صوتها وهو يخرج من حنجرتها يوحي بلهجة مدينة هيو المميزة دفع أوعيتي الدموية لأن تتقلص، فشعرت بشيء من الدوار. أما تيتي فهي رشيقة القوام، تسريحة شعرها كأنها خلية النحل جعلتها تبدو أطول مما هي عليه. بشرتها شاحبة ورقيقة مثل قشرة البيض، ورموش عينيها ترتعش كأنها محملة بقطرات الندى. كم تمنيتُ أن أضمها بين ذراعي وأن تحتك رموشي برموشها في قبلاتٍ لا تنتهي كأننا فراشتين متعانقتين! وقائدتهن فيفي تذكرني منحنيات جسدها بكثبان الرمل في فان ثايت، هناك أخذتني أمي في الرحلة الوحيدة في حياتها. وبينما كانت ماما تغطي نفسها بالملاءة من الرأس حتى أطراف القدمين كي لا تسمر بشرتها أكثر، كنت أنبش التربة التي أحرقتها أشعة الشمس وأحسّ بالنشوة. تلك الذكريات السعيدة لصبيٍ في العاشرة من عمره عن الدفء والسعادة اللذين أثارهما في نفسي الأريج الفواح لجسد فيفي، الرائحة نفسها، أو تكاد تكون كذلك، أو هكذا تخيلت، التي تفوح من قارورة العسل الملون التي تلقتها أمي هدية من أبي وكانت تدهن بها بشرتها مرتين أو ثلاثاً في السنة. لذلك وجدتُ نفسي أعشق فيفي، إحساسٌ بريء بما يكفي. كنت أتشوق للوقوع في الغرام مرتين أو ثلاثاً على الأقل في السنة، لكن هذا أصبح الآن من الماضي.

أما كيف تمكنت الفتيات من اختراق الحواجز حتى وصلن إلى القاعدة الجوية، في الوقت الذي كان فيه الإخلاء مقصوراً على الأغنياء فحسب، والمقتدرين، و/أو ذوي العلاقات، كل ذلك بسبب عريف طيب القلب. تخيلت قطعة بفتكيك ذات أطراف عاجية في منتصفها خوذة جندي أبيض من المارينز. العريف يحرس السفارة وهو يحبنا نحن الفتيات، قالت فيفي. إنه طيبُ القلب، كأنه دمية، لم ينسنا أبداً، فعل ما وعدنا به ولم يتخل عنا. هزت صديقتاها رأسيهما بحماس، وكانت ميمي تطقطق العلكة في فمها وتيتي تطقطق مفاصل أصابعها. أحضر لنا حافلة ومضى بنا على شوارع تودو، وأنقذ فتيات كثيرات مثلنا يتسكعن هنا وهناك ويردن المغادرة. ثم أوصلنا إلى القاعدة الجوية وأدخلنا بعد أن أخبر الشرطة أنه جاء بنا من أجل حفلة للصبيان الفقراء والأيتام تقام هنا. كان الدرّاق المتحجر في قلبي يتفتح وأنا أفكر في صديقهما، هذا الأمريكي المتبجج

الذي أوفى بوعوده حقاً، اسمه الأول أيد واسمه الأخير لا تستطيع أي فتاة النطق به. سألتهن لماذا يتركن البلاد، فقالت ميمي لأن الشيوعيين من المؤكد سوف يسجنوهن بتهمة التعاون مع الأعداء. إنهم يسموننا عاهرات، قالت. ويسمون سايغون مدينة العاهرات، أليس كذلك؟ يا حبيبتي، يمكنني وضع النقاط على الحروف. إضافة إلى هذا، قالت تيتي، حتى إذا لم يزجوا بنا في السجن، لن نتمكن من مزاولة عملنا، على كل حال. لا يمكنك شراء أو بيع أي شيء في بلدٍ شيوعي، صحيح؟ لا مجال لكسب الأرباح، على أي حال، يا حبيبتي، لن أترك أي شخص يأكل ثمار المانجو هذه دون مقابل، سواءً كان شيوعياً أو غير شيوعي. عند هذا هللت وصفقت الفتيات الثلاث. ألفاظهن كانت بذيئة كألفاظ البحارة الروس حين يكونون في إجازة على الساحل، لكن يبدو أن لديهن استيعاب تام لنظرية تبادل القيمة. حقاً ما الذي كان يمكن أن يحدث لفتيات جميلات مثلهن لو انتصرت الثورة؟ أعترف أنني لم أكرّس لهذه المسألة الكثير من التفكير.

مع حماستهن وروحهن المرحة كان الوقت يمضي بسرعة مثل طائرة سي 130 تعبر فوق رؤوسنا، لكنهن مثلي استبد بهن التعب من الساعات الطويلة التي تمضي دون أن ينادي أحد بأرقامنا. كان جندي المارينز الذي يحمل مكبرة الصوت يغمغم بصوت أجش مفتعل كأن حنجرته مصابة بالسرطان، والنازحون المنهكون يلملمون حاجياتهم البائسة ويتدافعون باتجاه الحافلة التي تنقلهم إلى المدرج. مرت الساعة العاشرة، ثم الحادية عشرة. وكنت أتمدد ولا أستطيع النوم، هذا ما يحدث لي دائماً حتى لو كنت في ما يسميه الجنود، بفطنتهم الاعتيادية، فندقاً من فئة ألف نجمة. كل ما فعلته أنني كنت أنظر عالياً نحو المجرة لأذكر نفسي بحظي السعيد. جلستُ القرفصاء ودخنت سيجارة أخرى مع بون. وتمددت مرة بعد مرة ولم يسعفني النوم، كنت متضايقاً من حرارة الجو. عند منتصف الليل، تمشيت في أرجاء المجمع ودخلت إلى دورات المياه. لكنها كانت فكرة سيئة جداً. تلك المراحيض مخصصة فقط للعشرات من عمال المكاتب والعسكريين الذين يخدمون في الخطوط الخلفية، وليس لآلاف النازحين المشبعين بالعرق. ولم يكن منظر حوض السباحة أفضل. طوال السنوات التي مضت منذ افتتاح حوض السباحة كان منطقة محظورة لا يرتادها غير الأمريكان، مع موافقات استثنائية للبيض من جنسيات أخرى وللأندونيسيين، والإيرانيين، والهنغاريين، والبولنديين من اللجنة الدولية للسيطرة والمراقبة ICCS. بلادنا تغزوها الآن هذه المختصرات للأسماء الطويلة، مع أن المختصر

الأخير يُعرف بصيغة أخرى «لا يمكنني السيطرة على أتفه الأمور» I Can't Control Shit، ويتلخص دور تلك اللجنة في الإشراف على وقف إطلاق النار بين الشمال والجنوب بعد إعادة الانتشار الاستراتيجي للقوات الأمريكية. ونجح وقف إطلاق النار بشكل مذهل خلال السنتين الأخيرتين، لأن مائة وخمسين ألفاً فقط من الجنود لقوا حتفهم، فضلاً عن العدد الهائل من المدنيين. تخيلوا عدد الناس الذين كانوا سيموتون لولا الهدنة! ربما امتعض النازحون من فكرة استبعاد السكان المحليين من دخول حوض السباحة، لكن من الجائز أنهم كانوا سيشعرون بخيبة الأمل أكثر بعد أن تحول إلى حوض للتبول. وقفتُ مع الأشخاص المتذمرين في الصف على حافة الحوض، ثم رجعتُ إلى ساحات التنس. رأيت بون ولينه نائمين وقد وضعا اليدين تحت الرأس، أما دوك فهو الوحيد الذي كان ينام نوماً عميقاً في حضن أمه. قرفصتُ هناك، ودخنت سيجارة أخرى، وفعلت هذا الشيء أو ذاك إلى أن أشارت الساعة إلى الرابعة صباحاً تقريباً، عندها سمعت أرقامنا تذاع فودّعت الفتيات المنكسرات وقلن لي إننا ربما التقينا مرة أخرى في غوام.

تركنا ملعب التنس باتجاه ساحة وقوف السيارات، حيث وجدنا حافلتين تنتظران وربما تستوعبان مجموعتنا وأكثر من اثنين وتسعين نازحاً. كانت الحشود المجتمعة حول الحافلتين تقدر بمائتين، وعندما سألني الجنرال عن هؤلاء الناس، سألتُ بدوري أقرب جندي مارينز. استهجن مني ذلك وقال وهو يهز كتفيه، أنتم لستم بهذه الضخامة، سوف نضع اثنين منكم في مكان رجلٍ واحد منا. أحسست بالانفعال إلى حد ما وأنا أصعد إلى الحافلة بعد الجنرال الذي بدا منكسراً، لكنني أتصور أننا اعتدنا على هذه الطريقة في التعامل. على كل حال، نحن أنفسنا نتعامل مع بعضنا بالطريقة نفسها، ننحشر في الدراجات، والحافلات، والشاحنات، والمصاعد، والهليكوبترات بأعداد خيالية، ولا نبالي بتعليمات وتوجيهات المصنع. هل من المستغرب أن يتصور الآخرون أننا سعداء إذا وضعنا في مواقف سبق أن استسلمنا لها؟ ما كانوا ليتعاملوا مع جنرال أمريكي على هذا النحو المُذل، قال الجنرال متذمراً، وضغط على يدي وسط صفوف البشر. كلا، يا سيدي، لن يتعاملوا معه هكذا، قلت، إنها الحقيقة. وسرعان ما تكدس الناس في حافلتنا وفاحت الروائح النتنة وأحسسنا بحرارة الجو والاختناق من تكدّس الركاب الهائجين الذين كانوا ينتظرون في الخارج طوال النهار والليل، لكنها في الواقع مجرد رحلة قصيرة إلى طائرة سي

هيركليز التي تنتظرنا على المدرج وقد بدت كأنها شاحنة نفاياتٍ ذات أجنحة، فتحت من المؤخرة لتلقي حمولتها، وأسقطت مصطبة حديدية ضخمة لنصعد عليها. هذه الحويصلة تقود إلى دهليز واسع يتلقى ما يوضع فيه من المؤن بكرم، محيطها مضاءٌ بمصابيح باهتة ترسل أضواءً خضراء معتمة. نزلنا من الحافلة، ووقف الجنرال على حافة المصطبة ورافقته في مراقبة عائلته، والموظفين العاملين معه، ومرافقيهم، ومائة شخص لا نعرفهم كانوا يصعدون، وينفذون تعليمات المشرف على الحمولة وهو يقف على المصطبة. هيا، لا تخجلي، قال مخاطباً المدام ورأسه عليه خوذة حجمها وشكلها مثل كرة السلة. احذري، سيدتي. احذري.

بدت المدامُ مرتبكة بعض الشيء لكنها غير مندهشة. تغضّن جبينها قليلاً وهي تجتاز المصطبة مع أطفالها، وحاولت أن تفهم تحذيرات المشرف البلهاء. وبعد ذلك لمحتُ رجلاً آتياً على الممر يبذل جهده لتفادي أن يراه أحد، وعلى صدره المنحني حقيبة سفر زرقاء تحمل علامة شركة طيران بان أميركان. كنت قد رأيت الرجل منذ بضعة أيام، في منزله في المقاطعة الثالثة. وهو عضو في الحزب الشيوعي ويعمل كموظف بسيط في وزارة الداخلية، لم يكن طويلاً ولا قصيراً جداً، ليس نحيفاً ولا سميناً، ليس شاحباً ولا داكناً، ليس ذكياً ولا غبياً. يبدو أنه ينتمي إلى ذلك النوع من المعاونين الإداريين الثانويين، ربما لا تراوده الأحلام ولا يعاني من كوابيس، حياته من الداخل خاوية مثل مكتبه. فكرت في هذا السكرتير عدة مرات خلال الأيام التي أعقبت اجتماعنا ولم أتذكر وجهه المراوغ، لكني عرفته الآن وهو يصعد إلى الطائرة. عندما وضعت يدي على كتفه جفل ثم حوّل عينيه الصغيرتين اللتين تشبهان عيني كلب مكسيكي باتجاهي، وتظاهر أنه لم يرني من قبل. يا لها من مصادفة! قلت. لم أتوقع رؤيتك على هذه الرحلة. الفضل للجنرال، ما كنا لنحصل على مقاعدنا هذه لولا تدخل هذا الرجل الطيب. أحنى الجنرال رأسه بامتنان، وابتسم في إشارة إلى أنه ليس من المتوقع منه الرد. إنني سعيد لذلك، همس السكرتير، وكان بدنه يرتعش قليلاً وزوجته تمسك ذراعه. لو كانت النظرات تصيب المرء بالعقم، لمشت وهي تحمل رمز رجولتي في محفظتها. وبعد أن أزاحهما الحشد عن الطريق، نظر الجنرال إلي وقال، هل كان شيئاً يدعو للسعادة؟ طبعاً، قلت.

فلما صعد جميع الركاب على متن الطائرة، أشار الجنرال لي بأن أصعد قبله. كان آخر

شخصٍ يدوس على المصطبة باتجاه مخزن البضائع هذا الذي يخلو من المقاعد. قرفص الرجالُ والنساء على الأرضية أو جلسوا على حقائبهم، وجثا الأطفال على ركبهم. أما المحظوظون من الركاب فحصلوا على مكان عند الحاجز حيث تمسكوا بأشرطة ربط الحمولة. اختلطت الآن ملامحهم وأبدانهم التي تتباين من شخصٍ إلى آخر، كل واحدٍ منهم وجد نفسه مضطراً إلى مجاملات إجبارية مطلوبة من أشخاص كانوا أقل حظاً من الذين غادروا البلاد على مقاعد مريحة حُجزت لهم مسبقاً. رأيتُ بون، ولينه، ودوك في مكانٍ ما على الممر، وكذلك المدام وأولادها. وتحركت المصطبة الحديدية ببطء وانغلق المنفذ، واحتجزت الديدانُ في علبة السردين. بجوار المشرف على الحمولة، انحنيتُ مع الجنرال على المصطبة، وكانت ركبنا تلامس أنوف الركاب الذين أمامنا. وبدأت المحركات التوربينية الأربعة تدمدم وترسل هديراً يصم الآذان، والاهتزازات تكاد تقتلع المصطبة من مكانها. وبينما كانت الطائرة تزحف على المدرج، تمايل الركاب إلى الأمام والخلف مع كل حركة، كان تجمعاً مترنحاً يتمتم بصلوات غير مسموعة. ودفعني تسارع الطائرة للارتداد إلى الخلف بينما المرأة التي أمامي تلف ذراعها حول ركبتي، وفكها بين ساقيّ المنفرجتين، وأنفها يضغط على الكيس الذي في حضني. ومع ارتفاع الحرارة في الطائرة إلى أكثر من أربعين درجة، ازدادت روائح الأجساد الخانقة. نضح العرق من ملابس لم تُغسل، بعد طول انتظار وقلق، وتصاعد بخارٌ عفن انتشر في كل مكان واختلط بروائح المعذبين، زيت اليوكالبتوس وتايغر بالم. الشيء الوحيد الذي أسعفنا في محنتنا ذلك النسيم المنبعث من الباب المفتوح حيث وقف أحد أفراد الطاقم كأنه عازف غيتار منفرج الساقين. وبدلاً من الغيتار الكهربائي بأوتاره الستة تدلت من وركيه بندقية أم - 16 مع مخزن لعشرين طلقة. ومع تحرك الطائرة على المدرج، لمحت سواتر إسمنتية وترابية، وآليات عملاقة مشقوقة طولياً إلى نصفين، وصفاً من حظائر الطائرات المحترقة، وطائرات نفاثة فجّرت أثناء القصف الذي حدث في وقتٍ سابق من المساء، اقتلعت أجنحتها وتناثرت كالذباب الذي رُش بالمبيدات. أطبق الصمتُ على الركاب، كأنهم نوّموا مغناطيسياً من الخوف والتوجس. كانوا بلا أدنى شك يتخيلون ما حدث. وداعاً، فيتنام.. إلى اللقاء، سايغون..

ثم سمعنا فجأة انفجاراً يصمّ الآذان، قذف بقوته الهائلة أفراد الطاقم فسقطوا على الركاب، ذلك آخر ما رأيته للحظات بينما تسبب وميض الضوء الذي اخترق فتحة الباب في اختفاء الرؤية. تكوم الجنرال فوقي ثم سقطتُ على الحاجز المؤدي إلى قمرة القيادة،

وتدحرجت الأجساد التي تصرخ، من المدنيين الذين استبدت بهم نوبات هستيرية فنثروا على وجهي لعاباً مالحاً. انحرفت الإطارات الزاعقة على المدرج إلى اليمين، ولما عاد البصر لمحتُ وهجاً من النيران. طوال حياتي لم يرعبني شيءٌ أكثر من الموت حرقاً، أو التمزق بمروحة محرك، أو التشظي إلى أرباع أو أخماس بصاروخ الكاتيوشا، هذا الاسم الذي يبدو كأنه لعالمٍ مخبول من سيبريا فقد بضعة أصابع وأنفه من قضمة الصقيع. رأيتُ بقايا بشرية مشوية من قبل، في حقلٍ مدمر خارج هيو، تحولت إلى كتلٍ متفحمة تلتصق بمعدن طائرة شينوك بعد أن سقطت، خزانات الوقود أحرقت قرابة ثلاثين ممن كانوا على متنها، أسنانهم مكشوفة كأنهم قرود تفتح أفواهها للمرة الأخيرة، واللحم على الشفاه والوجوه أزيل، والجلد المتفحم مثل زجاج بركاني ناعم أو جلد كائنات فضائية، والشعر كأنه الرماد، ولم يعد بإمكانك أن تعرف من كان يسكن في هذا البلد أو حتى إن كانوا من البشر. لا أريد الموت بتلك الطريقة؛ لا أريد الموت بأي طريقة، على الأقل في قصف مدفعية رفاقي الشيوعيين، يطلقونها من الضواحي التي احتلوها خارج سايغون. أحسست بيدٍ تلمس صدري وتذكرني بأني ما زلت حياً. ويد أخرى تقرص أذني فيما الأشخاص الذين يصرخون تحتي يكافحون لإزاحتي. تحركتُ قليلاً إلى الخلف في محاولة للاعتدال، فوجدت يدي على شعر دهني، كنت أضغط على جسد الجنرال. وهنا دوى انفجارٌ آخر في مكانٍ ما على المدرج فزاد التدافع المسعور. الرجال، والنساء، والأطفال كأنهم قطط تموء بأصوات عالية. وعلى حين غرة توقفت الطائرة عن الدوران واستقرت في زاوية بحيث لم تعد فتحة الباب تطلّ إلا على الظلام، وكان هناك رجل يصرخ بأعلى صوته، سوف نموت جميعاً! وبدأ المشرف على الحمولة يلعن بلا توقف ويُنزل المصطبة، ولما اندفع النازحون إلى الخارج انجرفتُ معهم إلى المؤخرة. الطريقة الوحيدة للخلاص وعدم التعرض لأن يدوسوا علي أن أغطي رأسي بالكيس وأتدحرج على المصطبة، بينما تساقط الناس الذين أمامي أثناء ذلك. ثم سقط صاروخٌ آخر على المدرج على بعد بضع مئات من الأمتار خلفنا، وأضاء قوساً من مدرج الحصى وكشف عن أقرب ملجأ مدمر من الإسمنت على مسافة خمسين متراً من المدرج. حتى بعد أن تلاشت حدة الانفجار، لم تعد الليلة المعكرة بمثل حلكتها السابقة. كان محركا الميمنة يشتعلان، كأنهما نجمتان متوهجتان ترسلان وابلاً من الشرر والدخان.

كنت ممدداً على يدي وركبتي عندما أمسكني بون من مرفقي، وسحبني من إحدى

يديّ بينما سحبتني لينه من اليد الأخرى. كانت تحمل دوك الذي يبكي، وذراعها حول صدره. انهمر وابلُ الصواريخ مثل النيازك مع قذائف المدفعية التي تدك المدرج، وانتشرت أضواءٌ كأنها من كوكب أسطوري لتكشف أشباح النازحين وهم يهرعون نحو الملجأ الإسمنتي، يتعثرون، يسقطون في الطريق، ينسون الحقائب، ودمدمة كالرعد تأتي من المحركين الباقيين تجرف الصغار والكبار وتجعلهم يترنحون. الأشخاص الذين وصلوا إلى الملجأ أبقوا رؤوسهم المذعورة أسفل ألواح الإسمنت، عندما سمعوا أزيزاً من فوق - شظايا أو رصاص - فتكوّمتُ على الأرض وبدأت أزحف. وفعل بون الشيء نفسه مع لينه، وكان وجهها متشنجاً لكنها لم تفقد العزم. في ذلك الوقت كنا نتلمس طريقنا إلى فسحةٍ خالية من الملجأ، وأفراد الطاقم أوقفوا المحركات. فلما اختفت الضوضاء سمعنا شخصاً يطلق النار باتجاهنا. كان الرصاص يمرُّ فوق الرؤوس أو يصطدم بالإسمنت، ومطلقو الرصاص يصفرون ويشيرون إلى الطائرة المحترقة. إنهم رفاقنا، قال بون، وسحب ركبتيه إلى صدره ووضع إحدى ذراعيه حول كتف دوك، الذي تكوّم بينه وبين لينه. إنهم سكارى يريدون مقعداً هنا. لا أعتقد ذلك، قلت، إنهم من جيش فيتنام الشعبي، استولوا على الحافات الخارجية للمطار، رغم أنني رأيتُ فرصة ضئيلة لأن يكونوا من رجالنا ينفسون عن محنتهم. بعد ذلك انفجرت خزانات وقود الطائرة، وأضاءت ألسنة اللهب مساحة كبيرة من المدرج، ولما حولت وجهي بعيداً عن النيران، وجدت نفسي أجلس قرب السكرتير، وجهه يكاد يضغط على ظهري والرسالة التي في عينيه الضيقتين واضحة كأنها عنوان فيلمٍ سينمائي. مثل العميلة الشيوعية والملازم الذي كان في انتظارنا عند البوابة، يبدو أنه كان يشعر بالسعادة لأن يراني ميتاً.

إنني أستحق ذلك، بعد أن زرته دون موعدٍ سابق في منزله، على العنوان الذي أعطاني إياه الرائد المشبوه. صحيح أن لدي بعض التأشيرات، قال السكرتير ونحن نجلس في غرفة المعيشة. بعض الزملاء وفروها لي لتتحقق العدالة. أليس من الظلم أن الأشخاص المرموقين أو المحظوظين فقط يحصلون على فرصة للنجاة؟ صدرت عني أصواتٌ تدل على التعاطف. لو كانت هناك عدالة حقيقية، تابع الكلام، فكل شخص ينبغي أن ينجو. لكن الأمور لا تسير على هذا المنوال. مما يجعلني في موقفٍ صعب جداً. لماذا أنا الذي يقرر من يغادر ومن لا يغادر؟ على كل حال أنا مجرد سكرتير. لو كنت مكاني، أيها النقيب، ماذا ستفعل؟

إنني أتفهم موقفك، يا سيدي. وكانت الدمامل على وجهي تؤلمني من الابتسام المفتعل، وأحسست بالضجر لوصولي إلى نهاية محتومة، لكن كان لا بد من فهم جوهر اللعبة، ربما لكي أحصل على نفس التبريرات الأخلاقية التي عفى عليها الزمن والتي كان يتبجح بها. من الواضح أنك رجلٌ محترم وتتمتع بحسن الذوق والقيم. هنا أومأت برأسي يميناً وشمالاً، وأشرت إلى المنزل الأنيق الذي لا بد من تحمل نفقاته الباهظة. الجدران مطلية ومزينة ببذخ واضح ومرقطة ببعض الزواحف المحنطة وأشياء أخرى للديكور: الساعة، التقويم، لفافة ورق صيني، وصورة ملونة لنغو دينه دايم19 في أيام الشباب، قبل اغتياله عقاباً على تصديق أنه رئيس وليس دمية بيد الأمريكان. الآن ذلك الرجل الذي يلبس سترة بيضاء يعتبر قديساً في نظر رفاقه الفيتناميين الكاثوليكيين، بعد أن واجه موتاً مشرفاً كشهيد وهو مقيد القدمين، والوجه يغطيه قناعٌ من الدماء، بعد أن خضع لاختبار رورشاخ للذكاء داخل ناقلة أشخاص مصفحة أمريكية، منظر إذلاله التقطت له صورة فوتوغرافية وزّعت في أنحاء العالم. النص الذي كتب عليها دقيق مثل شعارات آل كابوني: إياك أن تعبث مع الولايات المتحدة الأمريكية. الظلم الحقيقي، قلت وقد بدأتُ أشعر بالانزعاج من حرارة الجو، أن يعيش رجلٌ شريف مثلك معدماً في بلادنا. لهذا، اسمح لي بإضافة اعتراف رمزي بسيط تعبيراً عن تقدير رؤسائي للخدمات التي يطلبونها منك. لديك تأشيرات تكفي لاثنين وتسعين شخصاً، أليس كذلك؟ لم أكن واثقاً من أنه سوف يوافق، وفي هذه الحالة تقتضي خطتي أن أقدم تعهداً بإرجاع المتبقي. وعندما رد السكرتير بالإيجاب، أخرجت المغلف الذي فيه باقي النقود، أربعة آلاف دولار، إنها تكفي ثمناً لتأشيرتين إذا كان كريماً معي. ففتح السكرتير المغلف وحرك إبهامه السميك ببراعة على حزمة الأوراق النقدية. عرف فوراً كمية النقود التي في المغلف - هذا لا يكفي! وخبط على طاولة القهوة بالقفاز الأبيض، وكما لو أن ذلك ليس كافياً للتعبير عن حنقه، ضرب الطاولة مرة أخرى بالمغلف. كيف تجرؤ على إعطائي رشوة، يا سيدي!

أشرت إليه بأن يجلس ويهدأ. إنني مثله رجل تحكمه الظروف القاسية وتجبره على أداء واجبه. الأمر بيدك أن تبيع هذه التأشيرات التي لن تكلفك شيئاً وهي ليست ملكك في المقام الأول؟ سألته. أليس من العدالة أيضاً أن أستدعي قائد الشرطة المحلية وأجعله يعتقلنا معاً؟ أليس من العدالة بالنسبة إليه أن يستولي على تأشيراتك ويقوم بنوع من التوزيع العادل حسب رأيه؟ إذن الحل الأكثر عدالة أن نعود إلى الوضع السابق عندما

عرضت عليك أربعة آلاف دولار مقابل اثنتين وتسعين تأشيرة، ما دمت لا تمتلك حتى اثنتين وتسعين تأشيرة أو أربعة آلاف دولار منذ البداية. على كل حال، بإمكانك الرجوع إلى مكتبك غداً وشراء اثنتين وتسعين تأشيرة أخرى بسهولة. إنها مجرد أوراق، أليس كذلك؟

لكن بالنسبة إلى رجلٍ بيروقراطي، هي ليست مجرد أوراق. الأوراق هنا تعني الحياة! كان يكرهني في ذلك الوقت لأني أخذت أوراقه وهو يكرهني الآن، لكني لست منزعجاً على الإطلاق. ما يزعجني وأنا أنزوي تحت سقيفة الإسمنت ذلك الانتظار الطويل، لكن في هذه المرة لا يوجد قرار واضح. بصيصُ الشمس وهي تشرق جلب معه شيئاً من الراحة، ذلك البصيص من الضوء المائل للزرقة أظهر لي مدرج الحصى في حالة مزرية، بعد أن تقطع وتمزق بالصاروخ وقذائف المدفعية. وسط المدرج كل ما تبقى من طائرة سي - 130 أكوام محترقة وبقايا رماد، تنبعث منها روائح الوقود المحترق الخانقة. بيننا وبين كتلة الجمر تلك أكوامٌ داكنة اتضحت ملامحها تدريجياً، رأينا بعض الحقائب وأمتعة مختلفة تخلى عنها أصحابها أثناء التدافع الجنوني، بعضها انفتحت لتخرج أحشاءها التي تناثرت هنا وهناك. وتابعت الشمس صعودها شيئاً فشيئاً على مسارها، والضوء الذي ترسله أقوى وأكثر سطوعاً حتى صار مستفزاً للأعصاب على غرار مصباح المستجوبين، واكتسح أمامه كل أثر للظل. بعد أن احتجز الناس على الجانب الشرقي للحاجز الإسمنتي، بدأوا يتناقصون، ابتداءً بالكبار في السن إلى الأطفال. أريد ماءً، ماما، قال دوك. وكل ما استطاعت لينه أن تقول، كلا، يا عزيزي، ليس لدينا ماء، لكننا سوف نحصل عليه قريباً.

على المقتربات، ظهرت طائرة هيركليز أخرى في السماء، كانت تقترب سريعاً وتنحدر بحدة، ربما يقودها طيار من الكاميكازي. هبطت السي 130 على مدرجٍ بعيد واحتكت إطاراتها وهي تصدر صريراً حاداً متزامناً مع ضجيج النازحين. عندما استدارت الهيركليز باتجاهنا لتتحرك بخطورة على المدارج المتقاطعة تحول الضجيج إلى ضحكات فرح. ثم سمعت شيئاً آخر. رفعتُ رأسي على الحاجز بحذر فرأيتهم يندفعون خارج ظلال الحظائر وبين السواتر الإسمنتية حيث كانوا مختبئين، العشرات منهم أو ربما المئات، من المارينز والجنود والشرطة العسكرية والطيارين وأفراد الطواقم والميكانيكيين، وكوادر القاعدة الجوية وحراس الخطوط الخلفية، الذين رفضوا أن يكونوا من الأبطال أو أكباش فداء.

بعد أن لمح النازحون هذا التدافع، تجرؤوا على الوثوب باتجاه طائرة سي 130 التي توقفت على المدرج على بعد خمسين متراً وأنزلت مصطبتها كأنها تدعوهم للصعود. ركض الجنرال وعائلته أمامي، وبون وعائلته خلفي، ووراءنا هرعت الحشود الهاربة.

ما إن صعد أول النازحين على المصطبة حتى سمعنا أزيز صاروخ كاتيوشا، ثم دوى انفجارٌ آخر بينما كانت الصواريخ تتساقط على مدرج بعيد. وأطلقت رشقات من الرصاص فوق الرؤوس، في هذه المرة سمعنا أزيزاً لبنادق أ ك 47 وكذلك م - 16. إنهم عند الحافات الخارجية! صاح بون. كان من الواضح للنازحين أن الهيركليز هذه ستكون آخر طائرة تغادر المطار، إذا تمكنت من الإقلاع مع وجود وحدات من الشيوعيين في مكانٍ قريب، وبدأوا يصرخون من جديد من الفزع. وبينما كانوا يتدافعون نحو المصطبة بأقصى سرعة، تحركت طائرة صغيرة برشاقة من جهة بعيدة وحلقت في السماء، إنها مقاتلة تايغر مقدمتها تشبه الدبوس، وتبعتها هليكوبتر نوع هيوي بتثاقل وأبواب مؤخرتها تكشف عن أكثر من عشرة جنود منحشرين بداخلها. ما تبقى من القوات في المطار كانوا يغادرون بما استطاعوا توفيره من عربات. بينما اندفع الجنرال خلف النازحين المهرولين أمامه وهو يحثهم على الإسراع إلى المصطبة، وكنت أدفع الجنرال، لمحت مروحية مسلحة نوع شادو ظلها مزدوج تحوم على المدرج إلى جهة اليسار. راقبتها تتحرك بطرف عيني. بدا منظر المروحية مضحكاً، هيكلها منشطر إلى جزأين، وليس هناك ما يضحك بشأن ذيل الدخان الذي تركه صاروخ موجّه حرارياً يخترق السماء حتى لامس طرفه المشتعل مروحية الشادو على بعد أقل من ألف قدم. حين سقط نصفا الطائرة والقطع المتناثرة من أجساد أفراد الطاقم على الأرض كأنها نتف أو بقايا حمامة من الطين، تدافع النازحون بعنف أكبر للتسلق والوصول إلى المصطبة.

لما وضع الجنرال قدمه على المصطبة ليصعد، توقفتُ لبعض الوقت كي أدع لينه ودوك يمرّان. ولأني لم أجدهما رجعتُ فلم أرهما خلفي. اصعدوا إلى الطائرة، صاح المشرف على الحمولة وكان يقف بجانبي، وفمه مفتوح إلى أقصى درجة بحيث أقسم أنني رأيت لوزتي حلقه. أصدقاؤك اختفوا، يا رجل! على بعد عشرين متراً، رأيتُ بون ينحني على الحصى، ممسكاً لينه إلى صدره. رأيتُ بقعة تشبه القلب الأحمر تظهر ببطء على بلوزتها البيضاء. وهبّت نفخة من الغبار على الإسمنت حين اصطدمت رصاصة على المدرج بيني

وبينهما، وكل قطرة لعابٍ في فمي تبخرت. دفعتُ الكيس صوب المشرف على الحمولة وهرعت إليهما، وأزحت الحقائب عن طريقي. حين وصلت إلى مسافة مترين عنهما، تزحلقتُ وسقطت فانكشط الجلد عن يدي اليسرى ومرفقي. سمعت بون يصرخ بأصوات لم أسمعها قبل ذلك، صيحات ألم من الأعماق. كان دوك ملقى على الأرض بينه وبين لينه، وعيناه ترتدان في محجريهما، وحين تمعنت في الزوج والزوجة رأيتُ كتلة دموية رطبة من بقايا صدر دوك مزقها شيءٌ ما واخترقها حتى وصل إلى جسد الأم. الجنرال والمشرف على الحمولة كانا يصرخان ويقولان أشياءً لم أفهمها مع عويل مراوح الطائرة. هيا نذهب من هنا، صرخت. إنهم يرحلون! لكن بون كان غارقاً في حزنه، يحتضن زوجته وطفله، فضربته بقوة في فكه، بما يكفي لإسكاته وإرخاء قبضته. وبحركة واحدة حررت لينه من ذراعيه، ولما فعلت ذلك سقط دوك على المدرج ورأسه يترنح. صرخ بون بشيءٍ غير مفهوم بينما كنت أركض إلى الطائرة، ولينه على كتفي لا تصدر صوتاً وجسدها يرتطم بجسدي، وقطرات دمائها الحارة تتساقط على كتفي وعنقي.

وقف الجنرالُ والمشرف على المصطبة يشيران إليّ بالإسراع بينما كانت الطائرة تتحرك على المدرج وتبتعد تدريجياً، باحثة عن أي امتداد للمدرج وصواريخ الكاتيوشا تنهمر فرادى أو في رشقات. كنت أركض بأسرع ما يمكن، ورئتاي تلهثان، ولدى وصولي إلى مصطبة الصعود ألقيت لينه إلى الجنرال، الذي احتضنها بين ذراعيه. وكان بون يركض معي ويحتضن دوك ويدفعه إلى المشرف، الذي تناوله برفق لم يكن ليغير من مصيره شيئاً، ليس مع تمايل رأس دوك يميناً وشمالاً. بعد أن تأكد من صعود ابنه بدأ بون يهدأ، وكان يخفي رأسه بين يديه من الحزن وهو يبكي. أمسكه من مرفقه وبدفعة أخيرة حركت وجهه نحو المصطبة، حيث امسكه المشرف من ياقة قميصه وسحبه حتى أكمل الطريق. قفزتُ إلى المصطبة، وذراعاي كانتا ممدودتين، واستقر جسدي على الحديد وارتطم جانبٌ من وجهي والقفص الصدري، والحصى والغبار والتراب على خدي بينما ارتفعت قدماي في الهواء. بقيت الطائرة تتمايل على المدرج، وسحبني الجنرال من ركبتي إلى الداخل، بينما انغلقت مصطبة الصعود خلفي. التصقتُ بالجنرال من جانب وبجسد بون المنبطح على لينه من جانب آخر، وجدارٌ من النازحين يضغط علينا من الأمام. ومع تحليق الطائرة بصعوبة، سمعنا ضوضاء مرعبة متزامنة معها، ليس من خلال المعدن المهتز، ولكن من خلال الصخب المنبعث من الباب الجانبي المفتوح، حيث وقف أحد أفراد الطاقم وبيده

بندقية أم - 16، وأطلق ثلاث رشقات من البندقية التي على خصره. من ذلك الباب رأينا مناظر متفرقة للحقول والمباني تميل وتنحرف بينما أخذنا الطيار في دورة لولبية، وعرفت أن تلك الضوضاء لا تأتي من المحركات فقط بل من بون أيضاً، كان يخبط رأسه بالمصطبة ويصرخ، كما لو أن العالم انتهى بالنسبة إليه، أو كما لو أن شخصاً اقتلع عينيه.

الفصل الرابع

بعد وقتٍ قصير من هبوطنا في غوام، وصلت سيارة إسعاف خضراء لنقل الجثث. وضعت دوك على حمالة. كان جسده النحيف يزداد ثقلاً بين ذراعي مع كل دقيقة تمضي، لكني لم أستطع إنزاله على أرض المدرج القذرة. بعد أن ألقى عليه رجال الإسعاف غطاءً أبيض، أخذوا لينه من بين ذراعي بون وفعلوا معها الشيء نفسه قبل أن يحملوا امرأة أخرى وابنها إلى السيارة. بقيت أنتحب، لكن ليس مثل بون، الذي كان لديه رصيدٌ من الدموع التي لم يستعملها طوال حياته لكي يذرفها الآن. بقينا نبكي بينما كانت الشاحنة تنقلنا إلى مخيم أسان، والآخرون يلوذون بالصمت احتراماً أو من الإحراج. وبفضل الجنرال أعطونا ثكنات مريحة بالقياس إلى الخيم التي كانت بانتظار من وصلوا متأخرين. ووفر لنا شبابٌ مهذبون من المارينز البطانيات والمناشف، وأبلغونا عن مواعيد تناول وجبات الطعام وموقع الحمامات والمراحيض. انزوى بون وهو في حالة مزرية من الانفصام والتخشب على سريره وحيداً، ولم يتذكر شيئاً من مشاهد الإخلاء التي عرضت على التلفزيون في ذلك المساء وخلال اليوم التالي. ولم يتذكر في مخيمات مدينتنا المؤقتة كيف كان آلاف النازحين ينوحون كأنهم في جنازة على أمتهم التي دفنت، ماتت قبل الأوان، كما مات الكثيرون، في ريعان الشباب.

إلى جانب عائلة الجنرال ومئات العائلات الأخرى في المخيمات، كنت أشاهد صوراً مخزية للمروحيات وهي تحط على سقوف المنازل في سايغون، وتخلي النازحين إلى حاملات الطائرات. في اليوم التالي، بعد أن اقتحمت دبابات الشيوعيين بوابات القصر الرئاسي، رفعت القوات الشيوعية راية جبهة التحرير الوطنية على سقف القصر. ومع

تكشف ملامح الكارثة، تغلغت ذكريات الأيام الأخيرة للجمهورية اللعينة في تجاويف دماغي. هناك القليل يمكن أن يضاف إلى تلك الذكريات، على سبيل المثال ما حدث في وقتٍ متأخر من تلك الليلة، بعد أن تناولنا عشاءً من دجاج مشوي وبازلاء خضراء وجده الكثير من النازحين غير صالح للأكل، والأطفال وحدهم في الكافتريا الذين أكلوا بشهية مستهجنة. وقوفنا في الصف لكي نقلب صوانينا في غسالات الصحون كان وصمة عار، ذلك يعني أننا لم نعد مواطنين محترمين من بلد ذي سيادة بل نحن مجرد نازحين لا وطن لهم. بعد أن أفرغ البازلاء الخضراء التي لم يمسها في القمامة، نظر الجنرال لي وقال، أيها النقيب، شعبنا الآن يحتاج إلي. سوف أتجول وسطهم وأحاول رفع معنوياتهم. لنذهب. نعم، سيدي، قلت، ولم أشعر بالتفاؤل بإزاء ذلك لكنني لم أتصور وجود تعقيدات محتملة. بينما يكون من السهل بث كلمات التشجيع حين يتعلق الأمر بالجنود الذين تدربوا على تقبل أنواع الإساءات، نسينا أن معظم النازحين ليسوا جنوداً.

إذا فكرت ملياً في الأمر، أتصور أنني كنت محظوظاً لعدم ارتداء بزتي الرسمية، تلك التي تلطخت بدماء لينه. فقد خلعتها وفضلت قميصاً اشتريته من مدراس مع سروال أخذتهما من كيس أمتعتي، أما الجنرال، بعد أن أضاع أمتعته في المطار فما زال وقتها يتبختر بالنجوم التي ترصع ياقته. خارج الثكنات ومدينة المخيمات، القليل من الناس يعرفونه من وجهه. ما رأوه مجرد بزته الرسمية ورتبته، وعندما ألقى التحية على المدنيين وسألهم عن أحوالهم، قابلوه في البداية بصمتٍ متجهم. كانت التجاعيد التي بين عينيه وابتساماته المترددة تنبئ بأنه مرتبك. تصاعد القلق مع كل خطوة على الممر الموحل بين الخيم، وعيون المدنيين علينا والصمت ثقيل. لم نكد نمشي مائة متر في المخيم حتى بدأ الهجوم الأول، قذف علينا أحدهم نعلاً قذراً من جهة ما ليرتطم بالجنرال في جبهته. تجمّد الرجل في مكانه. وأنا أيضاً تجمدت. وصاحت امرأة عجوز بصوت خارق، انظروا إلى هذا البطل المغوار! التفتنا إلى اليسار فرأيناها تندفع إلينا وليس بالإمكان التصدي لها، عجوز هائجة لا نستطيع ضربها أو التراجع عنها. أين زوجي؟ كانت المرأة تصرخ، حافية القدمين، ونعلها الآخر بيدها. لماذا أنت هنا بينما هو غائب؟ ألا يفترض بك أن تدافع عن بلادنا وتضحي بحياتك مثله؟

لطمت الجنرال بالنعال على خده، ومن خلفها، من الجانب الآخر، من خلفنا،

النساء، شابات وعجائز، قويات وضعيفات، هجمن بالصنادل والأحذية، والعصي والمظلات الشمسية، وقبعاتهن وأوشحتهن. أين ولدي؟ أين أبي؟ أين أخي؟ والجنرال يدافع عن نفسه بذراعيه ويتفادى الضربات ويضعهما فوق رأسه، فمزقت الجماهير بدلته وجلده. ولم أسلم أنا من اللكمات، وتلقيتُ ضربات بالأحذية ولكمات وخبطات بالعصي والمظلات. ضغطت النساء علي من كل جانب للوصول إلى الجنرال، الذي غطس إلى ركبتيه تحت تلك الأجساد الغاضبة. ليس من المعقول أن نوجه إليهن اللوم على سلوكهن الشرس، لأن رئيس وزرائنا المتبجح تكلم على الراديو قبل يوم ليطلب من الجنود والمواطنين القتال حتى آخر رمق. من السخافة أن رئيس الوزراء، وهو أيضاً قائد سلاح الجو، وينبغي أن لا يقارن بالرئيس إلا في النواحي المتعلقة بالرشوة والتباهي، نفسه ترك البلاد على متن مروحية بعد إذاعة رسالته البطولية. من السخافة أن هذا الجنرال المسكين ليس المسؤول عن الجنود لكن عن الشرطة السرية، وهذا لن يجعله محبوباً من المواطنين. على كل حال، السيدات لم يصغين لشيء، فهن يفضلن الصراخ وإطلاق سيل من الشتائم. اخترقتُ طريقي بقوة وسط النساء اللواتي بين الجنرال وبيني، وحميته بجسدي وتلقيت الكثير من اللكمات والبصاق إلى أن تمكنت من سحبه وتحريره من قبضاتهن. اذهب، صرخت في أذنه، وسحبته في الاتجاه الآخر. وركضنا ناجين بحياتنا، وأخيراً تركنا باقي الناس في المخيم وشأننا، ولم يمسونا بسوء باستثناء نظرات الاحتقار وعبارات الاستهجان. إنكم جبناء لا تصلحون لشيء! أيها الأوغاد! جبناء! أبناء الحرام!

كنت معتاداً على تلك الشتائم واللكمات، ليس مثل الجنرال. وحين خرجنا من المخيمات كان التعبير المهيمن على وجهه صورة للذعر. بدا متغضن الوجه، أشعث الشعر، والنجمات سقطت من ياقته، وكماه انخلعا، وأزرار بدلته اختفت، والدماء تسيل من الخدوش التي أصابت خديه ورقبته. لن أرجع بهذا الوضع المزري، همس. انتظر في الحمامات، سيدي، قلت له. سوف أحضر إليك بعض الثياب الجديدة. طلبت قميصاً وبنطلوناً من الضباط في الثكنات وشرحت لهم ما واجهته من الخدوش والكدمات وحالتي الرثة قائلاً إنها نتيجة الاشتباك مع منافسين غير مهذبين من الأمن العسكري. ولما ذهبت إلى الحمامات وجدت الجنرال يقف قرب إحدى المغاسل، كان قد غسل وجهه ونظفه من كل شيء باستثناء الخجل مما حصل.

جنرال..

اخرس! كان ينظر فقط إلى صورته في المرآة. لن نتكلم عن هذا مرة أخرى.

ولم نتكلم عن الأمر أبداً.

***

في اليوم التالي دفنّا لينه ودوك. كان جسديهما الباردين قد وضعا في مشرحة تابعة للبحرية منذ أيام، وسبب الوفاة الآن أصبح رسمياً: طلقة واحدة، النوع غير معروف. ستبقى الرصاصة إلى الأبد تدور كالمغزل في ذهن بون، تعذبه وتقضّ مضجعه في كل مناسبة سواءً جاءت من صديق أو عدو. كان يلف خرقة بيضاء على رأسه تعبيراً عن الحداد، اقتطعه من فراش سريره. وبعد أن أنزلنا جسد دوك الصغير المكفن على جسد أمه، كلاهما يشتركان في قبر واحد إلى الأبد، ألقى بون نفسه على القبر المفتوح. لماذا؟ كان يصرخ ويعول، وخده على التابوت الخشبي. لماذا هما تحديداً؟ لماذا لم أمت أنا؟ لماذا، يا إلهي؟ وكنت أنتحب معه، واقتربت من القبر لكي أواسيه. وبعد أن ساعدته على الخروج، ردمنا التراب على التابوتين بينما كان الجنرال والمدام والكاهن المنهك يراقبون بصمت. إنهما أبرياء، هذان الاثنان، خاصة ابني بالمعمودية، الذي ربما هو أقرب إلى قلبي مما لو كان ابني الحقيقي. مع كل ضربة من المجرفة الحديدية على كومة التراب التي بانتظار أن ترجع إلى الحفرة التي أخرجت منها، كنت أحاول تصديق أن تلك الأجساد لم تمت حقاً لكنها مجرد خرق بالية تعود لمهاجرين في رحلة إلى أرض خارج الخرائط البشرية تسكنها الملائكة. هذا ما يؤمن به والدي الكهنوتي؛ لكن لست أنا.

خلال الأيام اللاحقة، بقينا نتذكر وننتحب وننتظر. في بعض الأحيان، من أجل التنويع، كنا ننتظر ونبكي. لكن عندما بدأ ضميري ينهكني سمعنا أنهم سوف ينقلوننا إلى مخيم بندلتون في سان دييغو، كاليفورنيا، هذه المرة في طائرة جلستُ فيها على مقاعد حقيقية قرب نافذة حقيقية. كان ينتظرنا مخيم آخر للنازحين، وسائل الراحة فيه دليلٌ على أننا حقاً كنا نستفيد من التحول التقدمي في الحلم الأمريكي. في غوام كان أغلب النازحين يعيشون في خيم مجهزة من قبل المارينز، أما في مخيم بندلتون فلدينا ثكنات، مخيم من السقائف تحمينا من قسوة أمريكا المتبجحة بثقافتها. هنا، في صيف عام

197، كتبت أولى رسائلي إلى عمة مان في باريس. بطبيعة الحال، كنت أكتب أيضاً إلى مان. اعتدت أن أبدأ كل رسالة ببضع استعارات متفق عليها - المناخ، حالتي الصحية، صحة العمة، السياسة الفرنسية - عندئذ لا بد أن تعرف العمة أن بين السطور رسالة أخرى، مكتوبة بالحبر السري. أما إذا كانت الاستعارات مبهمة، فما تراه العين هو كل شيء. لكني طوال تلك السنة الأولى التي أمضيتها في أمريكا، لم تظهر حاجة مهمة لتفكيك الرموز، فالجنود المنفيون نادراً ما يحاولون شن هجوم مقابل. إنه عمل بسيط استخباراتي لا يتطلب السرية.

عمتي العزيزة، كتبت مدعياً أنها عمتي، أشعر بالأسف لأن أخبرك بشيء فظيع في أول رسالة أكتبها إليك منذ مدة طويلة. لم يكن وضع بون جيداً. في الليل، وأنا أستلقي في سريري، أجده يتململ مؤرقاً في سريره الذي فوقي، ذكرياته المريرة لا تبارحه وتنهش لحمه. في وسعي أن أرى ما ينعكس على جمجمته من الداخل، وجه مان، أخونا في الدم الذي تخلينا عنه، ووجوه لينه ودوك، والدماء على يديه ويدي، هذا ما كنت أراه حرفياً. كان بون سيموت جوعاً لو لم أسحبه كل يوم عنوة من سريره إلى ردهة الطعام، حيث نأكل طعاماً لا مذاق له على طاولات مشتركة. إلى جانب آلاف الأشخاص الآخرين في ذلك الصيف، ونستحم في حمامات تفتقر إلى ما نعلق عليه ثيابنا، ونعيش مع الغرباء في الثكنات. ولم يكن الجنرال مستثنى من هذه التجارب المريرة، كنت أقضي الكثير من الأوقات معه في المكان الذي خصص له مع المدام والأولاد الأربعة، مع ثلاث عائلات أخرى. إنهم ضباط صغار متبجحون، تمتم في إحدى الزيارات. هذا ما انتهيت إليه! كانت الملاءات تعلق ضمن صفوف لتفصل بين الثكنات حسب العائلات، لكنها لا تفيد في منع أذني المدام المرهفتين عن الاستماع. تلك البهائم تمارس الجنس نهاراً وليلاً، كان يتذمر وهو يجلس معي على الحاجز الإسمنتي. كل منا يحمل قدح الشاي بيده، ذلك ما نحصل عليه بدلاً من أرخص أنواع الشراب، والسيجارة باليد الأخرى. إنهم لا يخجلون! يفعلون ذلك أمام أطفالهم وأطفالي. أتعرف ما سألني أكبر أولادي قبل يومين؟ بابا، ما معنى كلمة عاهرة؟ شاهدت إحدى النساء تبيع نفسها في المراحيض!

على الممر الذي أمامنا، في ثكنة أخرى، حدث شجارٌ بين رجلٍ وزوجته بدأ بالعبارات المألوفة وسرعان ما تحول إلى عراك عنيف. لم نرَ شيئاً لكننا سمعنا الصوت الذي لا تخطئه

الأذن للحم وهو يلطم، ثم صرخت المرأة. وتجمع الناس خارج الباب. وتنهد الجنرال. بهائم! وسط هذا كله، هناك أخبار جيدة. أخرج صحيفة مطوية من جيب سترته وأعطاها لي. هل تتذكره؟ أطلق النار على نفسه. هذه أخبار جيدة؟ سألته وأنا أتفحص المقال. كان من الأبطال، قال الجنرال، أو هكذا كتبت إلى عمتي. كان ذلك من المقالات القديمة التي نشرت منذ عدة أيام بعد سقوط سايغون وأرسله إلى الجنرال أحد الأصدقاء في مخيم نازحين آخر في أركنساس. في منتصف المقال صورة فوتوغرافية للقتيل، وهو رجل بدين ملقى على ظهره عند قاعدة النصب التذكاري الذي زاره الجنرال. كان يمكن أن يكون الرجل مستريحاً ذات يوم صيفي، ينظر إلى السماء الزرقاء بمثل زرقة أزياء مغني الجاز، باستثناء أن التعليق يقول إنه أقدم على الانتحار. بينما كنا في الطائرة متجهين إلى غوام، والدبابات تقتحم المدينة، جاء المقدم إلى النصب التذكاري، وسحب مسدسه وأطلق النار على نفسه في رأسه الأصلع.

إنه بطل حقيقي، قلت. لديه زوجة وعدد من الأطفال، لا أتذكر عددهم. لم يسبق أن أحببته أو كرهته، وحين كنت أفكر في اسمه للانضمام للإخلاء، تجاوزته نهائياً. هنا أحسست بشيء من الذنب وتأنيب الضمير. لم أكن أعلم أنه يمكن أن يفعل ذلك، قلت. لو كنت أعلم..

لو كان أحدنا يعلم. لكن من يعلم؟ لا تلم نفسك. الكثير من الرجال ماتوا أمامي. وأحسست بالحزن على كلّ واحد منهم، لكن الموت جزء من عملنا. ربما يأتي دورنا ذات يوم. دعنا نتذكره فقط كما يليق بالشهداء.

شربنا الشاي كأننا نشرب نخب تكريم للمقدم. باستثناء هذا العمل الأخير، لم يكن بطلاً حسب معلوماتي. ربما أحس الجنرال أيضاً بهذا، لأنه قال بعد ذلك، كان بإمكاننا الاستفادة منه وهو حي.

كيف نستفيد منه؟

بأن نراقب ما يفعله الشيوعيون. مثلما يراقبون ما نفعله نحن. هل فكرت بهذا؟

فكرت في أنهم يراقبون ما نفعله نحن؟

تماماً. المتعاطفون. الجواسيس في صفوفنا. الخلايا النائمة.

هذا شيءٌ ممكن، قلت، وأحسستُ بحبات العرق على راحتَي يديّ. إنهم مخادعون وأذكياء بما يكفي للقيام بهذا.

ترى من يكون المرشح المحتمل لهذا العمل؟ نظر الجنرال في وجهي مباشرة، أو لعله كان ينظر لي متشككاً. كان يمسك القدح بيده وبقيت أنظر إليه جانبياً متحاشياً نظراته. لو حاول أن يضربني بالقدح على رأسي، لما توفرت لدي ثانية للرد على ذلك. الفيتكونغ لديهم عملاء في كل مكان، تابع كلامه. لا مجال للشك بأن هناك أحدهم يختبئ بين صفوفنا.

تعتقد حقاً أن أحد رجالنا يمكن أن يكون جاسوساً؟ الآن كان الشيء الوحيد الذي لا يتصبب منه العرق هو حدقتا عيني. ماذا عن الاستخبارات العسكرية؟ أو الكوادر العليا؟

ألا تفكر في شخص معين؟ عيناه لم تتركا عيني الجامدتين، بينما لا تزال يده تمسك القدح. بقيت في قدحي رشفة أخيرة من الشاي البارد فشربتها الآن. لو أخذت صورة إشعاعية لجمجمتي لأظهرت جرذاً يركض مسعوراً على عجلة دوارة تولّد الأفكار. لو قلت له إنني لا أشك بأحد، بينما من الواضح أنه يشك بأحدهم، سوف يبدو ذلك سيئاً بالنسبة إلي. في خيالهم المذعور، الجواسيس فقط ينكرون وجود جواسيس. يجب أن أذكر أحداً أشك فيه، شخص لا يثير اهتمامه لكنه ليس جاسوساً حقيقياً. أول شخص خطر لي ذلك الرائد البدين، الذي لاسمه التأثير المطلوب.

ذلك الرجل؟ قطب الجنرال حاجبيه وتوقف أخيراً عن النظر لي. كان يتأمل أصابعه بدلاً من ذلك، واتجه ذهنه إلى مكان آخر بعد اقتراحي الغريب. إنه بدين يحتاج إلى مرآة للنظر إلى زر بدلته عند البطن. أعتقد أن غرائزك بعيدة عن الحقيقة هذه المرة، أيها النقيب.

ربما كنت على حق، قلت متظاهراً بالإحراج. أعطيته سجائري لصرف انتباهه وعدت إلى الثكنات لأرسل تقريراً عن فحوى الحوار الذي دار بيننا إلى عمتي، دون أن أتطرق للأجزاء غير المثيرة التي تتعلق بخوفي، وارتعاشي، وتعرقي، وما إلى ذلك. لحسن الحظ، لن نبقى طويلاً في هذا المخيم، حيث هناك القليل مما يريح أعصاب الجنرال. بعد وقت قصير من وصولنا إلى سان دييغو، كتبت إلى آفيري رايت هامر، زميل كلود في الكلية

ويسكن معه في الغرفة نفسها وكان دائماً يسعفني بالنصائح. قبل سنوات، حين سأله كلود عن توفر بعثة دراسية لطالب فيتنامي شاب يبشر بمستقبل ممتاز، لم يتردد في إيجاد بعثة لي. بعد كلود ومان، كان من أساتذتي المخلصين، البروفيسور الذي أشرف على دراساتي الأمريكية ووافق أيضاً على مغامرة الإشراف على بحثي في الدراسات العليا عن (الأسطورة والرمز في أدب غراهام غرين). والآن اندفع الرجل الطيب للقيام بواجبه تجاهي مرة أخرى، وتطوع بأن يقدم لي النصح، ومع حلول منتصف الصيف، رتب لي عملاً مكتبياً في قسم الدراسات الشرقية. وحتى إنه تولى إقناع مجموعة من الأساتذة الآخرين، وهي إيماءة نبيلة أثرت بي كثيراً. تلك المعلومات، كتبتها إلى عمتي في نهاية الصيف، واشتريت بطاقة حافلة إلى لوس أنجلس، وكنت أنوي قضاء بضعة أيام في الفندق، لحين الاستقرار في شقة قرب تشايناتاون، وربما شراء سيارة فورد مستعملة موديل 64. فلما استقر بي المقام هناك، سألت في الكنائس المجاورة عن أي شخص يمكن أن يكفل بون، وأبدت منظمات دينية وجمعيات خيرية التعاطف مع محنة النازحين. وصادف أن مررت بكنيسة الأنبياء، والتي رغم اسمها المثير اجتهدت في تجميع مقتنياتها الروحية من واجهات متاجر متواضعة لاحتياجات الجسد أو من أكشاك على فسحة مبلطة ترتادها عجائز متعصبات. مع قليل من الجهد في الإقناع وتبرع نقدي متواضع، وافق الكاهن ذو الكرش المتهدل رامون، أو ررررررامون، كما قدم نفسه، على كفالة بون وأن يكون راعيه الرسمي. مع حلول أيلول، الوقت الذي يبدأ فيه العام الدراسي، اجتمعنا أنا وبون مرة أخرى في حالة من الفقر النبيل في شقتنا. وبعد ذلك، مع ما تبقى من نقود الرعاية التي لدي، ذهبت إلى محل خردوات في البلدة واشتريت آخر الأشياء التي نحتاج إليها من ضروريات الحياة، راديو وتلفزيون.

أما الجنرال والمدام، فانتهى بهما المقام في لوس أنجلس، وكفلتهم أخت زوجة عقيد أمريكي كان ذات مرة يعمل مستشاراً للجنرال. وبدلاً من القصر، قاما بتأجير بيت متواضع من طابقٍ واحد في أحد أحياء لوس أنجلس، ذلك الجزء المترهل من المدينة، المجاور لهوليوود. في كل مرة أذهب فيها إلى هناك خلال الشهور التالية، كما كتبت إلى عمتي، أجده غارقاً في هواجسه. لم يعد الجنرال جنرالاً، مع أن ضباطه السابقين جميعاً ما زالوا يؤدون له التحية. أثناء تلك الزيارات كان يحتسي نوعيات رخيصة من الشراب، وبعد أن أهمل الاستحمام، وحلاقة الذقن أو تبديل ملابس النوم، كانت مشاعره تتباين بين

الغضب والسوداوية مثلما يمكن للمرء أن يتخيل الحال مع ريتشارد نيكسون الذي لا يبعد موقعه عن هنا كثيراً. في بعض الأحيان كان يختنق بالعبرات إلى درجة سيئة بحيث أخاف من عمل شيء لإسعافه ومنع الاختناق. ليس لأنه لا يجد ما يقضي به أوقات فراغه، مع أن المدام وحدها التي تبحث عن مدارس للأولاد، وتوقع شيكات الإيجار، وتتسوق الخضار، وتطبخ وتغسل الأطباق، وتنظف الحمام، وتذهب إلى الكنيسة، باختصار، تتولى كل المهمات الشاقة لتدبير المنزل، بعد أن كانت طوال حياتها تعيش كشرنقة، بينما هناك آخرون يقومون بكل ذلك بدلاً عنها. صارت تتولى هذه الواجبات بعبوسٍ وتجهم، أصبحت الدكتاتور بلا منازع في المنزل، والجنرال تحول إلى شاخص يزجر الأولاد أحياناً كأنه أحد الأسود الملطخة بالوحل في حديقة الحيوان يعاني من خرف الشيخوخة. عاشوا على هذه الحال لأغلب أوقات السنة قبل أن تصل حدود صبرها إلى الذروة. لم أكن مطلعاً على المحادثات التي لا بد أنها دارت بينهما، لكن ذات يوم في بداية نيسان تلقيت دعوة لحضور الافتتاح الكبير لعمله الجديد في هوليوود بوليفارد، متجر للكحول كان وجوده قرب بناية مصلحة الضرائب يعني أن الجنرال أذعن أخيراً للعقيدة الأساسية للحلم الأمريكي. ليس لكي يكسب عيشه فحسب، بل كان عليه أن يدفع الثمن، كما فعلتُ بنفسي من خلال إظهار الوجه الكالح لقسم الدراسات الشرقية.

كان واجبي ضمن الخط الدفاعي المكلف بالتصدي للطلاب الذين يريدون مقابلة السكرتير أو رئيس القسم، البعض منهم كان يخاطبني باسمي رغم أننا لم نلتق أبداً. كنت أحظى بترحيب متواضع في الحرم الجامعي بسبب الصفات التي ألحقتها بي صحيفة الطلبة: خريج كلية، من المقربين للعمادة، الطالب الفيتنامي الوحيد الذي تخرج من هذه الكلية، وفي الوقت الحالي نازح تم إنقاذه من بلاده. وتطرق المقال أيضاً إلى تجربتي في الحياة العسكرية، رغم أنه لم يتضمن معلومات صحيحة تماماً. ماذا كنت تفعل؟ هكذا سألني الصحفي الواعد، وكان طالباً متقلب المزاج في السنة الثانية يضع دعامات ذهبية على أسنانه بدت آثارها واضحة على قلم الرصاص الأصفر. كنت ضابط إعاشة، قلت. إنه عملٌ ممل، أتابع التجهيزات والمؤن، أتأكد من أن القوات تحصل على بدلات نظامية وأحذية. إذن أنت لم تقتل أي شخص من قبل؟ أبداً. وتلك هي الحقيقة، وإن لم أقل كل الحقيقة في بقية المقابلة. الحرم الجامعي مكان سيئ للاعتراف بسجل خدمتي. أولاً، كنت ضابط مشاة في جيش جمهورية فيتنام، بدأت الخدمة مع الجنرال عندما كان برتبة عقيد.

وعندما أصبح جنرالاً وتولى مسؤولية الشرطة الوطنية، التي كانت بحاجة إلى شيءٍ من الانضباط انتقلت معه. إذا قلنا إن المرء شاهد المعارك أو لم يشاهدها، أو أن له علاقة من قريب أو بعيد بالفرع السري، فهذا موضوع حساس بصفة خاصة في أغلب الكليات حتى الآن. الحرم الجامعي لا يخلو من حركة مناهضة للحرب تشبه حركة الإصلاح الديني كنت معاصراً لها أثناء دراستي. في الكثير من الكليات ومنها كليتي هذه، لم يكن الهتاف المميز هوو.. هوو.. هوووه تحية ترتبط بسانتا كلوز، بدلاً من ذلك تحول إلى بداية نشيد شعبي يتخذ صيغة أخرى، هو.. هو.. هوشي مينه، جبهة التحرير الوطنية لا بد أن تنتصر! كنت أحسد الطلاب على حماسهم السياسي الصريح، إذ كان يتعين علي إخفاء حماسي من أجل أن أؤدي دور مواطن صالح من جمهورية فيتنام. لكن بمرور الزمن اندمجتُ أكثر مع حياة الحرم الجامعي، وكان الطلاب من الجيل الجديد ليس لديهم أدنى الاهتمامات بالسياسة أو بقضايا العالم مثل الجيل السابق. عيونهم لم تستكشف يوماً قصص وصور البشاعة التي ربما كانوا يتحملون مسؤوليتها، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنهم ينتمون إلى ديموقراطية تدمر بلداً آخر بدعوى أنها تنقذه. الأكثر أهمية أن حياتهم لم تعد على المحك بعد تنشق هواء الحرية. رأيتُ الحرم الجامعي يرجع إلى طبيعته المسالمة ومزاجه المتفائل لا تعكره غير زخات مطر الربيع بين الفينة والأخرى وهي تنقر على نافذة مكتبي. جدول واجباتي، التي أتلقى عنها المعدل الأدنى من الأجور، يتضمن الرد على الهاتف، وطباعة مخطوطات الرسائل الجامعية، وملء الاستمارات وإحضار الكتب، إضافة إلى معاونة سكرتيرته السيدة صوفيا موري بنظاراتها ذات الإطار العاجي الموشى بالألماس الزائف. هذه الأشياء غير العسيرة على أي طالب وصلت إلى ذروتها من خلال تكدس آلاف الملفات عمداً على مكتبي. ولزيادة تعقيد الأمور، لم يبد أن السيدة موري كانت ترتاح لوجودي معها.

شيءٌ جيد أن نعرف أنك لم تقتل أحداً، قالت بعد مدة قصيرة من لقائنا. كان تعاطفها مريباً، وميدالية السلام تتدلى من سلسلة مفاتيحها. تلك ليست المرة الأولى التي تمنيت فيها أن أخبر شخصاً ما أنني أنتمي إليهم، متعاطف مع اليسار، من الثوار الذين يقاتلون من أجل السلام، والمساواة، والديموقراطية، والحرية والاستقلال، وكل الأشياء النبيلة التي مات أبناء شعبي من أجلها والتي أريد تحقيقها. لو أن أحداً قتلك، قالت، لن تخبر أي شخص على كل حال، أليس كذلك؟

هل كنت ستفعلين ذلك، سيدة موري؟

لا أعرف. تململت على كرسيها في حركة أظهرت أردافها، وأدارت ظهرها لي. كان مكتبي الصغير محشوراً في إحدى الزوايا، هناك تظاهرت بأني منشغل بالأوراق والملاحظات وبعملي المجهد، مع أن كل الأعباء لا تكفي لتملأ الساعات الثماني ليوم العمل. وكما هو متوقع كنت أبتسم وفق متطلبات اللياقة على مكتبي عندما التقط لي أحد الصحفيين من الطلاب صورة فوتوغرافية، كنت سأظهر على الصفحة الأولى من صحيفتهم، بأسناني الصفراء التي ستبدو بيضاء في صورة بالأبيض والأسود. بذلت ما بوسعي لأكون مثل أي طفلٍ من العالم الثالث في الأفلام الكارتونية التي تروّج للحليب في المدارس الابتدائية وتشجع الأطفال الأمريكيين على ادخار مصروفهم اليومي لمساعدة الفقراء من أمثال اليخاندرو، عبد الله، سينغ لكي يتمكنوا من الحصول على وجبة حارة أو تلقي حقنة التحصين ضد الأمراض. كنت أشعر بالامتنان لهم حقاً! لكن حظي التعيس كان يدفعني للتساؤل عما إذا كانت حاجتي للصدقات الأمريكية تعود لأني تلقيت سابقاً مساعدة أمريكية. لذلك كنت أخاف أن يعتبروني ناكراً للجميل، فحرصت على أن أثير ما يكفي من الضوضاء المهذبة لإرضاء غروري وليس لصرف انتباه السيدة موري عن بنطلوني الفضفاض الأخضر بلون الأفوكادو، وبين فترة وأخرى كانت تقطع مناوراتي الخرقاء رغبة في مغادرة المكان والذهاب إلى المكتب المجاور لرئيس القسم.

لا أحد في الكلية لديه معلومات كافية عن بلادنا، وكان رئيس القسم يستمتع بإشراكي في مناقشات مكثفة عن ثقافتنا ولغتنا. تلك المناقشات تركز على فترة تمتد إلى سبعين أو ثمانين سنة من الماضي، كان المكتب أنيقاً مزيناً، الكتب، والأوراق، والملصقات، والديكورات التي تراكمت عبر سنوات طويلة من المهنة المكرسة لدراسة الشرق. وعلى الجدار علقت سجادة شرقية مزخرفة يدوياً بنقوش بديعة، لا بد أنها نسخة مزيفة كما أزعم عن حقيقة الشرق. تواجه من يدخل المكتب صورة ذات إطار ذهبي لعائلته، وزوجته كملاك آسيوي أشقر في عمر يبلغ نصف إلى ثلثي عمره. لم تكن ذات جمال خارق لكنها لا يمكن إلا أن تبدو جميلة وهي واقفة قرب رئيس القسم بثوبها الصيني الضيق الأنيق وهو برقبته الغليظة التي تطوقها ربطة عنق تكاد تخنقه وتنتزع الابتسامة عنوة من شفتيها الجامدتين.

اسمها لينغ لينغ، قال ملمحاً إلى نظرتي المستقرة على الصورة. الزمن الذي مضى عليه وهو منكبّ على المكتب جعل ظهر أستاذ الشرقيات الشهير مثل حدوة الحصان، ورأسه يندفع إلى الأمام على نحو استقصائي كأنه رأس التنين. التقيت بزوجتي في تايوان حيث كانت عائلتها قد هربت من ماو. ابننا الآن أكبر مما يبدو في الصورة. كما ترى فإن جينات أمه هي الغالبة، وهذا ليس بالشيء المستغرب. الشعر الأشقر يتلاشى أثره عندما يختلط بالشعر الأسود. قال كل هذا الكلام أثناء محادثتنا الخامسة أو السادسة، حين حققنا نوعاً من التقارب النسبي. وكالمعتاد كان مسترخياً على كرسي وثير مبطن بالجلد يحتضن جسده مثل حضن مربية سوداء. وكنت أغطس في كرسي مماثل فوجدت نفسي أنجرف إلى الوراء من خلال انحدار ونعومة الجلد، بينما تستقر ذراعاي في مكانهما مثل ذراعي لينكولن في نصبه التذكاري. إنها استعارة من شأنها أن توضح الوضع الحالي الذي نعيشه في أجواء كاليفورنيا، تابع الكلام، حيث تخنق الأعشاب الضارة الأجنبية وتقتل الكثير من نباتاتنا الخضراء المحلية. مزاوجة نبات محلي مع نبات أجنبي غالباً ما تكون ذات نتائج وخيمة، ربما تعلمت من تجربتك الشخصية.

نعم، تعلمت، قلت، وتذكرت أنني أحتاج إلى راتبي وإن كان في حدوده الدنيا.

آه، الأمريكان من أصول آسيوية، يبقون إلى الأبد معلقين بين عالمين ولن يعرفوا إلى أين ينتمون!

تخيل أنك إذا لم تعانِ من حالة التمزق التي عليك دائماً أن تجربها، سوف تشعر بالصراع الدائم بداخلك وفوقك، بين الشرق والغرب. الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب، لن يلتقيان أبداً، مثلما قال كبلنغ[20] بدقة. كان هذا من موضوعاته المفضلة، وفي نهاية أحد لقاءاتنا أعطاني واجباً مدرسياً لاختبار وجهة نظر كبلنغ. علي أن آخذ ورقة وأطويها من المنتصف عمودياً. في أعلى الجهة اليمنى أكتب كلمة «الشرق»، وفي الجهة اليسرى أكتب «الغرب». ثم أدوّن خصائصي الشرقية والغربية. تخيل هذا التمرين على أنه تقييم لشخصيتك، قال رئيس القسم. طلبتي الذين من أصول شرقية حتماً سوف يجدونه مفيداً لهم.

في بداية الأمر تصورت أنه ربما يمزح، لأن اليوم الذي أعطاني فيه هذا الواجب كان الأول من نيسان، وهي مناسبة مضحكة تسمى كذبة نيسان. لكنه نظر لي بجدية تامة

حتى أيقنت أنه لا يمكن أن يمزح. لذلك ذهبت إلى المنزل وبعد شيء من التفكير خلصت إلى هذه النتائج:

الغربي	الشرقي
العناد في أكثر الأحيان	طمس ملامح الذات
استقلال التفكير أحياناً	احترام السلطة
الاقتناع بالذات أحياناً	الاهتمام بآراء الآخرين
الثرثرة (بعد كأسٍ أو كأسين)	هدوء الطبع عادة
يحاول مرة أو مرتين ولا يهتم بذلك	دائماً يحاول إرضاء الآخرين
ينظر إلى النصف المليء من الكأس	ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس
يقول ما يقصد، يفعل ما يقول	يقول نعم عندما يعني لا
أحياناً ينظر إلى المستقبل	ينظر إلى الماضي دائماً
يتطلع للقيادة	يفضل اتباع غيره
مستعد دائماً لاعتلاء المنصة	يحس بالارتياح مع التجمعات
يهتم بالشباب	يحترم الكبار
يعيش ليقاتل ليوم آخر	مستعد للتضحية بالنفس
ينسى أسلافه!	يحرص على تذكر الأسلاف
عيون بنية صافية	شعر أسود منسدل
طويل (في نظر الشرقي)	قصير (في نظر الغربي)
شحوب يميل إلى اصفرار	لونه أبيض مصفر

حين عرضت عليه النتائج في اليوم التالي، قال، رائع! إنها بداية جيدة، أنت طالب مجتهد مثل كل الشرقيين. رغم ذلك شعرت بشيءٍ من الفخر. مثل كل الطلاب المجتهدين لم أطمح إلى شيء غير الاستحسان، حتى من الأغبياء. ولكن هناك نقطة سلبية، تابع الكلام. انظر إلى خصائص الشرقيين الكثيرة التي تتعارض مع خصائص الغربيين جذرياً؟ في الغرب هناك خصائص شرقية للأسف تتخذ نمطاً سلبياً. هذا يؤدي إلى مشاكل خطيرة

تتعلق بالهوية يعاني منها الأمريكيون من أصول شرقية، على الأقل أولئك الذين ولدوا أو نشأوا هنا. إنهم يشعرون بعدم الانتماء للمكان. إنهم لا يختلفون عنك في شيء، هم أيضاً منشطرون من الداخل. ما هو الحل إذن؟ هل على الشرقي في الغرب أن يشعر إلى الأبد بأنه لا وطن له، يعيش غريباً، بصرف النظر عن الأجيال التي عاشت على أرض ذات ثقافة يهودية أو مسيحية، يعجزون دائماً عن الإيفاء بمتطلبات الانصهار أو التخلص من بقايا تراثهم القديم النبيل؟ أنت تقف عند هذه النقطة، مثل كل الأمريكيين من أصول آسيوية، تبحث عن الأمل.

كنت أعلم أنه يريد التصرّف معي بلطف، لذلك فعلت ما بوسعي لإبقاء وجهي خالياً من التجهم. أنا؟

نعم، أنت! أنت تجسد التآلف بين الشرق والغرب، تستنتج أن حاصل جمع واحد زائد واحد هو اثنان. لا يمكننا الآن أن نفصل الشرقي المادي عنك مثلما لا يمكن فصل الغربي المادي. وهذا ينطبق أيضاً على خصائصك السيكولوجية. لكن في الوقت الذي تشعر فيه أنك لا تنتمي للمكان اليوم، في المستقبل سوف يتغير الحال إلى حد ما! انظر إلى ابني الذي من أصول آسيوية. قبل مائة سنة كانوا سينظرون إليه كمسخ، سواءً في الصين أو في أمريكا. وحتى اليوم، الصينيون ما زالوا ينظرون إليه كشيء شاذ، لكن هنا حققنا تقدماً لا بأس به، ليس سريعاً كما نطمح أنا وأنت، لكنه يكفي للأمل في أنه عندما يصل إلى عمرك لن يُحرم من فرصة. بعد أن ولد على هذا التراب، يمكن أن يصبح رئيساً! هناك الكثير من أمثالكم ربما أكثر مما تتخيل، لكن أغلبهم يخجلون ويسعون للاختفاء بين تشابكات الحياة الأمريكية. أعدادكم تتزايد والديموقراطية تمنحك أفضل الفرص للتعبير عن صوتك. هنا باستطاعتك أن تتعلم كيف تتجنب التمزق إلى جانبين متعارضين، وبدلاً من ذلك تحقق التوازن بينهما وتستفيد من الجانبين. عليك أن تجري مصالحة لانتماءاتك وعندئذ تكون المترجم المثالي للجانبين، سفيراً للنوايا الحسنة يعمل على تحقيق السلام بين الأمم المختلفة!

أنا؟

نعم أنت! عليك أن تشذب تلك التناقضات التي تعلمها الأمريكان فطرياً، لكي تتوازن مع غرائزك الشرقية.

لم أعد أفهم.. تقصد على غرار مبدأ ين ويانغ21؟

تماماً!

تنحنحتُ متخلصاً من المذاق المر في حلقي، الارتداد المعوي لجانبيّ الشرقي والغربي. بروفيسور؟

هاه؟

هل يشكل أي فرق إذا أخبرتك أنني أوراسي الأصل، ولست أمريكياً من أصول آسيوية؟

نظر لي الأستاذ بعطف وأخرج غليونه.

كلا، يا ولدي، طبعاً لا.

***

في الطريق إلى المنزل، توقفت عند محل للبقالة واشتريت بعض الخبز الأبيض، والسجق، ولتراً بلاستيكياً من الشراب الروسي، وكمية من نشا الذرة، واليود. كنت أفضل نشا الرز تعاطفاً مع منتجات بلادي، لكن كان من السهل الحصول على نشا الذرة. حين وصلت إلى المنزل وضعت الأشياء التي اشتريتها جانباً وألصقت ورقة تحليل شخصيتي المزدوجة على الثلاجة. حتى الفقراء في أمريكا لديهم ثلاجات، ولا داعي لذكر ماء الإسالة، ومراحيض تتوفر فيها مستلزمات التنظيف، وكهرباء على مدار الساعة، وهي من وسائل الترفيه التي لا يملكها حتى بعض أفراد الطبقة الوسطى في بلادنا. لماذا أشعر بأني فقير؟ ربما للأمر علاقة بوضعي المعيشي. في بلادي هناك سريرٌ واحد بائس، في شقة من طابق واحد، السمة الغالبة عليها تلك الرائحة النتنة لجلود الحيوانات وأمعائها، أو هكذا كتبت إلى عمتي. في ذلك اليوم، كما في كل يوم، وجدت بون غارقاً في حزنه يتمدد على أريكتنا ذات القطيفة الحمراء. الوقت الوحيد الذي يغادر فيه الشقة عندما يذهب إلى عمله الليلي كبواب لكنيسة ررررامون المبجل، والتي تجمع الأموال إضافة إلى مهمتها في إنقاذ الأرواح. من أجل ذلك الهدف، ولإثبات أن المرء يستطيع أن يخدم الرب وشيطان الجشع في الوقت نفسه، كانت الكنيسة تدفع إلى بون نقوداً غير خاضعة للضريبة. مع عدم

وجود دخل مسجل رسمياً، لم يكن بون خاضعاً للضمان الاجتماعي، أو الحماية من البطالة، أو حالات العجز. هذا الوضع مناسب لبون وغيره من المنفيين الذين يفتقرون إلى مهارات مميزة، لأنهم غير محرومين من الرفاهية، التي يتلقاها فقط بدرجة هامشية من الخجل والإحساس بأنه لا يستحقها. بعد أن خدم بلاده مقابل أجرٍ زهيد، وخاض حرباً فرضتها أمريكا، توصل بعقلانية إلى أن الرفاهية أفضل تكريمٍ له بدلاً من أي ميدالية. لم يكن لديه اختيار آخر غير تقبل حظه، فلا أحد يحتاج رجلاً يستطيع القفز من الطائرات، أو الانطلاق وهو يحمل ثمانين رطلاً من المعدات، ويصيب الهدف بدقة متناهية بالمسدس والبندقية، ويتحمل اللكمات أكثر من أي مصارع محترف يدهن جسمه ويظهر على شاشة التلفزيون.

في تلك الأيام عندما كان بون يتلقى منحة الحكومة، أيام تشبه يومنا هذا، كان ينفق النقود على الشراب وبطاقات الإعاشة التي تكفيه لأسبوع من الوجبات المجمدة. فتحتُ الثلاجة ذات يوم لأخرج حصتي من الشراب وذهبت إلى بون في غرفة المعيشة، حيث سبق أن احتسى قرابة ست علب، والعلب الفارغة مبعثرة على السجادة. كان مستلقياً على ظهره على الأريكة، يمسك علبة أخرى باردة يضعها على جبهته. جلست على أفضل قطعة من الأثاث لدينا، أريكة بالية لكنها قابلة للاستعمال، وشغلت التلفزيون. كان للشراب لون ومذاق بول الأطفال، لكننا نتبع روتيناً عادياً ونشرب باستمتاع حتى نغيب عن الوعي. كنت أستيقظ أحياناً بين الساعات المتأخرة من الليل والساعات الأولى للصباح، وأحس برغوة مرّة في حلقي، وأنتفض فزعاً من رؤية رأسٍ مقطوع لحشرة عملاقة تطبق فكيها علي حتى أكتشف أخيراً أنه التلفزيون ذو اللوح الخشبي، بعد أن سقط هوائيه المزدوج. كنت أسمع النشيد الوطني يُعزف مع تمايل النجوم والأشرطة وخليط من اللقطات لجبال أرجوانية ونفاثات مقاتلة محلقة في السماء. فإذا أسدلت الستارة الثلجية الساكنة على الشاشة، أجرجر نفسي إلى مرحاضٍ تكثر على جوانبه طحالب بلا أسنان، ثم أتجه إلى السطح الأسفل للسرير في غرفة النوم الضيقة. حينذاك يكون بون قد صعد إلى السطح الأعلى. فأستلقي وأتخيل أننا ننام كما ينام الجنود في ثكناتهم وإن كان أقرب مكان في تشايناتاون حيث بإمكان المرء شراء مثل هذه الأسرّة المزدوجة هو قسم الأطفال في أحد المحلات الصينية الفخمة، هناك يراقبنا المكسيكيون أو الناس الذين يبدون مثل المكسيكيين بعيون مرتابة. لم أكن أفرّق بين أي شخص من النصف الجنوبي للكرة الأرضية

عن غيره لكني أفترض أنهم لن يعتبروا ذلك إساءة، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنهم أنفسهم يدعونني شينو إذا نظروا إلى وجهي. إنهم مثلنا تماماً، نحن زملاؤهم الملونون في هذه المدينة المجدبة، يعقدون صفقات لاغتصاب ما يمكن اغتصابه من أشخاص لا يملكون أن يقولوا لا، رداً على ذلك، ويبدون استعداداً لتسوية ضرائب المبيعات حتى إذا دفع الزبائن أوراقاً نقدية بالية. إنها من طرق الأمريكان، تفهم دون حاجة للكلام من قبل المهاجرين إلى مستعمراتهم.

مرت ساعة لكني عجزت عن النوم. ذهبت إلى المطبخ وأكلت ساندويتش السجق بينما كنت أعيد قراءة رسالة من عمتي وصلت يوم أمس. ابن أخي العزيز، هكذا كتبت، أشكرك كثيراً على رسالتك الأخيرة. الجو كان فظيعاً في الفترة الماضية، بارداً جداً والرياح شديدة. وسردت في رسالتها بعض التفاصيل عن الأزهار في حديقتها، ونزاعها مع زبائنها في المحل، والنتيجة الإيجابية لزيارتها للطبيب، لكن لا شيء مهم عدا الإشارة إلى الجو، فهي تخبرني أن بين السطور رسالة من مان بالحبر السري مخفية بنشا الرز. غداً، حين يذهب بون إلى عمله في ساعات الليل المتأخرة لتنظيف الكنيسة، سوف أجد محلول اليود المذاب في الماء ليكشف سلسلة من الأرقام بالحبر الأرجواني. تلك الأرقام تشير إلى الصفحة والسطر والكلمة من كتاب ريتشارد هيد (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار)، والكلمة المشفرة التي اختارها مان ببراعة من الكتاب الذي أصبح من أكثر الأشياء أهمية في حياتي. من خلال رسائل مان السرية، عرفت أن معنويات الناس عالية، وإعادة بناء البلاد تتقدم بوتيرة بطيئة لكنها مؤكدة، وأن رؤساءه مسرورون من التقارير التي أرسلها. ولماذا لا يكونون كذلك؟ فلا شيء يحدث وسط المنفيين غير نتف الشعر وصرير الأسنان. بالكاد كنت أحتاج للكتابة عن ذلك بالحبر السري الذي أعمله من نشا الذرة والماء.

بقي شيءٌ يلح على ذاكرتي ووجداني، هذا الشهر تصادف الذكرى السنوية الأولى لسقوط سايغون، أو تحريرها، أو كلاهما، كتبتُ إلى عمتي بمناسبة مرور سنة على المحنة. رغم أنني تركت البلاد بمحض إرادتي ولم تجبرني الظروف، لكني أعترف بأنه لم يكن باستطاعتي إلا الإحساس بالأسف على بلدي الحزين، شبح الخسارة يلوح أمام عيني حتى رحت أتمشى كالمغفل على الضفة الضبابية للذاكرة. عمتي العزيزة، الكثير من الأشياء حدثت مؤخراً. تلك الرسالة عبارة عن تاريخ متشعب الجوانب للمنفيين منذ رحيلهم من

المخيم، من منظور عيونهم المغرورقة بالدموع، حكايات تثير دموعي أنا أيضاً. وصفت كيف أن أحداً منا لم يسمح له بالخروج دون كفيل، وواجب هذا الكفيل ضمان أننا لن نتطفل على أثداء دولة الرفاهية الكريمة. أولئك الذين لم يحصلوا على من يكفلهم كتبوا رسائل يتوسلون فيها إلى الشركات التي سبق أن عملوا معها، وكتبوا إلى الجنود الذين كانوا مستشارين لنا، وكتبوا إلى عشيقاتهم اللواتي شاركنهم السرير، وكتبوا إلى الكنائس لعلها تشفق عليهم، وكتبوا إلى أبعد شخصٍ يعرفونه، على أمل الحصول على كفالة. البعض تُركوا وحدهم، وآخرون مع عائلاتهم، بعضها مشتتة وأخرى مكدسة تعيش معاً، واضطررنا للبقاء في أجواء غربية حارة تذكرنا بالوطن، لكن الأكثرية توزعوا على ولايات لا تستطيع ألسنتنا النطق بأسمائها: الاباما، اركنساس، جورجيا، كنتاكي، ميسوري، مونتانا، ساوث كارولينا، وما إلى ذلك. كنا نتكلم عن جغرافيتنا باللهجة الإنكليزية التي نعرفها، فكل مقطع يأتي مشدداً، شيكاغو تصبح شيكاهغو، ونيويورك تلفظ بشكل أقرب إلى نيوارك، وتكساس تتكسر إلى تيكس.. آس، وكاليفورنيا الآن هي كالي. قبل أن نغادر المخيم، تبادلنا أرقام الهواتف والعناوين في المناطق الجديدة التي نتوجه إليها، كنا نعرف أننا يمكن أن نحتاج إلى منظومة تلغراف خاصة باللاجئين لمعرفة أي مدينة تتوفر فيها أفضل الأعمال، وأي ولاية فيها أقل الضرائب، وأفضل مزايا الرفاهية، وأقل ممارسات العنصرية، وأكثر الناس فيها يشبهوننا ويأكلون الأشياء التي نأكلها.

إذا سمحوا لنا بالبقاء معاً، أخبرت عمتي، يمكننا أن نندمج ضمن مستعمرة ذات مساحة محترمة مكتفية ذاتياً تشكل بثرة على أرداف السياسة الأمريكية، لها سياسيوها، وضباط شرطة، وجنود، ومصارفنا الخاصة، ووكلاء مبيعات، ومهندسون، وأطباء، ومحامون، ومحاسبون، وطهاة، وعمال نظافة، وخادمات، وأصحاب مصانع، وميكانيكيون، وموظفو مكاتب، ولصوصنا، وعاهراتنا ومجرمونا، وكتابنا، ومغنونا وممثلونا، وعباقرتنا، ومدرسونا، ومجانيننا، وكهنتنا، وممرضاتنا ورهباننا، بوذيون وكاثوليك، وأناس من الشمال، وآخرون من الوسط، وغيرهم من الجنوب، وفينا الموهوبون، والبسطاء، والأغبياء، وطنيون، وخونة، ومعتدلون، ومخلصون، وفاسدون وغير مبالين، تلك الجماهير كافية لانتخاب ممثلٍ لنا في الكونغرس فيكون لنا صوت في أمريكا، ولنا سايغون مصغرة تناظرها في الجمال، وأسباب السعادة فيها غير معطلة مثلما في النسخة الأصلية. لكن السبب المحدد في عدم السماح لنا بالبقاء معاً أن البيروقراطية هي التي وزعتنا على خطوط الطول والعرض من عالمنا

الجديد. وجدنا أنفسنا، ووجد بعضنا البعض الآخر، موزعين إلى قبائل صغيرة تتجمع في الأقبية، والكنائس، والباحات الخلفية خلال عطلات نهاية الأسبوع، وعند الشواطئ حيث نأتي بأطعمتنا ومشروباتنا في أكياس بدلاً من شرائها بأسعار مخفضة. بذلنا ما بوسعنا للإبقاء على عاداتنا في الطبخ التي توارثناها من ثقافتنا، ولأننا نعتمد على الأسواق الصينية كان لأطعمتنا مذاق صيني لا نتقبله، وتلك ضربة موجهة لإذلالنا جعلتنا لا نفرّق بين المذاق الحلو أو المر للذكريات التي لا نعوّل على مصداقيتها، هذا صحيح بما يكفي لإثارة الحنين إلى الماضي في نفوسنا، وخاطئ بما يكفي لتذكيرنا بأن الماضي ولّى إلى الأبد، الماضي الذي افتقدناه واختلط بالتنوع الخلاق، والوجه المتجهم لتعقيدات واقع الذوبان الشامل، كأننا صلصة السمك. أوه، صلصة السمك! كم أشتاق إليها، يا عمتي العزيزة، فلا شيء له طعم مميز في أفواهنا بدونها، كم أشتاق إلى شراب من جزيرة فوكيوك والأطباق المملوءة إلى حوافها بأفضل أنواع العنب الذي يؤتى به على القوارب النحيفة! هذا السائل اللاذع المتبل ذو اللون البني الداكن أفسد سمعته الأجانب الذين زعموا أن مذاقه مدخّن مقرف، ومنحوا معنى جديداً لعبارة «هناك رائحة زفارة هنا»، لأننا من عشاق السمك، فنحن نستعمل صلصة السمك ولا نختلف في هذا عن القرويين من ترنسلفانيا الذين يلبسون قفازات مدهونة بالثوم لطرد مصاصي الدماء، وفي حالتنا نحرص على اختلافنا عن أولئك الغربيين الذين لا يتمكنون من فهم أن ما تفوح منه رائحة السمك هو الجبن الذي يثير رائحته الاشمئزاز. أي سبيل للمقارنة بين السمك المدخن والحليب المخثر؟

لكن بعيداً عن الاختلاف مع مضيفينا لم نتخلَّ عن مشاعرنا بالاعتزاز بأنفسنا، كان بعضنا يجلس قرب البعض على أرائك خشنة وسجاد قذر، وركبنا تتلامس تحت مطبخ مزدحم بالطاولات عليها نفاضات سجائر مسننة تقيس الزمن مع تراكم الرماد، نمضغ سمك الصبار المجفف ونجتر الذكريات حتى يحس أحدنا بالألم في فكيه، ونتبادل حكايات سمعناها مرات ومرات عن أبناء جلدتنا المشتتين. تلك الجلسات عرفنا فيها أشياء وأشياء عن القبيلة التي تحوّل أفرادها إلى عبيد في مزارع موديستو، وتلك الفتاة الساذجة التي هربت لتتزوج حبيبها المدافع عن الحلم الأمريكي في سبوكاين ثم باعوها إلى صاحبة ماخور، والأرمل الذي لديه تسعة أطفال وخرج إلى مينيسوتا في فصل الشتاء واستلقى على الثلج على ظهره وفمه مفتوح فتجمد ومات، والرجل الذي كان يعمل حارساً واشترى مسدساً وبعث زوجته وطفليه إلى مكان ما قبل أن يقتل نفسه في كليفلاند، واللاجئين

المساكين في غوام الذين كانوا يتوسلون لكي يرجعوا إلى فيتنام، ولم يُسمع عنهم شيء بعد ذلك، والفتاة التي أغوتها نجمة سينمائية واختفت عن الأنظار في شوارع بالتيمور، وزوجة السياسي التي كتب عليها أن تنظف الشراشف في مستشفى للتمريض وهجمت في أحد الأيام على زوجها بسكين المطبخ، ثم أودعت في جناح المجانين، وأربعة مراهقين وصلوا دون عائلاتهم وانتهى بهم المطاف في كوينز، وسطوا على متجر مشروبات وقتلوا موظفاً قبل أن يزج بهم في السجن لعشرين سنة، وذلك البوذي الذي صفع زميله في المدرسة الابتدائية واعتقل بتهمة الإساءة للأطفال في هوستون، وإقطاعي سابق كان يبادل بطاقات التموين في مقابل عيدان الطعام وفرضت عليه غرامة بتهمة خرق القانون في سان خوسيه، والزوج الذي صفع زوجته السليطة اللسان لأنها تستحق ذلك وسجن بتهمة ممارسة العنف في راليخ، والرجال الذين هربوا وتركوا زوجاتهم وراءهم وسط المعمعة، والنساء اللواتي هربن وتركن أزواجهن وراءهن، والأطفال الذين هربوا من غير آبائهم وأجدادهم، والعائلات التي فقدت طفلاً، أو طفلين، أو ثلاثة، والأشخاص الستة الذين ناموا في غرفة مكتظة باردة في تيري هاوت بداخلها موقد فحم نحاسي للتدفئة ولم يستيقظوا أبداً، ثم حُملوا إلى الظلام الأبدي على سحابة غير مرئية من أول أوكسيد الكاربون. ومع ذلك كنا نغربل التراب بحثاً عن الذهب، هنا أذكر قصة ذلك الطفل اليتيم الذي تبناه ملياردير من كنساس، والميكانيكي الذي اشترى بطاقة يانصيب من ارلنغتون وأصبح مليونيراً، والفتاة التي انتخبت قدوة لصفها في المدرسة الثانوية في باتون روج، والصبي الذي تم قبوله في هارفارد من فوند دولاك بينما ما زال الوحل من كامب بندلتون عالقاً بحذائه الرياضي، والنجمة السينمائية التي تحبينها كثيراً، يا عمتي العزيزة، التي كانت تدور حول العالم من مطارٍ إلى آخر، دون أن يسمح لها أي بلد بالدخول بعد سقوط سايغون، لا أحد من أصدقائها من نجوم السينما الأمريكية كان يرد على مكالماتها إلى أن اتصلت بآخر عميلة لديها بتيبي هيردن التي أوصلتها إلى هوليوود بالطائرة. وهكذا حدث أن غسلنا أنفسنا بالحزن وجففناها بالأمل، ومن أجل ذلك صدّقنا كل إشاعة نسمعها، وكل واحد منا رفض أن يصدق أن أمتنا ماتت.

الفصل الخامس

قرأتُ الكثير من الاعترافات قبل هذا، لكني بعد أن قرأت ملاحظاتك عما أعترف به الآن، أشك أيها القائد العزيز، بأن هذا الاعتراف لن يكون مماثلاً لما اعتدت أن تقرأه. لست ألومك لأني أعرف جيداً الخصائص غير المألوفة لاعترافاتي - اعترافاتي أنا فقط. إنني متهم بالإخلاص، وهذا نادراً ما حصل لي في شبابي. لماذا أبدأ الآن، وسط هذه الظروف، بالاعتراف داخل غرفة منعزلة من ثلاثة أمتار في خمسة؟ ربما لأني لا أفهم سبب وجودي هنا. على الأقل عندما كنت من الخلايا النائمة عرفت لماذا أعيش حياتي بالشيفرات. لكن ليس الآن. إذا كنت مداناً - أو إذا وجهتم لي الإدانة فعلاً، كما أظن - على الأقل ينبغي تقديم مبرراتي، بالأسلوب الذي أختاره بنفسي، بصرف النظر عن نظرتكم إلى أفعالي.

ينبغي أن تثني عليّ، كما أتصور، للمخاطر الحقيقية والمضايقات التي تحملتها. كنت أعيش مثل خادمٍ مقيد بالسلاسل، أو كلاجئ همّه الوحيد أن ينال فرصة للتمتع بالرفاهية. بالكاد نلت فرصة حتى للنوم، لأن أي عميل من الخلايا النائمة لا بد أن يصاب بالأرق. ربما كان جيمس بوند ينام عميقاً على سرير من المسامير، تلك حياة الجواسيس، لكني لا أستطيع النوم. من السخرية أن عملي كجاسوس كان حتى اليوم يجعلني أنام، فك شيفرة رسائل مان وتشفير رسائلي بالحبر السري. فكل رسالة تشفر كلمة بكلمة تحتاج إلى جهود مضنية، يجب أن تكون كلمات المرسل والمستلم مختصرة قدر الإمكان، ورسالة مان التي فككت شيفرتها في المساء التالي تقول ببساطة: إنه عمل رائع، شتت الانتباه عنك، وجميع المخربين محتجزون الآن.

أجلت تشفير جوابي على رسالتك إلى ما بعد الافتتاح الكبير لمتجر المشروبات الذي اشتراه الجنرال، والذي كما قال، سوف يديره كلود. لقد تكلمنا معاً عدة مرات هاتفياً لكنني لم أشاهد كلود منذ كنا في سايغون. لكن هناك سبب آخر دعا الجنرال للرغبة بأن يراني شخصياً، أو هكذا نقل لي بون بعد بضعة أيام حين زرته في المتجر. لقد استخدم تواً للعمل ككاتب، وباستطاعته القيام بذلك بينما ينظف أروقة الكنيسة ضمن جزءٍ من وقته. رجوت الجنرال أن يشغّل بون معه، وكان سعيداً لأنه الآن سوف يمضي المزيد من الساعات يمشي على قدميه بدلاً من البقاء مستلقياً على ظهره. لماذا يريد أن يراني؟ قلت. فتح بون الثلاجة الأثرية وأخرج أجمل مقتنياتنا في ذلك الوقت، زجاجة فضية من شراب شليتز. هناك خائنٌ في صفوفنا. تريد شراباً؟

سوف آخذ اثنتين.

موعد الافتتاح الكبير في نهاية نيسان، تزامناً مع الذكرى السنوية لسقوط، أو تحرير، أو كلاهما، سايغون. يصادف ذلك اليوم الجمعة، وكان عليّ أن أسأل السيدة موري إن كنت أستطيع المغادرة قبل نهاية الدوام. رغم أنني ما كنت لأطلب منها ذلك في أيلول، خلال نيسان اتخذت علاقتنا منحى غير متوقع. طوال الأشهر الماضية كنت أتقرب منها، ويدرس أحدنا الآخر أثناء تدخين السجائر، وخلال كل تلك المحادثات التي تدور عادة بين زميلين في المكتب، ثم في ساعاتٍ متفرقة بعد العمل بعيداً عن الحرم الجامعي. لم تكن السيدة موري ذات طبيعة محافظة، أو بيروقراطية كما ظننتها، إذا نظرنا إلى ميولها في انتقاء الثياب، وشغفها بفرق الجاز الشهيرة، وحقيبتها البنية، وبرودتها السابقة في التعامل معي. أصبحنا صديقين في الواقع، إذا كانت هذه الكلمة تصلح لوصف قبلات الغرام التي كنا نتبادلها مرة أو مرتين في الأسبوع في شقتها في حي كرينشاو، والعناق مرة أو مرتين أسبوعياً في مكتب رئيس القسم، ومداعباتنا الليلية على المقعد الخلفي لسيارتي الفورد الذي يصدر صريراً مزعجاً.

مثلما أوضحت بعد أول فصلٍ رومانسي لنا، قلبي الطيب أقنعها لاحقاً بأن تدعوني لتناول الشراب «في أي وقت تشاء». واستجبتُ لدعوتها بعد أيام فالتقينا في حانة صغيرة في سلفرليك، يتردد عليها بعض الرجال الغلاظ بقمصان من هاواي ونساء تنوراتهن بالكاد تخفي أردافهن المكتنزة. كانت أضواء براقة تحيط بالمدخل، بينما في الداخل علقت أقنعة

وحوش مخيفة من جزر المحيط الهادئ على ألواح الجدران، الشفاه كأنها تقول اوغا بوغا. والضوء الخافت يبعث على الاسترخاء من شموع على الطاولة تقطعه ظلال فتيات عاريات الصدور بشرتهن بنية وملابسهن خفيفة بلون العشب. والنادلة عليها تنورة بلون القش اليابس يضاهي لون شعرها، وأعلى البكيني يشبه جوز الهند. أحياناً بعد ثالث كأس، تضع السيدة موري يدها اليمنى على حنكها، والمرفق على البار، وتتركني أشعل سيجارتها، هذه الحركة في نظري من أكثر ممارسات الإغراء إثارة والتي ليس بإمكان أي رجل تحملها. كانت تشرب وتدخن كأنها نجمة استعراض سينمائية، أو إحدى السيدات اللواتي يضعن حمالات صدر محشوة وكتافيات ويتكلمن لغة أخرى مليئة بالغمز واللمز والمعاني المزدوجة. نظرت لي مباشرة، وقالت، لدي اعتراف أدلي به. ابتسمتُ وظننت أن دماملي أعجبتها. إنني أعشق الاعترافات، قلت. هناك شيءٌ غامض في شخصيتك، قالت. لا تُسِئ فهمي، لا يتعلق الأمر بكونك طويل القامة، أو داكن البشرة، أو وسيماً. أنت مجرد رجل أسمر، لا تخلو من الوسامة. في البداية، حين سمعتُ عنك والتقيت بك لأول مرة، فكرت، يا له من شيءٍ عظيم.. إنه يشبه العم توماس.. إنها صفقة رابحة حقاً، رجل نقي السريرة تماماً. ليس لصاً، بل يأسر الألباب. يسمونه سارق الرز في بلاده. طريقة تصرفك مع الغرباء! البيض يحبونك، أليس كذلك؟ لكنهم متيمون بي. يعتقدون أنني دمية صينية صغيرة محبوبة، أو يابانية مشدودة الساقين. لكني لا أتكلم معهم كثيراً حتى يحبوني، أو على الأقل لا أتكلم كما ينبغي. لا أعرض عليهم كل المفاتن التي يحبونها، الدبابيس في شعري نوع من ذلك الهراء الذي تجده في فيلم سوزي وونغ[22]، أنت لا تختلف عن أي رجل أبيض نصادفه، وليم هولدن أو مارلون براندو، حتى إذا بدا شكله مثل الوسيم مايكي روني. أنت بارع في الكلام، هذا مؤثر جداً. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك. أنت مستمع جيد أيضاً. لقد أتقنت فن الابتسامة الشرقية الغامضة، تجلس هناك وتومئ برأسك أو تغمز بحواجبك بتعاطف وتترك الناس يتصورون أنك موافق على كل شيء، من غير أن تقول كلمة. ما رأيك؟

سيدة موري، قلت، أستغرب ما أسمعه منك. أراهن على ذلك، قالت. نادني صوفيا، بحق المسيح. لم أعد مجرد زميلتك في العمل. اطلب لي كأساً أخرى وأعطني سيجارة. أنا في السادسة والأربعين ولست أبالي بالاعتراف بهذا، لكنني أخبرك أن المرأة حينما تبلغ السادسة والأربعين وتعيش بالطريقة التي تريدها، فهي تعرف كل شيء أو كل ما ينبغي

معرفته عن العمل في الخفاء. الأمر لا علاقة له بالرغبة الجنسية أو ما يسمى في الثقافة الهندية كاما سوترا أو في الصين «سجادة الصلاة الدنيوية»23 أو أي شيء من ذلك الهراء الذي يتشدق به رئيس قسمنا المحبوب. أنت تعملين معه منذ ست سنوات، قلت. ومع ذلك فأنا لا أعرفه جيداً حتى الآن، قالت. ربما كان طيفاً في خيالي، كلما فتحت باب مكتبه يتوقف عن الكلام في الهاتف؟ هل يدخن التبغ في مكتبه.. وما رائحة البخور تلك؟ لا يمكنني إلا الإحساس بأنه محبط قليلاً مني لأني لا أنحني له كلما رأيته. عندما قابلني أراد أن يعرف ما إذا كنت أتكلم اليابانية. وأوضحت له أنني ولدت في غاردينا. قال، أوه، أنت من أصول مهاجرين يابانيين nisei، كما لو أن تلك الكلمة تعني معرفة كل شيء عني. لقد نسيت ثقافتك، سيدة موري، وإن كنت فقط من الجيل الثاني. والداك يتمسكان بثقافتهما. ألا تحبين تعلم اليابانية؟ ألا تحبين زيارة اليابان؟ منذ زمنٍ طويل كنت أحس بالقلق من هذا الوضع. أتساءل لماذا لم أتعلم اليابانية، لماذا لا أتكلم اليابانية الآن، لماذا أفضل الذهاب إلى باريس أو إسطنبول أو برشلونة بدلاً من طوكيو. لكني آنذاك فكرت، من يبالي بكل هذا؟ هل سأل أي إنسان جون ف. كينيدي إن كان يتكلم الغيلية القديمة عندما زار دبلن أو إن كان يأكل البطاطا كل ليلة أو إن كان يجمع رسوم السنافر الإيرلندية؟ إذن لماذا لا ننسى ثقافتنا؟ أليست ثقافتي هي السائدة هنا ما دمت قد ولدت هنا؟ بطبيعة الحال لم أوجه إليه تلك الأسئلة. ابتسمت فقط وقلت، أنت على حق، يا سيدي. وهنا تنهدت. إنه واجبي. لكني سوف أخبرك بشيء آخر. منذ أن توصلت إلى قرار أنني لم أنسَ شيئاً، أنني أعرف ثقافتي جيداً، وهي الثقافة الأمريكية، وأعرف لغتي، وهي الإنكليزية، أحسست أنني أعمل جاسوسة في مكتب ذلك الرجل. من الناحية السطحية، أنا سيدة عجوز بسيطة اسمها موري، كيان ضئيل تافه أضاع جذوره، لكن في العمق، أنا صوفيا ومن الأفضل لك أن لا تعبث معي.

تنحنحت. سيدة موري؟

آها؟

أعتقد أنني وقعت في غرامك.

بل وقعت في غرام صوفيا، قالت. دعنا نوضح شيئاً، أيها اللعوب. إذا ارتبطنا معاً، وهذا أقصى ما يمكن أن نصل إليه، فلا أشياء تربطنا. لن تحبني ولن أحبك. وهنا نفثت

تيارين من الدخان. تعرف أنني لا أؤمن بالزواج ولكني أؤمن بالحب المتحرر من كل القيود.

يا لها من مصادفة، قلت. وأنا كذلك.

***

حسبما قال بنجامين فرانكلين، وتعلمت الشيء نفسه من البروفيسور هامر منذ عقدٍ من الزمن، العشيقة الأكبر منك سناً تكون أجمل، أو هكذا نصح الأب المؤسس أحد الشباب. لا أتذكر فحوى رسالة الحكيم الأمريكي، أذكر فقط نقطتين منها: العشيقات الناضجات «لسن ناكرات للجميل!!» ولعل هذا ينطبق على الكثير من النساء، لكنه لا ينطبق على السيدة موري. إذا أردنا الصدق، هي لا تتوقع مني أن أكون ناكراً للجميل، وأنا فعلاً لست ناكراً للجميل. استسلمت لأن أكون مصدر العزاء وأفضل صديقٍ للإنسان، بمعنى آخر، أسعى لتوفير المتعة لنفسي، ويقيناً لا أمتلك أسباب السلوى للغواني. والآن يواجهني الحب المتحرر، وجوده يشكل تحدياً ليس فقط للرأسمالية كما تتجلى في مشد الخصر والردفين، أو ربما لمفتاح العفة، من خلال مبرراته العنصرية البروتستانتية، لكنه شيء غريب على الشيوعية بشخصيتها الكونفوشيوسية. هذا من سلبيات الشيوعية التي أريد تجاوزها في نهاية الأمر، أي الاعتقاد بأن كل رفيق يفترض أن يكون مثل قروي نزيه يكرس جهده وانتماءاته العرقية لأغراض الزراعة فحسب. في ظل الشيوعية الآسيوية، كل شيء باستثناء الجنس يعتبر من الحرية، لأن الثورة الجنسية لم تحصل بعد في الشرق. والسبب أن المرء إذا نال كفايته من الجنس لكي ينتج ستة أو ثمانية من الذرية، كما هي الحال عموماً بالنسبة للعائلات في البلدان الآسيوية (وفقاً لرأي ريتشارد هيد)، فلن يحتاج إلى ثورة تطالب بالمزيد من الجنس. بينما الأمريكان بعد أن تلقوا التلقيح ضد إحدى الثورات أصبحوا يقاومون ثورة أخرى، يهتمون فقط بالحب المتحرر كما يتجلى في الطيش الاستوائي، وليس الانصهار السياسي معه. لكن برعاية السيدة موري ومثابرتها أدركت أن الثورة الحقيقية أيضاً تتضمن التحرر الجنسي.

هذه البصائر ليست بعيدة عن آراء السيد فرانكلين. ذلك العجوز الخبيث المترف أدرك أهمية الجنس في السياسة، إذ كان يغوي السيدات كما يغوي السياسيين في التماساته للحصول على مساعدة الفرنسيين إبان الثورة الأمريكية. لهذا كانت فحوى

رسالة الأمريكي الأول إلى صديقته الشابة تنص على: أن تكون لدينا جميعاً عشيقات ناضجات. هذا لا ينطوي على إيحاءات جنسية مثلما قد يبدو، فالمعنى أن النساء الناضجات لا بد أن يرغبن بعلاقات مع عشاق أصغر منهن. وإذا لم تكن الدقة دائماً متوفرة ضمن خطاب تلك المعزة العجوز، فالحقيقة الشيقة موجودة. والمسألة الثانية التي كان يعنيها الرجل الوسيم تحديداً أن جاذبية السن تعمل عملها من القمة إلى الأسفل بمرور السنوات. هذا يبدأ بملامح الوجه، ثم نزولاً إلى العنق، والصدر، والبطن، الخ.، بحيث تكون العشيقة الناضجة مكتنزة ورقراقة بعد أن جفت صورتها وبهتت ألوانها وأنهكت ملامحها، وفي هذا الحالة بإمكان المرء ببساطة أن يضع سلة على وجهها.

هذا لا ينطبق حتماً على السيدة موري، لأن قسماتها لم تتأثر كثيراً بالعمر فبقيت رغم كل شيء مغرية. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعلني سعيداً أن نجد رفيقة لبون، الذي على قدر معلوماتي، كان يمارس مناوراته الانفرادية. إنه دائماً خجول، يبلع ترياق الكاثوليكية بجدية، ويشعر بالإحراج ويسخر من الجنس أكثر من أشياء أخرى أتصور أنها أكثر صعوبة، مثل قتل البشر، هذا ما يميز تاريخ الكاثوليكية، حيث لا يفترض أن تحصل حالات شذوذ جنسي متماثل أو متغاير، أو أشكال مختلفة من الشذوذ، فتلك أسرار مخبأة تحت ثياب كهنة الفاتيكان. البابوات، والكرادلة، والأساقفة، والقساوسة والرهبان يمارسون الرذيلة مع النساء، والفتيات، والصبيان، ومع بعضهم؟ وبالكاد يُناقش الأمر! ليس لأن هناك خطأ بهذه الممارسة - إنه النفاق الذي تفوح منه رائحة عفنة، وليس الجنس. لكن عندما تمارس الكنيسة القتل والتعذيب، وتصلب المعارضين، أو تصيب بالأمراض المعدية الملايين من البشر باسم إلهنا المخلص، من بلاد العرب إلى الأمريكتين؟ يُرد على ذلك بكلمات الأسف الممزوج بالتقوى التي لا تنفع، إذا حدث ذلك على أي حال.

أما فيما يتعلق بي، فالأمر على العكس من ذلك. منذ أيام المراهقة المحمومة كنت أمتع نفسي بالتمارين الرياضية مستخدماً اليد نفسها التي أرسم بها الصليب في صلاتي الساخرة. بذرة التمرد الجنسي تطورت ذات يوم إلى ثورة سياسية، تجاوزتُ فيها كل مواعظ أبي عن أن الجماع الناقص لا بد أن يؤدي إلى العمى، وإلى نمو الشعر على راحتي اليدين، وإلى العجز (نسي أن يذكر أعمال التخريب). لو كنت سأذهب إلى الجحيم، فليكن ذلك! بعد أن وطدت علاقتي مع الخطايا التي أرتكبها ضد نفسي، أحياناً على مدار

الساعة، فهي مسألة وقت قبل أن أرتكب الخطيئة ضد الآخرين. لذلك ارتكبت أول عمل غير طبيعي في سنتي الثالثة عشرة مع سمك الصبار التالف الذي كنت أسرقه من مطبخ أمي، حيث كان بانتظار مصيره إلى المقلاة مع رفاقه. أوه، سمك الصبار المسكين، البريء، الأبكم! أنت بطول يدي، وحين تقطع الرأس، واللوامس، والأحشاء يتخذ الشكل الوسيم للواقي الذكري، رغم أنني لم أعرف معنى ذلك. في جوفه تناسق لزج أملس لأعضاء الأنثى كما تخيلتها، ليس لأني سبق أن رأيت هذا إلى جانب الأشياء التي يعرضها الأطفال والمراهقون الذين يركضون وهم عراة أو لا يلبسون شيئاً أسفل الخصر في طرقات بلدتي وساحاتها. هذا المنظر كان يثير سخرية وحنق سادتنا الفرنسيين الذين يعتبرون هذا العري الطفولي دليلاً على همجيتنا، الأمر الذي يمكن أن يبرر عمليات الاغتصاب التي يقومون بها، والنهب والسلب، وكلها مسموح بها باسم التقوى من خلال جعل أطفالنا يلبسون بعض الثياب حتى لا يشكلوا مصدر إغراء للنصارى الأتقياء الذين تتأثر أرواحهم وأجسادهم بالمنظر. استطرد هنا! أعود إليك، أنت الذي سرعان ما تنتهك حرمتك يا سمك الصبار: أدس إصبعي داخل فوهتك، من باب الفضول فحسب، صوت الامتصاص قوي بحيث يخلق خيالي المحموم علاقة مع جسد أنثوي يستحوذ على هواجسي خلال الشهور الماضية. من غير تصريح، خارج نطاق سيطرتي، تتوثب شهوة مجنونة لتحتل الصدارة، تغريني لأتقدم إليك، أدعوك، يا من سحرتني تعال هنا! رغم أن أمي من المتوقع أن تعود عما قريب من جولتها، وفي أي لحظة يمكن أن يمر أحد الجيران ويطل من نافذة مطبخنا ويمسك بي متلبساً مع عروسي الرخوية، ومع ذلك تنزل ثيابي. وبينما أكون منوماً مغناطيسياً بأنين سمك الصبار واستجابتي له، أرتكب جريمتي، ولسوء الحظ تكون جريمة كاملة. أقول لسوء الحظ لأنه من ذلك الوقت لم تسلم سمكة صبار واحدة مني، لا أعني أن هذا يخفف حالة البهيمية - على كل حال، أيتها السمكة المنحوسة، أنت ميتة، مع أنني أرى الآن كيف يثير الأمر تساؤلات أخلاقية - لا أعني أن هذه الجريمة تحصل دائماً، لأن سمك الصبار يندر الحصول عليه في بلدتنا المحاصرة بين الأراضي. كان أبي يأتي به هدية لأمي، لأنه رجلٌ يحب الأكل. الكهنة دائماً يحظون باهتمام يغدقه عليهم معجبون كأنهم نجوم السينما، ربات البيوت المخلصات والرعايا الأثرياء الذين يعاملونهم كما لو كانوا حراساً وحيدين على الخيط المخملي الذي يمنع الدخول إلى ذلك النادي الليلي الذي لا يسمح بدخوله إلا لصفوة القوم، الفردوس. المعجبات يدعونهم على العشاء، ينظفن

حجراتهم، يحضّرن طعامهم، يرشوهم بالهدايا من أنواع مختلفة، منها الأكلات البحرية الشهية والغالية الثمن التي لا تستطيع امرأة فقيرة مثل أمي شراءها. في الوقت الذي لم أشعر فيه بالخجل من تصرفاتي الهوجاء، كان يثقل كاهلي إحساسٌ بالذنب حالما تعود لي حالتي الطبيعية، ليس بسبب أي شعور بانتهاك الأعراف الأخلاقية، وإنما لأني لا أتحمل حرمان أمي من لقمة شهية. لدينا ست سمكات وهي ستلاحظ بطبيعة الحال ما ينقص منها. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ وسرعان ما تسعفني فكرة شريرة وأنا أمسك سمكة الصبار المخدرة وأنفض عنها الطحين بيدي، أنظر إليها بدناءة. أولاً، ينبغي إزالة آثار الجريمة عنها. وثانياً، تقطيع بعض الشقوق في الجلد للتعرف على الضحية. ثم انتظار العشاء. وتعود أمي المسكينة إلى كوخنا البائس، تحشو السمك بالتوابل، والفاصوليا والمعكرونة، ومكعبات الفطر، والزنجبيل المطحون، ثم تقليها وتقدمها مع صلصة الزنجبيل والليمون التي تقطر منها. هناك على الطبق تضطجع سمكتي المحبوبة، جاريتي المهجورة، أميزها من خلال ما فعلته يدي، وتطلب مني أمي أن أخدم نفسي بنفسي، أمسكها فوراً بالعيدان كي لا تأخذها أمي قبلي. أتوقف عن الأكل، وأمي تترقب، عيناها تحومان حولي، ثم أغمس السمكة في صلصة الزنجبيل والليمون وأتناول أول قضمة. طيبة؟ تقول أمي. ش.. ش.. شهية، أقول متلعثماً. جيد، لكن عليك أن تمضغها ولا تبلعها في لقمة واحدة، يا ولدي. على مهلك. طعمها أفضل بتلك الطريقة. نعم، أمي، أقول. وهكذا يبتسم الولد المطيع بشجاعة ويمضغ ببطء ويلتهم باقي سمكاته المدنسة، ومذاقها المملح يمتزج بنظرات الأم الحنونة.

لا شك أن البعض سوف ينظرون إلى ما قلته هنا على أنه إسرافٌ في الإباحية. لكن لست أنا! أليست المذابح من الإباحية؟ وأعمال التعذيب، وثلاثة ملايين ضحية يموتون، ألا تعتبر هذه إباحية؟ ذلك الطيش الصبياني، حتى مع سمكة صبار عديمة الإحساس، ليس بالشيء العظيم. قبل كل شيء أنا ممن يعتقدون أن العالم سيكون أفضل إذا جعلتنا كلمة «جريمة» نغمغم ونتذمر ونستنكر مثلما نفعل حين نسمع بتلك الممارسات الصبيانية. ومع ذلك فأنا عاشق أكثر من أن أكون مقاتلاً، اختياراتي السياسية وخدمتي في الشرطة السرية بالتالي أجبرتني على تهذيب جانبٍ من جوانب نفسي كان مستمداً فقط من طفولتي، ذلك الجانب الذي يقبل اللجوء إلى العنف. حتى وأنا في الشرطة السرية، لم أستخدم العنف أكثر مما يُسمح للآخرين باستخدامه معي. عندما تجبرني ظروف قهرية

على اتخاذ مواقف ليس بإمكان ذكائي انتزاعي منها، أسمح لهذا العنف أن يقع. هذه المواقف كثيراً ما تكون مزعجة بحيث تستمر ذكرياتي عن الذين رأيتهم يتعرضون للاستجواب تعذبني بإلحاح جنوني: سجن مونتاغنارد الرهيب المحاط من كل جانبٍ بالأسلاك الشائكة والسلك ملفوف حول عنق أحدهم والذعر جامد على وجهه المتجهم، وذلك الإرهابي العنيد كالثور في الغرفة البيضاء بوجهه الأرجواني لا يتأثر بشيء، والعميلة الشيوعية بالدليل الورقي المحشور في فمها، وأسماؤنا تكاد تلتصق بطرف لسانها. هؤلاء المخربون الذين تم اعتقالهم لديهم هدفٌ واحد، مع الكثير من الطرق الملتوية المقيتة للوصول إلى المقصد. حين وصلت إلى متجر المشروبات لحضور الافتتاح الكبير تشاركت مع هؤلاء السجناء من المتقاعدين اليقين المخيف الذي كان يصهل بصوتٍ مكتوم تحت طاولات الورق. أحدهم سوف يموت. ربما أنا.

كان المتجر يقع على الطرف الشرقي من هوليوود بوليفار، بعيداً عن أضواء وضجيج الكاميرات في المسارح والصالات المصرية والصينية التي تعرض فيها آخر الأفلام لأول مرة. هذا الحي غير الراقي تحديداً تكثر فيه الظلال المعتمة رغم خلوه من الأشجار، بينما كانت مهمة بون، إلى جانب العمل المكتبي أن يتصدى لأي لصوص ربما ينهبون البضاعة. انحنى لي بلا حماس من مكانه كأمين للصندوق، وكان يقف أمام حائط عليه رفوف مزينة بأجمل ماركات الشراب التي تستحق السرقة، وفي ركن أنيق آخر تكدست مجلات رجالية على أغلفتها شابات مغريات يشبهن لوليتا. أما كلود فكان مع الجنرال، كما أخبرني بون. المتجر في المؤخرة تضيئه مصابيح النيون التي تتدلى فوق الرؤوس، وتفوح منه روائح المطهرات والكارتون القديم. نهض كلود من كرسيه الأسطواني وتعانقنا. كان أثقل ببضعة أرطال لكنه عدا ذلك لم يتغير، حتى إنه كان يلبس بلوزة رياضية مجعدة اعتاد عليها في بعض مناسبات سايغون.

اجلس، قال الجنرال من خلف مكتبه. كانت الكراسي الأسطوانية تصدر صريراً مزعجاً حين نتحرك. صناديق الكارتون والسلال تطوقنا من ثلاث جهات. وعلى مكتب الجنرال هاتف بقرص ثقيل يكفي للدفاع عن النفس، وعلبة أختام ذات حبر أحمر كأنه الدم، ودفتر وصولات مع قصاصة ورق زرقاء بين الصفحات، ومصباح مكتب عنقه مكسور ورأسه يأبى البقاء مرفوعاً. حين فتح الجنرال درج مكتبه، انتفض قلبي. ها هو ذا يفعلها!

إنها اللحظة التي يتلقى فيها الجرذ مطرقة على الرأس، أو سكيناً في العنق، أو رصاصة في الصدر، أو ربما كل الأشياء التي ذكرتها من أجل المتعة. على الأقل سيأتي ذلك سريعاً، نسبياً. في الماضي، خلال العصور الأوروبية المظلمة، حسب دورات الاستجواب التي يدرّسها كلود لرجال الشرطة السرية في سايغون، لا بد أن يسحبوني ويقطعون أوصالي بالخيول، ورأسي يعلق على عمود ليراه الجميع. أحد المهرجين في قصر الملك سلخ جلد عدوه وهو حي ثم حشر الجلد مع القش، وعلقه على ظهر الحصان، ودار به حول البلدة. يا لها من مهزلة! توقفت عن التنفس وانتظرتُ أن يسحب الجنرال المسدس الذي ينسف به دماغي بعملية غير جراحية، لكن ما أخرجه مجرد زجاجة شراب اسكتلندي وعلبة سجائر.

جيد، قال كلود، أتمنى لو أننا التقينا في وضع أفضل، أيها السادة. سمعت أنك عانيت من أوقات صعبة في الخروج من دوج. بعد أن قال الجنرال ذلك أحسست بشيء من الراحة. وماذا عنك؟ قلت. أراهن أنك خرجت على متن آخر مروحية.

دعونا ننسى الحزن الآن، قال كلود. وتقبل السيجارة والكأس اللتين قدمهما إليه الجنرال. خرجت قبلكم ببضع ساعات على مروحية السفير. قال متنهداً. لن أنسى ذلك اليوم. بقينا ننتظر طويلاً حتى تجمعنا. كنتم آخر الذين يصعدون إلى الطائرة. المارينز جاءوا بالمروحيات لإنقاذ بقية الناس من المطار والسفارة. والخطوط الجوية الأمريكية كانت تنظم رحلات مروحيات لإنقاذ رعايانا من مهابط سرية. لكن المشكلة أننا كلفنا فتيات فيتناميات صغيرات بمهمة رسم أرقام مهابط المروحيات على تلك السقوف، لذلك عرف الجميع بأمرها. يا له من ذكاء خارق، هه؟ وجاءت لحظة الحقيقة، كل تلك البنايات أصبحت محاطة. الأشخاص الذين كان يفترض أن ينقلوا بالمروحيات لم يتمكنوا من الوصول. والقصة نفسها حدثت في المطار، لا مجال للدخول. والموانئ كلها مغلقة. حتى الحافلات التي تذهب إلى السفارة لم تتمكن من الوصول، لأن السفارة مكتظة بالآلاف من البشر. كانوا يلوّحون بأنواع الأوراق. شهادات الزواج، عقود العمل، رسائل، وحتى جوازات سفر أمريكية. كانوا يصرخون. أعرف هذا الشخص أو ذاك، هذا أو ذاك يمكن أن يكفلني، أنا متزوج من مواطنة أمريكية. لكن لا شيء من ذلك ينفع. المارينز تسلقوا الجدران وكانوا يضربون أي شخص يحاول العبور. عليك أن تقترب بما يكفي لإعطاء أي جندي من المارينز ألف دولار قبل أن يسحبك إلى الأعلى. ثم تصعد الجدار أو

تصل إلى البوابة لتبحث عن الأشخاص الذين يعملون هناك وتتعرف عليهم وتطلب مساعدتهم. إذا أفلح بعض الناس في الاقتراب، يرفعهم المارينز أو يفتحوا البوابة قليلاً للسماح لشخص واحد بالدخول. في بعض الأحيان نرى أشخاصاً نعرفهم وسط الزحام أو على الجانبين، ونومئ لهم بأيدينا ليقتربوا من الجدار، لكنهم لا يفعلون ذلك. كل هؤلاء الفيتناميين الذين في المقدمة لا يسمحون حتى لأي فيتنامي في المؤخرة أن يتقدم. لذلك بقينا ننظر ونومئ لهم وهم ينظرون إلينا ويلوحون وبعد لحظات يختفون. الحمد لله أنني لم أسمع صراخهم، ليس مع كل تلك الضوضاء. كنت أرجع إلى الداخل وأشرب، لكن هذا لا يجدي نفعاً. عليك أن تسمع الضجيج والهذر في الراديو. ساعدوني، أنا مترجم، لدينا سبعون مترجماً على هذا العنوان، أخرجونا. ساعدونا، لدينا مائة من الناس في هذا المكان، أخرجونا. ساعدوني، لدينا مائتين في الخدمات اللوجستية، أخرجونا. ساعدوني، لدينا مائة في فندق السي آي أي، أخرجونا. هل تعرف ماذا حصل؟ لا أحد من أولئك الناس استطاع الخروج. أخبرناهم أن يذهبوا إلى تلك الأماكن وينتظروا. لدينا أشخاص هناك فاستدعيناهم وقلنا لهم، لا أحد سوف يأتي. اخرجوا بأنفسكم الآن واذهبوا إلى السفارة. اتركوا هؤلاء الناس وراءكم. ثم لدينا هؤلاء الذين يسكنون خارج المدينة. عملاء ينتشرون في الأرياف كانوا يتوافدون. النجدة، إنني في كان ثو، الفيتكونغ يقتربون منا. النجدة، لقد تركتموني في غابة يو مينه، ماذا أفعل؟ ماذا عن عائلتي؟ ساعدوني، أخرجوني من هنا. لم تكن لديهم فرصة للنجاة من الجحيم. حتى بعض الموجودين في السفارة لم يحصلوا على فرصة. قمنا بإخلاء الآلاف، لكن عندما أقلعت آخر المروحيات، بقي مئات الناس ينتظرون في الساحة، يقفون في طوابير بانتظار مروحيات أخرى قلنا لهم إنها ستأتي لتنقذهم. ولم يغادر منهم أحد.

رباه! أحتاج إلى كأسٍ أخرى لأكمل هذا. شكراً، جنرال. فرك عينيه. كل ما يمكنني قوله إن الأمر اتخذ صفة شخصية. بعد أن تركتك في المطار رجعت إلى منزلي لكي أنام لبعض الوقت. أخبرت ماي أن تلاقيني فجراً. كانت ذاهبة لتحضر عائلتها. ودقت الساعة السادسة، ثم السادسة والربع، ثم السادسة والنصف، والسابعة. كلمني المدير وأراد أن يعرف مكاني. أغلقت السماعة. ثم دقت الساعة السابعة والرابع، ثم السابعة والنصف، والثامنة. طلبني المدير ثانية وقال تعال فوراً إلى السفارة، الجميع صعدوا إلى الطائرة. ليذهب المدير إلى الجحيم، ذلك الوغد البلغاري. أخذت مسدسي واتجهت بالسيارة إلى

البلدة باحثاً عن ماي. نسيت حظر التجوال أثناء النهار، كان الناس يركضون في الشوارع هنا وهناك، محاولين إيجاد طريقة للخروج. والضواحي أكثر هدوءاً رغم كل شيء. الحياة فيها اعتيادية. حتى إنني رأيت جيران ماي يكسرون علم الشيوعية. في الأسبوع الماضي هؤلاء الناس أنفسهم كانوا يلوحون برايتكم. سألتهم عن مكانها. فقالوا إنهم لا يعرفون مكان تلك الغانية اليانكية. أردت إطلاق النار عليهم في تلك اللحظة، لكن الناس في الشارع كانوا ينظرون لي. حتماً لن أنتظر حتى يأتي الفيتكونغ لاعتقالي. عدت بالسيارة إلى القصر. وفي الساعة العاشرة، لم ترجع. لم أستطع الانتظار. جلست في السيارة وأنا أبكي. لم يسبق أن بكيت هكذا على فتاة منذ ثلاثين سنة، اللعنة، هذا ما حدث لي. ثم رجعت إلى السفارة ورأيت أن لا مجال للدخول. كما قلت سابقاً كان هناك الآلاف من البشر. تركت مفاتيح السيارة في المحرك مثلما فعلت أنت، جنرال، وآمل أن يأتي شيوعي حقير ليتمتع بسيارتي البيل أير الجميلة. ثم اخترقت الحشود. هؤلاء الفيتناميون الذين يرفضون السماح لرجل فيتنامي منهم بالمرور، أفسحوا لي الطريق. نعم، كنت أتدافع وأحرك يدي واصرخ، والكثير منهم يدفعونني ويحركون أيديهم ويصرخون رداً على ذلك، لكني اقتربت أخيراً، رغم ذلك اقتربت، رغم شدة التدافع. لمحت جنود المارينز على الجدار، وعرفت أنني اقتربت بما يكفي، سوف أخلص من هذا الجحيم. كان العرق يتفصد من جبيني كالخنزير، قميصي تمزق، وكل تلك الأجساد تتكدس حولي وتعصرني. الناس أمامي لم يروا أنني أمريكي وما من أحد منهم يلتفت حين اربت على أكتافهم، لذلك أمسكتهم من الشعر وقرصتهم من الأذنين وجررتهم من القمصان والياقات لإزاحتهم عن طريقي. ما كنت لأفعل ذلك يوماً في حياتي. أحسست بالفخر وأنا أصرخ قبل أن يصرخوا، ولم يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى يردوا على صراخي. دعوني أعبر، أنا مواطن أمريكي، اللعنة عليكم. وأخيراً وصلت إلى الجدار وتشبثت به، وعندما مد المارينز أيديهم لانتشالي من يدي وسحبوني، بكيت من جديد. وهنا انتهى كلود من شرب ما تبقى في كأسه وخبطها على الطاولة. لم أشعر بمثل هذا الذل في حياتي، لكني لم أشعر بالسعادة والفخر أيضاً لأني أمريكي.

جلسنا صامتين بينما سكب الجنرال لنا المزيد من الشراب.

هذا نخب سلامتك، كلود، قلت، ورفعت كأسي إليه. تهانينا.

على ماذا؟ قال وهو يرفع كأسه.

الآن أنت تعرف معنى أن تكون واحداً منا.

ضحك بمرارة.

كنت أفكر في الشيء نفسه.

***

كانت الشيفرة الخاصة بمرحلة الإخلاء الأخيرة هي أغنية «ثلوج عيد الميلاد»، والتي يجب أن تذاع على البرنامج الأمريكي في الراديو، لكن هذا لم يحصل كما خطط له. أولاً، لأن تلك الأغنية من المعلومات السرية، وتتعلق فقط بالأمريكان وحلفائهم، كل شخص في المدينة كان يعلم ما ينبغي أن يصغي إليه. ثم ماذا حدث برأيكم؟ قال كلود. الجماعة لم يعثروا على أغنية بينغ كروسبي. كانوا يبحثون في كابينتهم عن ذلك الشريط، ولم يجدوه، ثم ماذا حصل؟ قال الجنرال. عثروا على نسخة من أغنية تينيسي آرني فورد وشغلوها. ومن يكون هذا؟ قلت. وكيف لي أن أعرف؟ على الأقل الأغنية واللحن متشابهان. إذن، قلت، أصبح الوضع اعتيادياً. هز كلود رأسه. فليذهب كل شيء إلى الجحيم. دعونا فقط نأمل أن ينسى التاريخ كل هذه الفوضى السخيفة.

هذا نوع من الأماني التي تراود الكثير من الجنرالات والسياسيين قبل النوم، غير أن بعض اللخبطات تكون أكثر تبريراً من غيرها. خذ على سبيل المثال اسم العملية، الريح الهوجاء، إنه قول ينطوي على لخبطة. لقد فكرت فيه طوال سنة، وتساءلت عن إمكانية توجيه اتهام لحكومة الولايات المتحدة بإساءة التصرف، أو على الأقل الإخفاق الشنيع في الخيال الأدبي. من هو العقل العسكري المدبر الذي ابتكر مصطلح الريح الهوجاء كأنها شيء خرج من بين فخذيه المكتنزين؟ ألم يخطر على بال أحدهم أن الريح الهوجاء ربما تجعل الذهن يفكر بالروح المقدسة التي ألهمت الكاميكازي أو من المحتمل أكثر، من منظور صبياني خارج سياق التاريخ، ظاهرة خروج الغازات من الجسم، كما هو معروف يمكن أن تقود إلى سلسلة من ردود الأفعال، ومن هنا يأتي التكرار، أليس كذلك؟ لماذا لم أعط ذلك العقل العسكري الفذ ما يكفي من الإطراء على فكاهته السمجة، وقد اختار تعبير ثلوج عيد الميلاد كوخزة في العين ضد الفيتناميين الذين لا يحتفلون بأعياد الميلاد ولا

سبق أن شاهدوا عيداً ثلجياً من قبل؟ ألا يمكن أن يكون هذا المهرج المجهول تنبأ بالرياح القذرة التي أثارتها المروحيات الأمريكية كمعادل لانفجار هائل يلفح وجوه الفيتناميين الذين عجزوا عن الرحيل؟ التوازن بين الغباوة والسخرية، هذا ما فهمته أخيراً، يقود إلى استنتاج أن السخرية تعطي الأمريكان نتفة من الكرامة. الشيء الوحيد الذي بالإمكان استساغته من المأساة التي حلت بنا، أو تلك التي جلبناها على أنفسنا، اعتماداً على وجهة النظر. المشكلة أن هذه التراجيديا لم تنته كما ينبغي، على العكس من الكوميديا. ما تزال تشغلنا، والجنرال أكثرنا انشغالاً بها، بعد أن تحول الآن إلى رجل أعمال.

إنني سعيد بوجودك هنا، كلود. الوقت الذي وصلت فيه مثالي تماماً.

قال كلود مستهجناً. التوقيت من الأشياء التي كنت دائماً بارعاً بها، جنرال.

لدينا مشكلة، كما حذرتني قبل أن نترك البلاد.

أي مشكلة؟ هناك أكثر من واحدة كما أظن.

لدينا مُندس بين صفوفنا. جاسوس.

نظرا لي معاً، كأنهما ينتظران مني تأكيداً. بقي وجهي بلا ملامح واضحة وإن كانت معدتي تتلوى بعكس عقرب الساعة. ولما ذكر الجنرال اسم أحدهم، كان ذلك اسم الرائد البدين. بدأت معدتي تتلوى بالاتجاه المعاكس. لا أعرف ذلك الرجل، قال كلود.

إنه ليس رجلاً تعرفه. إنه ضابط مرموق. صديقنا الشاب هنا اقترح أن يضم الرائد إلى جماعتنا.

إن كنت تتذكر، يا سيدي، الرائد..

لا يهم الآن. المهم أنني كنت متعباً وارتكبت خطأ بأن أوكلت إليك تلك المهمة. لست ألومك. بل ألوم نفسي. الآن حان الوقت لتصحيح الخطأ.

لماذا تعتقد أنه هو من نبحث عنه؟

أولاً، هو رجل صيني. وثانياً، اتصالاتي مع سايغون تقول إن عائلته تعيش مرفهة، مرفهة جداً. وثالثاً، هو بدين. وأنا أكره القطط السمان.

لأنه صيني لا يعني أنه جاسوس، أيها الجنرال.

لست عنصرياً، كلود. إنني أتعامل مع رجالي على نحو مماثل، بصرف النظر عن أصولهم، مثل صديقنا الشاب هنا. لكن هذا الرائد، حقيقة أن عائلته تعيش مرفهة في سايغون تثير الشكوك. لماذا يعيشون هكذا؟ ما الذي أتاح لهم الازدهار؟ الشيوعيون يعرفون أسماء كل ضباطنا وعائلاتهم. لا توجد عائلة ضابط تعيش برفاهية في الوطن. لماذا عائلته هو؟

إنه دليلٌ عارض، جنرال.

لم يكن هذا موقفك سابقاً، كلود.

الأمور تختلف هنا. عليك أن تلعب وفقاً لقواعد جديدة.

لكن يمكن التلاعب بقواعد اللعبة، أليس كذلك؟

ويمكنك خرقها أيضاً، إذا عرفت كيف؟

هكذا رتبت المسائل التي تعلمتها. أولاً، أحرزتُ خطوة موفقة غير متوقعة، جعلتني مكدراً مهموماً وبالمصادفة تقريباً، وألقيت اللوم على رجلٍ لا ذنب له. ثانياً، الجنرال لديه علاقات واسعة في سايغون، مما يعني وجود نوع من المقاومة. ثالثاً، الجنرال يمكنه الاتصال بالناس الذين يعرفهم، رغم عدم وجود وسيلة اتصال مباشرة. رابعاً، الجنرال عاد إلى وضعه السابق، ذلك المتآمر المحنك الذي توجد على الأقل خطة واحدة في كل جيبٍ من بذلته وخطة أخرى في جواربه. حرك ذراعيه في إشارة إلى ما يحيط بنا، وقال، هل أبدو رجل أعمال تافه في نظركم، أيها السادة؟ هل يبدو أنني أستمتع ببيع المشروبات للسكارى والسود والمكسيكيين والمتشردين والمدمنين؟ دعوني أخبركم بشيء. إنني فقط أحتاج إلى الوقت. هذه الحرب لم تنته بعد. أولئك الشيوعيون الأوغاد.. حقاً، يزعجوننا كثيراً، علينا الاعتراف بذلك. لكنني أعرف شعبي. أعرف جنودي، ورجالي. لم يستسلموا، بل هم على استعداد للقتال والموت، إذا حصلوا على فرصة. هذا كل ما نحتاج إليه، كلود. فرصة.

ممتاز، جنرال، قال كلود. كنت أعرف أنك لن تهزم لمدة طويلة.

أنا معكم، يا سيدي، قلت. حتى النهاية.

هذا جيد. لأنك أنت الذي اقترحت اسم الرائد، ألا تتفق معي أن عليك تصحيح خطأك؟ أعتقد أنك ستفعل ذلك. ليس عليك أن تنفذ الأمر وحدك. سبق أن ناقشت مشكلة الرائد مع بون. أنتما الاثنان سوف تهتمان بهذه المسألة. اترك الأمر إلى خيالك الذي لا ينضب ومهارتك في ابتكار الحل. لم تخيب ظني من قبل، باستثناء اختيار الرائد. الآن يمكنك استرداد ثقتي بك. مفهوم؟ جيد. الآن اتركنا. لدي شيء أناقشه مع كلود.

***

كان المتجر خالياً إلا من بون الذي يراقب شاشة تلفزيون صغير بالأبيض والأسود عليها صور مشوشة لمباراة بيسبول من خلف مُسجّلة النقود. سبق أن صرّفت الشيك الذي في جيبي، المبلغ الذي أرجعوه لي من ضريبة الإيرادات الداخلية. مع أنه مبلغ رمزي زهيد، لم يسبق أن أرجعت حكومة الأقزام في بلادي إلى مواطنيها المحبطين أي شيء استولت عليه سابقاً. على كل حال، من العبث التفكير بهذا. مجتمعنا كله منظومة لصوص من الطراز الأول، الحكومة تبذل ما بوسعها لابتزاز الأمريكان، والمواطن العادي يبذل ما بوسعه لسرقة الحكومة، والفاسدون منا يبذلون ما بوسعهم لسرقة غيرهم. الآن، رغم تعاطفي مع رفاقي المنفيين، لا أتمكن من كبح الإحساس بأن بلادنا تولد من جديد، الفساد المتراكم الذي خلقه الأجانب يُنظف بروحٍ ثورية. بدلاً من إرجاع عائدات الضرائب، الثورة تعيد توزيع الثروة التي حصلت عليها بطرق غير شرعية، وتتبع فلسفة إنصاف الفقراء. ما يفعله الفقراء بمعوناتهم الاشتراكية شيءٌ يخصهم. أما بالنسبة إليّ، فأنا أستخدم إيراداتي الرأسمالية لشراء ما يكفي من الشراب لكي أغرق مع بون في بحر النسيان لأسبوع كامل، الأمر الذي إن لم يلهمنا البصيرة فهو على الأقل شيء من اختياري في حقي المقدس من الأمريكان.

ذلك الرائد؟ قلت بينما كان بون يلملم زجاجاته. تتصور حقاً أنه جاسوس؟

وهل أعرف شيئاً؟ إنني مجرد جندي.

تنفذ ما تؤمر به ولا تناقش.

وأنت كذلك، أيها العبقري. ما دمت عبقرياً هكذا، عليك مهمة التخطيط. أنت تعرف الطرقات هنا أفضل مني. لكن اترك الأفعال القذرة لي. الآن تعال وألقِ نظرة. خلف

المنضد رأيت بندقية مزدوجة السبطانة قصيرة على رف تحت مُسجّلة النقود. هل تعجبك؟

كيف حصلت عليها؟

من السهل الحصول على السلاح هنا أكثر من التصويت أو السياقة. لا تحتاج حتى لمعرفة الإنكليزية. من السخرية أن الرائد ساعدنا في هذا. إنه يتكلم الصينية. العصابات الصينية منتشرة في كل مكان من تشايناتاون.

سوف يكون الأمر مثيراً للريبة مع بندقية.

لن نستخدم البندقية، أيها العبقري. فتح علبة السيجار التي كانت على رفٍ تحت المنضد. أخرج منها مسدساً عيار 38 من نوع خاص، مماثل للذي كنت أحمله في أيام الخدمة. هل يبدو مناسباً لك؟

مرة أخرى أجد نفسي عالقاً بمثل هذه المواقف، ومرة أخرى سرعان ما أرى رجلاً آخر عالقاً مثلي. التعويض الوحيد عن حزني ذلك التعبير الذي رأيته على وجه بون. تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها سعيداً منذ سنة.

الفصل السادس

بدأت حفلة الافتتاح في وقتٍ متأخر من المساء، الجنرال يصافح المهنئين ويثرثر ويبتسم في حبور، كأنه سمكة قرش عليها الاستمرار في السباحة لتعيش، على السياسي - هذا ما أصبح عليه الجنرال - أن يُبقي شفتيه في حالة حركة. الحاضرون في المكان من الرفاق القدامى، والجنود والأصدقاء، فصيل من ثلاثين أو نحو ذلك من رجال متوسطي الأعمار نادراً ما تراهم يتخلون عن بدلاتهم الرسمية حتى عندما كنا نقيم في مخيمات اللاجئين في غوام. رؤيتهم مرة أخرى بملابس مدنية بعد سنة دليل مؤكد على الهزيمة يوحي بتورطهم الآن بالكثير من الخطايا. كانوا يتجولون في المتجر كأي متسكعين يعقدون صفقات رخيصة ويتبخترون في ثياب مهلهلة، أو سترات فضفاضة اشتروها من بائعي التنزيلات بأسعار زهيدة أولئك الذين يبيعون واحدة ويعطون أخرى مجاناً. أربطة العنق، والمناديل، والجوارب، مع أن كل ما يحتاجون إليه هو الكولونيا، وإن كانت من نوع رخيص، أي شيء يشوّش على حاسة الشم ويدحض الدليل على أنهم سحقتهم عجلات التاريخ. أما بالنسبة لي، وإن كنت من مرتبة أدنى من هؤلاء الرجال، كنت ألبس أجمل ما عندي، بفضل البروفيسور هامر. مع القليل من التعديلات هنا وهناك، بدت سترته الزرقاء ذات الأزرار الذهبية وبلوزته الرمادية المتهدلة مناسبة لي تماماً.

بهذه الأناقة كنت أتمشى بين صفوف الحاضرين، أغلبهم أعرفهم بحكم موقعي كمساعد للجنرال. الكثيرُ من قادة بطريات المدفعية وكتائب المشاة، لكنهم الآن لا يملكون شيئاً أكثر من كبريائهم، وروائح أفواههم الكريهة ومفاتيح سياراتهم، إن كانت لديهم سيارات. قمتُ بالإبلاغ عن كل ذلك اللغط بشأن الجنود المهزومين إلى باريس، كنت

أعرف ما الذي فعلوه (أو في كثير من الحالات ما لم يفعلوه) للحصول على لقمة العيش. أكثرهم نجاحاً جنرالٌ سيء السمعة اشتهر باستغلال قواته المنهارة في حصاد القرفة، التي احتكر توزيعها؛ والآن يقوم تاجر توابل يعمل لديه بتسويقها إلى مطعم للبيتزا. وهناك أحد العقداء، وهو ضابط إعاشة مصاب بالربو اتهم بشكل عجيب باختلاس المؤن الجافة للجنود، كان بواباً. ورائدٌ متهور كان يُهرّب المروحيات بأسلحتها، والآن هو ميكانيكي. ونقيبٌ مضطرب عقلياً كان صياد غوريلا بارع: الآن يعمل طاهياً بدوام جزئي. وملازمٌ خامل الذكر نجا وحده من كمين نُصب لسريته: الآن عامل توصيل طلبات. وهكذا تمضي القائمة، نسبة لا بأس بها منهم جمعوا الثروة والعار على السواء، يتنعمون في شقق هواؤها متعفن حصلوا عليها بأجور مدعومة بينما أعضاؤهم التناسلية تتقلص يوماً بعد يوم، يستهلكها نوع من السرطان يسمى اغتصاب لقمة اليتامى ويقهرهم ويثير شكوكهم وسواس المنفى. ضمن هذا الوضع النفساني والجسماني، جرى تشخيص الأمراض الاجتماعية أو العائلية الاعتيادية كأعراض لشيءٍ خطير، مع تحول نسائهم الناحلات وأطفالهم إلى ناقلين لفيروسات التلوث الغربي. أولادهم المصابون بتلك الأمراض يكتسبون عادات أخرى، لا يعبّرون عنها بلغتهم الأم وإنما بلسانٍ أجنبي أتقنوه أسرع من آبائهم. أما الزوجات، فأغلبهن أجبرن على البحث عن عمل، ولم يعدن زهرات اللوتس التي يتذكرها رجالهن. كما قال الرائد البدين، الرجل لا يحتاج إلى شجاعة في بلاده، أيها النقيب. النساء هناك أشجع من الرجال.

صحيح، قلت موافقاً، مع أنني شككت في شيء من الحنين إلى الوطن يجتاح دماغ الرائد والآخرين. ذكرياتهم غُسلت بطريقة متقنة واتخذت ألواناً تختلف عن ذكرياتي، فلم يسبق أن تحدثوا بشغف عن زوجاتهم في فيتنام. هل فكرت يوماً بالانتقال، أيها الرائد؟ ربما أنت وزوجتك يمكنكما الحصول على بداية أخرى وإضرام لهيب الحب الرومانسي من جديد. عليك الابتعاد عن الأشياء التي تذكرك بماضيك.

وماذا أفعل للحصول على لقمة العيش؟ قال بإخلاص وجدية. الطعام الصيني أفضل ما يكون في المكان الذي نحن فيه. مددت يدي لتعديل ربطة عنقه المعقوفة، وكان منظرها يتلاءم مع أسنانه المعوجة. طيب، أيها الرائد. إذن دعنا نخرج. يمكنك أن تدلني على مكان نجد فيه الطعام الصيني.

من دواعي سروري! انحنى الرائد البدين. كم كان يعشق الطعام والصداقات! لا أعداء له في عالمه الجديد، باستثناء الجنرال. لماذا ذكرتُ اسم الرائد البدين له؟ لماذا لم أعطه اسم رجل آخر تتجاوز خطاياه وزن اللحم في جسمه، بدلاً من هذا المسكين الذي وزن لحمه يتخطى خطاياه؟ تركت الرائد خلفي، ومضيت في طريقي وسط الزحام إلى الجنرال. كنت على استعداد لممارسة نوع آخر من النفاق السياسي، من الأنواع التي تتطلب أقصى درجات الاحتراس. وجدته جالساً مع المدام في ممر بين كروم العنب بمختلف ألوانه يجري مقابلة مع رجل يلوّح بميكرفون كما لو أنه جهاز فحص للمواد المشعة. لمحت نظرة فريدة في عيني المدام، وعندما ضاعفت ابتسامتها، استدار الرجل، وكانت الكاميرا تتدلى من شريطٍ حول عنقه وقلم بأربعة ألوان يظهر من جيب قميصه.

لم يتطلب الأمر سوى لحظات لأتعرف عليه. كانت آخر مرة رأيت فيها سون دو، أو سوني كما يُلقب، في سنة 1968، السنة الأخيرة لي في أمريكا. كان مثلي طالباً ضمن البعثة الدراسية في كلية اورنج كاونتي، على بعد ساعة بالسيارة من مقر إقامتي. ذلك المكان مسقط رأس مجرم الحرب ريتشارد نيكسون، فضلاً عن أنه موطن جون وين، مكان يعج بالوطنيين والمتعصبين تصورت أن العميل اورنج، كما يسمى، ربما تدرب هنا أو على الأقل أخذ اسمه تيمناً بتلك المدينة. الموضوع الذي اختاره سوني للتخصص هو الصحافة، وهي بالتأكيد ستفيد بلادنا إذا لم تكن تخريبية أو مُهرت بدمغة سوني تحديداً. كان دائماً يحمل مضرب البيسبول على كتفه دلالة على النزاهة، على استعداد للرد على ضربات خصومه وانتقاداتهم العشوائية. في ذلك الوقت، كان واثقاً جداً من نفسه، أو بالأحرى مختالاً متعجرفاً، اعتماداً على وجهة نظرك، وهو إرث استمده من انحداره الأرستقراطي. جده كما يزعم كان من «الأفندية»، وهو لا يكف عن تذكيرك بذلك. هذا الجد تمرد على الفرنسيين بعنف بحيث حملوه على سفينة في رحلة لا رجعة فيها إلى هاييتي، وهناك قيل إنه أقام صداقة مع امرأة مصابة بالزهري تدعى غوغوين، فأصيب إما بحمى الضنك24 أو بنوبة شديدة من الحنين للوطن. وورث سوني الإحساس بالإثم من جده الذي يحمل ألقاب الشرف، والذي أنا على ثقة من أنه عانى كثيراً من تلك الآثام، مثلما يعبر كل الرجال العاديين عن الإثم. كرجلٍ محافظ ومتطرف عنيد من الطراز الأول، كان سوني محقاً في كل شيء، أو هو يتصور نفسه دائماً على حق، الاختلاف الأساسي أنه يساري على نحو مؤكد. لقد قاد الجناح المعارض للحرب وسط الطلبة الأجانب من الفيتناميين،

وهم ثلة اعتادت أن تجتمع شهرياً في غرفة بائسة في اتحاد الطلبة أو في شقة أحدهم، حيث تجتاح المكان المشاحنات وسرعان ما يبرد الطعام. كنت أحضر هذه الاجتماعات أيضاً فضلاً عن اجتماعات غيرهم من المؤيدين للحرب وهي تتسم عادة بحسن التنظيم، رغم اختلاف التوجهات السياسية وتماثل الميول فيما يتعلق بالطعام الذي يؤكل، والأغاني المفضلة، والنكات البذيئة، وموضوعات النقاش. عدا الانشغالات السياسية، هؤلاء الطلاب كانوا يتجرعون مرارة العزلة والانكسار، يجمعهم فقط الإحساس بالراحة كأنهم أولئك الضباط المتقاعدون في متجر المشروبات، يطمحون إلى شيء من الدفء الإنساني مع رفاقهم في المنفى، ذلك الشعور بالانتعاش الذي حتى شمس كاليفورنيا لا توفره لأقدامهم الباردة.

سمعت أنك كنت هنا أيضاً، قال سوني، ممسكاً يدي ومبدياً بشاشة واضحة. أتذكر أن الثقة المفرطة بالنفس التي تشع بوضوح من عينيه تجعل وجهه أكثر جاذبية بحيث يشبه ناسكاً توحي شفتاه بنقاء السريرة. شيءٌ جميل أن أراك من جديد، أيها الصديق القديم. صديق قديم؟ كان ذلك غريباً على سمعي. سون، قاطعتنا المدام، يُجري معنا مقابلة خاصة لصحيفته. إنني محررها، قال، وعرض لي بطاقته المهنية. سوف تنشر المقابلة في العدد الأول الذي نصدره. تناول الجنرال وقد بدا وجهه منيراً بالبهجة، زجاجة شراب العنب من الرف. إنها مبادرة تعبر عن تقييمنا لجهودكم التي تبذلونها في إحياء الفنون الجميلة في ظل الحكومة الرابعة على أرضنا الجديدة، يا صديقي الشاب. لم يساعدني هذا إلا في تحفيز ذكرياتي عن الصحفيين الذين وفرنا لهم السكن المجاني والطعام، رغم أن ذلك في السجن، لكي يذكروا شيئاً من الحقيقة عن السلطة. لعل سوني كان يفكر بالشيء نفسه، لأنه حاول رفض الزجاجة، لكنه أذعن بعد إلحاح من الجنرال. وانتهت المناسبة بالتقاط الصور التذكارية بكاميرا سوني الثقيلة نوع نيكون، والجنرال والمدام يحيطان به بينما احتضن عنق الزجاجة التي أعطاها له الجنرال. اكتب ذلك على صفحتك الأولى، قال الجنرال وهو يودعه.

بعد أن بقينا وحدنا، تحدثت مع سوني باختصار عن حياتنا الحالية. لقد قرر البقاء بعد التخرج، كان يعرف أنه إذا رجع فمن المرجح أن يتلقى تذكرة طائرة مجانية إلى الشواطئ الهادئة والمقصورة على فئة قليلة من الناس، دعوة موجهة فقط للسجناء الذين

يستضيفهم حصن باولو كوندور، أحد تلك السجون التي شيدها الفرنسيون بذوقٍ رفيع. قبل وصولنا مع اللاجئين في السنة الماضية، كان سوني مراسلاً لإحدى الصحف في اورنج كاونتي، واستقر في بلدة ويستمنستر التي لم أزرها أبداً، أو كما يسميها سكان بلادنا ويت مين تر. وتأثر حتماً بمحنة اللجوء، وأنشأ أول صحيفة ناطقة بلغتنا الأم، وهو جهدٌ من شأنه أن يعزز ترابطنا ونتعرف من خلاله على الأخبار الخافية عنا. ربما أكملنا حديثنا في وقتٍ لاحق، يا صديقي، قال، وهو يمسك بي من الكتف. لدي موعد آخر. هل نلتقي يوماً لنشرب القهوة؟ تسعدني رؤيتك من جديد. وافقت وأنا أشعر بالارتباك، وأعطيته رقم هاتفي قبل أن يغادر ويختفي وسط الزحام الخفيف. ورحت أبحث عن الرائد البدين الذي يبدو أنه توارى عن الأنظار. باستثنائه هو، أغلب رفاقنا من المنفيين كانوا منشغلين بما اتخذوه من أعمال، سواءً كان انشغالاً تاماً بأمراض الهجرة التي ذكرتها، أو نسبياً أصبحوا محاطين بالأمريكان طوال القامة بحيث لا يراهم من ينظر إليهم ولا يتمكنون هم من رؤية القادمين الجدد من قصار القامة. إنهم ببساطة ينظرون إليهم من الأعلى أو من تحت. أما سوني، فأمره مختلف. ليس من السهل تجاهله لأسباب مختلفة لا علاقة لها بالماضي. لا أتذكر أنه كان لطيفاً أو كريماً في أيام الكلية، حين كان يخبط على الطاولات ويتكلم بصخب كما يفعل الطلبة الأجانب من الفيتناميين في باريس خلال العشرينيات والثلاثينيات، المورد الأساسي للشيوعيين الذين من المؤمل أن يقودوا ثورتنا. أنا أيضاً كنت مختلفاً، مع أن درجة الاختلاف تخضع لأهواء ذكرياتي. السجل التاريخي أزيل من الوجود، فبينما كنت أحتفظ بالصحف والمجلات في أيام الدراسة، فقد أحرقتها جميعاً قبل عودتي، خوفاً من أن أجلب معي دليل إدانة عما كنت أفكر فيه.

***

بعد أيام قليلة كنت أتناول الإفطار مع الرائد البدين. كان مشهداً عادياً من الحياة اليومية، ذلك النوع الذي يحب والت وايتمان25 الكتابة عنه، مخطط أولي لأمريكا الجديدة تظهر فيه عصيدة الرز الحارة والمبرومة في مطعم معكرونة في مونتري بارك يعج حتى آخر كرسي بالصينيين غير المندمجين والذين لا يأبهون كثيراً لوضعهم المزري، وقليل من الآسيويين ذوي أصول مختلطة. جلسنا إلى طاولة من الفورميكا البرتقالية، بينما إبريق الشاي النحاسي المزين بالأقحوان على أهبة الاستعداد لسكب محتوياته في أكواب مكسّرة

الحواف لونها ونسيجها يشبه مينا الأسنان البشرية. تناولتُ رشفة بطريقة مهذبة بينما ازدرد الرائد عصيدته بحماس غير محسوب العواقب كأي رجل مغرم بالطعام، كان يفتح فمه ويتكلم في آنٍ واحد، ورشاش اللعاب يتطاير بين فترة وأخرى محملاً بحبات الرز التي تستقر على خدي، ورموشي، أو على الصحن، كان يأكل بشهية لا توصف بحيث لم أتمالك نفسي من الإعجاب والإشفاق على هذا الرجل البريء.

هذا الرجل، مخبرٌ سري؟ من الصعب تصديق ذلك، لكنه ربما كان خبيثاً بحيث يصلح لتمثيل هذا الدور ببراعة. الاستنتاج المنطقي أن الجنرال خلط بين النزعة الفيتنامية للتآمر واستسلام الأمريكان للذعر، ولا بد من الاعتراف بأن هذا حصل بإيحاء مني. لم يحصل أن أبدى الرائد البدين براعة في الخداع، أو في التكتيكات السرية، أو في تسييس الآخرين. هناك في سايغون، كانت وظيفته في الفرع السري أن يقوم بتحليل الاتصالات باللغة الصينية وتعقب نشاطات الخلايا السرية في شو لون، حيث كانت جبهة التحرير الوطنية قد أنشأت شبكة سرية لإثارة القلاقل السياسية، والتنظيم الإرهابي، والتهريب والمتاجرة بالسوق السوداء. والأهم من ذلك أنه كان المرشد الوحيد لي في تذوق أفضل الأطعمة الصينية في شو لون، إذ كنا نتنقل بين مطاعم وقصور فخمة تقام فيها ولائم الأعراس ونصعد عربات تجرها خيول على دروب ترابية متعرجة ونتعرف على بائعات مشاكسات يحملن بضاعتهن في سلال تتدلى على أطراف العصي فوق أكتافهن ويقمن أكشاكاً على الأرصفة. على نحو مماثل، في كاليفورنيا، وعدني بأن يأخذني إلى أفضل مكان أتذوق فيه عصيدة الرز في بلدة أكبر من لوس أنجلس، مع حساء أبيض رقراق كالحرير تناولته على مضض. أما الآن فهو يعمل في محطة للوقود في مونتري بارك، ويدفعون له أجوراً يومية قبل التأهيل لمكتسبات الرفاهية. وزوجته تعمل في محل خياطة لساعات طويلة، وهي الآن مصابة بضعف البصر من كثرة الحملقة في أكوام الثياب الرخيصة. يا إلهي، إنها تتكلم كثيراً، كان يئن، وينحني على الطبق الفارغ وتبدو عليه ملامح الندم كالكلب الذي لم يُعط ما يكفي من الطعام، وعينه على طبقي المملوء. إنها تلومني على كل شيء. لماذا لم نبق في بلادنا، ماذا نفعل هنا ونحن أفقر مما كنا في السابق، لماذا ننجب الأطفال الذين لا نستطيع توفير لقمة العيش لهم؟ لقد نسيت أن أخبرك بشيء، أيها النقيب، زوجتي حملت في المخيم. في بطنها توأم! هل تصدق هذا؟

تفطر قلبي لسماع الخبر، مع أن صوتي لم يتأثر، وهنأته على ذلك. وشكرني عندما قدمت له طبقي الذي لم أتناول منه شيئاً. على الأقل هما سيكونان مواطنين أمريكيين، قال، وكان يمضغ العصيدة باستمتاع. سبانخ وبروكلي. تلك هي الأسماء الأمريكية التي أعطيناها لهما. إذا أردت الحق، لم نفكر أبداً في إعطائهما أسماء أمريكية حتى سألتنا الممرضة. هنالك أصابني الذعر. بطبيعة الحال هما بحاجة إلى أسماء أمريكية. أول شيء يخطر على البال هو اسم سبانخ. اعتدت أن أضحك على الرسوم المتحركة تلك حين يأكل بوباي السبانخ ويتحول إلى بطل خارق. لا أحد يعبث مع صبي يحمل اسم سبانخ. أما عن بروكلي، فجاء ذلك منطقياً. هناك سيدة تظهر دائماً على التلفزيون وتقول تناولوا القرنبيط، أتذكر ذلك جيداً. إنه غذاء صحي، ليس مثل الأشياء التي نتناولها نحن. إنه غذاء قوي وصحي، ذلك ما يجب أن يكون عليه التوأم. يجب أن يعيشا حياتهما. هذه البلاد ليست للضعفاء أو للقطط السمان. أحتاج لممارسة نوع من الحمية. كلا، إنني أحتاج لها فعلاً! أنت تجاملني. أعرف أنني رجل بدين. الشيء الإيجابي الوحيد في البدانة، إلى جانب الأكل، أن الجميع يحبون الرجل البدين. نعم؟ نعم! الناس يحبون الضحك على الرجل البدين ويشفقون عليه. عندما قدمت للعمل في محطة الوقود كنت ألهث ووجهي يتصبب عرقاً كأنني مشيت أميالاً بين العمارات. الناس ينظرون إلى الرجل البدين الذي يلهث ويعرق ويشعرون بالأسف عليه، وإن كانوا يشعرون أيضاً بنوعٍ من الامتعاض منه. ثم ابتسمت وهززت بطني أمامهم وضحكت وأنا أحكي لهم قصتي وأشرح مدى حاجتي للعمل، فوافق صاحب المحطة على طلبي حالاً. كل ما يحتاج إليه رجل يمسك الحسابات. أن تجعل الناس يضحكون ويشعرون بالأسف عليك شيء له تأثير السحر. انظر؟ أنت تبتسم الآن وتأسف على حالي. ولكن لا تأسف كثيراً، لدي مناوبة طويلة تبدأ من العاشرة صباحاً إلى حوالي الثامنة مساء، سبعة أيام في الأسبوع، ولا أستطيع المشي من المنزل إلى العمل في أكثر الأحيان. لكنني هنا لا أفعل شيئاً غير ضغط الأزرار على مُسجّلة النقود. ذلك شيء رائع. تعال يوماً ما وسوف أعطيك بعض الجالونات مجاناً. إنني جاد في كلامي! هذا أقل ما يمكنني تقديمه لك على مساعدتي في الخروج من البلاد. لم أفعل شيئاً، أشكرك. إلى جانب هذا، فهذه بلاد قاسية. نحن الفيتناميون علينا التكاتف.

أوه، أيها الرائد البدين المسكين! في تلك الليلة، في المنزل، كنت أنظر إلى بون وهو ينظف ويدهن مسدسه عيار 38 على طاولة القهوة، ثم حشاه بست رصاصات نحاسية

وألقاه على وسادة صغيرة جاءت مع أريكتنا، وسادة رخيصة قذرة من القطيفة الحمراء استقر عليها المسدس كأنه هدية يجب أن تسلم اعترافاً بالولاء. سوف أطلق النار عليه من وراء الوسادة، قال بون، وفرقع علبة الشراب. لم أسمع غير ضوضاء منخفضة. عظيم! قلت. كان ريتشارد هيد يجري مقابلة تلفزيونية عن الموقف في كمبوديا، لهجته الإنكليزية نقيضٌ صارخ للهجة المذيع من بوسطن. بعد دقائق من مشاهدة هذه المقابلة، قلت، ماذا لو تبين أنه ليس جاسوساً؟ سوف نقتل رجلاً بريئاً، عندئذ هذه جريمة. ازدرد بون جرعات من العلبة. أولاً، قال، الجنرال يعرف أشياء نجهلها نحن. وثانياً، نحن لا نقتل. إنها عملية اغتيال. عليك أن تعرف هذا. جماعتك يفعلون هذا كل يوم. وثالثاً، هذه حرب. الأبرياء يسقطون فيها. تعتبر هذه جريمة فقط إذا علمت أنهم أبرياء. ومع ذلك، فهي مأساة، وليست جريمة.

كنت سعيداً عندما طلب الجنرال منك أن تقوم بهذا، أليس كذلك؟

هل الأمر بهذا السوء؟ قال. وضع العلبة على الطاولة وأخذ المسدس. لأن بعض الرجال يولدون وهم بارعون في استخدام فرشاة الرسم أو القلم، هو يبرع في استعمال المسدس. إنه شيء عادي في يده، مجرد أداة يفخر بها الإنسان، مثلها مثل المفك. الرجل يحتاج إلى هدف، قال وهو يتفحص المسدس. قبل أن ألتقي بلينه، كان لي هدف. أردت الانتقام لوالدي. ثم وقعت في الحب، ولينه صارت أكثر أهمية من أبي ومن الانتقام. لم يسبق أن بكيت منذ وفاته، لكن بعد زواجنا بكيت عند قبره لأني خذلته في أمر مهم جداً، خذلته في قلبي. لم أتجاوز هذا الإحساس حتى ولد دوك. في البداية كان بالنسبة لي مجرد شيء صغير قبيح. كنت أتساءل عن خطأي، لماذا لم أحب ابني. لكنه تدريجياً راح يكبر، وذات ليلة نظرت إلى أصابعه وأطراف قدميه ويديه، كانت خلقته مثالية، أشياء مصغرة للتي عندي. لأول مرة في حياتي عرفت معنى الدهشة. حتى الحب لا يشبه ذلك الإحساس، وعرفت أن هذا لا بد أن يكون إحساس أبي وهو ينظر إلي من قبره. لقد جاء بي إلى الوجود، وأنا جئت بدوك إلى الوجود. إنها الطبيعة، نواميس الكون، الخالق الذي يلهمنا تصرفاتنا في داخلنا. هنالك شعرت أنني أحب ابني، حين فهمت أهميتي وكم من الرائع أنه ذات يوم سوف يشعر بالإحساس نفسه. حينئذ عرفت أنني لم أخذل أبي. بكيت مرة أخرى، واحتضنت ابني لأني أخيراً أصبحت رجلاً. ما الذي أقوله، لماذا أخبرك بكل هذه

الأشياء، هل لأن حياتي كان لها معنى ذات مرة، وأن لي هدفاً. والآن لا هدف لي. كنت ابناً وزوجاً وأباً وجندياً، والآن لست أي شيء من ذلك. لست رجلاً، وحين لا يكون الرجل رجلاً، فهو نكرة. والطريقة الوحيدة لتلافي أن تكون نكرة أن تفعل شيئاً. فإما أن أقتل نفسي أو أقتل شخصاً آخر. هل تفهم؟

فهمت طبعاً، ليس هذا فحسب، وإنما كنت مندهشاً. تلك أطول خطبة سمعتها منه، أحزانه وغضبه ويأسه لم تفتح قلبه على مصراعيه فقط، لكنها أرخت أوتاره الصوتية وجعلته أكثر رقة وإثارة للشفقة. تلك الكلمات جعلته أقل قبحاً مما كان عليه وهذا رأي موضوعي، إن لم تجعله يبدو أكثر وسامة بعد أن هذبت العواطف النبيلة ملامح وجهه القاسية. أمامي الرجل الذي أعرفه جيداً يبدو متأثراً بعمق بالحب وباحتمال أن يتعرض للقتل. كان خبيراً بالضرورة، وأنا مجرد هاو مبتدئ باختياري، رغم أنني حصلت على الفرص التي أنتظرها. في بلادنا، قتل الرجل - أو المرأة أو حتى الطفل - أمر غاية في السهولة مثل تقليب جريدة الصباح. إذا ما احتجت إلى مبرر وامتلكت الأداة، والكثير من الناس على الجانبين لديهم هذا وذاك. الشيء الذي لم أمتلكه هو الرغبة أو الأشكال المختلفة من المبررات التي يعتمد عليها المرء كتمويه، مثل الدفاع عن الرب، والبلاد، والشرف، والأيديولوجيا، والرفاق، أو حتى في المثال الأخير، كل ما تدافع عنه حقاً ذلك الجزء الأكثر ارتباطاً بالنفس، الجانب المخفي عن الأنظار، المحفظة التي يحملها كل إنسان. تلك المبررات الواهية تناسب بعض الناس، لكنها لا تناسبني.

أردت إقناع الجنرال بأن الرائد البدين ليس جاسوساً، لكن ذلك لن ينفع في تخليصه من الفكرة التي غرستها أنا في ذهنه منذ البداية. والأكثر من هذا، كنت أعرف أن علي أن أثبت للجنرال قدرتي على تصحيح خطأي المزعوم، وأنني رجل الأفعال لا الأقوال. إذا لم أفعل شيئاً فهذا ليس بالاختيار الصائب، كما أوضحت لي تصرفات الجنرال في لقائنا بعد بضعة أيام. إنه يستحق هذا، قال الجنرال، وكان يبدو مهووساً بشكل بغيض بفكرة وصمة العار التي لا تزول بعد أن رآها شاخصة كما يزعم على جبين الرائد، ذلك الوهم الذي خلقته بنفسي وكتب مصير الرائد المنحوس. لكن خذ ما يلزم من الوقت. لست على عجل من أمري. العملية يجب أن تنجز على مهل وبحذر بالغ. وأكد على هذا في المتجر الذي تفوح منه روائح نتنة كأنه من خنادق الحرب، جدرانه تغطيها مؤخراً خرائط تظهر

تضاريس بلادنا الملتوية وممراتها الضيقة بكل تألقها أو أجزاء منها، كل خارطة منها محجوبة بغطاء بلاستيكي خانق، وعليها خطوط حمراء وأقلام ملونة تتدلى في خيوط على جانب منها. من الأفضل أن ينجز الأمر بصورة جيدة وببطء وليس بتهور واستعجال، قال. نعم، سيدي، قلت. ما أفكر فيه أن..

لا داعي لإزعاجي بالتفاصيل. فقط أبلغني عندما ينتهي ذلك.

إذن تقرر مصير الرائد وحُسم الأمر. لا شيء يبقى سوى أن أختلق قصة لا يكون فيها موته خطأ أرتكبه أنا أو الجنرال، بل لن يثير الشكوك على الإطلاق. لا ينبغي التفكير كثيراً بحيث أتعب ذهني قبل أن تتضح تفاصيل القصة في مخيلتي. لدينا هنا مأساة أمريكية عادية تعرفونها، لكنها من بطولة لاجئ تعيس الحظ.

***

دعاني البروفيسور هامر إلى العشاء يوم السبت ليلاً في منزله، والمناسبة هي عودة كلود الوشيكة إلى واشنطن. الضيف الآخر معنا صديق البروفيسور ستان، وهو طالب دكتوراه بمثل عمري تقريباً في جامعة كاليفورنيا، يكتب أطروحة عن الأدباء الأمريكان المغتربين في باريس. كانت أسنانه البيضاء وشعره الأشقر من النمط الذي يظهر في إعلانات معجون الأسنان على الشاشة، حيث يؤدي دور الأب الشاب الناصح لملائكته الصغار. سبق أن سمعت من كلود عن نزعة البروفيسور في الشذوذ قبل أن أحس بها بنفسي في الكلية عام 1963، لأنه كما قال كلود، لم يشأ أن تصيبني الدهشة. لم أعرف شخصاً شاذاً من قبل، لذلك شعرت بالفضول لرؤية كيف يتصرف في بيئته الطبيعية، أو بعبارة أخرى الغرب، لأن الشرق على ما يبدو يخلو من هؤلاء الشواذ. بإزاء خيبة ظني، بدا البروفيسور هامر لا يختلف في شيء عن أي شخص آخر، بعيداً عن ذكائه الخارق وذوقه الذي لا يضاهيه فيه أحد، كم كان غريباً اهتمامه بستان وبفنون الطهي!

قدمت لنا الوجبة على ثلاث مراحل أشرف عليها البروفيسور بنفسه، سلطة بقوليات خضراء مخلوطة، سيقان الإوز مع البطاطا وإكليل الجبل، والمعجنات بالفواكه، وقبل ذلك الشراب، وأنهينا الوليمة بزجاجة أخرى من الشراب. كل ذلك قدم في حجرة طعام مرتبة بأناقة وذوق رفيع في منزل البروفيسور الذي يتألف من طابق واحد في باسادينا، كل شيء

ابتداء من النوافذ ذوات الدرفتين إلى الديكور الفني للشمعدانات والأواني النحاسية للمنضد الذي يخترق الجدار، والأثاث الخشبي إما أن يكون نموذجاً أصيلاً يعود إلى أوائل القرن العشرين أو نسخة متقنة في التقليد. بين حين وآخر كان البروفيسور ينهض من طاولة الطعام ويستبدل الأسطوانة على القرص الدوار، يختار أسطوانة جديدة من مجموعته المميزة من موسيقى الجاز. على العشاء تجاذبنا أطراف الحديث عن موسيقى الجاز ورقص البوب، ورواية القرن التاسع عشر، وفريق دوجرز للبيسبول، والذكرى المئوية الثانية لأمريكا. ثم عدنا إلى الشراب في الحجرة حيث جلسنا قرب موقدها الضخم من صخور النهر وأثاثها الفخم ذي الهياكل والزوايا الخشبية والوسائد الجلدية. رأيت كتباً من مختلف الأحجام والألوان تصطف على رفوف الجدران في استعراض ديموقراطي فريد، مرتبة عشوائياً بالطريقة نفسها التي كانت عليها في مكتب البروفيسور في الجامعة. امتلأت الأمسية بتقليب ومراجعة الرسائل، والكلمات، والجمل، والفقرات، والصفحات، والفصول، والمجلدات، وكان حقاً وقتاً ممتعاً، تذكرة للتبادل الثقافي الذي انغمسنا فيه بعد أن عدنا إلى مقاعدنا. اضطرم الشوق والحنين في نفسه، ربما بسبب كل هذه الكتب الأدبية التي حوله، فقال البروفيسور، ما زلت أتذكر بحثك الذي كتبته عن «الأمريكي الهادئ»26. كان من أفضل بحوث ما قبل التخرج التي قرأتها. ابتسمت برزانة وقلت له شكراً بينما كان كلود الذي جلس بجانبي على الأريكة يشخر. لم أكترث كثيراً لذلك الكتاب. الفتاة الفيتنامية، كل ما تقوم به تحضير الأفيون، وقراءة المجلات المصورة وتغرد كأنها الطائر. هل التقيت بفتاة فيتنامية مثلها؟ إذا كان ذلك، عرّفني عليها. كل اللواتي التقيت بهن لا يستطعن إغلاق أفواههن في السرير أو في خارجه.

أوه، كلود، قال البروفيسور.

أوه، كلود، لا شيء. لا أقصد الإساءة، يا آفيري، لكن صديقنا الأمريكي في ذلك الكتاب يبدو مثيراً للشكوك كأنه شاذ يختفي بيننا.

يجب أن تتعرف عليه بحاسة الشم، قال ستان.

من كتب ذلك؟ نويل كاوارد27؟ اسمه بايل، بحق السماء. كم من النكات التي بإمكانك استنباطها من ذلك الاسم؟ إنه كتاب مؤيد للشيوعية. أو على الأقل مناهض للأمريكان. الأمر سيّان على كل حال. أومأ كلود بيده مشيراً إلى الكتب، والأثاث، وغرفة

المعيشة، على ما يبدو كل المنزل مؤثث بفخامة. من الصعب الاعتقاد أنه كان شيوعياً ذات مرة، أليس كذلك؟

ستان؟ قلت.

كلا، ليس ستان. هل كنت أنت، ستان؟ لم أتصور هذا.

هز البروفيسور كتفيه استهجاناً حين نظرت إليه. كنت في مثل عمرك، قال وهو يضع ذراعه حول كتفي ستان. كنت انطباعياً مرهف الإحساس، أردت تغيير العالم. الشيوعية أغوتني كما أغوت الآخرين.

الآن هو يمارس الإغواء نفسه، قال ستان، وضغط على يد البروفيسور، مما جعلني أتلوى قليلاً. بالنسبة لي، كان البروفيسور عقلاً يمشي على الأرض، وإذا نظرت إليه كجسد، أو أن له جسداً، فالأمر يبقى مربكاً.

هل ندمت يوماً على أنك شيوعي، بروفيسور؟

كلا، لم أندم. ارتكاب ذلك الخطأ جعلني ما أنا عليه اليوم.

ما معنى ذلك، يا سيدي؟

ابتسم. أتصور أنك يمكن أن تسميني أمريكياً ولد من جديد. إنها سخرية إلى حد ما، لكن إذا كان التاريخ الدموي للعقود الماضية علمني شيئاً فهو أن الدفاع عن الحرية يتطلب قوة العضلات التي بإمكان أمريكا توفيرها. حتى ما نفعله في الكلية له هدف. إننا نعلمكم أفضل الأشياء التي فكر بها غيرنا وقالوها ليس لشرح أمريكا للعالم، كما شجعتكم دائماً على ذلك، وإنما للدفاع عنها.

احتسيت ما تبقى في الكأس من الشراب الاسكتلندي. كان المذاق مدخناً بطعم الفحم الحجري والبلوط المتعفن، ممزوجاً بعرق السوس وجوهر غير ملموس للفحولة الاسكتلندية. كنت أحب الشراب الاسكتلندي غير مخفف، مثل حقيقتي. لكن لسوء الحظ، الحقيقة المرة مثل أي شراب رخيص من الشعير عمره ثماني عشرة سنة. وماذا عن أولئك لم يتعلموا أفضل الأفكار والأقوال؟ سألت البروفيسور. إذا كنا عاجزين عن تعليمهم، أو لم ينالوا فرصة للتعلم؟

راح البروفيسور يتأمل أعماق كأسه النحاسية. أعتقد أنك وكلود رأيتما أشياء أكثر مما ينبغي خلال مراحل عملكما. لا يوجد جوابٌ سهل، باستثناء أن الأمور دائماً تجري على هذا المنوال. منذ أن اكتشف أول إنسان في الكهوف النار وقرر أن أولئك الذين ما زالوا يعيشون في الظلام من الجاهلين، إنها الحضارة بإزاء البربرية.. وكل عصر فيه بربريته الخاصة.

لا شيء أكثر وضوحاً من جدلية الحضارة والبربرية، لكن ماذا عن قتل الرائد البدين؟ إنه عمل بربري أم من أعمال الحضارة الثورية المتطورة؟ لا بد أنه الشيء الأخير، عمل من تناقضات العصر الذي نعيش فيه. نحن الماركسيون نعتقد أن الرأسمالية تخلق التناقضات وسوف تسقط بالتالي، إذا قام الرجال بواجبهم. ليست الرأسمالية وحدها تنطوي على تناقضات. كما قال هيجل، التراجيديات لا تتضمن صراعاً بين الخطأ والصواب وإنما بين الخير والشر، وهي جدلية لا أحد ممن يريد المساهمة في صنع التاريخ يمكنه الإفلات منها. الرائد لديه حق في العيش، وأنا كنت محقاً في قتله. أليس كذلك؟ عندما افترقنا أنا وكلود في منتصف الليل تقريباً، كنت على وشك فتح الموضوع الذي يثقل ضميري. وبينما كنا ندخن آخر سيجارتين قبل الوداع على الرصيف، طرحت عليه السؤال الذي تخيلت أن أمي لا بد أن تطرحه علي: ماذا لو كان بريئاً؟

نفخ حلقة من الدخان، لإظهار قدرته ليس إلا. لا أحد منا بريء. خصوصاً في هذا العمل. أنت لا تتصور أن يديه ربما تلطختا بالدماء؟ لقد تعرّف على بعض المتعاطفين مع الفيتكونغ. ربما ارتكب خطأً في ذلك الشأن. حدث شيءٌ مثل هذا من قبل. أو إذا كان هو نفسه متعاطفاً، إذن فقد اختار حتماً أسماء أشخاص غير متورطين لغرض التمويه. فعل ذلك عن قصد.

لا أعرف ذلك على وجه اليقين.

البراءة والخطيئة. هذه مسائل كونية. نحن جميعاً مذنبون بشكل أو بآخر. وأبرياء بشكل أو بآخر. أليس هذا معنى الخطيئة الأصلية؟

صحيح جداً، قلت. تركته يذهب بعد أن تصافحنا. كان دبيب الهواجس الأخلاقية منهكاً مثل المشاجرات العائلية، لا أحد يهتم بها غير الأشخاص المعنيين بها مباشرة. في هذا

الموقف تحديداً، واضح أنني الشخص الوحيد المعني، باستثناء الرائد البدين، فلا أحد يهتم بأن يسمع رأيه. في هذه الأثناء عرض كلود علي وسيلة لتبرئة نفسي، أو على الأقل عذراً، لكنني لم أجرؤ أن أخبره بأني سأستفيد منها. الخطيئة الأصلية ببساطة متأصلة لدى بعض الناس من أمثالي أكثر من غيرهم، الذين ولدوا من أب يتكلم عنها في كل قداس.

***

في مساء اليوم التالي بدأت أستطلع تحركات الرائد. يوم الأحد والأيام الخمسة اللاحقة، من شهر أيار وحتى نهاية حزيران، كنت أركن سيارتي على مبعدة صف من البنايات عن محطة الوقود، بانتظار الساعة الثامنة حين يغادر الرائد البدين، فيتمشى ببطء متجهاً إلى منزله، وعلبة الطعام في يده. عندما رأيته ينعطف عند الركن، تحركت بالسيارة، حيث انتظرته ورأيته يمشي قرب أولى البنايات. منزله لا يبعد أكثر من ثلاثة صفوف من البنايات، مسافة يقطعها الرجل النحيف في خمس دقائق. لكن الرائد البدين يقطعها في إحدى عشرة دقيقة، وكنت خلفه على بعد بعض البنايات. طوال ستة أيام آحاد، لم يغير مساره الروتيني، مثل البط البري المهاجر، يأخذه مساره إلى مكانٍ مجاور من الشقق التي تبدو ميتة من الضجر. كانت البناية التي فيها شقة الرائد تعترضها سقيفة ذات أربع فسحات، إحداها فارغة والثلاثة الباقية تشغلها حافلات دعاماتها منبعجة يسوقها رجال كبار في السن. رأيت الطابق الثاني يطل بمجموعتين من النوافذ على الشارع، يخفي السيارات عن الأنظار. في الساعة الثامنة وإحدى عشرة دقيقة مساء أو نحو ذلك، رأيت فتحتين كئيبتين لنوافذ غرف النوم مشرعة والستائر تغطيها، واحدة منها فقط مضاءة. في أول يومي أحد، كنت أركن السيارة عند الزاوية وأراقبه يستدير باتجاه سقيفة السيارات ثم يختفي. وفي اليومين الثالث والرابع، لم أتبعه من المحطة بل انتظرته على بعد بعض البنايات من شقته. من هناك، راقبته في المرآة يدخل تحت ظل سقيفة السيارات، ورأيت ممراً يؤدي إلى عمق الشقق. حالما يختفي عن الأنظار في تلك الأيام الأربعة كنت أرجع، لكن في الأحد الخامس والسادس، انتظرت. قبل الساعة العاشرة ظهرت السيارة التي كانت مركونة في البقعة الخالية، سيارة قديمة منبعجة مثل الأخريات، والسائق رجل صيني يبدو متعباً يرتدي زياً رسمياً قذراً ويحمل كيساً ورقياً مبقعاً بالدهون.

يوم الأحد قبل الموعد مع الرائد البدين، ذهبت مع بون بالسيارة إلى تشايناتاون. في أحد الأزقة بعيداً عن برودواي اصطف باعة خردوات متجولون مع بضاعتهم على مناضد قابلة للطي، اشترينا فانيلات عليها اسم جامعة كاليفورنيا وقبعات بيسبول بأسعار تؤكد أنها ليست بضاعة أصلية. بعد تناول عشاء من اللحم المشوي والمعكرونة، استطلعنا أحد محلات التحف والأنتيكات حيث تباع مختلف أنواع البضائع الشرقية، خصوصاً لغير الشرقيين. ورأينا ألعاب شطرنج صينية، وعيدان طعام خشبية، وفوانيس ورقية، وتماثيل بوذا من الصابون، ونافورات مياه مصغرة، وأنياب فيلة عليها نقوش ملونة جميلة لمناظر طبيعية ورعاة، ونسخاً مقلدة لمزهريات مينغ، وبواخر وصوراً للمدن المقدسة، وعصي تستخدم كأسلحة تقليدية من المطاط مغلفة بملصقات بروس لي، ولفائف صور بالألوان المائية لغابات وجبال تكللها الغيوم، وعلب الشاي واليانسون، وأخيراً وليس آخراً مفرقعات نارية حمراء. اشتريت منها علبتين، وقبل العودة إلى المنزل، اشترينا كيس برتقال من سوق محلية، وكانت تتدحرج داخل الكيس بشكل مزعج.

في وقتٍ لاحق من المساء، بعد حلول الظلام، غامرت بالخروج مع بون مرة أخرى، كل منا كان يحمل مفكاً. تجولنا في الحي حتى وصلنا إلى شقة قربها سقيفة للسيارات كأنها شقة الرائد البدين، والسيارات لا يراها أحد من النوافذ المجاورة. تطلب الأمر من بون أقل من ثلاثين ثانية لإزالة لوحة الأرقام الأمامية لإحدى السيارات، وانتزعت أنا لوحتها الخلفية. ثم رجعنا إلى المنزل وشاهدنا التلفزيون حتى منتصف الليل. غط بون في النوم على الفور، لكني لم أستطع أن أنام. زيارتنا إلى تشايناتاون ذكرتني بحادثة وقعت في شو لون قبل سنوات بيني وبين الرائد البدين. كانت المناسبة اعتقال أحد أعضاء الفيتكونغ المشكوك بهم والذي تدرج من أعلى قائمتنا الرمادية إلى أسفل قائمتنا السوداء. الكثير من الناس يعتبرون هذا الشخص من الفيتكونغ ويبلغون عنه لكي نصفيه، هكذا قال الرائد، وعرض عليّ الملف الضخم الذي أعده عنه. العمل الرسمي: تاجر شراب مصنوع من الأرز. يتاجر في السوق السوداء. صاحب كازينو. الهواية: محصل ضرائب يعمل مع الفيتكونغ. طوقنا المكان ووضعنا الكتل الخرسانية والعوائق على كل الشوارع الفرعية وانتشرت دوريات راجلة في الأزقة. بينما كانت إحدى دوريات الشرطة تفتش هويات سكان الحي المجاور، تبحث عن المزورين والنصابين، اقتحم رجال الرائد محل تاجر الشراب، دفعوا زوجته جانباً للوصول إلى المخزن، ووجدوا العتلة التي تفتح أحد

الأبواب السرية. وجدوا هناك مقامرين يلعبون الورق، والشراب والحساء الساخن تقدمه نادلات بثياب مغرية. لدى رؤية رجال الشرطة يهجمون من الباب، اندفع كل اللاعبين والعاملين على الفور نحو الباب الخلفي، ليجدوا مجموعة أخرى من الرجال الأشداء بانتظارهم في الخارج. المشهد المضحك بعد ذلك تضمن الكثير من الصراخ، والعويل، والضرب بالهراوات، والتكبيل بالأصفاد، إلى أن بقينا وحدنا أخيراً، أنا والرائد البدين والمتهم الذي استغربت من رؤيته. كنت قد حذرت مان من المداهمة وتوقعت بالضبط أن يكون محصل الضرائب غائباً.

الفيتكونغ؟ صرخ الرجل وهو يلوّح بقبضته في الهواء. مستحيل! إنني من رجال الأعمال!

ورجل صالح أيضاً، قال الرائد وهو يرفع كيس القمامة المملوء بالأوراق النقدية في الكازينو.

إذن أمسكتم بي هنا، قال الرجل، يا لتعاستي! كانت أسنانه كتلة مشوهة يتراكب بعضها على بعض، وثلاث شعرات طويلة تنمو على شامة بحجم خرزة رخامية على خده. طيب، خذوا النقود، إنها لكم. إنني سعيد بالمساهمة في قضايا الشرطة.

إنها إهانة، قال الرائد وهو ينخس بطن الرجل بهراوته. النقود ستذهب إلى الحكومة لدفع غراماتك وتسديد الضرائب، هي ليست لنا، صحيح، أيها النقيب؟

صحيح، قلت، الرجل الصالح لا يغير مبادئه.

أما عن ضرائب المستقبل، فتلك مسألة مختلفة. صحيح، أيها النقيب؟

صحيح. لم يكن ثمة ما يمكنني عمله مع محصل الضرائب. لقد أمضى أسبوعاً في مركز الاستجواب وتعرض لألوان التعذيب. وفي النهاية اقتنع رجالنا بأنه ليس من عملاء الفيتكونغ. والدليل الذي لا يدحض، وصل على شكل رشوة لا بأس بها قدمتها زوجة الرجل إلى الرائد البدين. أعتقد أنني مخطئ، قال بابتهاج، وأعطاني مغلفاً فيه حصتي. المبلغ يعادل راتباً لمدة سنة، وإذا نظرنا إليه نسبياً، فهو في الواقع لا يكفيني لمدة سنة. لو رفضت النقود فذلك يثير الشكوك، لذلك أخذتها. أحسست برغبة باستخدامها في أعمال الخير، وعلى وجه التحديد مساعدة النساء الجميلات اللواتي يستحققن الفقر، لكنني

تذكرت ما قاله أبي، بدلاً من أن أتذكر أفعاله، فضلاً عن الأقوال المأثورة لهوشي مينه. يسوع والعم هوشي كانا صريحين في اعتبار النقود مفسدة، ابتداءً من المرابين الذين يدنسون المعبد إلى الرأسماليين الذين يستغلون المستعمرات، ولا داعي لذكر يهوذا الاسخريوطي والثلاثين قطعة من الفضة. ودفعتُ ثمن خطيئة الرائد بأن تبرعت بالنقود إلى الثورة، أعطيتها إلى مان في الكنيسة. انظر من نقاتل؟ قال. يا مريم المقدسة، صلي من أجلنا، نحن المذنبون، سمعنا دندنة الأرامل. هذا سبب انتصارنا، قال مان. أعداؤنا فاسدون. ونحن نختلف عنهم. المغزى من كتابة هذا أن الرائد البدين كان مذنباً وفاسداً كما خمن كلود. ربما اقترف أشياء أسوأ من الابتزاز، مع أن ذلك لا يعني أنه يرقى إلى أعلى مستويات الفساد. هو مجرد فاسد بسيط.

***

في مساء اليوم التالي أوقفنا سيارتنا على الشارع بعيداً عن محطة الوقود بمسافة سبعة وثلاثين متراً، كنا نلبس فانيلات جامعة كاليفورنيا وقبعات. لو انتبه إلينا أحد، لحسن الحظ سوف يرون طلاباً من جامعة كاليفورنيا. كانت سيارتي تحمل اللوحات المسروقة التي ثبتت عليها، ولوحاتها الأصلية في الصندوق الخلفي. أي محاولة للتمويه لا بد أن تكون ضرورية، لكن الأهم تلك الأشياء التي لا سيطرة لنا عليها لكنها ربما تكون متوقعة. أنزلت زجاج السيارة من ناحيتي، فسمعنا فرقعة وانفجارات بعيدة تأتي من احتفال بالألعاب النارية، إضافة إلى دمدمة عارضة لأسلحة خفيفة بمناسبة عيد الاستقلال. كانت الشعل النارية الملونة تتفجر في مكانٍ قريب، والناس يشعلون أشياء صغيرة كالكرز، ويطلقونها بين فترة وأخرى نحو سماء بدت منخفضة، أو يحرقون أحزمة الذخيرة والمفرقعات الصينية. كان بون مهموماً ونحن ننتظر الرائد، فمه مطبق وأعصابه مشدودة وكتفاه محدودبان، يرفض أن يدعني أشغل الراديو. ذكريات حزينة؟ قلت. نعم. للحظات لم يقل أكثر من ذلك، وبقينا نراقب المحطة. توقفت سيارتان للتزود بالوقود، ثم غادرتا. كنت وقتها شارد الذهن، وتذكرت حادثة لا أدري لماذا خطرت في ذهني، خارج مدينة ساديك في الجنوب، تقدم قائد إحدى الدوريات وداس على لغم أرضي. صدرت فرقعة خفيفة لكنه قفز بعيداً في الوقت المناسب، ثم دوى الانفجار. كنت أختفي وراء رجلين، لم أُصب بأذى. لكنها مزقته. الشيء الأغرب من الخيال، أن ذلك الوغد لم يمت.

غمغمتُ بأسى وهززت رأسي، غير ذلك لم يكن عندي ما أقوله، ففقدان رجولتي شيءٌ لا يمكن التطرق إليه. شاهدنا سيارتين جاءتا وملئتا بالبنزين. هناك شيء واحد أطلبه بخصوص الرائد البدين. لا أريده أن يشعر بأي شيء، قلت.

لن يشاهد الرصاصة أبداً.

في الساعة الثامنة، خرج الرائد البدين من المحطة. انتظرته حتى استدار نحو المنعطف ثم شغلت السيارة. توجهنا إلى شقته سالكين طريقاً آخر بحيث لا يرانا نمر به. وجدنا الفسحة الرابعة لإيقاف السيارات فارغة، فركنت السيارة هناك. نظرت إلى ساعتي. مرت ثلاثُ دقائق، وثمان أخرى قبل أن يظهر. أخرج بون المسدس من الصندوق الصغير في مقدمة السيارة وتفحص السبطانة وتأكد من الرصاصات. ثم سحب رصاصة ووضع المسدس على الوسادة المخملية الحمراء في حضنه. نظرت إلى المسدس والوسادة وقلت، ماذا يحصل لو تطاير شيءٌ من حشو الوسادة عليه؟ أو كل أجزاء الغطاء؟ الشرطة سوف تراها وتتساءل عن حقيقتها.

هز كتفيه استهجاناً. إذن لا حاجة للوسادة. هذا يعني أن تُسمع الضوضاء.

في مكان ما على الشارع، أطلق أحدهم سلسلة أخرى من المفرقعات الصينية، النوع نفسه الذي استمتعت بالنظر إليه حين كنت صغيراً أثناء احتفالات السنة الجديدة. كانت أمي تضيء شعلة حمراء وأنحني معها ونزحف على الركبتين في حديقة مجاورة بينما الشعلة الأفعوانية تقفز وتتمايل هنا وهناك، وتستهلك مادتها من الذيل إلى الرأس، أو ربما من الرأس إلى الذيل، بينما ترسل شرارات ملونة مبهجة.

إنها إطلاقة واحدة، قلت بعد توقف المفرقعات. لن ينتبه أحد مع هذه الضوضاء.

نظر إلى ساعته. طيب، إذن.

ارتدى زوجاً من القفازات المطاطية وركل حذاءه. فتحت الباب من جهتي، وخرجت، وأغلقته برفق، ووقفت عند الطرف الآخر من سقيفة السيارات، بجوار الممر المؤدي إلى صناديق بريد خاصة بتلك الشقق. كان الممر يمتد من صناديق البريد إلى شقتين أرضيتين من طابق واحد، مدخل الشقة الأولى على بعد عشرة أقدام. أخرجت رأسي من الركن، فرأيت أضواء الشقة من وراء ستائر مسدلة على نافذة غرفة المعيشة. هناك

سياجٌ خشبي طويل يحيط بالجانب الآخر للممر، ووراءه جدار يحيط بمجمع لشقق مماثلة. كان نصف نوافذ المجمع خاصة بالحمامات، والنصف الآخر نوافذ غرف النوم. أي شخص ينظر من نوافذ الطابق الثاني بإمكانه رؤية الممر المؤدي إلى الشقة، لكنه لن يشاهد ما يحصل في سقيفة السيارات.

تمشى بون حافي القدمين إلى موقعه، بين سيارتين قريبتين من الممر، حيث انحنى وأبقى رأسه تحت النوافذ. نظرت إلى ساعتي. الثامنة وسبع دقائق. كنت أحمل كيساً بلاستيكياً عليه وجه أصفر ضاحك مع عبارة شكراً لك! داخل الكيس هناك المفرقعات النارية والبرتقال. هل أنت واثق من أنك تريد أن تفعل هذا، يا بنيّ؟ سمعت صوت أمي. فات الأوان، ماما. لا يمكنني التراجع.

كانت السيجارة على وشك أن تنتهي بيدي عندما ظهر الرائد عند السقيفة للمرة الأخيرة. مرحى. طافت على وجهه ابتسامة مرتبكة. كان يحمل صندوق الطعام بيده. ماذا تفعل هنا؟ أجبرت نفسي على الابتسام له. رفعت الكيس البلاستيكي، وقلت، كنت قريباً من الحي وفكرت أن أعطيكم هذا.

ماذا فيه؟ كان يقترب مني.

هدية بمناسبة الرابع من تموز. خرج بون من وراء السيارة التي كان الرائد يمشي قربها، لكني أبقيت عيني على الرائد. كان يبعد عني ثلاثة أقدام عندما قال، هل يعطون الهدايا في الرابع من تموز؟

التعبير الذي على وجهه بقي مرتبكاً. قدمت إليه الكيس بيدي معاً، انحنى ليتفحص محتوياته. اقترب بون من خلفه دون أن يصدر صوتاً على قدمين حافيتين والمسدس بيده. لا ضرورة لأن تفعل هذا، قال الرائد. ولما أدخل يديه في الكيس، تهيأ بون لإطلاق النار في تلك اللحظة. لكن بدلاً من الضغط على الزناد، قال بون، مرحباً، أيها الرائد.

استدار الرائد، والهدية بإحدى يديه، وعلبة الطعام باليد الأخرى. انزويت جانباً وسمعته يقول شيئاً حين رأى بون، لكن بون أطلق النار. تردد الصدى في السقيفة، وأصابني بالصمم. طقطقت جمجمة الرائد لما ارتطم رأسه بالرصيف، إن كانت الرصاصة لم تقتله الآن، ربما قتلته السقطة. انبطح على ظهره، والثقب الذي أحدثته الرصاصة في

جبهته كأنه عين ثالثة، والدماء تنزف منها. تحرك، همهم بون، وهو يرجع المسدس إلى حزام بنطلونه. وبينما انحنى ودحرج الرائد على جنبه، انحنيت على الجثة والتقطت الكيس البلاستيكي، والوجه الأصفر الضاحك ملطخ بالدماء. شفتا الرائد كانتا مزمومتين كأنما رسمت عليهما الكلمة الأخيرة التي أراد أن ينطقها. انتزع بون محفظة الرائد من جيب الورك، ووقف، ودفعني باتجاه السيارة. نظرت إلى ساعتي. الثامنة والنصف.

خرجت السيارة من السقيفة. زحف على جسدي شعورٌ بالخدر، من دماغي ومحجري عيني ممتداً إلى أطراف أصابعي. تصورت أنه لن يحس بها وهي تأتي باتجاهه، قلت. لم أستطع أن أطلق النار عليه في الظهر، قال. لا تهتم. لم يشعر بشيء. لم يقلقني احتمال أن يكون الرائد البدين قد أحس بشيء. كنت قلقاً من تبعات إحساسي أنا. لم نتفوه بكلمة بعد ذلك، وقبل أن نصل إلى شقتنا، دلفت إلى الزقاق الذي بدلنا فيه لوحات التسجيل. ثم رجعنا وعندما خلعت حذائي، رأيت بقعاً من الدماء على الحذاء الأبيض. أخذت الحذاء إلى المطبخ لكي أنظفه بمنشفة مبللة قبل أن أتصل بالجنرال من الهاتف المعلق قرب الثلاجة، التي تزين بابها صفحتان عن انفصام شخصيتي. رد علي بعد الرنة الثانية. مرحباً؟ قال. انتهى الأمر. ثم توقف. جيد. أغلقت السماعة ولما عدت إلى غرفة الجلوس بكأسين وزجاجة من شراب الجاودار وجدت بون يفرغ محتويات محفظة الرائد على طاولة القهوة. ماذا نفعل بهذه؟ سألني بون. هناك هوية ضمان اجتماعي، وبطاقته الرسمية لكن لا توجد إجازة سياقة، لم يكن يملك سيارة، ومجموعة إيصالات، واثنين وعشرين دولاراً، وبعض القطع النقدية والصور. منها صورة بالأبيض والأسود مع زوجته في يوم زفافهما، كان شاباً ويرتدي حلة غربية. حتى في ذلك الوقت يبدو بديناً. وصورة ملونة للتوأم الذي ولدته زوجته وهما بعمر بضعة أسابيع، لا يبين لهما جنس كأنهما كتلة مجعدة من اللحم. أحرقها، قلت. جلب بون سلة مهملات وولاعته، وبينما سكب لنا الشراب أحرق محتويات المحفظة وألقاها في السلة. سوف أتخلص من المحفظة غداً، وكذلك لوحات السيارة، والكيس البلاستيكي، وبقايا الرماد.

لنشرب الآن نخب الرائد، قال بون. وناولني كأس الجاودار، رأيت الندبة الحمراء في يده. كان مذاق الشراب كأنه مادة طبية كريهة بحيث شربنا مرة أخرى لكي نتخلص من المرارة، ثم شربنا مرة ثالثة، ورابعة، ونحن نشاهد التلفزيون يبث برامج خاصة باحتفالات

عيد الأمة. لم يكن ميلاداً مثل غيره، لكنه الذكرى المئوية الثانية، لميلاد أمّة مفتولة العضلات، أمّة شربت حتى الثمالة في نزهات إلى بلاد أجنبية لكنها الآن نهضت على قدميها من جديد وتبدو دائماً على استعداد للنهوض، أو هكذا يثرثرون. وبعد ذلك أكلنا ثلاث برتقالات وخلدنا للنوم. استلقيت على سريري، وأغلقت عيني، وارتطمت ركبتاي بالأثاث الذي أعدنا ترتيبه، وارتجفت لما رأيته وتشتتت أفكاري. فتحت عيني لكن لم يتغير شيء. سواءً كانت عيناي مفتوحتين أو مغلقتين، كنت أراها، العين الثالثة في جبهة الرائد البدين، كأنها تبكي دماً لما تراه من حقيقتي.

الفصل السابع

أعترف بأن موت الرائد عذبني وأقضّ مضجعي، أيها القائد، وإن لم يزعجك أنت كما أتصور. كان الرجل بريئاً إلى حد ما، وهذا أقصى ما يطمح إليه الإنسان في العالم. في سايغون، كنت أستعين بزياراتي الأسبوعية إلى الكنيسة وألتقي مع مان لمناقشة همومي، لكني هنا وحدي، مع نفسي وأوزاري ومعتقداتي. كنت أعرف ما يمكن أن يقوله مان لي، لكني احتجت إليه ليكرر علي ذلك، كما فعل في مناسبات متعددة، مثلاً عندما أعطيته شريط فيلم لصولة فرسان المحمولين جواً وخطة الكتيبة التابعين لها. رجالٌ أبرياء لقوا حتفهم نتيجة أفعالي، ألم يحدث ذلك؟ بطبيعة الحال الناس يموتون، قال مان، وكان يخفي وجهه بين يدين متشابكتين ونحن ننحني جالسين على أريكة. لكنهم ليسوا أبرياء. وكذلك نحن، يا صديقي. نحن ثوار، والثوار ليسوا أبرياء. إننا نعرف أكثر مما ينبغي وفعلنا أشياء كثيرة.

كانت أوصالي ترتجف في ذلك الجو المشبع بالرطوبة في الكنيسة بينما الأرامل والثكالى يدندن، مثلما حصل في البداية، يحصل الآن، وسوف يحصل إلى الأبد، عالم بلا نهاية، آمين. على العكس من بعض التصورات، الأيديولوجيا الثورية، حتى في بلدٍ استوائي، لا تمتاز بالدفء. إنها باردة، من صنع الإنسان. ليس مستغرباً إذن أن الثوار يحتاجون إلى حرارة طبيعية أحياناً. لهذا، حين تلقيت دعوة إلى حفل زفاف بعد مدة ليست طويلة من مقتل الرائد البدين، تقبلتها بحماس غريب. كانت صوفيا موري مرافقتي المتلهفة لهذا الاحتفال بالعريسين اللذين تفحصت اسميهما جيداً على بطاقة الدعوة قبل تلبيتها. والد العروس عقيد مخضرم في البحرية حاربت كتيبته هناك مع فوج من الجيش الفيتنامي

خلال معركة هيو دون مساعدة أمريكية، بينما والد العريس نائب رئيس فرع سايغون التابع لبنك أمريكا. لقد هربت عائلته على متن طائرة نفاثة استأجرها البنك، وبذلك تجنبت الإذلال في مخيمات اللاجئين. الشيء الأكثر تميزاً بشأن نائب الرئيس، إلى جانب كل الامتيازات التي حصل عليها دون مشقة، شاربه الذي يتربع على شفته العليا يشبه شارب الممثل كلارك غيبل حين أدى دور رجل ميت، وتلك من الخصائص التي تنال إعجاب الجنوبيين الذين يتصورون أنفسهم دائماً من الشباب اللعوبين المتهتكين أو الدمثين الذين يتحلون بالكياسة. تلقيت الدعوة بعد أن التقيت بالرجل عدة مرات في سايغون كمساعد للجنرال. الموقع الذي خصص لي مميز رغم بعدي عن المسرح، بمعنى آخر كان بعيداً جداً. جلسنا قرب غرف الاستراحة، لا تفصلنا عن المطهرات وأدوات التنظيف غير الطاولات التي أعدت للأطفال وللجوقة الموسيقية. الأشخاص الذين جلسوا معنا اثنان من الضباط الصغار السابقين، واثنان من موظفي البنك في مناصب ثانوية يشغلان الآن مناصب أدنى في فروع بنك أمريكا، ورجل يبدو أنه صهر أحدهم وقد بدا هجيناً، وزوجاتهم. في أوقات صعبة أخرى ما كنت لأستحق مقعداً، لكن الآن مضى علينا أكثر من سنة في منفانا الأمريكي، والأوقات الجميلة عادت بالنسبة للبعض منا. كان المطعم الصيني يقع في ويستمنستر، حيث استقر الرجل الذي له شارب كلارك غيبل مع عائلته في منزل ريفي في الضواحي، ليس بمستوى قصره الفخم في سايغون لكنه أعلى مستوى على كل حال بالقياس إلى كل الحاضرين خلال تلك الأمسية. ويستمنستر هي بلدة سوني، ولمحته جالساً إلى إحدى الطاولات قريباً بعدة صفوف من الضيوف المرموقين من أصحاب السلطة، وتلك محاولة من كلارك غيبل لضمان تغطية الصحافة المؤيدة.

رغم الضوضاء والحركة في المطعم، كان العمال الصينيون بسترهم الحمراء الضيقة يتجولون برشاقة مخترقين متاهة من طاولات الوليمة، وتغلب على وجوه الحاضرين لمسة من الكآبة في القاعة الواسعة. كان والد العروس غائباً بشكل مثير للاستغراب، بعد أن تعرض للأسر مع ما تبقى من كتيبته وهم يدافعون عن الجناح الغربي لسايغون في اليوم الأخير. أطرى الجنرال عليه في بداية الحفلة في خطبة مرتجلة أثارت شتى العواطف، والدموع، ورفعت الكؤوس تحية له. شرب المحاربون القدامى نخب البطل وهم يصيحون ويثرثرون بتهور ساعد في إخفاء افتقارهم المحرج للبطولة. على المرء ببساطة أن يبتسم ابتسامة عريضة وهو يشرب إلا إذا أراد أن يخفي رقبته في الرمال المتحركة للتناقضات، أو

هكذا قال الرائد البدين الحزين، وتخيلت رأسه المقطوع كبيضة القبان على الطاولة. لذلك ابتسمت ابتسامة عريضة وأفرغت الشراب في جوفي. ثم خلطت شيئاً من شراب ريمي مارتن مع الصودا وقدمتها إلى السيدة موري بينما كنت أشرح لها تلك العادات والممارسات الغريبة، والتسريحات، وموضة الملابس الخاصة بشعبنا الذي يعشق الأفراح. انطلقت عباراتي كالصراخ، محاولاً إسماع صوتي الذي تخنقه ضوضاء الفرقة الموسيقية التي يتصدرها غندور ضئيل الحجم بسترة لامعة. كان يرفل مختالاً بباروكة الراقصين على طراز لويس الرابع عشر، دون مساحيق، ويقفز هنا وهناك متباهياً على المنصة ويخبط بحذاء ذهبي ويداعب ميكرفونه، ويضغط طرفه الغليظ على شفتيه بإيحاءٍ مبهم وهو يغني. كان موظفو المصارف والعسكريون مغرمين به حتماً، يهتفون مع كل إيماءة فاضحة من الحوض واهتزاز ببنطلونه الصقيل الضيق على نحو مثير للاستغراب. لما دعا المغني بعض الرجال المحترمين للصعود إلى خشبة المسرح للرقص، كان الجنرال أول من استجاب مباشرة. ابتسم للحاضرين وهو يتبختر مترنماً بأغنية المهرج الأسود بثياب الحداد، التي تتماشى مع سقوط سايغون الفوضوي، والجمهور مبتهج يصفق له بانبهار، والمغني يغمز من فوق كتفه مقلداً حركات ماي ويست28. ذلك هو الموضوع المفضل للجنرال، أن يكون وسط رجالٍ ونساء يطرون عليه أو يعرفون أشياء أفضل غير الانتقادات المزعجة. التصفية - كلا، بل التهميش - للرائد المسكين أعادت له حيويته بما يكفي لأن يحضر الجنازة وحفل التأبين بكل إخلاص. هناك أطرى على الرائد واعتبره رجلاً يتحلى بالهدوء والرزانة والتواضع وضحى بحياته وكان دائماً حريصاً على أداء واجباته لبلده وعائلته من غير أي شكوى، لكي ينتهي أمره بهذه الصورة المأساوية في حادث سطو وحشي. كنت قد التقطت صوراً فوتوغرافية للجنازة بكاميرتي الكوداك، ولاحقاً أرسلتها إلى عمتي في باريس، بينما جلس سوني في الصف الأول مع المنتحبين، وكان يدوّن بعض الكلمات لخبر التأبين. وبعد الجنازة، أنزل الجنرال زجاج سيارته وأعطى مغلفاً يحتوي على مبلغ من المال من نفقات عملياتية وفرها كلود، ثم انحنى لينظر إلى العربة التي ينام فيها سبانخ وبروكلي. كان بوسعي فقط التمتمة بشيء يتناسب عموماً مع حالة الأرملة التي تبلل وشاحها بشلال من الدموع. كيف سارت الأمور؟ سألني بون عندما عدت إلى الشقة. وكيف تظن؟ قلت، واتجهت مباشرة إلى الثلاجة التي كانت أضلاعها مصفوفة كالعادة بعلب الشراب. إلى جانب ضميري، كان كبدي العضو الأكثر تأثراً في جسدي.

حفلات الزفاف كثيراً ما تفاقم الأحزان، من خلال منظر عروسين سعيدين بريئين. ربما أدى زواجهما إلى العزلة، الزنا، البؤس، الطلاق، لكن ربما أدى أيضاً إلى المودة، الرحمة، الإخلاص، الأطفال، القناعة والرضا. بينما لا توجد لدي أدنى رغبة في الزواج، فالأعراس تذكرني بما حرمت منه بقرار لا دخل لي فيه. فإذا حضرت حفلة عرس فكأني أشاهد فيلماً فاضحاً، وتمتزج ضحكات الجمهور بالتعليقات التهكمية التي تطلق من هنا وهناك، وينتهي الأمر بأن أتصور العرس كرنفالاً من اللوحات المائية التي تسيل ألوانها بعضها على بعض، خليط ثلثه غناء، وثلث مشحون بالعواطف المؤثرة في الوجدان، وثلث من الأحزان. بهذا المزاج أخذت السيدة موري إلى قاعة الرقص بعد تقطيع كعكة الزفاف، وفي مكان قريب من المسرح لمحت إحدى المغنيتين اللتين يتناوبن على المايكروفون بشكله المبهر. إنها البنت الكبرى للجنرال، بعد أن نقلت بسلام إلى خليج سان فرانسيسكو كطالبة بينما البلاد تواجه الانهيار. لانا بالكاد يعرفها أحد بعد أن رحلت وهي طالبة في المدرسة، رأيتها آخر مرة في قصر الجنرال أثناء سنواتها في لايسي حين كانت تأتي في العطل الصيفية. في تلك الأيام، كانوا يسمونها لان واعتادت أن تلبس أكثر الثياب تواضعاً، الزي الأبيض لفتاة مدرسة والذي طالما أثار مخيلة الكتاب الغربيين الذين وصفوا في كتاباتهم العلاقات الغرامية والشذوذ والأجساد البضّة التي كل منحنى فيها يوحي دون أن يكشف بوصة من اللحم باستثناء ما فوق الرقبة وتحت الأكمام. واضح أن الكتاب يعتبرون ذلك استعارة ضمنية تصف بلادنا ككل، الطيش والتردد، التلميح بكل شيء دون التخلي عن شيء في استعراضٍ عجيب للاحتشام، تحريض متناقض محبط للمعنويات، عرض خبيث للتواضع يخطف الأنفاس. بالكاد يستطيع أي كاتب رحلات، أو صحفي أو مراقب عادي للحياة في بلادنا أن يمنع نفسه من الكتابة عن الشابات اللواتي يركبن الدراجات الهوائية في غدوهن ورواحهن إلى المدرسة بتنوراتهن البيضاء المرفرفة، كأنهن فراشات يحلم أي رجل غربي باقتنائهن وضمّهن إلى مجموعته.

في واقع الأمر، كانت لانا التي تتشبه بالفتيان مجبرة على أن تلبس سترة ضيقة مع تنورتها البيضاء صباحاً وتساعدها في ذلك المدام أو المربية. شكلها النهائي نموذج للتمرد وإن كانت طالبة متفوقة، وهي مثلي حصلت على بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة. في حالتها كانت البعثة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، والتي اعتبرها الجنرال والمدام مستعمرة شيوعية تضم أساتذة متطرفين وطلاباً ثوريين يسعون إلى إفساد الأبرياء. كانا

يريدان إرسالها إلى كلية للبنات حيث الخطر الوحيد يتمثل في التعرض للإغواء من الجنس اللطيف، لكن لانا لم تتقدم إلى أي واحدة من تلك الكليات، وأصرت على بيركلي. ولما منعوها من الذهاب، هددت بالانتحار. لم يأخذ الجنرال ولا المدام تهديداتها على محمل الجد حتى بلعت قبضة من الحبوب المنومة. ولحسن الحظ كانت قبضتها صغيرة جداً. وبعد معالجتها واستعادة صحتها أصبح الجنرال على استعداد للتنازل، لكن المدام أصرت على الرفض. ثم ألقت الفتاة نفسها في نهر سايغون في ظهيرة أحد الأيام، وكان الرصيف في ذلك الوقت يعج بالمارة، فبادر اثنان من الأشخاص إلى إنقاذها وهي تطفو بتنورتها البيضاء. وأخيراً أذعنت المدام أيضاً، وطارت لانا إلى بيركلي لتدرس تاريخ الفن في خريف عام 1972، واعتقد والداها أن موضوع الدراسة سوف يعزز أنوثتها ويجعلها تصلح أكثر للزواج.

في الفترات التي كانت ترجع فيها إلى المنزل في الصيف من عامي 1973، 1974، تظهر كأجنبية ببنطلون الجينز العريض عند أسفل الركبتين وشعرها تزينه ريشات ملونة، والبلوزات ضيقة مثل ترامبولين فوق بروز متواضع لصدرها، والصندل يضيف بوصات إلى قامتها القصيرة. وتجلس المدام معها في الصالون، كما تقول مربيتها، تلقي عليها محاضرات عن أهمية الحفاظ على عذريتها والتمسك بالفضائل الأربع والمقولات الثلاث - عبارة تستدعي إلى الذهن عنوان رواية نخبوية داعرة. مجرد التطرق علانية إلى احتمال مواجهتها لهذا الخطر في فقدان العذرية يضيف وقوداً للموقد في خيالي، نار تشتعل في خلوة غرفتي التي تقع على الردهة نفسها قرب الغرفة التي تنام فيها مع أختها الصغيرة. لقد زارت لانا الجنرال والمدام بضع مرات منذ وصولنا إلى كاليفورنيا، لكني لم أتلق أي دعوة لرؤيتها في تلك المناسبات. ولا تلقيت دعوة للذهاب مع الجنرال والمدام إلى حفل تخرجها الرائع قبل بضعة أشهر. كل ما سمعته عن لانا بعض العبارات التي ذكرها الجنرال عن ابنته الجاحدة التي لم ترجع إلى المنزل بعد التخرج بل اختارت العيش على هواها. رغم أنني حاولت دفع الجنرال للكلام عما ستفعله لانا بعد التخرج، إلا أنه بدا غير متعاون بشكل لا يتناسب مع شخصيته.

الآن عرفت السبب. لانا هذه التي على المسرح لا علاقة لها بالفتاة التي أتذكرها. ضمن تشكيلة الفرقة، المغنية الأخرى نموذج ملائكي للتقاليد فهي تكتفي بثوب فيتنامي

تقليدي بين الأصفر والأخضر، والشعر طويل ومنسدل على كتفيها، والمكياج متواضع يشي بالذوق، وأغانيها اختارتها بعناية من قصائد غرامٍ تطفح بهرمون الأنوثة عن شابات متيمات يستقبلن جنوداً يأتون من بعيد أو يهتفن لسايغون الضائعة. لا شيء من الحزن والضياع في أغاني لانا، لا نظرات إلى الوراء من فوق الكتف تلوح في عيني هذه الفاتنة من بنات عصر الحداثة. حتى أنا صدمتني تنورتها الجلدية القصيرة التي تهدد بالكشف عن السر الذي طالما تخيلت أشياء وأشياء عن مكنوناته. وفوق التنورة القصيرة، حزامٌ حريري ذهبي عاكس للأضواء مع كل التفافة لجذعها وهي تتمايل وتهز ردفيها، وتجلت ذروة تميزها في رقصات الروك أند رول التي أتقنتها بنات بلادنا في سبيل إمتاع القوات الأمريكية والشباب المتأثرين بهم. سمعتها تغني مريم التي ترفل بالفخر في وقتٍ سابق من المساء دون أن أعرف أنها هي، والآن حرصت على عدم النظر إليها مباشرة وهي تطلق عقيرتها بغناء نسخة من أغنية تمايل وأنت تصرخ التي دعت فيها تقريباً كل الحاضرين الذين تقل أعمارهم عن أربعين سنة إلى قاعة الرقص. إلى جانب التشاتشا البسيطة والأنيقة، كانت رقصة التويست هي المفضلة لدى سكان الجنوب، فهي لا تحتاج إلى أي تناسق بين المؤدين. حتى المدام رقصت ومزاجها يوحي بالبراءة بما يكفي لتسمح لأولادها بالمجيء إلى القاعة ومشاركتها في الرقص. لكن عندما ألقيت نظرة على طاولتهم التي احتلت مكان الشرف على حافة القاعة، لمحت الجنرال والمدام جالسين، كما لو أنهما يتجرعان مرارة ثمار شجرة تمر الهند التي أخفت ظلالها قصرهما الضائع. لا عجب! فلا أحد يؤدي تلك الرقصة أفضل من لانا، مع كل دورة يجذب ردفاها بمغناطيس غير مرئي رؤوس الرجال في القاعة للأمام ثم يردها إلى الخلف. ربما كنت سأشارك في الرقص، لولا معرفتي بأسلوب رقص السيدة موري معي، فالتمايل بمثل هذا الجذل الطفولي دفعني للابتسام. كم تبدو مغرية وجريئة مقارنة بطريقتها السابقة! رأيتُ زهرة الزنبق تتوج شعرها المتموج، وثوب الشيفون يكشف عن ركبتيها. كم من مرة أطريت على مظهرها، وانتهزتُ كل فرصة لرؤية ما فوق ركبتيها أثناء رقصة التويست وللإطراء على طريقتها في الأداء. لم أشاهد رقصاً مثل هذا منذ مدة، قالت مع انتهاء الأغنية. ولا أنا، سيدة موري، قلت، ولثمتُ خدها. ناداني صوفيا، قالت.

قبل أن أجيبها، صعد كلارك غيبل إلى المسرح وأعلن عن قدوم ضيف سيفاجئ الحاضرين، إنه من أعضاء الكونغرس الذين خدموا في بلادنا مع أصحاب البيريات الخضر

من 1962 إلى 1964 وكان نائباً عن المقاطعة التي وجدنا أنفسنا فيها. لقد حقق عضو الكونغرس مكانة مرموقة وشهرة في كاليفورنيا الجنوبية كسياسي مرموق، واستفاد من تجاربه الحربية كثيراً ضمن العمل في اورنج كاونتي. هنا كان يحمل لقب نيد النابالم أو نيد سلاح الدمار الشامل اعتماداً على مزاج المرء والأزمة الجيوبوليتيكية، وهي ألقاب مؤثرة عاطفياً وما كانت لتنتقص من شخصيته. الرجلُ مناهض للحمر في سياسته بحيث ربما بالإمكان أن يُعد من الخضر، من الأسباب في هذا أنه من السياسيين القلائل في كاليفورنيا الجنوبية الذين رحبوا باللاجئين بذراعين مفتوحتين. غالبية الأمريكان ينظرون إلينا بازدواجية إن لم يكن بامتعاضٍ صريح، فنحن الذين هربنا ونجونا نذكرهم بهزيمتهم الفادحة. نحن ندنس العلاقة المقدسة والانسجام بين البيض والسود في أمريكا والذين لم تترك سياستهم المتطرفة وفق مبدأ الين واليانغ مجالاً للتعايش مع أي عرق أو لون آخر، وعلى وجه التحديد أولئك الأقزام ذوي البشرة الصفراء المساكين الذين يسرقون المحفظة الأمريكية. كأننا غرباء من كوكب آخر يقال إن لدينا انحياز للأسماء والعادات الأمريكية، خاصة أسماء كلابهم التي أغدقوا عليها من أموال الرأسمالية ما يتجاوز الدخل السنوي لعائلة بنغلادشية تتضور جوعاً. (الشيء المرعب حقاً في هذا أنه خارج نطاق استيعاب الأمريكي العادي. بينما البعض منا يُعرف أنهم يتطفلون على نفقات منظمة كلاب أفلام هوليوود الشهيرة رن تن تن ولاسي، لم نفعل ذلك بطريقة إنسان نياندرتال كما يتوهم الأمريكي العادي، بوجود هراوة، ولحم مشوي، وشيء من الملح، ولكن بعمق ودأب ومثابرة على البراعة والابتكار، طهاتنا قادرون أن يطبخوا حيوانات من ذوات الأنياب بسبع طرق مختلفة لها علاقة بتحفيز هرمون الذكورة، ابتداءً من انتزاع النخاع إلى الشواء والغلي، فضلاً عن السجق والحساء وبضعة أنواع من المقليات والطهي بالبخار - يا للذة!) ومع كل ذلك كتب عضو الكونغرس مقالات افتتاحية يدافع فيها عنا ويرحب بالمهاجرين لزيارة مقاطعته اورنج كاونتي.

يا إلهي، انظروا إلى أنفسكم، قال والمايكروفون بيده، وكلارك غيبل بجواره، وعلى الجناحين تقف ملكة للإغراء. كان في الأربعين من عمره، نصف محامٍ ونصف سياسي، يستعرض عدوانية الأول ورهافة حس الثاني المتجسدين معاً في رأسه. يمتاز بالفطنة والدهاء وحدة الذكاء كأنه قلم رصاص مدبب، الكلمات تتدفق من شفتيه بسهولة مثلما تتدفق من أفضل قلم هندي. هذا الدماغ يشكل الاختلاف في المستوى بينه وبين القصير

كلارك غيبل، في كل المجالات كان عضو الكونغرس أكثر اطلاعاً من الفيتناميين معتدلي القامة والحجم اللذين يمكن أن يحشرا معاً داخل طيات معطفه. انظروا إلى أنفسكم، أيها السيدات والسادة، انظروا إلى أنفسكم بالطريقة التي أريد أن ينظر بها رفاقي الأمريكان لكم، كأنكم مواطنون أمريكان. أشعر بالامتنان حقاً للفرصة التي أتاحت لي الحضور هنا الليلة للمشاركة في متعة هذا الاحتفال بزواج اثنين من الشباب الفيتناميين في مطعم صيني على تراب كاليفورنيا وتحت أضواء قمر أمريكي وفي عالم مسيحي. اسمحوا لي بأن أخبركم بشيء، أيها السيدات والسادة، منذ سنتين كنت أعيش وسط شعبكم في الهضاب والتلال وقاتلت جنباً إلى جنب مع جنودكم وشاركتهم المخاوف وواجهت أعداءكم، كنت أعتقد آنذاك ولا زلت أنني لا أستطيع عمل شيء أفضل من التضحية بحياتي في سبيل أن تتحقق طموحاتكم، وأحلامكم، وتطلعاتكم لحياة أفضل. في الوقت الذي أعتقد فيه بكل صدق مثلكم أن تلك الآمال، والأحلام، والتطلعات سوف تتحقق في وطنكم، نحن أمدتنا بالعون يدٌ مبهمة أخرى للتاريخ من جهة، ورحمة الله التي لا مجال لفهم غاياتها أو الشك في أمرها من جهة أخرى. إنني هنا لأخبركم، أيها السيدات والسادة، بأن هذه البلاد منيت بالحظ التعيس مؤقتاً، لأن جنودكم قاتلوا قتال الأبطال الشجعان، وكانت ستنتصر لو أن الكونغرس بقي ثابتاً على موقفه في دعمكم مثلما وعد الرئيس. كان وعداً أيده الكثير من الأمريكان، وليس كلهم. تعلمون من أقصد هنا: الديموقراطيون، وسائل الإعلام، حركة مناهضة الحرب، الهيبيون، طلبة الكليات، الراديكاليون. أمريكا أصيبت بالضعف والهوان بسبب انقساماتها الداخلية، من انهزاميين وشيوعيين وخونة يملؤون جامعاتنا، ووكالات الأنباء والكونغرس. أنتم، ومن المحزن أن أقول هذا، تذكرونهم بجبنهم وخيانتهم. إنني هنا لأخبركم بأن ما أريد تذكره هو الوعد العظيم لأمريكا! الوعد للمهاجرين! الوعد بالحلم الأمريكي! الوعد بأن الشعب في هذه البلاد اعتاد الإيفاء بوعده وسوف يحافظ على كلمته في يوم قريب، فأمريكا أرض الحرية والاستقلال، أرض الوطنيين الذين دائماً يقفون وقفة رجل واحد مع الإنسان المقهور مهما كان المكان الذي ينتمي إليه من العالم، أرض الأبطال الغيارى الذين لن يتهاونوا في مؤازرة أصدقائنا ودحر أعدائنا، أرض تفتح ذراعيها لشعب مثلكم، أنتم يا من ضحيتم كثيراً من أجل قضيتنا المشتركة لنيل الديموقراطية والحرية! ذات يوم، أيها الأصدقاء، سوف ترفع أمريكا رأسها عالياً من جديد، سوف تولد من جديد بسبب شعب مثلكم. وذات يوم، يا أصدقائي، الأرضُ التي ضاعت

منكم سوف تعود إليكم فلا شيء يمكن أن يمنع الحركة المحتومة للحرية أو يقمع إرادة الشعوب! الآن عليكم أن تؤكدوا معي بلغتكم الجميلة ما نؤمن به جميعاً -

الجمهور كله بدا منبهراً ومبتهجاً ويصفق بحماس طوال تلك الخطبة، ولو كان هناك شيوعي في قفص لأخرجوه حالاً ليقطعوا قلبه الأحمر بسعادة بقبضاتهم التي لا ترحم. ما من شيء كان يمكن أن يثير حماسهم وتطرفهم إلا وتطرق إليه. رفع ذراعيه ليرسم بهما حرف V، التي ترمز على ما يبدو للنصر، أو لفيتنام، أو انتخبوني، أو أي شيء آخر أكثر إيحاءً لاشعورياً، وراح يصرخ في المايكروفون، بلغة فيتنامية لا لبس فيها، Vietnam Muon Nam! Vietnam Muon Nam! Vietnam Muon Nam! وكل من كان جالساً نهض من مقعده، وكل من كان واقفاً رفع عنقه ليكون أطول، وكل من كان صامتاً راح يردد هتاف عضو الكونغرس تعيش فيتنام إلى الأبد! ثم أشار كلارك غيبل بيده إلى الفرقة، وسرعان ما بدأت تعزف نشيدنا الوطني، فشاركت ملائكة الفتنة والإغراء مع كلارك غيبل وعضو الكونغرس في الترنيم بحماس شديد، مع كل الحاضرين، وأنا كذلك، ما عدا النادل وبعض رفاقه الرواقيين الذين سنحت لهم أخيراً فرصة لالتقاط أنفاسهم.

ولما انتهى النشيد الوطني، أحاط المهنؤون بعضو الكونغرس على المسرح بينما غطس باقي الجمهور في مقاعدهم وقد بدت عليهم علامات القناعة بعد إشباع الشهوات. استدرتُ فرأيت سوني يمسك دفتر ملاحظات والقلم بيده، واقفاً بجانب السيدة موري. يا له من شيء رائع! قال، كان متورد الوجنتين من كأس أو كأسين من الشراب. إنه الشعار نفسه الذي يستخدمه الحزب الشيوعي. هزت السيدة موري كتفيها. شعارٌ أجوف مثل أي ثوب فارغ، قالت. يمكن أن يلبسه أي إنسان. أحب هذا الوصف، قال سوني. هل تمانعين إذا استخدمته؟ قدمت أحدهما للآخر وطلبت منه الاقتراب أكثر ليلتقط لهما صورة. ابتسم ابتسامة عريضة. الصحيفة تعطيني ما يكفي لاستئجار مصور. أما أنا فأجريت مقابلة مع عضو الكونغرس الطيب. كان ينبغي أن ألبس سترة واقية ضد الرصاص. كان على ما يبدو يوجه انتقاداته اللاذعة لي.

إنه سلوك نموذجي من رجلٍ أبيض، قالت السيدة موري. هل انتبهت إلى قدرة الرجل الأبيض على تعلم بضع كلمات من لغة آسيوية وكيف يمرر علينا تلك الخدعة؟

بإمكانه فقط أن يطلب قدح ماء بلساننا وسوف نعامله مثلما نعامل أينشتاين. ابتسم سوني ودوّن تلك الملاحظة. أنتِ أمضيت هنا وقتاً أطول منا، سيدة موري، قال بشيء من الانبهار. هل لاحظت أننا نحن الآسيويون عندما نتكلم الإنكليزية فمن الأفضل أن نتقنها جيداً وإلا سوف يضحك الناس على لهجتنا؟ ليس من المهم الفترة الطويلة التي تمضيها هنا، قالت السيدة موري. البيض دائماً ينظرون إلينا كأجانب. أليس هناك جانب آخر للمسألة؟ قلت، وخرجت بعضُ كلماتي مدغمة مع بعضها من الشراب الذي تشبعت به عروقي. إذا تكلمنا لغة إنكليزية فصيحة، فالأمريكان يثقون بنا أكثر. هذا يجعل الأمر أسهل عليهم للاعتقاد بأننا ننتمي إليهم.

إذن أنت من ذلك النوع من الأشخاص، صحيح؟ كانت عينا سوني معتمتين مثل زجاج السيارة. يبدو أنني أخطأت في اعتقادي بأنه تغير كثيراً. في المرات القليلة التي رأى فيها أحدنا الآخر منذ التئام شملنا، كانت شخصيته أقلّ حدة. ما رأيك بصاحبنا عضو الكونغرس؟

هل ستقتبس كلماتي؟

لن أذكر مصدر الاقتباس.

إنه يجسد أفضل ما يمكن أن يحدث لنا، قلت. إنها ليست كذبة. بل أفضل أنواع الحقيقة، تلك التي لها وجهان على الأقل.

***

عطلة نهاية الأسبوع شكلت فرصة أخرى لمراجعة وتقييم شخصية عضو الكونغرس وإمكاناته. صباح يوم أحد مشرق، أوصلتُ الجنرال والمدام بالسيارة من هوليوود إلى هنتنغتون بيج، حيث يعيش عضو الكونغرس الذي دعاهما للغداء في منزله. كان عنواني كسائق أكثر إثارة من السيارة التي أخذتها، وهي شيفروليت نوفا أفضل ما يميزها أنها جديدة نسبياً. لكن الحقيقة أن الجنرال والمدام الجالسين في المقاعد الخلفية أرادا أن يكون لهما سائق خاص. وظيفتي أن أكون من بقايا ماضيهما وربما حياتهما المستقبلية. كان حديثهما طوال الرحلة التي استغرقت ساعة في الغالب يدور حول عضو الكونغرس إلى أن سألتهما عن لانا، التي كما قلت أدهشتني كثيراً لأنها كبرت. في المرآة الأمامية رأيتُ

وجه المدام يظلم بحنق بالكاد استطاعت كبحه.

إنها متهورة ومجنونة، قالت المدام. كنا نحاول إبقاء تهورها ضمن نطاق العائلة، لكن الآن هي تتبختر علانية وتعتبر نفسها مطربة - نطقت المدام بتلك الكلمة كأنها تنطق كلمة شيوعي - لا شيء بأيدينا لنفعله. أحدهم أقنعها بأنها موهوبة كمطربة، وهي أخذت ذلك على محمل الجد. إنها حقاً موهوبة، قلت. لا تقل هذا! لا تشجعها! انظر إليها. تبدو كأنها فاسقة. هذا ما ربيتها عليه؟ أي رجل محترم يمكن أن يتزوجها؟ هل تقبل أنت بها، أيها النقيب؟ التقت عيناي مع عينيها على المرآة. كلا، مدام، قلت، لن أتزوجها، تلك حقيقة ذات وجهين، لأن الزواج لم يكن أول شيء يخطر في ذهني حين رأيتها على المسرح. بطبيعة الحال لا، قالت وهي غاضبة. أسوأ شيء بشأن الحياة في أمريكا هو الفساد الخلقي. في بلادنا، يمكننا محاربة الفساد في الحانات والنوادي الليلية والمواخير. لكن هنا، لن نتمكن من حماية أولادنا من الرذيلة والضحالة والانحطاط. إنهم ينجرفون بسهولة هنا. لا أحد منهم يفكر مرتين بما يسمونه اللقاءات الغرامية. نحن جميعاً نعرف معنى اللقاء الغرامي، ربما كانت عبارة لطيفة. كيف لا يسمح الوالدان لابنتهما أن تنحرف في سنوات مراهقتها، لكنهما يشجعانها بعد ذلك برحابة صدر؟ هذا شيء عجيب! شيء لا علاقة له بالمسؤولية الأخلاقية. تباً!

بطريقة ما، على الغداء، تحول مسار الحديث إلى هذا الاتجاه، مما سمح للمدام أن تكرر النقاط التي ذكرتها على مسمع عضو الكونغرس وزوجته ريتا، وهي لاجئة هربت من ثورة كاسترو. من نظرة عابرة تبدو شبيهة بريتا هيوارث29، مع إضافة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ومثلها من الأرطال على النجمة السينمائية في عصرها الذهبي، أو كما ظهرت في فيلم «غيلدا». كاسترو، قالت، بطريقة تشبه نطق المدام لكلمة مطربة، هو الشيطان نفسه. الشيء الجيد الوحيد بشأن الحياة مع الشيطان، أيها الجنرال وأيتها المدام، أن المرء يعرف الشيطان ويمكنه تمييزه. هذا هو السبب في أنني سعيدة لوجودكما هنا اليوم، لأن شعبنا الكوبي والفيتنامي هما أبناء عم في قضيتنا المشتركة ضد الشيوعية. هذه الكلمات عززت الرابطة بين عضو الكونغرس، وريتا، والجنرال، والمدام، التي بدت مرتاحة بما يكفي بحيث ذكرت لاحقاً ابنتها لانا بينما كانت مدبرة المنزل البكماء ترتب الصحون الفارغة. على الفور تعاطفت ريتا معها. كانت تمثل المعادل الموضوعي لزوجها في المنزل،

زوجة محارب مناهض للشيوعية بالنسبة إليها لا شيء يقع بمعزل عن أعراض أخرى يمكن من خلالها ربط وباء الشيوعية بالفقر، والانحلال، والإلحاد، والتخلف بمختلف الأشكال. إنني لا أسمح بموسيقى الروك في هذا المنزل، قالت وهي تمسك يد المدام لتواسيها على خسارة عذرية ابنتها. لا أحد من أبنائي يسمح له بالخروج مع فتاة قبل أن يبلغ الثامنة عشرة، ما داموا يعيشون في هذا المنزل، فحظر التجوال مفروض عليهم في الساعة العاشرة. نقطة ضعفنا هذه الحرية التي نسمح بها للآخرين بالتصرف على هواهم، بخصوص المخدرات والجنس، كما لو أن تلك الأشياء ليست من الأمراض المعدية.

كل نظامٍ ينطوي على مبالغات ينبغي مراجعتها في جوهرها، قال عضو الكونغرس. نحن نسمح للهيبيين بتشويه معنى الكلمات مثل «الحب» و«الحرية»، وبدأنا للتو بالدفاع عن أنفسنا. ذلك الدفاع يبدأ وينتهي في المنزل. على العكس من شخصيته العامة، عضو الكونغرس في حياته الخاصة كان رقيق الطبع ومحترساً في كلامه، ويجلس كالبارون الواثق من نفسه على رأس الطاولة، والجنرال والمدام على جانبيه. نحن نراقب ما يقرأه أبناؤنا أو يستمعون إليه أو يشاهدونه، لكن الصراع يشتد حين يشاهدون التلفزيون أو يستمعون إلى الراديو في أي وقت يشاؤون. نريد من الحكومة التأكد من أن هوليوود وإعلاناتها التجارية للأشرطة لا تتمادى في الإباحية.

ألست من الحكومة؟ قال الجنرال.

صحيح تماماً! وهذا هو السبب بأن من أولوياتي إصدار تشريع ينظم المسائل التي تتعلق بالأفلام والموسيقى. هذه ليست رقابة، لكنها مجرد نصيحة متواضعة. يمكنك القول إن صانعي أفلام هوليوود وأنواع الموسيقى لا تعجبهم آرائي أبداً، إلى أن يلتقوا بي، أي بمعنى، أنت ترى أنني لست وحشاً يريد أن يلتهم إبداعاتهم. أنا أحاول مساعدتهم في تحسين إنتاجهم. الآن هناك شيء حدث كنتيجة لعملي في اللجنة الفرعية وهو أنني أصبحت من أصدقاء بعض الأشخاص في هوليوود. أعترف أنني منحاز لهذا أو ذاك منهم، لكن بعضهم في الواقع أذكياء ويستحقون التقدير. أذكياء ومتعاطفون - هذا ما يهمني. أما الباقون، فنحن نتفاوض معهم. على أي حال، أحدهم يخرج فيلماً عن الحرب وطلب نصيحتي. سوف أعطيه بعض الملاحظات التي يجريها على السيناريو تتعلق بما أصاب فيه أو أخطأ. لكن السبب الذي يدفعني للتكلم عن هذا معك، أيها الجنرال، أن القصة عن

مشروع فوينكس، وأعرف أنك خبير في هذا المجال. أنا، لقد غادرت حتى قبل أن يبدأ ذلك المشروع. ربما يمكنك تزويدنا ببعض المعلومات. من غيرك يعرف أي نوع من القصص الهوليودية سوف يشتغلون عليها.

لهذا السبب جاء النقيب معي، قال الجنرال، وكان يهز رأسه باتجاهي. إنه في الواقع يعمل ملحقاً ثقافياً لي. سوف يكون سعيداً لأن يقرأ السيناريو ويعطي النصائح المناسبة. وسألت عضو الكونغرس عن عنوان الفيلم، فذهلت وتقهقرت من الصدمة. هاملت؟

كلا، مشروع هاملت[30]. المخرج هو المؤلف أيضاً. لم يخدم يوماً في القوات المسلحة، فقط كان يطلع على أفلام جون وين وأودي مورفي في شبابه. الشخصية الرئيسية واحدٌ من أصحاب البيريات الخضر أراد أن ينقذ إحدى القرى. لقد عملت شخصياً لسنتين ضمن الفريق (أ) في عدد من القرى، لكن لا شيء مثل أرض العجائب هذه كنت أتصور أنه سيتناولها في أفلامه.

سوف أرى ما يمكنني عمله، قلت. عشت في قرية شمالية لبضع سنوات في فترة الصبا، قبل رحيلنا إلى الجنوب بالطائرة سنة 1954، لكن نقص الخبرة لن يمنعني من المحاولة. هذا ما فكرت فيه حين اقتربت من لانا بعد أدائها المبهر، كنت أنوي تهنئتها على مهنتها الجديدة. وقفنا في استراحة المطعم، قرب صورة فوتوغرافية بارزة للمتزوجين حديثاً تعرض على حمالة، وهنا راحت تتأملني بعينين متجردتين متذوقة للفن. ابتسمت وقالت، كنت أتساءل لماذا تصرّ على الابتعاد عني، أيها النقيب. حاولت الاحتجاج وقلت ببساطة إنني لا أعرفها بما يكفي، سألتني عن رأيي بما شاهدته. لا أبدو مثل الفتاة التي كنت تعرفها في الماضي، أليس كذلك أيها النقيب؟

بعض الرجال يفضلون فتيات المدارس البريئات وهن يرتدين زيهن الأبيض، لكن لست أنا. إنهم يؤيدون رؤية رعوية نقية لثقافتنا التي استبعدت أنا منها، هي ثقافة بعيدة عني مثل قمم الجبال المكللة بالثلوج في موطن أبي. كلا، لم أكن نقياً، وعدم النقاء هو ما أردته وكل ما نلته باستحقاق. إنك لا تشبهين الفتاة التي كنت أعرفها، قلت. لكنك تبدين كنموذج للمرأة التي تصورتها في خيالي ذات يوم فتجسدت أمامي بصورتك الرائعة. حتماً لا أحد قال لها شيئاً مثل هذا، وملاحظاتي غير المتوقعة جعلتها تتلعثم للحظة قبل أن تعود لطبيعتها. أرى أنني لست الوحيدة التي تغيرت منذ رحيلي، أيها النقيب. أنت..

صريح جداً أكثر مما كنت خلال فترة إقامتك معنا.

لم أعد أعيش معكم، قلت. لولا أن المدام ظهرت في تلك اللحظة، من يعرف إلى أين كانت ستنتهي بنا المحادثة؟ دون أن تتفوه بكلمة، أمسكت لانا من مرفقها وسحبتها باتجاه السيدات في الغرفة بقوة لا مجال لمقاومتها. رغم أن تلك آخر مرة أراها فيها لفترة طويلة، إلا أنها عادت لخيالي عدة مرات خلال الأسابيع اللاحقة. بصرف النظر عما كنت أريده أو أستحقه، حتماً ظهرت بزيّها المدرسي الأبيض، وشعرها الأسود الطويل أحياناً يحيط بوجهها وفي أحيان أخرى يخفي ملامحها. في مدينة الأحلام التي لا تحمل اسماً كنت أواجهها، ذاتي التي تتمايل بين الظلال. حتى في حالتي التي كنت فيها مثل الذي يمشي أثناء النوم عرفت أن الأبيض ليس اللون الوحيد الذي يدل على النقاء والبراءة. إنه يرمز أيضاً للحزن والموت.

الفصل الثامن

النهارُ لنا، والليل لتشارلي. لا تنس ذلك. هذه هي الكلمات التي قالها العريف الأشقر الذي يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة جاي بيلامي بعد أن سمعها في يومه الأول في هذه المنطقة الاستوائية الحارة من فيتنام، سمعها من قائده الجديد، النقيب ويل شاموس. لقد تعمّد شاموس بدم رفاقه على شواطئ النورماندي، ونجا ليخوض تجربة أخرى مروعة كادت تودي به إلى الموت تحت هجمة بشرية صينية في كوريا، ثم جرجر نفسه بصعوبة في الرتب على شريط نقال مدهون بشراب اسكتلندي جاك دانيلز. كان يعرف أنه لن يترقى إلى أي مرتبة أعلى، ليس مع أخلاقه التي استمدها من برونكس، ومفاصل يديه الغليظة المليئة بالعقد والأورام بحيث لا يصلح لها أي قفاز مخملي. هذه حربٌ سياسية، هكذا أخبر معاونه، والكلمات تأتي من خلف ستارة من الدخان يطلقها سيجارٌ كوبي. كل ما أعرفه الحرب التي يقتل فيها البشر. كان واجبه: إنقاذ المونتاغنارد أو سكان الجبال المسالمين كما يسميهم الفرنسيون في قرية وادعة تجثم على الحدود الوعرة للاوس. العدو الذي يهددهم هو الفيتكونغ، وليس أي نوع من الفيتكونغ. إنهم أسوأ ما يمكن - يسمّون زعيمهم كينغ كونغ. سوف يموت كينغ كونغ من أجل الوطن، وهذا أقصى ما يمكن أن يتحمله أغلب الأمريكان. والأهم من ذلك أن كينغ كونغ سوف يقاتل الأعداء ويُقتل من أجل الوطن، وما من شيء يجعل كينغ كونغ يلعق شفتيه في تلذذ مثل رائحة دم الرجل الأبيض. كينغ كونغ ملأ الغابة الكثيفة التي حول القرية بمحاربين أشداء مخضرمين في حرب العصابات، رجال (ونساء) صقلتهم المعارك سبق أن ذبحوا الفرنسيين في الهضاب والجبال وحتى في الشوارع التي لا تعرف المرح. وفوق هذا وذاك، كينغ كونغ

ملأ القرية بالمخربين والمتعاطفين، وجوههم الودودة مجرد أقنعة للتحكم بإرادة الآخرين. في مواجهة هؤلاء هناك ما يعرف بالقوات الشعبية للقرية، هم جماعة مهلهلة من المزارعين والمراهقين، وقوات فيتنامية غير نظامية من الميليشيات الذين تلقوا التدريب بمساعدة العشرات من أصحاب البيريات الخضر التابعين للقوات الخاصة، الفريق (أ). هذا يكفي، كما يتصور العريف بيلامي، وكان يقف وحده في برج المراقبة ليلاً. لقد طرد من هارفارد وهرب بعيداً عن منزله في سانت لويس، وترك والده المليونير ووالدته ذات معطف الفرو. هذا يكفي بالنسبة لي، هنا في هذه الغابة العجيبة الخلابة ومع هؤلاء الناس البسطاء المتواضعين. هنا، أنا جاي بيلامي، أعمل أول وربما آخر إنجازاتي - في مشروع هاملت.

هذه، على أي حال، هي خلاصة تفسيري للسيناريو الذي أرسله لي المساعد الشخصي للمخرج، وصل المغلف البني السميك الذي عليه اسمي الذي ورد خطأ مكتوباً بخط مائل جميل. تلك أولى المتاعب، والثانية أن مساعدة المخرج فيوليت لم تكترث حتى لتقول مرحباً أو وداعاً عندما اتصلت وطلبت معلومات عن بريدي وإمكانية ترتيب لقاء مع المخرج في منزله على تلال هوليوود. حين فتحت فيوليت الباب، صدمتني طريقتها في الكلام بلا تحفظ. إنني سعيدة لأنك تمكنت من المجيء، سمعت الكثير عنك، أعجبتني ملاحظاتك عن مشروع هاملت. تلك هي طريقتها في الكلام، تختزل الضمائر والأزمنة، كما لو أن التنقيط والنحو أشياء تهدر هباء معي. ثم، دون أن تتنازل بأن تلقي نظرة علي، انحنى رأسها في إشارة لا تخلو من الازدراء، وأشارت لي بالدخول.

ربما كان استعجالها جزءاً من شخصيتها، لأن مظهرها الخارجي عموماً يدل على أسوأ أنواع البيروقراطية، ذلك النوع المتكبر، ابتداءً من تسريحة شعرها التي تبدو مربعة الشكل إلى أظافرها الصقيلة، وبدنها الذي يوحي بالأنوثة والصلابة. لكن لعل السبب يرجع إلى شخصيتي أنا، ما زلت مشوش الذهن مرتبكاً منذ موت الرائد البدين، فضلاً عن تخيلاتي لرأسه المقطوع في حفل الزفاف. الهواجس الثقيلة تجثم على قلبي منذ تلك الليلة كأنها قطرات زرنيخ تتساقط على مياه روحي الراكدة، لا شيء من مذاقها تغير عدا أن كل شيء تعفن الآن. ربما كان ذلك هو السبب عندما اجتزت العتبة نحو الاستراحة المرمرية، ساورتني الشكوك فوراً في أن سلوكها يعود إلى العرق الذي أنتمي إليه. ما رأته وهي تنظر

لي لا بد أنه اصفرار بشرتي، وعيناي الصغيرتان قليلاً، والأوهام عن السمعة السيئة للشرقيين من الناحية الجنسية، هذه الناحية التي طالما استخف بها أشباه المثقفين علانية في الصالونات. ربما كنت نصف آسيوي، لكن في أمريكا، فكل شيء أو لا شيء حين يتعلق الأمر بالعرق. إما أن تكون أبيض اللون أو لا تكون. من السخرية أنني لم أشعر بعقدة النقص أبداً بسبب عرقي خلال أيام دراستي في بلد أجنبي. كنت أجنبياً بالاسم فقط، وهكذا ينبغي أن يتم التعامل معي كضيف. لكن الآن، رغم أنني أمريكي بصفة رسمية ولدي رخصة سياقة، وبطاقة ضمان اجتماعي، وموافقة إقامة، إلا أن فيوليت تعتبرني أجنبياً، وهذا السوء في التقدير يخرق هشاشة ثقتي بالنفس. هل كنت مذعوراً فحسب، تلك الخاصية التي تميز كل الأمريكان؟ ربما أحست فيوليت بالذعر لأنها مصابة بعمى الألوان، عدم القدرة عن قصد على التمييز بين الأبيض وأي لون آخر، هواجس من عدم اليقين التي يرغب فيها الأمريكان لأنفسهم. لكنها وهي تتقدم على الأرضية الصقيلة بلون الخيزران، ابتعدت قدر الإمكان عن الخادمة السوداء التي كانت تكنس سجادة تركية، عرفت أن الأمر لا يمكن أن يكون كما تصورت. لغتي الإنكليزية المتقنة لا تهم. حتى إذا لم تسمعها، فما زال بوسعها أن تراني جيداً، أو لعلها ترى شخصاً آخر غيري، شبكية عينها تحرقها صور كل المهرجين الذين حلمت بهم هوليوود لسرقة مواقع آسيويين حقيقيين. هنا أتكلم عن أفلام رسوم متحركة تحمل أسماء فو مانشو، تشارلي شان، الابن رقم واحد، هوب سينغ![31] - والياباني ذو النظارات الذي أسنانه كأسنان القرش ولم يكن يمثل بقدر ما كان يُهرّج كما وصفه مايكي روني[32] في فيلم الإفطار في تيفاني. كان الأداء مهيناً إلى درجة أنه قلل من إعجابي باودري هيبورن، ولم أفهم تأييدها الضمني لمثل هذه التفاهات المقززة.

بينما كنت جالساً أمام المخرج في مكتبه، استرجعت في ذاكرتي تلك الأوجاع، رغم أنني لم أظهرها. من ناحية، كنت في اجتماعٍ مع الشهير اوتور، وذات مرة كنت مهووساً بالأفلام السينمائية أمضي ما بعد الظهيرة من أيام السبت في الحفلات النهارية بأجوائها المعتمة التي كلما خرجت منها تطرف عيني من ضوء الظهيرة الوهاج كأنه مصابيح نيون في غرفة ولادة في مستشفى. ومن ناحية أخرى، أحسست بالحيرة بعد قراءة سيناريو ليس التأثير الخاص العظيم الشأن له تفجير مختلف الأشياء ولا تقطع وتناثر أحشاء البشر لكنه يسرد حالة بلادنا التي لا أحد من مواطنينا لديه كلمة واضحة يقولها عنها. لقد كشفت

فيوليت النقاب عن حساسيتي الأخلاقية التي سبق أن تهيجت بشكل آخر، لكن من غير المجدي أن أجعل أحاسيسي بالانفعال واضحة، وهكذا أجبرتُ نفسي على الابتسام وبذل ما بوسعي لأبقى عصياً على الفهم كمغلفٍ مختوم.

تفحصني اوتور عن كثب، هذا الرجل الذي كان سابقاً من الكومبارس وزحف حتى وصل إلى ذروة المجد والمهيمن على كل شيء يجري في موقع التصوير. تمثال ذهبي لجائزة الأوسكار يصطدم النظر فوراً يربض قرب التلفون، يفيد إما كصولجان ملكي أو وسام تكريم لكاتب سيناريوهات وقحة. استعرض أمامي غزارة الشعر على ساعديه ومن تحت ياقة قميصه، كأنه يذكرني بخلو جلدي نسبياً من الشعر، صدري (وبطني وأردافي) ناعمة وملساء مثل دمية الفتيات. إنه من أكثر المخرجين والكتاب نشاطاً في البلد بعد نجاح آخر فيلمين له، ابتداء من فيلم الضربة القاضية، الذي نال نصيباً واسعاً من الشهرة والانتقاد عن معاناة الشباب اليوناني في أمريكا وشوارع ديترويت الخطرة. الفيلم إلى حد ما سيرة ذاتية، واوتور ولد وهو يحمل لقباً يونانياً هجيناً اختصره وفقاً لطريقة هوليوود النموذجية. وآخر أفلامه يدل على أنه اكتفى من معالجة الإثنيات غير البيضاء، وراح يستكشف أثنية الكوكايين لدى البيض بدلاً من ذلك. أما فيلم سواحل فينيسيا فهو عن فشل الحلم الأمريكي، يكتب فيه مراسل صحفي مدمن وزوجته المحبطة نسخاً منافسة للروايات الأمريكية العظيمة. مع تراكم صفحات الفولسكاب بلا نهاية، تتضاعف ثروتهما لكن حياتهما تغدو جافة ومملة شيئاً فشيئاً، تاركة للجمهور صورة أخيرة عن الكوخ المخرب للزوجين تخنقه نباتات بنفسجية معترشة بينما تلقي عليه شمس الباسفيكي آخر أضوائها. كانا صورة لديديون33 في مقابل تشاندلر34 كما يعبر عن ذلك وليم فولكنر في رواياته ويصور ذلك سينمائياً ارسون ويلز. نعم، كان الفيلم جيداً. الرجل يمتلك موهبة مميزة، بصرف النظر عن الألم الذي يسببه لي عندما أقول هذا.

شيءٌ عظيم أن ألتقي بك، بدأ اوتور كلامه. أعجبتني تعليقاتك. ما رأيك بشيء من الشراب: قهوة، شاي، ماء، صودا، وشراب اسكتلندي. الوقت لن يكون مبكراً مع الشراب الاسكتلندي. فيوليت، أعطنا قليلاً من الشراب الاسكتلندي. ثلج. قلت ثلج. لا تريد الثلج إذن. وأنا كذلك. هذا دائماً أنسب لي. انظر إلى المنظر الجميل من هنا. كلا، لا تنظر إلى البستاني. خوسيه! خوسيه! اذهب يا هذا وخبط على العشب لكي يلفت نظره. إنه أصم

تقريباً. خوسيه! تحرك! أنت تسد المنظر. جيد. انظر إلى ذلك. إنني أتكلم عن منحوتة هوليوود هناك. لا يكاد المرء يمل من النظر إليها. كأنها كلمة الرب نزلت تواً، محفورة على التلال، وكانت الكلمة هي هوليوود. ألم يقل الرب فليكن هناك ضوء أولاً. الفيلم مجرد ضوء. لا يمكن عمل الفيلم دون ضوء. ثم تأتي الكلمات. النظر إلى تلك اللوحة يذكرني بالكتابة كل صباح. ماذا. حقاً، إذن فهي لا تقول هوليوود. هل تفهمني. عينك خبيرة. الأشياء تتداعى. واحد من حروف الواو يكاد يسقط والواو الأخرى سقطت كلياً. الكلمة تشوهت. وإن يكن.. ما زلت تدرك المعنى، شكراً، فيوليت. في صحتك. كيف يقولون هذا في بلادكم. أخبرته كيف يقولونها. يو، يو، يو، هكذا يقولونها. أحب ذلك. من السهل تذكرها. يو، يو، يو، إذن. وهذا نخب عضو الكونغرس لأنه أرسلك لي. أنت أول فيتنامي ألتقي به. لا يوجد الكثير منكم في هوليوود. للأسف، لا أحد منكم في هوليوود. والمصداقية مهمة. ليس لأن المصداقية تحفز الخيال. القصة لا تزال تحتل المرتبة الأولى. شمولية القصة يجب أن تكون حاضرة. لكن لا بأس من جعل التفاصيل الصغيرة تحاكي الواقع. كنت أعرف شخصاً من أصحاب البيريات الخضر كان يقاتل بالفعل مع سكان الهضاب والجبال قام بفحص النص. وقد عثر على عنواني. وكان لديه سيناريو خاص به. الجميع لديهم سيناريوهات في هذه الأيام. لا يستطيع كتابته كما ينبغي لأنه يفتقر إلى المهارة ولكنه من الأبطال الأمريكيين حقاً. بعد ساعتين من الواجب، قتل أحد الفيتكونغ بيديه المجردتين. وحصل على وسام النجمة الفضية والقلب الأرجواني مع عناقيد من أوراق البلوط. ينبغي أن ترى الصور التي التقطها بكاميرا البولارويد التي أراها لي. جعلت معدتي تتقلب. أعطاني بعض الأفكار رغم كل شيء عن كيف يصور الفيلم. بالكاد لدي تصحيحات أجريها. ما رأيك بهذا.

احتجت إلى لحظات لأدرك أنه كان يطرح سؤالاً. كانت أفكاري مشتتة، كما لو أنني كنت أتكلم الإنكليزية كلغة ثانية أصغي إلى أجنبي من بلد آخر. هذا عظيم، قلت.

حتماً شيء عظيم. أنت، من ناحية أخرى، كتبت سيناريو آخر في الهوامش. هل سبق أن قرأت أحد السيناريوهات من قبل.

احتجت إلى لحظات أخرى لأدرك أنه سؤال آخر. مثل فيوليت، لديها مشكلة مع التنقيط التقليدي. لا -

لم أفكر على هذا النحو. إذن لماذا تتصور -

لكنك لم تفهم التفاصيل جيداً.

لم أفهم التفاصيل جيداً؟ فيوليت، تسمعين هذا، لقد درست كل شيء عن بلادكم، يا صديقي. قرأت جوزيف باتنغير35 وفرانسيس فتزجيرالد36. هل قرأت لجوزيف باتنغير وفرانسيس فتزجيرالد. إنه المؤرخ الأكثر شهرة في تناول ذلك الجزء الصغير من العالم الذي تعيشون فيه. وهي فازت بجائزة البوليتزر. لقد شرحت سيكولوجيتكم. أعتقد أنني أعرف شيئاً عن شعبكم.

أربكتني روحه العدوانية، والارتباك الذي لم أعتد عليه شوش ذهني أكثر، وهذا التفسير الوحيد لسلوكي لاحقاً. أنت حتى لا تعبر عن صرخات الألم بشكلها الصحيح، قلت.

عذراً.

انتظرت فرصة للتعبير عن وجهة نظري حتى أدركت أنه يقاطعني من وقت لآخر بسؤال. طيب، قلت، وبدأت الخيوط تتكشف لي. إن كنت أتذكر جيداً، الصفحات 26، 42، 58، 77، 91، 103، 118، في كل مكان من المسودة تقريباً حين يتكلم أحد الأشخاص من وطني، نراه أو نراها تصرخ. لا توجد كلمات، فقط الصراخ. إذن ينبغي عليك على الأقل أن تفهم الصراخ جيداً.

الصرخات لها معنى عميق وشامل. هل أنا على صواب، فيوليت؟

أنت على صواب، قالت من مكان جلوسها قربي. تلك الصرخات ليست ذات معنى عميق أو شامل، قلت. إذا أخذت سلك التلفون هذا ولففته حول عنقك وسحبته إلى أن تخرج عيناك من المحجرين ولسانك يتحول إلى أسود، فإن صراخ فيوليت يبدو مختلفاً عن صراخك أنت. الصرختان هنا نوعان مختلفان من التعبير عن الذعر من رجل وامرأة. الرجل يعرف أنه على وشك الموت. والمرأة تخاف أنها ربما تموت من الذعر. مواقفهما وأجسادهما تصدران ارتعاشات مختلفة تتحول إلى أصوات. على المرء أن يستمع إليهما جيداً ليفهم نوع الألم الشامل والعميق، الأمر شخصي تماماً. لا يمكن أن نعرف ما إذا كان ألمنا يشبه ما يعاني منه شخصٌ آخر حتى نعبر عن ذلك بالكلام. وحين نفعل ذلك، نتكلم ونفكر بطرق ثقافية وفردية. في هذا البلد، على سبيل المثال، الشخص الذي يهرب محاولاً

النجاة بحياته سوف يفكر باستدعاء الشرطة. هذه طريقة عقلانية لمواجهة التهديد والألم. لكن في بلادي، لا أحد يطلب الشرطة، لأن في كثير من الأحيان الشرطة هي التي تسبب الألم. هل أنا على حق، فيوليت؟

هزت فيوليت رأسها وهي صامتة.

إذن اسمحوا لي فقط أن أشير إلى أنه في مسودتكم للسيناريو، أنت جعلت الناس في بلادي يصرخون هكذا: آآاي ي ي ي!!! على سبيل المثال، أحد القرويين الذي أشرت إليه بالرمز #3 حين وقع في فخ نصبه الفيتكونغ من الأوتاد الحادة، تلك هي الطريقة التي يصرخ فيها. أو عندما تضحي الفتاة الصغيرة بحياتها لكي تحذر أصحاب البيريات الخضر بأن الفيتكونغ يتسللون إلى القرية، هكذا تصرخ قبل أن يقطعوا حنجرتها. لكن بعد أن سمعت الكثير من مواطني بلدي يصرخون، يمكنني التأكيد لك أن هذه ليست طريقة صراخهم. هل تحب أن تسمع كيف يصرخون؟

نتأت تفاحة آدم في بلعومه وهو يبلع ريقه. نعم.

وقفتُ وانحنيت على المكتب لكي أنظر مباشرة في عينيه. لكني لم أره. ما رأيته كان وجه سجين من سكان الجبال يقبع في سجن مونتاغنارد خلف جدران من القضبان والأسلاك الشائكة، رجل عجوز من أقلية البرو يعيش في قرية حقيقية لا تبعد كثيراً عن الموقع التي تدور فيه حوادث هذه القصة. الشائعات تقول إنه خدم كعميل لصالح الفيتكونغ. كنت في بداية حياتي المهنية كملازم ولم أستطع إيجاد طريقة لإنقاذه من يدي النقيب الذي معي والذي لف الأسلاك الشائكة الصدئة حول عنق الرجل، وكانت القلادة ضيقة بحيث أنه كلما حاول ابتلاع ريقه، يقص السلك رقبته. لكن كل ذلك لم يجعل العجوز يصرخ. وإنما هي بالنسبة إليه مجرد مقبلات. لكن في ذهني وأنا أراقب المشهد، كنت أصرخ تعاطفاً معه.

هذا هو الصراخ الحقيقي، قلت، ومددت يدي عبر المكتب لأصل إلى قلم الحبر الخاص باوتور نوع مونت بلانك. وكتبت كلمة تعبر عن الصوت الذي أريده على صفحة عنوان السيناريو بحروف سوداء كبيرة: آييياهووو!!! ثم أعدت القلم إلى مكانه، أرجعته إلى لوح الكتابة الجلدي، وقلت، هكذا نصرخ في بلادنا.

***

بعد مغادرتي لمنزل اوتور اتجهت مباشرة إلى منزل الجنرال، على بعد ثلاثين صفاً من البنايات الموزعة على التلال باتجاه أراضي هوليوود المنبسطة، تكلمت عن تجربتي الأولى في صناعة الأفلام مع الجنرال والمدام، وكلاهما غضبا وتعاطفا معي. وتكررت لقاءاتي مع اوتور وفيوليت بعد ذلك، في الغالب كانت تجري بطريقة أكثر هدوءاً، وأشرت أكثر من مرة إلى عدم وجود حوارٍ على لسان الفيتناميين في فيلم تدور أحداثه أساساً في فيتنام، وهذا ربما يفسر على أنه تجاهل للبعد الثقافي. صحيح، قاطعتني فيوليت، لكن الشيء المهم من يشتري التذاكر ومن يذهب لمشاهدة الأفلام. بصراحة، المشاهدون الفيتناميون لن يذهبوا لمشاهدة هذا الفيلم، أليس كذلك؟ حاولتُ كبح نفسي. ومع ذلك، قلت للمخرج، ألا تعتقد أنه سوف يكون شيئاً قابلاً للتصديق، وأكثر واقعية، وأكثر مصداقية للفيلم الذي تدور أحداثه في بلدٍ ما أن يكون لسكان ذلك البلد شيء يقولونه، بدلاً من أن تجعل السيناريو مباشراً، كما هو عليه الآن، مقصوراً على قرويين يتكلمون لغتهم الخاصة؟ ألا تعتقد أنه ربما من اللائق أن تتركهم يقولون شيئاً بدلاً من الإيحاء ببساطة بأن هناك نوعاً من الصوت يخرج من أفواههم؟ ألم يكن في وسعك أن تجعلهم يتكلمون لغة إنكليزية بسيطة، تعرف ما أعنيه، إنكليزية يتحدث بها الآسيويون، فقط للتظاهر بأنهم يتكلمون لغة يمكن للجمهور الأمريكي أن يفهمها ولو بصعوبة؟ ألا تعتقد أن من الرائع لو كانت شخصياتك من البيريات الخضر لها اهتمام بالعلاقات الغرامية مثلاً؟ هل هؤلاء الرجال وحدهم يحبون ويموتون من أجل بعضهم بعضاً؟ هذا هو الإيحاء الذي نستنتجه دون وجود امرأة وسطهم.

رأيت اوتور مقطب الجبين ثم قال، شيء ممتع جداً. إنها آراء عظيمة. أحب هذا، لكن لدي سؤال. ما هو. أوه، نعم. كم عدد الأفلام التي أخرجتها. لا شيء. أليس هذا صحيحاً. لا شيء، صفر، لا شيء، لا شيء، ومع ذلك تقول ما تقول بلسانك. إذن أشكرك على تعليمي كيف أقوم بواجبي. والآن اغرب عن وجهي وتعال بعد أن تصنع فيلماً أو فيلمين. ربما سوف أستمع إلى واحدة أو اثنتين من أفكارك الرخيصة.

لماذا يتصرف بهذه الفظاظة؟ قالت المدام. ألم يطلب منك بعض الآراء؟

إنه يبحث عمن يقول له نعم. يعتقد أنني أعطيه موافقة جاهزة.

تصور أنك سوف تتزلف إليه.

وحين لم أفعل ذلك، أحس بالأذى. إنه فنان، أحاسيسه لا بد أن تكون مرهفة.

يكفي هذا قدر تعلق الأمر بمهمتك في هوليوود، قال الجنرال.

لا أرغب بأي مهمة في هوليوود، قلت، وهذا صحيح تماماً إلى الدرجة أن هوليوود نفسها لا تريدني. أعترف بأنني غضبت من اوتور، لكن هل كنت مخطئاً في الإحساس بالغضب؟ أحسست بهذا خاصة عندما اعترف الرجل بأنه لم يكن يعرف أن «مونتاغنارد» ببساطة مصطلح فرنسي شامل للعشرات من الأقليات التي تسكن الجبال والهضاب. ماذا لو، قلت له، كتبت أنا سيناريو عن الغرب الأمريكي وببساطة اعتبرت كل السكان المحليين هنوداً؟ تريد أن تعرف ما إذا كان سلاح الفرسان لديكم يقاتلون قبائل نافاجو أو الاباشي أو كومانشي، صحيح؟ هذا الشيء نفسه، أريد أن أعرف، عندما تقول إن هؤلاء الناس من سكان الهضاب والجبال، ما إذا كنا نتكلم عن الأقليات التي لدينا مثل البرو أو النونغ أو التاي.

دعني أخبرك بسر، قال اوتور. هل أنت مستعد. ها هو ذا. لا أحد يكترث بكل هذا الهراء.

كان يستمتع بصمتي. أن يراني لا أمتلك الكلمات، شيءٌ مثل رؤية أحد هؤلاء الكهنة المصريين حليقي الرؤوس، وهو وضعٌ من النادر أن أجد نفسي فيه وليس بالضرورة محبذاً. فقط في وقت لاحق، حين ابتعدت بالسيارة عن منزله، ضحكت بمرارة وتساءلت كيف أجبرني على الصمت وكتم صوتي. كيف كنت بمثل تلك الضحالة! كيف خدعني هكذا! منذ أن كنت طالباً مجتهداً، قرأت السيناريو في بضع ساعات ثم أعدت قراءته وكتبت ملاحظات في ساعات أخرى، كلها بتأثير فكرة مضللة بأن عملي هو المهم. كنت أعتقد بسذاجة أن باستطاعتي تحويل هوليوود عن مساعيها، عمليات غسل الأدمغة، والنشل التلقائي لجيوب الجماهير في العالم. الفائدة الأخرى المساندة تتمثل في تلغيم مفاصل التاريخ، تاركة التاريخ الحقيقي في الخنادق مع جثث الموتى، ويتصدقون عليهم بمشاهد سينمائية صغيرة مبهرة تقتات عليها الجماهير. هوليوود لم تبتكر فقط وحوش أفلام الرعب، إنها نفسها وحش أفلام الرعب، وقد سحقتني تحت أقدامها. فشلت، واوتور

سوف يعمل فيلم «هاملت» كما يريد، ويجعل أبناء بلدي مادة خام يوظفها في ملحمة عن السكان البيض الذين ينقذون السكان الصفر الطيبين من السكان الصفر السيئين. كنت أشفق على سذاجة الفرنسيين لاعتقادهم بأن عليهم اقتحام أي بلد لاستغلال موارده. أما هوليوود فهي أكثر كفاءة، تخيلت كم من البلدان أرادت استغلالها. استبد بي غضب جنوني بإزاء عجزي أمام خيال اوتور وألاعيبه، غطرسته التي توحي بابتكار شيء جديد يقدمه للعالم، لأن هذه هي الحرب الأولى التي يكتب فيها الخاسرون التاريخ بدلاً من المنتصرين، كل هذا بفضل أكبر ماكينة إعلام مؤثرة سبق أن ابتكرت (مع الاحترام لجوزيف غوبلز37 وللنازيين الذين لم يتمكنوا من فرض هيمنتهم على العالم). يبدو أن قساوسة هوليوود الموقرين يفهمون غريزياً رأي شيطان ملتون، أن من الأفضل ممارسة الحكم في الجحيم بدلاً من الفردوس، من الأفضل أن يكون المرء ابن حرام، أو خاسراً أو جباناً بدلاً من الفضائل الأخرى، ما دام يتحكم بالأضواء الساطعة على خشبة المسرح. في هوليوود القادمة هذه بتقنياتها من المؤثرات البصرية ثلاثية الأبعاد، كل الفيتناميين يظهرون بشكل رديء من كل الجوانب، كأنهم قطعان من البهائم يؤدون أدوار الفقراء، الأبرياء، الأشرار، الفاسدين. قدرنا المحتوم ليس أن نؤدي دور شخصية بكماء؛ علينا أن نكون أغبياء بشكل صادم.

هل تريد شيئاً من المرقة، قالت المدام. سوف يجعلك هذا تشعر بحال أفضل.

كانت تعد الطعام والروائح العبقة تملأ أرجاء المنزل، مرقة بلحم البقر وشراب الينسون، يمكنني وصفها الآن بأنها إكليل للأزهار التي تعبر عن الحب والرقة ورهافة الإحساس، وما جعلها مثيرة للذهول أن لم يسبق لها أن مارست الطبخ قبل المجيء إلى هذا البلد. بالنسبة للنساء من الطبقة المخملية التي تنتمي إليها، الطبخ من الوظائف التي تقتصر على غيرها من النساء، مع التنظيف، والاهتمام بالأطفال، والتعليم، والخياطة، وما إلى ذلك، كل شيء باستثناء الضروريات البيولوجية البحتة، والتي لا أتخيل أن المدام تؤديها، أو ربما باستثناء التنفس. إلا أن ضروريات المنفى أجبرت المدام على ممارسة الطبخ، فلا أحد في المنزل يعرف أي شيء أكثر من غلي الماء. في حالة الجنرال، وإن كان ذلك خارج نطاق اهتماماته. كان بإمكانه تفكيك وإعادة تجميع أجزاء بندقية م - 16 وهو معصوب العينين، غير أن الطباخ الغازي بالنسبة إليه مثل معادلة رياضية معقدة، أو

على الأقل يتظاهر بأنه يفعل ذلك. مثل أغلب الفيتناميين في بلادنا، لا يجد في نفسه ببساطة رغبة للانغماس في الأعمال المنزلية. الأشياء المنزلية الوحيدة التي كان يفعلها النوم والأكل، وهو يفعل هذه الأشياء بشكل أفضل مني. انتهى من تناول المرقة قبلي بخمس دقائق، رغم سرعتي إلى حد ما في ازدراد الطعام التي ليس سببها نقص الإرادة لكن لأن طعام المدام شتت ذهني وأعادني في الزمن إلى بيت أمي، حين كانت تعد المرقة من عظام البقر التي يجود بها أبي عليها بعد تجريدها من اللحم. كنا عادة نأكل المرقة من غير شرائح ولو هزيلة من لحم البقر الغني بالبروتين، فنحن من فقراء القوم الذين لا يتمكنون من شراء اللحم، عدا مناسبات قليلة تختلق فيها أمي المسكينة ما يكفي من الأسباب لنتذوق شيئاً منه. ولأنها فقيرة، كانت أمي تعمل أشهى الحساء الذي تفوح منه روائح لا تقاوم، بينما أساعدها بتقشير الزنجبيل والبصل الذي يلقى في القدر الحديدية لإضافة المزيد من النكهة. ومن واجبي أيضاً إزالة الرغوة التي تغلي على سطح المرقة مع استمرار غليان العظام، ليبقى السائلُ صافياً وغنياً. ومع غليان العظام لساعات، أحس بالعذاب وأنا أنجز واجباتي المدرسية قرب القدر، والروائح تعذبني وتثيرني. جعلني طعام المدام أشعر بالحنين إلى الدفء في مطبخ أمي، الذي ربما لم يكن يمثل ذلك الدفء في ذكرياتي، لكن لا يهم - عليّ التوقف بين فترة وأخرى عن تذوق ليس فقط الحساء ولكن نخاع ذكرياتي.

يبدو شهياً جداً، قلت. لم أتذوق مثله منذ سنوات.

أليس هذا رائعاً؟ لم يساورني يوماً الشك في موهبتها.

عليكما افتتاح مطعم، قلت.

طريقة كلامك تروق لها بوضوح.

هل رأيت هذا؟ سحب الجنرال صحيفة من كدس على منضد المطبخ، وهو آخر عدد صدر من صحيفة سوني نصف الأسبوعية. لم أطلع عليه بعد. ما أثار اهتمام الجنرال مقال كتبه سوني عن جنازة الرائد، الآن مضى عليها عدة أسابيع، وتغطية لحفل الزفاف. بعد موت الرائد كتب سوني، «الشرطة تسمي هذا الحادث قتلاً بدافع السرقة، هل نحن متأكدون من أن ضابطاً في الشرطة السرية لم يكن له أعداء ربما أرادوا قتله؟» وفيما

يتعلق بالزفاف، لخص سوني كل المقولات واستنتج بعد التأمل، «ربما حان الوقت للحديث عن الحرب ونهايتها. ألم تنته الحرب؟».

إنه يفعل ما ينبغي أن يقوم به، قلت، رغم اعتقادي بأنه تمادى كثيراً. لكني أتفق على أنه مجرد إنسانٍ ساذج.

هل هذه سذاجة؟ إنها قراءة متسامحة منك. يفترض أن يكون محرراً. هذا يعني أن ينقل الحقائق، وليس أن يختلق الأشياء أو يفسرها أو يدسّ الأفكار في رؤوس الناس.

لم يخطأ بشان الرائد، أليس كذلك؟

مع من تقف على وجه التحديد؟ قالت المدام، وأزاحت عنها دور الطاهية. المراسلون يحتاجون إلى محررين والمحررون يحتاجون إلى الركل. إنها أفضل سياسة ينبغي أن تتبعها الصحف. المشكلة مع سون أنه يعمل محرراً لنفسه وهو لا يتعرض للركل.

إنك على حق تماماً، مدام. زمرة اوتور سببت لي انهيار الأعصاب، جعلتني أفقد توازني. الكثير من حرية الصحافة ليس في صالح الديموقراطية، قلت. لم أكن أؤمن بهذا، لكن شخصيتي كضابط طيب القلب جعلتني أقول ما قلت، وبينما كنت أؤدي هذا الدور كان علي التعاطف مع هذا الرجل. لكن أغلب الممثلين كثيراً ما يخلعون أقنعتهم بدلاً من الاختباء وراءها، بينما في حالتي حصل العكس. لا استغراب إذن في أنني أحلم أحياناً بمحاولة رفع القناع عن وجهي، لأدرك فقط أن القناع هو وجهي الحقيقي. الآن، بعد أن عاد وجه النقيب ليمثل الدور الصحيح، قلت، الناس البسطاء لا يميزون الرديء من الجيد إذا كان هناك الكثير من الآراء المتصارعة.

لا ينبغي وجود أكثر من رأيين أو فكرتين بشأن أي مسألة من المسائل، قال الجنرال. انظر إلى نظام التصويت. إنها الفكرة نفسها. لدينا أحزاب كثيرة ومرشحون وانظر إلى هذه الفوضى. هنا أنت تختار اليسار أو اليمين وهذا أكثر من كاف. لديك نوعان من الاختيار وانظر إلى هذه الدراما مع كل انتخابات رئاسية. ربما يكون اختياران أو حتى الاختيار الواحد أكثر مما ينبغي. اختيار واحد يكفي، وعدم وجود اختيار قد يكون أفضل. كلما كانت الاختيارات أقل فهو أفضل، أليس كذلك؟ أنت تعرف الرجل، أيها النقيب. سوف ينصت إليك. عليك تذكيره بعاداتنا في الوطن. رغم أننا هنا، ما زلنا نحتاج لأن نتذكر

أساليبنا التي نتبعها في بلادنا.

في الماضي كان سوني ينضح عرقاً في زنزانة الاعتقال. وبعد أن خرج ارتفع صوته أكثر مما ينبغي، قلت، بمناسبة الكلام عن الماضي، يا سيدي، هل نحرز أي تقدم في استعادة تلك الأيام؟

ثمة تقدم يتحقق، قال الجنرال، وكان يحني ظهره على كرسيه. لدينا أصدقاء وحلفاء مثل كلود وعضو الكونغرس، يقولان لي إنهما ليسا وحدهما. لكن الوقت صعب للحصول على دعم شعبي. الشعب الأمريكي منهك من سماع اسم بلدنا. لذلك علينا تجميع صفوفنا ببطء.

نحن بحاجة إلى شبكة هنا وهناك، اقترحت ذلك.

لدي قائمة بأسماء الضباط لاجتماعنا الأول. تحدثت معهم شخصياً وهم يتشوقون إلى فرصة للقتال. ليس لديهم ما يفعلونه هنا. الفرصة الوحيدة لاستعادة شرفهم وكرامتهم وأن يكونوا رجالاً مرة أخرى أن نستعيد بلادنا.

نحتاج إلى أكثر من طلائع.

طلائع؟ قالت المدام. هذا مصطلح شيوعي.

ربما كان كذلك. لكن الشيوعيين انتصروا، مدام. لم يكونوا محظوظين فحسب. ربما علينا أن نتعلم بعض استراتيجياتهم. الإنسان الطليعي يمكنه أن يقود غيره من أبناء الشعب إلى أماكن ربما لا يريدون الذهاب إليها لكن يتوجب عليهم الذهاب إليها.

إنه على حق، قال الجنرال.

الإنسان الطليعي يعمل بشكل سري لكن في بعض الأحيان يظهر على الملأ بوجه مختلف. المنظمات الطوعية وما شابهها تشكل جبهات بالنسبة للإنسان الطليعي.

نعم، قال الجنرال. انظر إلى سون. نحتاج لأن نجعل صحيفته واحدة من تلك المنظمات الجبهوية. ونحتاج إلى مجموعة من الشباب، وأخرى من النساء، وحتى مجموعة من المثقفين.

ونحتاج إلى خلايا أيضاً. أجزاء من المنظمة ينبغي أن تعزل عن غيرها بحيث إذا خسرنا خلية، تبقى الخلايا الأخرى. هنا توجد إحدى الخلايا. ثم هناك خلايا كلود وعضو الكونغرس تشترك في العمل، ولا أعرف عنها شيئاً.

بمرور الوقت، أيها النقيب. خطوة فخطوة. عضو الكونغرس يعمل على اتصالات محددة لفسح المجال لنا لإرسال الرجال إلى تايلاند.

تلك محطة انتقالية.

نعم، الرجوع عن طريق البحر صعب جداً. علينا أن نسلك الطريق البري رجوعاً إلى البلاد. في هذه الأثناء، كلود سوف يوفر لنا الأموال. الأموال يمكن أن توصلنا إلى باقي الأشياء التي نحتاجها. يمكننا كسب الرجال، لكنهم يحتاجون إلى أسلحة، وتدريبات، ومعسكرات. يحتاجون إلى النقل إلى تايلاند. علينا التفكير مثل الشيوعيين، كما تقول أنت. علينا وضع خطط لعقود قادمة. علينا العيش والعمل تحت الأرض مثلهم.

على الأقل نحن الآن اعتدنا على الظلام.

هذا صحيح، أليس كذلك؟ لا نمتلك أي اختيارات أخرى. لم يسبق أن كانت لدينا فرصة للاختيار، ليس حين يتطلب الأمر. الشيوعية أجبرتنا على أن نفعل كل ما فعلناه لمناهضتها. التاريخ دفعنا للتحرك. ليس أمامنا سوى القتال، ومقاومة الشر ورفض أن ينسانا الناس. لهذا السبب - وهنا التقط الجنرال صحيفة سوني - حتى الكلام عن انتهاء الحرب يشكل خطراً. علينا أن لا نسمح لشعبنا بالخنوع.

علينا أن لا نسمح لهم بنسيان الإذلال، أضفت. هنا يمكن للصحف أن تؤدي دورها على الجبهة الثقافية.

إذا أدى الصحفيون عملهم كما ينبغي. رمى الجنرال الصحيفة ثانية على الطاولة. نحن لن نتقبل الإذلال. إنها كلمة جيدة. دائماً عليك احتقار الآخرين، ولا تتنازل أبداً. ربما ينبغي أن يكون هذا شعارنا.

إنه شعارٌ يتضمن إيقاعاً مميزاً، قلت.

الفصل التاسع

بإزاء دهشتي، طلبت فيوليت اللقاء بي في الأسبوع التالي. لا أعتقد أن لدينا شيء نتكلم بشأنه، قلت. لقد تفهم نصيحتك، قالت. لاحظتُ أنها في الواقع تستخدم جملاً كاملة في هذه المرة معي. إنه رجل تؤثر فيه النزوات ولا يتقبل النقد برحابة صدر، وهو أول من يعترف بهذا. لكن بعد أن هدأ قليلاً، فكر في أن ثمة أفكاراً مفيدة ضمن ملاحظاتك. والأكثر من هذا، إنه يحترمك على تحمّل طباعه. قليلٌ من الناس على استعداد لتحمل ذلك، وهذا يجعلك المرشح المثالي لما أقترحه عليك. نحن بحاجة إلى مستشار يمكنه تصحيح الأمور حين يتعلق الأمر بالفيتناميين. الآن بحثنا في التاريخ، الأزياء وما شابه ذلك، والأسلحة، والعادات، أي شيء تمكنا من العثور عليه في الكتب. لكننا نحتاج إلى لمسة بشرية يمكنك تأمينها. هناك لاجئون من فيتنام في الفلبين سوف نستفيد منهم في مشاهد الفيلم، ونحتاج إلى شخصٍ يعمل معهم.

من مكانٍ بعيد طافت في ذاكرتي همسات أمي: أنت لست أقل منهم شأناً، بل أفضل منهم! رغم كل سلبيات الفقر، والإرث المشوش، إلا أن تشجيع أمي الذي لا ينتهي وإيمانها العميق بي يعني أنني لن أتراجع أبداً عن التحدي أو الحصول على فرصة للنجاح. عرضهم الذي يقدمونه لي يتمثل في أربعة شهور عطلة مدفوعة الأجور في إحدى الجنان الاستوائية، أو ستة شهور إذا تمددت مدة التصوير وتغيرت الخطة، مع أنها ربما لن تكون جنة تستحق الذكر أو أن المتمردين المحليين أحسوا بثقة مفرطة في النفس فأقدموا على

عمل متهور، وربما لن تكون عطلة بقدر ما هي استراحة عمل، وربما لن أستلم أجري بقدر ما أخسر، المهم أنني أحتاج للخلاص من وضعي كمهاجر أمريكي. الحزن على موت الرائد البدين ما زال يعاودني كالحمى مرات في اليوم، يطاردني بإصرار كأنه رجل يطالبني بتسديد الديون. ودائماً تحتشد الذكريات في مؤخرة ذهني، والمقدمة والمركز ضمن الكورس الكاثوليكي لخطيئتي خاصة بحق أرملة الرائد. أعطيتها فقط خمسين دولاراً في الجنازة، ذلك كل ما استطعت تأمينه. حتى إذا بخسوني حقي، سأتمكن من توفير بعض النقود، إذا أخذت بنظر الاعتبار مسكني ونفقاتي، ومنها يمكنني تأمين بعض المساعدة لزوجته وأطفاله.

إنهم أبرياء واقترفتُ بحقهم جريمة لا تغتفر، وأنا نفسي كنت في طفولتي بريئاً اقترفت بحقي الإساءات مرات ومرات. ليس من قبل الغرباء، لكن من عائلتي، من خالاتي اللواتي لم يردن أن ألعب مع أبنائهن وبناتهن في تجمعات عائلية وكانوا يطردوني من المطبخ عندما يأتي الضيوف أو تدور نقاشات. كنت أربط خالاتي في الدم مع الآلام التي ألحقنها بي أثناء الاحتفال بالسنة الجديدة، الزمن الذي يتذكره كل الأطفال بمحبة بالغة. متى كانت أول سنة جديدة أتذكر الاحتفال بها، لا أتذكر؟ لعلها تلك السنة التي كنت فيها في الخامسة أو السادسة من العمر. كنت أجتمع مع الأطفال الآخرين، لا أفرح معهم بل تعتريني دائماً صرامة وعصبية، أواجه احتمال التوسل إلى كل فتى يافع منهم لأقول بضع كلمات أتمنى لهم فيها الصحة والسعادة. ورغم أنني لا أنسى كلمة، ولا أتلعثم مثل أغلب أبناء خالاتي، وأشع إخلاصاً وجاذبية، فالخالة الثانية لا تعطيني مغلفاً أحمر مثلما تعطيهم. شجرة العائلة كلها بالأزواج والزوجات يراقبونني، على أغصانها الملتوية آباء وأجداد أمي، وتسعة من إخوتها وأخواتها، وأبناء وبنات أخوالي وخالاتي وعددهم اثنا عشر فرداً. ليس عندي ما يكفي، قالت تلك الساحرة الشريرة، وهي تجثم بأنفاسها فوقي. ينقصني واحد. وقفت مشلولاً، وطويت ذراعي احتراماً على صدري، بانتظار مغلف سحري أو اعتذار منها، لكن لا شيء يأتي، وبعد عدة دقائق على ما يبدو، تضع أمي يدها على كتفي وتقول، اشكر خالتك على عطفها في تعليمك درساً.

في وقتٍ لاحق، هناك في الوطن، على السرير الخشبي الذي نتشارك فيه، كنت أسمع ماما تبكي. ليس من المهم أن خالاتي الأخريات وأخوالي يعطونني مغلفاً أحمر، رغم

أنني حين أقارن مغلفي مع مغلفات أبناء أخوالي، اكتشف أن المبالغ التي ربما أسعفني حظي في الحصول عليها نصف مبالغهم. لأنك لست من دمنا، يقول أحد أبناء خالاتي وهو يحصي نقوده. أنت لقيط. وحين سألت ماما عن معنى تلك الكلمة، احمرّ وجهها من الغضب. لو استطعت، قالت، سوف أخنقه بيدي هاتين. في حياتي كلها لم يمر بي يوم تعلمت فيه أشياء كثيرة عن نفسي، وعن العالم، وعن الناس الذين يعيشون فيه. لا بد للمرء أن يشعر بالامتنان للثقافة التي يتلقاها بصرف النظر عن كيف تصل إليه. لذلك كنت ممتناً، بشكل أو بآخر، لخالاتي وبناتهن وأبنائهن، الذين أتذكر دروسهم أكثر مما أتذكر أشياء نبيلة أو حقيرة كثيرة مرت بي في المدرسة. أوه، سوف يفهمون! كانت أمي تبكي، وتحتضنني بقوة حتى كادت تنقطع أنفاسي، ووجهي يضغط على جانب من صدرها المريح بينما يدي تمسك بالجانب الآخر المغطى بالقطيفة. تشع من النسيج القطني الخفيف رائحة المسك للجسد الدافئ لامرأة بعد يوم رطب يمضي في الغالب على القدمين أو الوركين، وهي تحضر الطعام وتخدم الآخرين. سوف يفهمون! سوف تعمل بجد أكثر منهم جميعاً، تدرس أكثر منهم، وتتعلم أكثر منهم، وتصبح أفضل منهم. عليك أن تعطي وعداً لأمك بأن تفعل ذلك! وهكذا وعدتها.

سبق أن رويت هذه القصة لشخصين فقط، مان وبون، خصوصاً ذلك الجزء الذي يتعلق بصدر أمي. كان ذلك في لايسي، خلال لحظات من الوجد في مراهقتنا المبكرة. ولما سمعها بون، كنا وقتها نصطاد السمك في النهر، راح يلوّح بقصبة الصيد في الهواء غاضباً. لو التقيت بابن خالتك هذا يوماً، قال، سوف أضربه حتى يخرج نصف دمه من رأسه. كان مان أكثر رزانة. حتى في تلك المرحلة، كان يتصرف بهدوء، وبأسلوب تحليلي ناضج، فهو يؤمن بالمادية الديالكتيكية في مواقفه. لقد عرفني على عصير قصب السكر بعد المدرسة، وكنا نجلس على الرصيف، وأكياس بلاستيكية صغيرة بأيدينا، ونمص منها عبر القصبات. المغلف الأحمر رمز، قال، لكل شيء خاطئ. إنه لون الدم، وأبعدوك عنهم بسبب دمك. إنه لون القضاء والقدر. تلك معتقدات بدائية. نحن لا ننجح أو نفشل بسبب القدر أو الحظ، وإنما ننجح لأننا نفهم الطريقة التي يجري بها العالم ونفهم ما علينا القيام به. ونفشل لأن الآخرين يفهمون ذلك أفضل منا. إنهم يستفيدون من الظروف، مثل أبناء وبنات خالاتك، لا يشكون في مسارات الأمور. ما دامت الأمور تجري لصالحهم، إذن فهم يدعمونها. لكنك ترى الكذب والرياء وراء ذلك لأنك لم تشارك معهم

في تلك الأشياء. أنت ترى ظلاً للون الأحمر يختلف عما يرونه. الأحمر ليس الحظ السعيد. الأحمر ليس القدر. الأحمر ثورة. وعلى حين غرة رأيت اللون الأحمر بنفسي، وضمن تلك الرؤية النابضة بالحيوية بدأ العالم يتضح لي، كم من درجات المعنى تتكشف في لونٍ واحد! ونغمة اللون تنبض بالحياة بمختلف جوانبها بحيث يجب أن تطبق بحرص مقصود. لو رأى أحدهم شيئاً مكتوباً بالأحمر، سوف يدرك أن المتاعب والتغيير يكمنان هناك.

رسائلي إلى عمتي، إذن، لم تكن مكتوبة بذلك اللون المنذر بالخطر، وإن كانت الشيفرة التي استخدمتها للتعتيم على تقاريري السرية تزعجني. هنا أقدم مثالاً توضيحياً من كتاب ريتشارد هيد الذي أعتز به أشد الاعتزاز (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار):

«القروي الفيتنامي لن يعترض على استخدام القدرة الجوية، لأنه لا علاقة له بالسياسة، فهو لا يهتم إلا بإطعام نفسه وعائلته. القصف الذي تتعرض له قريته بطبيعة الحال يسبب له الانزعاج، لكن رغم الكلفة التي يتحملها بسبب استخدام القدرة الجوية سوف يقتنع حتماً بأنه على الجانب الخطأ إذا ما اختار الشيوعية، التي لا يمكن أن توفر له الحماية» (ص 126).

من خلال هذه الأفكار المستنيرة، أبلغت عن قراري بقبول العرض الذي قدمه لي اوتور، عمل كنت أصفه بأن من شأنه أن يقوض بروباغندا العدو. وكذلك كتبت بالشيفرة أسماء الضباط من الطلائع التابعين للجنرال، خشية أن تقرأ رسالتي عيونٌ أخرى غير عيني عمتي، وجعلت نبرتي على أشدها فيما يتعلق بالحياة في لوس أنجلس. ربما قرأ أحد العاملين في الرقابة بريد اللاجئين، بحثاً عن لاجئين منبوذين ليس بإمكانهم أو لن يحبوا تخيل الحلم الأمريكي. كنت أتوخى الحذر إذن لأقدم نفسي كمجرد مهاجر سعيد الحظ لأنه يعيش على الأرض التي منح فيها حق السعادة من خلال كتاباتي، حين يتعلق الأمر بالتفكير بشأن ذلك، فلا يبدو الأمر يستحق تلك الهالة العظيمة. الآن حق السعادة - يا له من شيءٍ عظيم! لكن هل يسمح لك هذا الحق بالحصول على الجائزة الأولى في السعادة؟ مجرد فرصة لشراء بطاقة يانصيب. من المؤكد أن يربح شخصٌ ما الملايين لكن هناك الملايين بالتأكيد تدفع مقابل ذلك.

باسم السعادة، هكذا أخبرت عمتي، ساعدتُ الجنرال ضمن الخطوة التالية من خطته، تأسيس منظمة خيرية لا تسعى للربح تتلقى تبرعات معفية من الضرائب، باسم الأخوية الخيرية للجنود القدامى التابعة لجمهورية فيتنام. في واقع الأمر، هذه الأخوية تلبي احتياجات الآلاف من المحاربين الذين أصبحوا الآن بلا جيش، أو بلد، أو هوية. الأخوية هدفها باختصار تعزيز نصيبهم الهزيل من السعادة. ومن ناحية أخرى، تشكل جبهة من شأنها أن تتيح للجنرال تلقي الأموال التي يوظفها لخدمة الحركة الثورية من أي جهة ترغب في التبرع، وهي جهات ليست بالأساس من المجتمع الفيتنامي. أعضاؤها مقيدون بوظيفتهم البنيوية ضمن الحلم الأمريكي كلاجئين، أن يعيشوا تعساء كي يجعلوا الأمريكان الآخرين يتباهون بالحرص على سعادتهم. بدلاً من هؤلاء اللاجئين، المفلسين والمنكسرين، كان المتبرعون الكبار أفراداً يتحلون بالشهامة ومؤسسات خيرية مهتمة بمؤازرة أصدقاء أمريكا القدماء. عضو الكونغرس ذكر مؤسسته الخيرية للجنرال في اجتماع حضرناه في مكتبه بالمقاطعة، حيث عرضنا عليه فكرة الأخوية وسألناه إن كان الكونغرس ربما يساعدنا بطريقة ما. كان مكتبه في المنطقة يحتل موقعاً ممتازاً في أحد المجمعات التسويقية في هنتنغتون بيج، وهو يضم مجموعة من المحلات ذات الطابقين عند تقاطع طرق رئيسية. يكاد المجمع التجاري يختفي وسط محلات القهوة بالحليب، يحيط به من كل جانب مثالٌ عن مساهمة أمريكا النموذجية في فن العمارة للعالم، ساحة لوقوف السيارات. البعض يشتكون من بدائية العمارة الاشتراكية، لكن هل كان أسلوب العمارة الرأسمالية الذي لا طعم له بأفضل حال؟ بإمكان المرء أن يمضي بسيارته مسافة أميال على إحدى الجادات فلا يرى شيئاً غير كتل الخرسانة وأكداساً من الأسواق التي تجهز كل الاحتياجات، من مستلزمات رفاهية الحيوانات الأليفة إلى الصيدليات والمطاعم التي يقتصر روادها على عرقٍ محدد وكل ما تتخيله من أصناف الحرف الخاصة بملابس النساء ولعب الأطفال، كلّ منها يروج بالإعلانات لحق المرء في السعادة. كعلامة على تواضعه وقربه من الشعب، اختار عضو الكونغرس ذلك السوق التجاري مقراً لنشاطاته، وعلى النوافذ لصقت منشورات حملته الدعائية باللون الأبيض مع عضو الكونغرس مرتدياً بدلة حمراء واسمه مخطوط بالأزرق، فضلاً عن آخر شعار لحملته: نحن دائمًا نقول الحقيقة.

هناك علمٌ أمريكي يزين أحد الجدران في مكتب عضو الكونغرس. وعلى جدار آخر علقت صور له برفقة شخصيات بارزة ضمن حزبه الجمهوري: رونالد ريغان، جيرالد

فورد، ريتشارد نيكسون، جون وين، بوب هوب، وحتى ريتشارد هيد، الذي عرفته فوراً من خلال صورته كمؤلف للكتاب. عرض علينا عضو الكونغرس السجائر وأخذنا ندخن لفترة قصيرة، متناسين التأثيرات الجانبية للدخان من خلال انغماسنا في المرح واستنشاق الهواء العليل في آن واحد والكلام عن متعٍ شتى منها الزواج، والأطفال، وتشجيع فرق رياضية مفضلة. وأمضينا بعض الوقت في مناقشة مغامرتي المقبلة في الفلبين، والتي وافق عليها الجنرال والمدام. ماذا كانت العبارة التي قالها ماركس؟ قال الجنرال، وكان يداعب ذقنه بتأمل ويتهيأ لاقتباس ملاحظاتي عن ماركس. أوه، نعم. إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم. يجب أن يمثلهم أحد. أليس ذلك ما يحصل هنا؟ ماركس يشير إلى القرويين لكنه ربما يشير أيضاً إلينا نحن. نحن لا نستطيع تمثيل أنفسنا. هوليوود هي التي تمثلنا. لهذا علينا أن نفعل ما بوسعنا لضمان أن تمثلنا بصورة جيدة.

أعرف إلى أين يقودنا هذا، قال عضو الكونغرس وهو يبتسم. نفض رماد سيجارته، ووضع مرفقه على مكتبه وقال: إذن ما الذي يمكن لمندوبكم هذا أن يفعل لكم؟ بعد أن أوضح الجنرال أهداف الأخوية ووظيفتها، قال عضو الكونغرس، إنها فكرة عظيمة، لكن الكونغرس لا علاقة له بالأمر. لا أحد يريد حتى أن ينطق باسم بلادكم في الوقت الحاضر.

هذا مفهوم، سيدي، قال الجنرال. لسنا بحاجة إلى دعم رسمي من الشعب الأمريكي، ونتفهم لماذا لا يتحمسون لمساعدتنا.

لكن دعمهم غير الرسمي مسألة مختلفة تماماً، قلت.

أرجو أن تتابع كلامك.

حتى إذا رفض الكونغرس إعطاء الأموال بطريقتنا، فهذا لا يمنع الناس ذوي الأفكار المدنية أو المنظمات، على سبيل المثال المؤسسات الخيرية من مساندة قضية محاربينا القدامى المصابين والمحتاجين. لقد دافعوا عن الحرية ووقفوا جنباً إلى جنب مع الجندي الأمريكي، وأحياناً نزفوا الدماء وفقدوا أجزاءً من أجسامهم.

أنت تحدثت مع كلود مؤخراً.

صحيح أن كلود كان يغرس بعض الأفكار في رأسي. أثناء أيامنا في سايغون، ذكر أن من المعتاد لوكالة الاستخبارات الأمريكية أن تمول نشاطات مختلفة. ليس باسمها، لأن

ذلك قد لا يكون قانونياً أو على الأقل يعتبر مدعاة للشكوك، لكن من خلال منظمات جبهوية يتحكم بها وكلاء ومتعاطفون، وفي أحيان كثيرة أشخاص محترمون من مختلف المجالات.

المحظوظون الذين يتلقون هذه الأموال أنفسهم غالباً ما يكونون منظمات جبهوية.

في الواقع، مع وجود كل هذه المنظمات الجبهوية لمساعدة الفقراء، أو إطعام الجائعين، أو نشر الديموقراطية، أو معونة النساء المحرومات، أو تدريب الفنانين، في بعض الأحيان من الصعب معرفة ما يفعلون ومن أين يتلقون المعونات.

اسمح لي أن ألعب دور رفيق الشيطان. هناك قضايا كثيرة ربما أتبرع لها أنا شخصياً على سبيل المثال. لكن كي أكون صريحاً أكثر، هناك أموال كثيرة ربما أحتفظ بها أنا شخصياً على سبيل المثال. من المؤكد أن الاهتمام الشخصي يلعب دوره هنا.

الاهتمامات الشخصية لا بأس بها. إنها غريزة تجعلنا نبقى أحياء، ولها علاقة وثيقة بالوطنية.

حتماً. لهذا، ما هي اهتماماتي الشخصية بشأن الأخوية التي تتحدثون عنها؟

نظرت إلى الجنرال. كانت الكلمات على شفتيه، كلمة أو اثنتان من كلماته السحرية. لو كنا نملك الأشياء التي تعبر عنها هذه الكلمات، سوف نندفع بأنفسنا إلى المرتبة الأمامية من المواطنين الأمريكان، ونتمكن من الوصول إلى كل الكنوز المبهرة للمجتمع الأمريكي. لكن لسوء الحظ، نحن فقط لدينا استيعاب تجريبي لأحد الأمرين. الكلمة التي تعبر عما لا نملكه هي النقود، والتي ربما الجنرال لديه منها ما يكفي لاستعمالاته الخاصة، لكن حتماً ليس للقيام بثورة مضادة. والكلمة الأخرى هي التصويت، لذلك فالكلمتان معاً، النقود تعني أصوات الناخبين وتقول عبارة افتح يا سمسم التي تتردد أصداؤها في أعماق كهوف النظام السياسي الأمريكي. لكن حتى لو كان جزءٌ واحد من هذه التوليفة السحرية من إبداعات خيالي وكأنه يخرج من شفتي علي بابا، مع ذلك رأيت رموش عضو الكونغرس تهفهف بخفوت. عليك التفكير بمجتمعنا على أنه استثمار، يا سيدي عضو الكونغرس. استثمار على المدى البعيد. عليك التفكير فينا على أننا طفل نائم لم يستيقظ بعد ويكبر. صحيح أن هذا الطفل لا يمكنه التصويت. هذا الطفل ليس مواطناً الآن. لكنه

ذات يوم سيصبح مواطناً. ذات يوم أحفاد هذا الطفل سوف يولدون كمواطنين، ولا بد لهم من التصويت لشخصٍ ما. وذلك الشخص ربما يكون أنت.

أنت تعلم أنني حين حضرتُ حفل الزفاف، جنرال، كنت مسبقاً أعطي قيمة لمجتمعكم.

تعطي قيمة بالكلمات، قلت. مع كل الاحترام لك، يا سيدي، الكلمات لا قيمة لها. النقود هي الأهم. أليس من المضحك أن في مجتمع يعطي قيمة للحرية على كل الأمور الأخرى، الأشياء التي تعطى مجاناً لا قيمة لها؟ لذلك أرجوك اسمح لي أن أتكلم بصراحة. مجتمعنا يقيم كلماتك، لكن ضمن سياق التحول إلى مواطنين أمريكان تعلمنا تعبير «الأموال تتكلم». وإذا كان التصويت هو سبيلنا الأفضل للمشاركة في السياسة الأمريكية، علينا التصويت لأشخاص يساعدون بالأموال. نطمح أن تكون واحداً منهم، لكن بطبيعة الحال، جمال السياسة الأمريكية يتمثل في أن لدينا سبيلاً للاختيار، أليس كذلك؟

لكن حتى إذا، على سبيل المثال، أعطيت منظمتكم الأموال، من السخرية أنني أنا نفسي أحتاج للأموال من أجل تمشية الانتخابات ودفع أجور العاملين معي. بعبارة أخرى، النقود تتكلم من الجانبين.

إنه حقاً موقف معقد. لكن ما تتحدث أنت عنه الأموال الرسمية التي يجب أن تحسب على الحكومة. وما نتحدث عنه نحن الأموال غير الرسمية التي تروج لنا، والتي ترجع إليكم بكل الطرق الرسمية مع الأصوات التي يوفرها الجنرال.

هذا صحيح، قال الجنرال. إذا هيأت لي بلادي شيئاً واحداً فذلك هو التعامل مع ما يسميه صديقي الشاب ببراعة الأموال غير الرسمية.

أعجب أداؤنا عضو الكونغرس، نحن القردان العبقريان الصغيران وهو عازف الأرغن، وكان يراقبنا ونحن نقفز ونتوسل لإعطائنا فرصة ونتيجة لا نستحقها. كنا مدربين جيداً على مثل هذا الاستعراض منذ تعاملاتنا السابقة مع الأمريكان في بلادنا، حيث الاستعراضات كلها تدور حول الأموال غير الرسمية، بمعنى آخر الفساد. هذا الفساد مثل فيل في سيرك هندي، وأنا من الحكماء العميان الذين يستطيعون وحدهم الإحساس بالموقف ووصف جزءٍ واحد منه. ليس ما يراه الإنسان أو يحس بأنه مثير للريبة، بل ما لا

يراه الإنسان ولا يحس به، مثل ذلك الجزء من الخطة التي وضعناها الآن أمام عضو الكونغرس شيء خارج نطاق سيطرتنا. ذلك الجزء الذي يتضمن الوسائل لانتزاع أموال غير رسمية لنا عن طريق قنوات رسمية، بعبارة أخرى، عبر مؤسسات ضمن مجلس أمنائها عضو الكونغرس، أو أصدقاؤه، أو أصدقاء كلود. هذه المؤسسات باختصار جبهات في ذاتها لوكالة الاستخبارات المركزية وربما حتى لمنظمات حكومية أو غير حكومية أخرى أكثر غموضاً ولا نعرف شيئاً عنها، مثلما تشكل منظمتنا جبهة للحركة التي نقوم بها. هذا الشيء كان عضو الكونغرس يعرفه جيداً حين قال، إنني فقط آمل أن هذه الأخوية التي تسعون إليها لا تمارس أي عمل غير قانوني في نشاطاتها الوطنية. بطبيعة الحال كان يقصد عدم ممارسة نشاطات غير قانونية، فقط إذا كان يجهل شيئاً عنها. كم من الأشياء المجهولة تختفي وراء الأشياء التي لا تقال!

***

بعد ثلاثة أشهر كنت في طريقي إلى الفلبين، ومعي كيس أمتعتي على الرف فوق رأسي، وفي حضني نسخة من كتاب فودور (جنوب شرقي آسيا)، بمجلد ضخم مثل رواية (الحرب والسلام) لتولستوي. في الكتاب يقول المؤلف عن السفر إلى آسيا:

> «لماذا نرحل شرقاً؟ الشرق دائماً يصور على أنه نفحة سحرية لإبهار الغرب. آسيا أرضٌ مترامية الأطراف تكاد تمتد إلى ما لا نهاية في تعقيداتها، هناك مصدر لا ينفد من الثروات والعجائب.. آسيا لا تزال تحمل بالنسبة للعقل الغربي نفحات الإغراء، والتحدي، والسحر، والكنوز التي جعلت الأجيال المتعاقبة من الغربيين يتخلون عن حياتهم الاعتيادية المريحة متجهين نحو عالمٍ مختلف عن أي شيء سبق لهم معرفته، أو فكروا فيه، أو اعتقدوا به. لأن آسيا تشكل نصف العالم، والنصف الآخر.. فالشرق ربما كان غريباً لكنه لا ينبغي أن يرتبط بالإحباط. إذا عشت هناك ربما تجدها غامضة في الواقع، لكن هذا ما يجعلها ممتعة حقاً».

كل شيء في الكتاب الإرشادي الذي بين يدي كان حقيقياً ولا معنى له أيضاً. نعم، الشرق شاسع، يمتد إلى ما لا نهاية في تعقيداته، لكن أليس الغرب هكذا؟ الإشارة إلى أن الشرق مصدر لا ينفد للثروات والعجائب تعني أنها المسألة المهمة الوحيدة تحديداً

بالنسبة إليهم، وهذا لا ينطبق على الغرب. الإنسان الغربي بطبيعة الحال يأخذ ثرواته وعجائبه كقضية مسلم بها، تماماً كما لم ألاحظ سحر الشرق أو أسراره. إذا أردنا قول شيء، فهو أن الغرب غالباً هو الغامض، والمحبط، والمثير للاهتمام حقاً، إنه عالم مختلف عن أي شيء سبق أن عرفته قبل أن أبدأ تعليمي. كما يحصل مع الغربي، فالشرقي لا يشعر أبداً بالضجر على شواطئ بلده.

قلبتُ الصفحات حتى وصلت إلى البلدان التي تثير اهتمامي، لم أستغرب عندما رأيت بلادنا توصف بأنها «أكثر الأراضي دماراً». أنا أيضاً لن أنصح بالذهاب إلى هناك بالنسبة لأي سائح، كما نصح الكتاب، وكنت أحس بالحنق بعض الشيء لوصف جيراننا الكمبوديين بأنهم «من السهل التعامل معهم، مرهفو الإحساس، مسالمون، عاطفيون.. كمبوديا ليست فقط واحدة من أكثر البلدان سحراً وجمالاً في آسيا، إنها واحدة من أكثر الأماكن التي تبهر السائحين». يقيناً بالإمكان قول هذا عن وطني، أكثر الأوطان إبهاراً في أجوائها كأنها حمام ساونا. لكن ما الذي أعرفه عن وطني؟ لقد عشت هناك لفترة وجيزة، والناس الذين يعيشون في مكانٍ ما ربما يواجهون صعوبة في رؤية سحر المكان فضلاً عن خصائصه السلبية، وكلاهما من السهولة أن تلتقطه عينا السائح إذا تجرّد من الأهواء. المرء يستطيع الاختيار بين البراءة والتجربة، ولا يستطيع الجمع بينهما. على الأقل في الفلبين أكون سائحاً، ولأن الفلبين تقع شرق الوطن، لعلي أجدها غير متناهية في التعقيد. وصف الكتاب للأرخبيل جعل ذهني يتشوق أكثر، لأنه قال عنها «القديم والجديد، الشرق والغرب. يتناوبان كل يوم، مع بقاء التقاليد على حالها»، وهو شيءٌ ربما كتب لوصف شخصيتي أنا.

في الواقع، شعرت بأني في الوطن من أول لحظة نزلت فيها من مقصورة الطائرة المكيفة الهواء إلى طريقٍ مشبع بالرطوبة. منظر الشرطة المحلية في المطار بأسلحتهم الأوتوماتيكية معلقة على أكتافهم جعلني أشتاق إلى الوطن، وأكد لي أنني مرة أخرى في بلادٍ تضع عنقها النحيل تحت أقدام ديكتاتور مستبد. ووجدت دليلاً آخر في صحيفة محلية ملطخة بالوحل وسط الشارع تنبئ عناوينها وصورها بجرائم حدثت مؤخراً ولم تحسم ضد معارضين سياسيين، أجسادهم مزقها الرصاص وهي ملقاة على الشوارع. ضمن موقف محير مثل هذا، كل الألغاز تقود إلى لغز واحد: الدكتاتور. هذه الحالة من الأحكام

العرفية مكتوبة بالحبر السري مرة أخرى من قبل العم سام، الذي دعم الدكتاتور ماركوس في مساعيه لقمع التمرد الشيوعي، وتمرد المسلمين أيضاً. ذلك الدعم تضمن تزويدهم بطائرات مقاتلة من صنع الولايات المتحدة الأمريكية، ودبابات، ومروحيات، ومدفعية، وناقلات جنود مصفحة، والذخيرة، والمعدات، كما يحصل في وطننا، مع أن ذلك على نطاق محدود. ألقيت كل تلك القنابل على كتل من الغابات والأزهار والحيوانات والبشر فأصبح كل شيء في الفلبين بديلاً رائعاً لفيتنام نفسها، ولهذا اختار اوتور هذا المكان.

كان مخيم وموقع التصوير في مدينة على الحدود ضمن المقاطعة الشمالية لوزون كوردليرا، التي لعبت دوراً في المعارك التي دارت في سلسلة جبال اناميس كوردليرا وأسفر ذلك عن انفصال فيتنام عن لاوس. غرفتي في الفندق تحتوي على بعض وسائل الراحة ومنها تيار ماء لا يتدفق سريعاً بل يهرول، ومرحاض بصنبور يجعلني أطلق الحسرات كلما سحبت سلسلته، وجهاز تكييف يصدر صفيراً مزعجاً، وإحدى بنات الهوى يمكنني أن أستدعيها كلما دعت الحاجة، هكذا أخبرني صبي الفندق الذي جاء مهرولاً مع رنين الجرس ليريني غرفتي. رفضت العرض، واعياً لنفسي فأنا أشبه أي سائح غربي يتمتع بالمزايا في بلد فقير مدمر. بعد أن ربتت على كتفه، استلقيت على ملاءات السرير الندية قليلاً، والتي ذكرتني ببلادي، حيث الرطوبة تتغلغل في مفاصلي. زملاء العمل الذين التقيت بهم في وقت لاحق من تلك الليلة في مشرب الفندق كانوا أقل انزعاجاً بسبب المناخ، فلا أحد منهم تأثر من قبل برطوبة المناخ الاستوائي. الأمر يشبه أن يلعقك كلب من البلعوم إلى البطن في كل مرة أخرج فيها، هكذا اشتكى مدير الإنتاج التعيس. كان من منيسوتا، واسمه هاري، وهو رجل كثيف الشعر بشكل مستغرب.

لم تصل فيوليت بعد، ولا أي امرأة أخرى. كان من المتوقع أن ترافق اوتور في الأسبوع القادم، بينما هاري وطاقم الإنتاج وكلهم من الذكور الآن ينضح منهم العرق في الفلبين منذ شهور، يشيدون المنشآت، يحضرون الملابس، يقيمون نماذج لصالات الاستقبال وحجرات التدليك، وتنتظرهم أنواع من الأمراض في المعدة والأحشاء. عرض علي هاري موقع المشاهد الرئيسية للفيلم في صباح اليوم التالي، وهو إعادة إنتاج كاملة لقرية في الهضاب الوسطى بكل تفاصيلها وصولاً إلى مرحاض خارجي منصوب على مصطبة فوق بركة للأسماك. هناك كومة من أوراق أشجار الموز وبعض الصحف القديمة تستخدم كورق

للتنظيف. إذا مدّ المرء رأسه من كوة مدورة قرب مقعد المرحاض، سوف يرى المياه الخادعة في هدوئها للبركة، والتي أشار إليها هاري بافتخار، وقال إنها تزخر بأنواع من أسماك السلور ذات الشارب والتي تشبه كثيراً تلك الموجودة في دلتا الميكونغ. إنه شيء مذهل حقاً، قال. كان يبدي إعجاب أهالي مينيسوتا الذين يتسمون بالجلد والصمود في وجه المصاعب، ينتمي إلى أجيال من الناس عاشوا فصول شتاءٍ قاسية بعيداً عن التضور جوعاً والتوحش. سمعت أنه يمكن أن يحصل نوعٌ من التوحش الحقيقي حين يجلس المرء في المرحاض.

كنت أجلس على مثل هذا المقعد البائس منذ أيام طفولتي، وأتذكر جيداً المزاح المتعلق بسمك السلور حين كنت أسعى للحصول على أفضل مقعد على الطاولة وأقرفص هناك. منظر المرحاض الخارجي البائس لم يثر أي مشاعر في نفسي ولا أي إعجاب بوعي الناس بالبيئة. كنت أحبذ لو كان المرحاض بصنبور مياهٍ متدفق مع مقعد أملس من البورسلين وأنا أضع صحيفة على حضني وأقرأ، وليس بين ساقي. المناديل التي يمسح بها الغربيون قذارتهم أكثر نعومة من المناديل التي ينظف بها بقية الناس في العالم أنوفهم، مع أن هذه مجرد مقارنة مجازية. بقية الناس في العالم سيذهلون من فكرة الترف التي تحتم حتى استعمال الورق لتنظيف الأنف. الورق مخصص لكتابة أشياء مثل الاعتراف، وليس لمسح القذارة. لكن هؤلاء الغربيين الغرباء الأطوار، الغامضين لهم طرقهم الشاذة وعجائبهم التي يعبر عنها رمزياً بالكلينكس وورق التواليت المزدوج الطيات. الاشتياق لوسائل الترف هذه يجعلني غربياً، أعترف بهذا. لم أشعر برغبة للعيش في قريتي بتقاليدها العريقة مع أقاربي الحقراء وخالاتي الجاحدات، أو مع الحقائق المزعجة لأن أتعرض للسعات بعوض الملاريا من الخلف حين أدخل المرحاض، وهذا ربما ما يحصل لبعض الفيتناميين الآخرين من الكومبارس. لقد خطط هاري لجعلهم يستخدمون هذا المرحاض من أجل زيادة أعداد سمك السلور، بينما أفراد الطاقم يتشمسون هنا وهناك بحثاً عن أماكن تستر عوراتهم. لكن قدر تعلق الأمر بي، كنت من أفراد الطاقم، ولما دعاني هاري لأن أكون أول من يدشن المرحاض، رفضت بامتنان متذكراً تلك المزحة.

أنت تعرف مثلنا أن سمك السلور الذي يباع في الأسواق يأتي من بركٍ شبيهة بهذه؟

وكيف ذلك؟ قال هاري، وكان يهمّ بتدوين ملاحظات سيكولوجية.

عيونها حولاء من النظر إلى المؤخرات طوال الوقت.

إنها مزحة جيدة! ضحك هاري وخبطني على ذراعي. هيا، دعني أريك المعبد. إنه غاية في الجمال. كم أكره أن يفجره المختصون بالمؤثرات الخاصة!

***

ربما كان هاري يحب المعبد أكثر من غيره، لكن بالنسبة لي الشيء الذي يستحق النظر إليه هي المقبرة. رأيتها لأول مرة في تلك الليلة وعدت إليها في ليالٍ أخرى بعد ذلك، بعد رحلة ميدانية إلى مخيم اللاجئين في باتان، حيث قمت بتجنيد مائة من الفيتناميين للعمل. أصابتني الرحلة بالإحباط، إذ واجهت الآلاف من القرويين البائسين بثيابهم البالية والذين هربوا من بلادنا. لقد رأيت الكثير من اللاجئين من قبل، أيها القائد، بعد أن تركت الحربُ الملايين من سكان الجنوب بلا مأوى داخل الوطن، لكن هذه الكتلة من البشر كانت تعني لي نوعاً جديداً من البؤس. إنها فريدة المنظر بحيث أن وسائل الإعلام الغربية أعطتها اسماً جديداً، شعب القوارب، وهي تسمية ربما يتصور المرء أنها تشير إلى قبيلة بدائية تم اكتشاف وجودها مؤخراً تعيش على نهر الأمازون أو أي شعبٍ من أصول مجهولة، أو ربما بقايا من سكان ما قبل التاريخ الأثر الوحيد على حياتهم تلك القوارب التي تجوب الأنهار. اعتماداً على وجهة نظر المرء، شعب القوارب هذا إما أن يكون من النازحين من البلاد أو الذين مات وطنهم فأصبحوا يتامى. في الحالتين، بدوا في نظري في حالة يرثى لها وتفوح منهم روائح الشقاء والعفن، الشعر أشعث، والجلد محتقن متيبس، والشفاه متشققة، والغدد متقيحة، وبالجملة ينزفون عرقاً كأنهم سفينة صيد ضخمة يجرها أشخاصٌ من غير البحّارة على طرقات وعرة. كانوا جائعين ومنهكين من العطش بحيث لا يتمكنون من تحويل نظراتهم إلى الأجور التي خولت بإعطائها، دولار واحد في اليوم، قنوطهم يقاس من حقيقة أن لا أحد منهم - دعوني أكرر، لا أحد منهم - يطمح في أجر أفضل. لم أتخيل يوماً أن أحداً من هؤلاء القرويين لا يماحك، غير أن شعب القوارب هذا واضح أنه يفهم أن قانون العرض والطلب ليس لصالحهم. ما تسبب حقاً في هبوط معنوياتي أنني حين سألت إحدى النساء معهم، وهي تبدو محامية من مظهرها الأرستقراطي، عما إذا كانت الأوضاع في الوطن سيئة كما يشاع. بالإمكان وصفها كما تقول، قالت. قبل أن ينتصر الشيوعيون، كان الأجانب يضحون بنا ويرهبوننا ويذلوننا.

والآن جاء دور أشخاص من شعبنا يضحون بنا ويرهبوننا ويذلوننا. أتصور أن هذا نوع من التحسن.

ارتجفت جزعاً لدى سماع كلماتها. منذ بضعة أيام بدأ ضميري يهدأ قليلاً، موت الرائد البدين يبدو أنه استقر في الجزء الخلفي من ذاكرتي، وصمة عار على الرقعة السوداء للماضي، لكنه الآن عاد يجرجر أذياله. ما الذي يحدث في الوطن، وماذا أفعل هنا؟ عليّ أن أذكّر نفسي بكلمات السيدة موري في لحظة الوداع. حين أخبرتها بأنني وافقت على المهمة، دعتني على العشاء حيث استسلمتُ للشكوك التي داعبت خيالي وأوهمتني بأني أحبها، وإن كنت أشعر بالمشاعر نفسها إزاء لانا أيضاً. وكما لو أنها كانت تتوقع هذا الانكسار من جانبي، ذكرتني السيدة موري بحذر بضرورة الالتزام في علاقتنا بالحب المتحرر من أي قيود. لا ينبغي أن تشعر بالامتنان لي، قالت وهي تأخذ رشفة من عصير البرتقال. يمكنك أن تفعل ما يحلو لك. بطبيعة الحال، قلت، وأنا أشعر بشيء من الحزن. لا يمكن أن يتحقق الأمران معاً، الحب المتحرر والحب البرجوازي، حتى إذا أردتُ ذلك. هل أريد حقاً؟ أي مجتمع لا بد أن يعج بالمخمليين الذين يتكلمون لغتين ويقولون ويفعلون شيئاً واحداً علانية بينما يقولون ويفعلون شيئاً آخر في السر. غير أن السيدة موري ليست من هؤلاء، في ظلام حجرتها، نتعانق ونفعل ما نشاء بتحرر، قالت لي، أنت تبدع غريزياً في هذا الفيلم. لدي ثقة بأنك تستطيع أن تؤدي الدور أفضل مما هو عليه. يمكنك أن تساعد في تشكيل الصورة التي يظهر بها الآسيويون في الأفلام. هذا ليس بالإنجاز القليل.

أشكرك، سيدة موري.

صوفيا، عليك اللعنة.

هل يمكنني حقاً أن أشكل اختلافاً؟ ماذا سيظن مان أو السيدة موري إذا علما أنني أديت دوراً أقل أو أكثر من مجرد مشارك في الفيلم، أساهم في استغلال أبناء وطني واللاجئين؟ منظرهم الحزين، ووجوههم المحتارة قوضت ثقتي بنفسي، ذكرتني بروابط التعاطف التي تجمع أجزائي الأكثر صرامة والثورية معاً. حتى أصابتني حمى الحنين إلى الوطن، هذا ما حصل لي عندما عدت إلى المخيم، رحت أبحث عن الراحة في القرية التي صنعها هاري. الممرات الموحلة، وسقوف القش، والأرضيات الترابية للأكواخ وأثاثها البسيط

من الخيزران، وزرائب الخنازير التي تعج بحيوانات حقيقية الآن تصيح في الليل، ونقيق الدجاج البري، والهواء اللزج المشبع بالرطوبة، ولسعات البعوض، وصوت قدمي اللتين لا تثيران الشكوك وهما تدوسان على روث الجواميس كأنه كعك مهروس، كل ذلك جعلني مرتبكاً وأشعر بالدوار من الحزن والحنين. فقط شيء واحد افتقدته في القرية، الناس. أليس الأمر هكذا في حياتي الواقعية؟ قريتي تسكنها ذكرياتٌ عن الناس وليس الناس الحقيقيون أنفسهم، أولاً وقبل كل شيء أمي التي ماتت في أول سنة لي في الكلية. كانت في الرابعة والثلاثين. للمرة الأولى والوحيدة، أبي كتب لي رسالة قصيرة عن الموضوع: أمك توفيت بسبب مرض السل، إنها مسكينة. دفناها في المقبرة تحت شاهدٍ حقيقي. شاهد حقيقي! أشار إلى ذلك ليقول بطريقته الخاصة إنه دفع التكاليف، لأن أمي لا تمتلك أي مدخرات لدفع ثمن أي شيء. قرأت رسالته مرتين والحزن يعتصر قلبي من هول المفاجأة قبل أن أشعر بالألم، رصاص حار من الحزن انسكب في جسدي. كانت مريضة، لكن ليس إلى هذه الدرجة، ربما كانت تخفي حالتها الحقيقية عني. لم ير أحدنا الآخر إلا قليلاً خلال السنوات الماضية، كنت أبعد عنها مئات الأميال في بلدة لايسي في سايغون ومن ثم آلاف الأميال في الخارج. آخر مرة رأيتها فيها كانت في الشهر الذي سبق مغادرتي إلى الولايات المتحدة، حين عدت لأودعها قبل أن أغيب لأربع سنوات. لم أكن أملك النقود الكافية للعودة إلى البلدة، أو في الصيف، قبل أن أنهي دراستي وأحصل على الشهادة، فالمنحة تؤمن لي رحلة واحدة. ابتسمت بشجاعة ونادتني بالفرنسية petit écolier «فتى المدرسة الصغير»، بعد أن أعطتني البسكويت المغطى بالشوكولاته الذي كنت أحبه كثيراً في طفولتي وكان أبي يأتي به إلينا مرة واحدة في السنة مع أعياد الميلاد. الهدايا التي قدمتها لي بمناسبة رحيلي هي صندوق من ذلك البسكويت، وهي ثروة بالنسبة لامرأة كانت تقضم قطعة صغيرة منها مرة وتحتفظ بالباقي لي كل عيد رأس سنة، إضافة إلى دفتر ملاحظات وقلم. كانت امرأة شبه أمية وتقرأ بصوت مسموع، وتكتب بخط متعرج وبيد ترتعش من الاستحياء. في الوقت الذي كنت فيه في العاشرة، كنت أكتب لها كل شيء تحتاج إليه. بالنسبة إلى أمي، الدفتر والقلم يرمزان إلى كل شيء لم تتمكن من تحقيقه في حياتها ويرمزان إلى كل شيء سوف أحققه أنا من خلال رحمة الله أو الترافق العفوي لجيناتي ومؤهلاتي مع المصير المقدر لي. كنت آكل البسكويت على الطائرة وأكتب في صفحات الدفتر وأستخدمه كمفكرة في الكلية. الآن لم يبق منه سوى الرماد. أما عن القلم،

فقد انتهى حبره وضاع في مكانٍ ما.

ترى ما الذي يمكن أن أدفعه ثمناً لاستعادة تلك الأشياء التي لا فائدة منها الآن، وأنا أركع عند قبر أمي وأضع جبهتي على سطح القبر الخشن. ليس القبر الذي في القرية التي ماتت فيها، لكن هنا في لوزون مقبرة أقامها هاري من أجل المزيد من المصداقية. حين رأيتُ حقل الحجارة أو المقبرة التي أقامها، طلبت منه أن يقيم أكبر قبر من أجل أمي. على شاهد القبر لصقت نسخة من صورة لها بالأبيض والأسود كانت في محفظتي، وهي الصورة الوحيدة الباقية لها إلى جانب صورة أخرى سرعان ما اختفت ملامحها، والتي عولجت بمحلول رديء، حافاتها منبعجة بشقوق مجهرية. على السطح الرمادي لشاهد القبر خط اسمها وتاريخ ولادتها ووفاتها باللون الأحمر، فترة حياتها القصيرة العبثية سوف تبدو في عيون الأبرياء والأطفال السذج كأنها الأبدية. القبر وشاهده مشيدان من الطوب بدلاً من المرمر، لكني أحسست بالراحة لأن لا أحد سيكتشف الأمر في الفيلم. على الأقل في الحياة السينمائية ستحظى بمكانٍ مريح يناسب المترفين، شيءٌ بديل لكنه قبر امرأة لم تكن ذات أهمية لأي أحد غيري.

Telegram @read4lead

الفصل العاشر

حين وصل اوتور في الأسبوع اللاحق، أقام حفلة استقبال متخمة بالشواء، والشراب، والبرغر، وصلصة هاينز، وكعكة كبيرة الحجم تكفي للنوم عليها. كانت المنصة التي تقام عليها المأدبة مشيدة على شكل قدر زائفة من خشب المعاكس وورق مقوى ملون، تزدحم عليها أواني الثلج وزجاجات الشراب من مختلف الأنواع والألوان وتطوف داخلها اثنتان من النادلات الهنغاريات شبه العاريات اللواتي جلبن من إحدى حانات خليج سوبك في الفلبين، الغرض من ذلك الترتيب الإيحاء بنساء بيضاوات يغلين وهن أحياء بالقدور من قبل السكان المحليين. وهناك ثلة من الشباب السود كأنهم من قبائل الهنود الحمر يؤدون رقصاتهم الهستيرية، يلبسون المئزر ويلوّحون برماح بشعة المنظر أعدها قسم التجهيزات. مع عدم توفر مؤدين فيتناميين ليوم آخر، كنت الممثل الوحيد لشعبي أتجول وسط أكثر من مائة من الكومبارس وأفراد الطاقم، مع مائة آخرين أو نحو ذلك من العمال الفلبينيين والطباخين. هؤلاء المحليون السذج تصوروا أن من الجائز الصعود إلى القدر لتقطيع بعض شرائح الجزر ووضعها في القدر المفتوحة. توقعت أن تخلق تلك المشاهد قصصاً وذكريات عن المشتركين في الفيلم من هوليوود من شأنها أن تنتقل لعقود من الزمن، وتمتد لفترات أطول وتتناقلها أجيالٌ لاحقة. أما الكومبارس، أو شعب القوارب، فسوف ينسون. لا أحد يتذكر الكومبارس.

مع أنني لست من الكومبارس ولا من شعب القوارب، إلا أن تيارات التعاطف سحبتني باتجاههم، والإحساس بالغربة دفعني في الوقت نفسه بعيداً عن الناس الذين يشتغلون في الفيلم، رغم أنني واحد منهم. باختصار، كنت في وسط مألوف لكني أشعر

فيه بعدم الألفة، استجبت إلى ذلك بطريقتي الخاصة من خلال تسليح نفسي بزجاجة جن مع الصودا، وهي الأولى التي شربتها في المساء. كنت واثقاً من عدم قدرتي على الصمود بعد الكأس الرابعة أو الخامسة في الحفلة التي أقيمت تحت ضوء النجوم على منصة عالية تستخدم لتقديم الخدمات. بعد تبادل بعض النكات مع هاري، راقبت الطاقم يتجمعون حول بضع فتيات بيضاوات على المنصة. في هذه الأثناء، رأيت فرقة موسيقية يضع أصحابها باروكات شعر أشقر تعزف لحن أغنية أنت تعرفني جيداً، وأنا أعرفك، وتساءلت إن كانت من نوع الفرق الفلبينية التي تعزف في فنادق سايغون. على حافة منصة الرقص جلس اوتور يثرثر مع ثيسبيان، بينما فيوليت تغازل أيدول على الطاولة نفسها. كان ثيسبيان يؤدي دور النقيب ويل شاموس، بينما أيدول يمثل دور العريف جاي بيلامي. في الوقت الذي بدأ فيه ثيسبيان رحلته الطويلة من برودواي، كان أيدول مغنياً قفز إلى الشهرة بعد أن كان يؤدي أغاني البوب السريعة الإيقاع التي حققت نجاحاً باهراً وتمتاز بحلاوتها بحيث تؤلمني أسناني لدى سماعها. في فيلم «هاملت» كان أول دور يؤديه الممثل الشاب الذي أظهر التزامه من خلال حلاقة شعره بطريقة لم تترك منه غير طبقة خفيفة في الأعلى يتشبه بها بالمارينز ويقلدها الآن الكثير من المراهقين، ثم يتلقى التدريبات العسكرية المطلوبة لأداء دوره بحماس منقطع النظير يمكن مقارنته بمبادرة منظمة للاحتجاج على القمع الجنسي. انحنى على كرسي الخيزران بقميصه الخاكي الخفيف، وكاحلاه مكشوفان لأنه لا يلبس جوارب تحت حذائه البحري، كان يشعر بالبرودة مثل الآيس كريم في ذلك المناخ الاستوائي. ومن هنا ربما أتى الاسم الذي يلقب به، أيدول أو الأيقونة، فالشهرة هالته الطبيعية التي لا تفارق خياله. تقول الشائعات إنه وثيسبيان ليسا على وفاق، لأن ثيسبيان يتلخص أداؤه في تقليد هذا الممثل أو ذاك وإن كانوا من الممثلين الثانويين، ولم يبق يؤدي الدور المتكرر نفسه طوال الوقت فحسب وإنما لم يعد يخلع زيه الرسمي، وكذلك حذاء المهمات الشاقة أو القتالية لم يخلعه منذ ثلاثة أيام، حين وصل إلى موقع التصوير ربما كان الممثل الأول في التاريخ الذي يكتفي بخيمة صغيرة بدلاً من مقصورة مكيفة الهواء. لأن الجنود في الخطوط الأمامية لا يستحمون ولا يحلقون لحاهم، لم يفعل ذلك أيضاً، وهكذا بدأت تفوح منه رائحة تشبه الجبن المتعفن. على حزام خصره يضع مسدساً من عيار 45، وبينما تبقى المسدسات الأخرى للمجموعة بلا ذخيرة أو فيها ذخيرة زائفة، فسلاحه مليء برصاص حقيقي، هكذا تقول إحدى

الشائعات التي أنا على ثقة من أنها صدرت من ثيسبيان. هو واوتور كانا يتناقشان حول أفلام فيلليني بينما فيوليت وأيدول يتذكران لياليهما في نادي سنسيت سترب. لا أحد يولي اهتماماً لوجودي على الإطلاق، لذلك تسللت إلى طاولةٍ قريبة جلس إليها ممثلون فيتناميون.

إذا توخينا الدقة فهؤلاء الممثلون يؤدون دور الفيتناميين. كانت ملاحظاتي التي أعطيتها لاوتور في الواقع أحدثت بعض التعديلات على الطريقة التي يظهر فيها أصحابنا، ببساطة أكثر كيف تقدم الصرخات الآن كلها على أنها... آيياهههه!! لكن التعديل الأكثر أهمية تجلى بإضافة شخصيات فيتنامية لها أدوار حقيقية في الحوار، أخ كبير، وأخت صغيرة، وأخ صغير والداه ذبحهما كينغ كونغ. الأخ الأكبر اسمه بينه، ويلقب بيني من أصحاب البيريات الخضر، تملأ صدره الكراهية لكينغ كونغ. ويحب منقذيه الأمريكان ويعمل معهم كمترجم. إلى جانب رجل أسود من أصحاب البيريات الخضر، كان سيلقى أكثر طرق الموت بشاعة على يدي كينغ كونغ. أما أخته، كيم ماي، فتعشق العريف الوسيم المثالي جاي بيلامي، ثم تتعرض للاعتداء من قبل كينغ كونغ وهذا يشكل تبريراً لأصحاب البيريات الخضر لإزالة أي أثر لجماعة كينغ كونغ عن الوجود. أما الفتى الصغير، فيتوج بقلنسوة اليانكيين في المشهد الأخير وينقل جواً، جهته النهائية التي يقصدها منزل عائلة جاي بيلامي في سانت لويس، حيث يمنح وساماً ذهبياً ويلقب داني بوي.

هذا أفضل من لا شيء، صحيح؟

وفقاً لسذاجتي تصورت أن الأدوار عندما تخصص للفيتناميين، ينبغي البحث عن ممثلين فيتناميين. لكن لا. نحن نبحث عن شيء آخر، هكذا أخبرتني فيوليت يوم أمس، حين وجدنا الوقت لاحتساء الشاي المثلج معاً على شرفة الفندق. بصراحة، لا يوجد ممثلون فيتناميون بارعون. أغلب الممثلين من الهواة وبعض المحترفين لم يقبلوا لأنهم مرتبطون بمشاريع أخرى. لا بد أنها الطريقة التي اعتادوا عليها. سوف ترى. فقط ابتعد عن التقييمات حتى ترى هؤلاء الممثلين يؤدون أدوارهم. لسوء الحظ، الابتعاد عن التقييم ليس من طباعي. الأشياء التي أخبرتني بها فيوليت أن ليس بإمكاننا تمثيل أنفسنا، يجب أن يمثلنا غيرنا، في هذه الحالة لا يوجد غير الآسيويين. الفتى الذي يؤدي دور داني كان سليل عائلة فلبينية محترمة تحترف التمثيل، فإذا كان شكله يبدو فيتنامياً، إذن

يمكنني التفكير بأداء دور البابا. إنه ببساطة مشرق الوجه وحسن التغذية بحيث لا يصلح لأن يكون صبياً يعيش في قرية، مثل هؤلاء الصبيان نشأوا من غير منافع الحليب باستثناء حليب الأم. لا شك أن الفتى كان من الموهوبين. لقد أسر قلوب الجميع على موقع التصوير في أول ظهور له، وقدم عرضاً مؤثراً لأغنية المشاعر بطلب من أمه التي جلست معه الآن تمازحه وهو يمسك زجاجة الصودا. أثناء أدائه، كانت عاطفة الأمومة لربة الحب والجمال فينوس هذه قوية جداً بحيث جذبتني إلى فلكها، واقتنعت بصدقها في ذلك اليوم، وانتبهت إلى كلماتها، يوماً ما سيعتلي مسارح برودواي. هل ترى كيف يعبر عن المشاعر وينطق الكلمات بشكلها الصحيح؟ همست لي. إنها الدروس التي تلقاها في الخطابة! لا يتكلم كأنه فلبيني أبداً. كان يغير أسلوبه حسب توجيهات ثيسبيان، ويصر على تقمص دوره بإبداع ويطلب أن يسمى داني بوي بدلاً من اسمه، الذي لا أتذكره على أي حال.

أما الممثل الذي كان يقوم بدور أخيه الأكبر فلم يستطع تحمل الفتى، في الغالب لأن داني بوي يسرق الأضواء بشيء من المكر كلما ظهر الاثنان معاً. وهذا أثار حفيظة جيمس يون خاصة، المؤدي الشهير في الموقع بعد ثيسبيان وأيدول. كان يون المحبذ من قبل الجميع للأدوار الآسيوية، فهو ممثل تلفزيوني وأغلب الناس يعرفونه من وجهه لكنهم لا يتذكرون اسمه. أحياناً يقولون، أوه، ذلك هو الرجل الصيني الذي يظهر في الاستعراضات ويؤدي دور الشرطي، أو ذلك هو البستاني الياباني في تلك الكوميديا، أو ذلك هو الرجل الشرقي، ما اسمه؟ يون في الحقيقة أمريكي من أصل كوري في منتصف الثلاثين من العمر بإمكانه أن يلعب دور شخصية أكبر منه بعقد أو أصغر منه بعقد ويلبس قناع أي أثنية آسيوية، وقسمات وجهه جميلة ويتمتع بحيوية عجيبة. ولكن رغم الكثير من الأدوار التلفزيونية التي قام بها فمن المرجح أن يذكره التاريخ على دوره الشعبي البارز المتكرر في التلفزيون كبائع لمنتج تجاري يحمل اسم شين، وهي علامة تجارية لمحلول غسل الأطباق. في كل إعلان تجاري، تظهر زوجة مختلفة لتواجه نوعاً مختلفاً من التحدي في غسل الأطباق الملطخة بالدهون ولا يمكن حل هذه المعضلة إلا وهي تظهر مع صبيها الضاحك الخبير بكل شيء وهو يعرض عليها مساعدته بشهامة من خلال زجاجة جاهزة من محلول شين. الزوجة تبدو مرتاحة ومستغربة في آن واحد وتستفسر عن سر اكتشافه لهذه المعجزة في التنظيف، عندها تتحول إليه الكاميرا، ويغمز، ويبتسم ويتلفظ بالشعار

الذي أصبح الآن شائعاً في أرجاء الأمة: يقول كونفوشيوس استعملي شين للتنظيف!

ليس من المستغرب أن يكون يون مدمناً على الكحول. وجهه كأنه ثرمومتر يدل على حالته، الزئبق الأحمر مؤشر على أن الكحول عمل عمله ابتداءً من أطراف قدميه إلى عينيه، ولسانه، وعقله، لأنه كان وقتها يغازل الممثلة التي تؤدي دور أخته رغم أن أحدهما لم يكن سوياً بحيث يشتهي أفراد الجنس الآخر. يون عبر عن نواياه التي أعرفها جيداً ونحن نجلس إلى طاولة عليها طبق فيه عشرات المحار النيئ في مشرب الفندق، آذانها تنتأ وتتنصت على محاولات الإغواء. لا أقصد أي إساءة، قلت، بينما وضع يده على ركبتي، لكني لا أشعر بتلك الميول. هز يون كتفيه استهجاناً وسحب يده. دائماً أتصور أن الإنسان على الأقل كائن شاذ حتى يثبت العكس. على كل حال، ليس بإمكانك أن تلوم شخصاً على مجرد المحاولة، قال، وهو يبتسم على نحو مختلف عن ابتسامتي. بعد أن تمعنت في ابتسامتي وتأثيرها على الناس، أيقنت أن لي قيمة عملة عالمية من الدرجة الثانية مثل الفرنك أو المارك. لكن ابتسامة يون من الذهب، ابتسامة مشرقة إلى درجة أنها الشيء الوحيد الذي بإمكانك أن تراه أو تنظر إليه، ابتسامة طاغية على الشخصية إلى درجة أنه من المستغرب كيف فاز بالدور الذي يؤديه في إعلانات شين. كنت سعيداً لأن أطلب له شراباً لكي أظهر عدم انزعاجي من محاولاته الدنيئة، وهو بدوره طلب لي شراباً آخر، وهكذا أمضينا تلك الليلة وتقريباً كل ليلة أعقبت ذلك.

بينما كان يون يمارس محاولاته معي، حاولت من جانبي مع الممثلة آسيا سو. إنها مثلي من أصول مختلطة، مع أنها ربما من أصلٍ عريق، كانت أمها تعمل مصممة أزياء بريطانية وأبوها صاحب فندق صيني. اسمها الآن آسيا حقاً، ووالداها كانا يتوقعان أن أي ذرية لارتباطهما غير المحتمل بالتأكيد سوف تبارك بمزايا كافية تستحق اسم قارة كاملة لم تستكشف بعد. كانت تتمتع بثلاث مزايا تجعلها متفوقة على أي إنسان في موقع التصوير، باستثناء جيمس يون: إنها في أوائل العشرين من العمر، وعارضة أزياء راقية، وشاذة. كل رجل في موقع التصوير، وأنا منهم، كان مقتنعاً أنه ربما يملك العصا السحرية التي بالإمكان أن ترجعها إلى حالتها السوية. فإذا لم يتحقق ذلك، نحاول إقناعها بأننا من الرجال المنفتحين على الشذوذ الأنثوي بحيث لا يزعجنا الأمر ونكتفي بمراقبتها وهي تستمتع مع امرأة أخرى. البعض منا صرّح بثقة قائلاً إن كل عارضات الأزياء الراقيات

يمارسن هذا النوع من الشذوذ. إذا كنا من عارضات الأزياء، هكذا يقول المنطق، مع من نفضل ممارسة الجنس، الرجال مثلنا أم النساء مثلهن؟ هذا السؤال محبط بعض الشيء للأنانية الذكورية، وفي شيء من الوجل اقتربتُ منها وهي في حوض السباحة في الفندق. مرحباً، قلت. ربما كانت تلك لغة جسدي، أو نظرة عيني، فقبل أن أتمكن من قول أي شيء وضعت نسخة من كتاب جوناثان ليفنغستون النورس وقالت، أنت رجل وسيم، لكن من النوع الذي لا يناسبني. وهذا ليس خطأك. أنت رجل. لكني مرة أخرى دهشت، وكل ما يمكنني قوله، أنك لا يمكن أن تلوم شخصاً على المحاولة. لم ترغب هي، ولا نحن، في أن نكون أصدقاء.

تلك هي الشخصيات الأساسية التي تؤدي الأدوار في فيلم «هاملت»، كلهم مدرجون ضمن الرسالة التي بعثتها إلى عمتي، إلى جانب صور التقطت بكاميرا بولارويد صقيلة لي ولكادر التمثيل، وحتى صورة مع المتردد اوتور. وكذلك أرسلت صوراً لمخيم اللاجئين والساكنين فيه، فضلاً عن قصاصات الصحف التي وفرها لي الجنرال قبل رحيلي. حوادث غرق! أعمال سلب ونهب! اغتصاب! انتهاكات وحشية؟ هكذا جاءت العناوين البارزة. قرأها الجنرال أمامي بنبرات تعلو وتهبط من الدهشة ونشوة الانتصار، كيف كان اللاجئون يقولون إن زورقاً واحداً من زورقين ينجو في عبور شواطئ وخلجان بلادنا متجهاً إلى أقرب ساحل يبدو مؤيداً لنا في هونغ كونغ، إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، عواصف وقراصنة يغرقون الباقين. ها هو ذا، يقول الجنرال، وكان يلوّح بالصحيفة. الدليل على أن أولئك الشيوعيين الأوغاد يبيدون السكان! إلى عمة مان كتبت بوضوح في أول رسالة واصفاً كم من المحزن الاطلاع على هذه القصص. وبخط غير مرئي كتبت متسائلاً هل يحدث هذا حقاً؟ أم أنه بروباغندا؟ بالنسبة إليك، أيها القائد، أي حلم تتصور أنه يدفع هؤلاء اللاجئين للنزوح، يتجهون إلى البحر في قوارب صغيرة ممزقة من شأنها أن ترعب حتى كرستوفر كولومبوس إذا رآها؟ لو كانت ثورتكم تخدم الناس، لماذا يختار بعض هؤلاء الناس الهرب؟ في ذلك الوقت، لم تكن لدي إجابات على هذه الأسئلة. الآن بدأت أفهم.

***

سارت الأمور في موقع التصوير بسلاسة حتى أعياد الميلاد، في ذلك الوقت أصبح

الجو أكثر برودة إلى حد ما، مع أننا ما زلنا نحس برذاذ الدفء مستمر، حسب رأي الأمريكان. أغلب المشاهد التي صورت قبل كانون الأول لم تكن قتالية: العريف بيلامي يصل إلى فيتنام وعلى الفور تسرق كاميرته من يده من قبل نشالين على دراجة بخارية، وهو من المشاهد التي التقطت في بلدة مجاورة أعيد تشييد ميدانها بشكل يشبه وسط البلد في سايغون، وأضيفت إليه تاكسيات نوع رينو، ولوحات تسجيل تحمل حروفاً فيتنامية حقيقية، وباعة على الأرصفة؛ استدعي النقيب شاموس إلى مقر القيادة في البلدة نفسها، حيث وبخه أحد الجنرالات بشدة على الصفير على عقيد فاسد من جيش جمهورية فيتنام، ثم عاقبه بإرساله ليتولى قيادة القرية؛ وهناك مشاهد من حياة الأرياف مع قرويين يزرعون شتلات الرز في الحقول، بينما يراقبهم عمال أشداء من أصحاب البيريات الخضر ويشرفون على تحصين القرية؛ ويولول أحد هؤلاء قائلاً إنني أؤمن بالله، لكنكم تؤمنون بالنابالم تلك الكلمات كتبها على خوذته؛ النقيب شاموس يلقي خطبة تحفيزية على ميليشيات القرية وهم يحملون بنادقهم الصدئة القديمة ويتململون بأقدامهم وصنادلهم؛ والعريف بيلامي يقود الميليشيات نفسها في تمارين الاستعداد للمعركة التي تتضمن التصويب على الأهداف، والزحف تحت الأسلاك الشائكة، ونصب الكمائن على شكل حرف L؛ وأولى المناوشات بين جماعة كينغ كونغ المختبئين والمدافعين عن القرية، والتي في أغلبها تضمنت إطلاق الميليشيات لقذائف من مدفع الهاون الوحيد الذي لديهم باتجاه الظلام.

أغلب الأيام التي قضيتها في تصوير الفيلم انشغلت خلالها بالتأكد من أن الكومبارس يعرفون مكان تبديل ملابسهم ومتى يسرعون لتصوير مشاهدهم، وأن تلبى احتياجاتهم الغذائية، وأنهم يستلمون أجورهم أسبوعياً بمعدل دولار في اليوم، ويؤدون الأدوار المخصصة لهم. غالبية الأدوار تقع ضمن فئة المدنيين أي ربما كانوا من الأبرياء مع أنهم ربما من الفيتكونغ أيضاً ولهذا ربما يتعرضون للقتل عقاباً لهم على أنهم أبرياء أو من الفيتكونغ. غالبية الكومبارس الآن تعرفوا على هذه الأدوار، فلا يحتاجون إلى تحفيز مني للوصول إلى الاستيعاب السيكولوجي لأن يتعرضوا للنسف، وتقطيع الأوصال، أو مجرد الإصابة بالرصاص. والفئة الأخرى من الأدوار تتضمن جنوداً في جيش جمهورية فيتنام، أي أنهم مقاتلون أحرار. كل الذكور من الكومبارس فضلوا هذا الدور، وإن من منظور الجنود الأمريكان هؤلاء ربما كانوا من الأصدقاء أو من الأعداء ولهذا ربما يتعرضون للقتل عقاباً

على أنهم إما من الأصدقاء أو من الأعداء مع عدد لا بأس به من مقاتلي جيش جمهورية فيتنام وسط الكومبارس، ولم أواجه شخصياً أي مشكلة في أداء هذا الدور معهم. غالبية المشاركين ضمن الفئة المثيرة للمتاعب هم عصابات جبهة التحرير الوطنية، التي تسمى بازدراء الفيتكونغ، أي ربما كانوا من الوطنيين الذين يعشقون الحرية أو شيوعيين دمويين منبوذين، لكن من يبالي بهم؟ اقتله (أو اقتلها) أي شخص من هذا الصنف اقتله ولا تتردد. لا أحد يريد أن يكون من الفيتكونغ، المقاتلين من أجل الحرية، وإن كان ذلك مجرد دور يؤديه في فيلم. المقاتلون من أجل الحرية وسط اللاجئين كانوا يمتعضون من غيرهم ويتعاملون معهم بإحساس من عدم الارتياح، أو بعنفٍ غير مستغرب.

كما يحصل دائماً، الأموال هي التي تحل المشكلة. بعد شيء من الإقناع وقوة الحجة من جانبي، وافقت فيوليت على مضاعفة أجور الكومبارس الذين يلعبون دور الفيتكونغ، وكان ذلك من المحفزات التي أتاحت لهؤلاء المقاتلين من أجل الحرية نسيان أن أداء تلك الأدوار كان منذ البداية فكرة مرفوضة. الجزء الذي رفضوه يتعلق بأن يُطلب من بعضهم تعذيب بينه والاعتداء على كيم ماي. علاقتي مع اوتور بدأت تتعقد حول مسألة الاعتداء على كيم ماي، رغم أنه كان الآن غاضباً مني بسبب كلامي بالنيابة عن الكومبارس بخصوص أجورهم. لم يتغير موقفي وجلست إلى طاولة الغداء معه في اليوم الذي يسبق تصوير مشهد الاعتداء عليها وسألته عما إذا كان الاعتداء ضرورياً حقاً. يبدو ذلك لي شيئاً بشعاً إلى حد ما، قلت. القليل من الصدمة لا تؤذي الجمهور، قال، وأشار إلي بالشوكة. في بعض الأحيان يحتاجون إلى ركلة في المؤخرة لكي يشعروا بشيء بعد الجلوس لفترة طويلة. صفعة على الخدين، لا أعني الصفعات على وجوههم. إنها معركة، والاعتداء يحدث فيها. لدي التزام بأن أظهر ذلك، مع أن شخصاً مثلك يبيع بالجملة واضح أنه لا يوافق.

الهجوم الذي استفزه استفزني أيضاً، عبارة يبيع بالجملة ما تزال ترن في ذهني كأني بإزاء الألوان البراقة للوحة من لوحات وارهول38. أنا لست بائعاً بالجملة، أخيراً تمكنت من النطق. ضحك بسخرية، أليس البائع بالجملة ما يقوله الناس في بلادكم عن شخص يساعد رجلاً أبيضاً مثلي؟ أم هل كلمة خاسر هي الأفضل؟

هذه المسألة الأخيرة لا يمكنني إلا الموافقة عليها. الشخصية التي قدمت بها نفسي تنتمي بالفعل إلى الجانب الخاسر، والإشارة إلى الجانب الأمريكي على أنه خاسر لن تنفع

في تحسين الصورة أيضاً. لا بأس، أنا الخاسر إذن، قلت. خسرت بسبب تصديق كل الوعود التي قطعتها بلادكم أمريكا للناس مثلي. جئتم وقلتم إنا أصدقاء، لكن ما لم نعرفه هو أنكم لا تثقون بنا، وتحترموننا أقلّ من ذلك. الخاسرون مثلنا لا يستطيعون رؤية ما يبدو واضحاً جداً الآن، كيف أنكم لا تريدون أي شخص كصديق لكم إذا أراد أن يكون صديقكم حقاً. أنتم في أعماقكم تعتقدون أن الأغبياء والخونة فقط هم الذين يصدقون وعودكم.

ليس لأنه تركني أتكلم دون أن يقاطعني، ذلك ليس من طبعه. أوه، هذا كلامٌ خطير! قال بعد وقت قصير من ابتدائي بالكلام. وخزة أخلاقية تقرص حلمات ثديي. شخصٌ يدعي أنه يعرف كل شيء وهو في الحقيقة لا يعرف شيئاً، هذا ما يحصل إذا كان لدينا عالمٌ أصيب بالجنون فلا يبقى من علمه شيئاً. هل تعرف أي شخص آخر لديه فكرة عن كل شيء ولا يوليه أحد أي اهتمام؟ جدتي المخرفة. تعتقد لأنك ذهبت إلى الكلية فالناس ينبغي أن يستمعوا لما تقول؟ من السيئ أنك حصلت على شهادة البكالوريوس في علم التفاهة.

ربما تماديت كثيراً حين رفضت نزواته الشاذة، لكنه تمادى كثيراً في التهديد بقتلي. يقول دائماً إنه سوف يقتل شخصاً ما، فيوليت قالت ذلك بعد أن أبلغتها عما حصل. لكنه لا يفعل غير الكلام. يقسم أن يقتلع عيني بملعقة ويقحمهما في فمي، مجرد أشياء مجازية من وحي خياله، أي شيء آخر غير تصوير الاعتداء على كيم ماي ببساطة له دلالات مجازية. كلا، الاعتداء عملٌ شنيع من وحي الخيال، على الأقل مثلما اتضح من خلال النص المكتوب. أما بالنسبة إلى التصوير الفعلي للمشهد، فقط اوتور، وثلة مختارة من أفراد الطاقم، والمعتدون الأربعة وآسيا سو نفسها كانوا حاضرين. كان عليّ الانتظار لأكثر من سنة لرؤية المشهد بنفسي، في صالة سينما مزدحمة في بانكوك. لكني كنت شاهد عيان على المشهد الرئيسي لجيمس يون بعد ذلك بأسبوعين، ظهر عارياً من الخصر إلى الأعلى ومربوطاً إلى لوح خشبي. ويسند اللوح الخشبي جسد شخص آخر يؤدي دور أحد أفراد الميليشيات الموتى، تاركاً جيمس يون الذي يبدو منهاراً تماماً ورأسه يميل في زاوية حادة نحو الأرض، مستعداً لتلقي التعذيب بالماء من الأشخاص الأربعة من الفيتكونغ الذين اعتدوا على كيم ماي. قرب جيمس يون وقف اوتور يخاطب الكومبارس من خلال صوتي

كمترجم، رغم أنه لا ينظر لي، كلانا لم يعد يتكلم مع الآخر.

عند هذه النقطة من النص تواجهون أعداءكم لأول مرة، قال للمعتدين. اوتور اختارهم بعناية بسبب شراستهم المميزة التي أظهروها في مشاهد متفرقة، إضافة إلى ملامحهم التي توحي بالغلظة والقسوة، وبشرتهم البنية مثل موز متعفن والشقوق الزاحفة على عيونهم. أنتم تنصبون كميناً لإحدى الدوريات وهذا هو الناجي الوحيد. إنه دمية إمبريالية، خادم، عميل، خائن. ليس هناك شيء أسوأ في عيونكم من شخصٍ يبيع بلاده من أجل الرز وحفنة من الدولارات. أما أنتم، فكتيبتكم الأسطورية تمزقت. المئات من إخوتكم موتى، والمئات الأخرى سوف يموتون في معارك قادمة. أنتم عقدتم العزم على التضحية بأنفسكم من أجل أرض الآباء والأجداد لكن من الطبيعي أن تشعروا بالخوف. الآن يأتي دور هذا المتباكي الحقير، هذا الخائن ببشرته الصفراء وروحه التي يدعي أنها بيضاء. أنتم تكرهون هذا الوغد. سوف تجعلونه يعترف بكل خطاياه الرجعية، ثم يدفع الثمن. الأهم من كل هذا أن تتذكروا - عليكم الاستمتاع باللحظة، أن تكونوا أنفسكم، وتتصرفوا بصورة طبيعية!

هذه الوصايا أحدثت بعض الارتباك وسط الكومبارس. أطول واحد فيهم، وهو برتبة نائب ضابط، أو عريف، قال، إنه يريد منا أن نعذب هذا الرجل ونبدو كأننا نستمتع بالأمر، صحيح؟

وأقصر واحد في الكومبارس قال، لكن ما علاقة ذلك بالتمثيل الطبيعي؟

العريف الطويل قال، إنه يخبرنا بهذا طوال الوقت.

لكن ليس من الطبيعي التصرف مثل الفيتكونغ، قال القصير.

وما الخطأ في هذا؟ قال اوتور.

نعم، ما الخطأ؟ قال جيمس يون.

لا يوجد خطأ، قال العريف الطويل. نحن على ما يرام، نحتل المرتبة الأولى. ثم رجع إلى الفيتناميين وقال للآخرين، انظروا. من يبالي بما يقول. يريد منا التصرف على نحو طبيعي لكننا نصر على العكس. نحن من أبناء الزنا الفيتكونغ. أتفهمون؟

طبعاً كانوا يفهمون. هنا تتجلى البراعة في التمثيل بأمثل صورة، أربعة من اللاجئين الأوغاد ومقاتلون سابقون من أجل الحرية يتخيلون حالة سيكولوجية مرعبة بشأن مقاتلين من أجل الحرية ينتمون إلى الجانب الآخر. مع توقف التقريع من جانب اوتور عندما بدأ تصوير الفيلم، راح أربعة أفراد من هذه الزمرة يصرخون، ويزمجرون وينزلقون نحو الموضوع الذي يكرهونه. عند هذه المرحلة من النص، وضعت شخصية جيمس يون التي يمثل فيها بينه، وكذلك يسمى بيني، على المحك والاختبار يقود ذلك جندي أسود وحيد ضمن الفريق (أ)، وهو العريف بيت فنش. كما جاء في مشاهد سابقة، كان فنش يتعقب أصوله رجوعاً إلى قرنين من الزمن حتى وصل إلى أحد أسلافه الذي يسمى اتيكوس فنش، الذي استشهد على يد أصحاب المعاطف الحمر من البريطانيين في بوسطن وهو الرجل الأسود الشهير الذي ضحى بحياته في سبيل قضية السكان البيض. بعد أن اتضحت أصول فنش، بات مصيره مقرراً ومختوماً بمادة لاصقة خارقة. ومع توالي الأحداث يقع في مصيدة للمغفلين، فخ يصنع لاصطياد الدببة من أوتاد الخيزران التي اخترقت قدمه اليسرى. بينما تعرض فصيل من قوات الجبهة الشعبية للإبادة فوراً، كان هو وبينه يطلقان النار حتى غاب فنش عن الوعي وانتهت ذخيرة بينه. فلما أسرهما الفيتكونغ، اقترفوا إحدى أبشع الجرائم ضد فنش، أخصوه. هذا العمل بحسب رأي كلود في دورة الاستجواب، كان شيئاً مؤكداً فالقبائل الأمريكية المحلية أيضاً تلحقه بالمستوطنين البيض الذين يتجاوزون على أراضيهم، رغم اختلاف الأعراق والمسافات ومضي أكثر من قرن من الزمن. انظروا.. قال كلود، وهو يعرض علينا شريحة فيلم قديمة بالأبيض والأسود تصور مثل هذه المذبحة. وأعقبها بشريحة أخرى رأينا فيها جثة شوهت بطريقة مماثلة لأحد الطيارين الأمريكان بعد أن أسره الفيتكونغ. من قال إننا لسنا شركاء في الإنسانية؟ قال كلود، وأخيراً عرض شريحة تصور جندياً أمريكياً يتبول على جثة واحد من الفيتكونغ.

المصير الذي انتهى إليه بينه الآن أن وقع بين يدي واحد من هؤلاء الفيتكونغ الذين لا يستخدمون مياههم الشحيحة وصابونهم للاستحمام بل للتعذيب. بينما جيمس يون (أو بديله المجازف في نسخة أخرى من اللقطات) فربطوه على اللوح، ووضعوا خرقة قذرة حول رأسه. ثم راح أحد أفراد الفيتكونغ يسكب الماء ببطء على رأس بينه من مسافة قدم ويسيل على الخرقة، مستخدماً في ذلك أدوات تعود إلى فنش نفسه. لحسن حظ جيمس يون أن التعذيب بالماء يحدث فقط ضمن اللقطات التي تتضمن وجود الممثل البديل.

تحت الخرقة كان الرجل يسد منخريه وأنبوبة للتنفس في فمه، لأن المرء لا يستطيع بطبيعة الحال أن يتنفس تحت الشلال. الغرق هو أقرب الأحاسيس، هكذا قال لي السجناء الذين نجوا من مثل هذا الموقف، أو كما وصف المحققون الإسبان طريقة التعذيب بالماء. مرة بعد مرة كانوا يوجهون السؤال إلى جيمس يون، وطوال الوقت الماء يتدفق على وجهه، والفيتكونغ يتجمهرون حوله، يشتمون، ويلعنون، ويركلون، ويلكمون، كل ذلك تمثيل طبعاً. كل هذا التعذيب! هذه الغرغرة! صعود وهبوط الصدر والبطن! وبعد فترة، تحت شمسنا الاستوائية الصبوحة مثل وجه صوفيا لورين، ليس فقط جيمس يون ولكن حتى الكومبارس بدأوا ينضحون عرقاً من الجهد المبذول. هذا ما انتبه إليه قليلٌ من الأشخاص - إنه عمل شاق أن تضرب أي إنسان. كنت أعرف أحد هؤلاء المحققين البارعين في الضغط على العضلات، وسحب الظهر، وتمزيق الأوتار أو الأربطة، وكسر أطراف الأصابع، وتهشيم اليدين والقدمين، ولا داعي للتطرق إلى صوته المرعب. وبينما السجين يصرخ، ويبكي، ويختنق، ويعترف بكل شيء أو يحاول الاعتراف، أو ببساطة يكذب، لا بد للمحقق أن يصرخ باستمرار مطلقاً سيلاً من الشتائم، والإهانات، والأوامر، والاستفزازات بكل التركيز والإبداع لامرأة أثناء حديث قذر عن الجنس. يتطلب الأمر طاقة ذهنية لعدم تكرار الشتائم المتدفقة نفسها، وهنا على الأقل، كان الكومبارس يتلعثمون في أدائهم. ولا ينبغي إلقاء اللوم عليهم. لم يكونوا من المحترفين، والنص المكتوب يقول فقط إن المحققين من الفيتكونغ كانوا يلعنون ويشتمون ويوبخون بينه بلغتهم الخاصة. بعد أن تركوا لاجتهادهم، تقدم الكومبارس لإعطاء درس في اللغة الفيتنامية المنحطة لن ينساه أحد. في الواقع، بينما أغلب أفراد الطاقم لم يتعلموا كلمات الشكر والاحترام أو الرجاء بالفيتنامية في نهاية اللقطات، كل شخص كان يعرف كيف يقول.. اللعنة على أمك، أو يا بن الحرام، اعتماداً على كيف تترجم كلمة «دو ما». لم أبالِ كثيراً بذلك الانحطاط، لكن أعجبني كيف كان الكومبارس ينتهزون كل فرصة لعصر الكلمات عصراً، ثم يبصقون سواءً كانت اسماً أو فعلاً أو صفة أو ظرفاً، أو صيغة تعجب، ويسبغون عليها نبرات الكراهية والانفعال والغضب، وحتى التعاطف أحياناً... دو ما! دو ما! دو ما!

بعد انتهاء الضرب، والركل، والشتائم، والتعذيب بالماء، تنتزع الخرقة المبللة عن وجه بينه لتكشف عن وجه جيمس يون، الذي أيقن أنها أفضل فرصة لنيل جائزة

الأوسكار لممثل مساعد. لقد استبعد سابقاً عدة مرات على الشاشة كأي ممثل شرقي لم يعد يتذكره أحد، لكن لا أحد من هؤلاء الموتى في السينما كان يعبر عن هذه الدرجة من الحزن، أو هذه المعاني السامية. دعونا نرى، أخبرني ذات ليلة في مشرب فندقنا أنه تعرض للضرب حتى كاد يموت بقضبان نحاسية على يد روبرت ميتشام، وطعنه بالسكين في ظهره ارنست بورغناين، وأطلق عليه النار في رأسه فرانك سيناترا، وخنقه جيمس كوبرن، وشنقه ممثلٌ آخر لا يعرف اسمه، وألقاه آخر من ناطحة سحاب، وقفز من نافذة منطاد زبلن الهائل، وحشر داخل حقيبة ملابس وألقي في نهر هدسون من قبل عصابة من الصينيين. أوه، نعم، بقروا بطني أيضاً، قام بذلك بعض اليابانيين. لكنها مجرد حالات موتٍ عابرة. على كل حال حصلت فقط على بضع ثوان على الشاشة في الغالب وأحياناً لم أحصل حتى على ذلك. في هذه المرة، رغم كل شيء - وهنا راح يتبختر وهو يبتسم منتشياً كأنه ملكة جمال في مهرجانٍ فخم - يتطلب الأمر وقتاً طويلاً لقتلي.

وهكذا، كلما كانت ترفع تلك الخرقة، وقد رفعت مرات كثيرة من على وجهه أثناء جلسة الاستجواب، كان جيمس يون يزدرد الماء في الخلفية بحمى مسعورة لرجل يعرف أنه لن يستبعد بسبب ذلك الفتى الحاذق دائماً، ذلك الذي لا يقهر، والذي لن تسمح له أمه بمشاهدة هذا المقطع. إنه يكشر، يقطب، يئن، يتلوى، يصرخ، يبكي، يعوي، كل ذلك يأتي مع دموع حقيقية تزيحها المياه المنسكبة من فوق والتي بعضها يتسلل إلى داخل فمه. بعد كل هذا، يصرخ، ويصرخ، ويصرخ، ويتلوى، ويعتصر، ويلوح بيديه، ويهيج، ويرفع رأسه، والذروة التي بلغها أنه تقيأ، انسكبت مادة لزجة كأنها الصابون من بقايا إفطاره المالح المخلل من السجق والبيض. وفي ختام هذه اللقطات الأولى الطويلة خيم صمتٌ مهيب على جزء من أفراد الطاقم، ذهلوا وهم ينظرون إلى ما تبقى من جيمس يون، الضحية المعذبة كأنه عبد يكدح على مزرعة أمريكية. اوتور نفسه جاء بمنشفة رطبة، وانحنى على الممثل المنهار وهو ما يزال مقيداً وأخذ يمسح برقة القيء عن وجه جيمس يون. هذا أداء مذهل، جيمي، مذهل تماماً.

أشكرك، قال جيمس يون لاهثاً.

الآن علينا أن نعيد التصوير، فقط للاطمئنان.

في الحقيقة، أعيد تصوير المشهد ست مرات قبل أن يعلن اوتور رضاه عنه. في

الظهيرة، بعد الإعادة الثالثة، سأل اوتور جيمس يون إن كان يريد أخذ استراحة لتناول الغداء، غير أن الممثل هز رأسه وهمس، لا، لا تفكوا قيودي، إنني أتعرض للتعذيب، أليس كذلك؟ بينما استراح بقية الكادر تحت الظل الوارف للمطعم، جلستُ بالقرب من جيمس يون وعرضت عليه أن أغطيه بشمسية، لكنه رفض بإصرار لا يلين. لا، اللعنة، أرى أن هذا لن يستغرق أكثر من ساعة تحت الشمس. الأشخاص مثل بينه عانوا أكثر، أليس كذلك؟ بل أسوأ بكثير، قلت موافقاً. أخيراً سوف تنتهي اليوم تجربة جيمس يون الشنيعة في التعرض للتعذيب، أو هكذا كان يأمل، بينما تستمر معاناة السجناء الحقيقيين لأيام، وأسابيع، وأشهر، وسنوات. هذا ينطبق على الأشخاص الذي اعتقلهم رفاق شيوعيون، تبعاً لتقارير استخباراتنا، لكنه ينطبق أيضاً على الذين يستجوبهم زملائي في الفرع السري. هل يأخذ المحققون في الفرع السري وقتاً طويلاً هكذا لأن رجال الشرطة مخلصون أكثر من اللازم في عملهم، أم يفتقرون إلى الخيال، أم أنهم ساديون؟ كل ما قيل أعلاه، قال كلود. ومع ذلك فالافتقار إلى الخيال والسادية يتناقضان مع الحرص والدقة في العمل. كان يلقي محاضرة في أحد الصفوف على رجال الشرطة السرية في المركز الوطني للتحقيقات، والنوافذ كأنها عيون لا تطرف تطل على مرافئ سايغون. الطلاب العشرون الذين يقعون ضمن اختصاصه السري، ومنهم أنا، من المحاربين المخضرمين في الجيش أو الشرطة، لكننا لم نزل نتهيب من سلطته، والطريقة التي يتصرف بها كأنه بروفيسور في السوربون أو هارفارد أو كامبردج. استخدام القوة والوحشية ليس الجواب، أيها السادة، إذا كانت المسألة كيف ننتزع المعلومات ونجعلهم يتعاونون معنا. القوة والوحشية تؤديان إلى إجابات غير صحيحة، أكاذيب، تضليل، أو الأسوأ من ذلك تعطيك إجابة يعتقد السجين أنك تريد أن تسمعها. سوف يقول أي شيء لإيقاف الألم. كل هذا هراء - هنا لوّح كلود بيده مشيراً إلى أدوات المهنة التي تكومت على مكتبه، الكثير منها صنع في فرنسا، ومنها هراوة، حاوية بلاستيكية للنفط محورة بماء صابوني، كماشة، مولد كهربائي يدار باليد يشغل تلفوناً ميدانياً - كل تلك الأشياء عديمة الجدوى. الاستجواب ليس عقاباً. الاستجواب علم يُدرس.

كنت أكتب مع شرطي سري آخر بحرص بالغ كل ما قاله في دفتر. كان كلود مستشارنا الأمريكي، ونتوقع الحصول على معرفة مبتكرة منه وكل المستشارين الأمريكان الآخرين. لم نصب بخيبة الأمل من سماع ذلك. الاستجواب يتعلق بالعقل أولاً، والجسد

يأتي ثانياً، قال. لست مضطراً لأن تترك خدشاً على الجسد. هذا يبدو مناقضاً للبديهة، أليس كذلك؟ لكنه صحيح. أنفقنا الملايين لإثبات هذا في المختبر. المبادئ هنا أساسية، غير أن التطبيق يمكن أن يكون مبتكراً ويتغير حسب ذوق الفرد أو خيال المحقق. التضليل. التجرد من الإحساس، جلد الذات. هذه هي المبادئ التي أظهرها علمياً أشهر الخبراء في العالم، العلماء الأمريكان. لقد أثبتنا أن العقل البشري إذا ما خضع للظروف الصحيحة، سوف ينهار بسرعة أكبر من الجسم البشري. كل هذا الهراء - مرة أخرى أومأ بيده امتعاضاً مما نراه الآن على أنه خردوات عفا عليها الزمن، أدوات برابرة العالم القديم بدلاً من علماء العصر الحديث، من وسائل التعذيب التي كانت تستخدم في القرون الوسطى ولم تعد تصلح للاستجواب الحديث - يتطلب الأمر شهوراً لإنهاك السجين باستعمال هذه الأشياء. لكنك إذا وضعت كيساً على رأس السجين، ولففت يديه بالشاش، وسددت أذنيه، وألقيته في زنزانة مظلمة لوحده لأسبوع، لن يبقى قادراً على المقاومة. يكون لديك مجرد بركة من الماء.

ماء. ماء، قال جيمس يون. هل يمكنني الحصول على قليل من الماء، أرجوكم؟

أحضرت إليه الماء. رغم كثرة الماء الذي تساقط عليه، لم يحصل في الواقع على أي شيء منه سوى ما تغلغل في الخرقة المبللة بما يكفي للاختناق، قال. وبينما كانت ذراعاه مقيدتين، صببت الماء ببطء في حلقه. شكراً، غمغم، مثل أي سجين يشعر بالامتنان لمعذبه مقابل قطرة ماء أو لقمة طعام أو دقيقة من النوم يمكن لمن يمارس التعذيب أن يتصدق بها عليه. أحسست بالارتياح الآن عندما سمعت صوت اوتور ينادي، هيا، دعونا ننتهي من هذا حتى يتمكن جيمي من الرجوع إلى البركة!

أثناء الإعادة الأخيرة للمشهد بعد ساعتين، كان جيمس يون حقاً يبكي من الألم، وجهه سبح بالعرق، والمخاط، والغثيان، والدموع. إنه منظر رأيته من قبل - تلك العميلة الشيوعية. لكنه حقيقي إلى درجة أنني توقفت عن التفكير في وجهها. كنت أركز فقط على الصورة الخيالية للمهانة المطلقة التي أراد اوتور أن يحققها في المشهد اللاحق، والتي تحتاج إلى الإعادة مرة بعد أخرى. في هذا المشهد الأخير الذي يشارك فيه جيمس يون في الفيلم، كان الفيتكونغ المحبطون بسبب عجزهم عن تحطيم إرادة ضحيتهم وجعله يعترف بجرائمه، يحطمون رأسه بمجرفة. لكن بسبب التعب من تعذيب ضحيتهم، يقرر

الرجال الأربعة أخذ استراحة ويدخنون سجائر مارلبورو أخذوها من مقتنيات فنش. ولسوء حظهم يقللون من شأن «بينه» هذا الذي مثل الكثير من إخوته الجنوبيين، سواءً كانوا مقاتلين من أجل الحرية أو مقاتلين من أجل الحرية، يحني ظهره مثل متزلج على الماء من كاليفورنيا فيما يتعلق بكل مسألة باستثناء ضرورة الاستقلال من الطغيان. تركوه دون منشفة على رأسه، أصبح حراً في عض لسانه والغرق تحت حنفية دمه المصطنع، وهو من المنتجات التجارية التي تكلف خمسة وثلاثين دولاراً للغالون الواحد استخدموا منه تقريباً غالونين لصبغ وجه جيمس يون وتزيين الأرض. لكن حين تعلق الأمر بدماغ «بينه»، فقد أعد هاري مادة تشبه المخ من صنع محلي، وهي وصفة سرية من الشوفان المجروش تخلط بهلام مادة تستخلص من الطحالب البحرية تسمى أغار، والنتيجة عبارة عن خليط رمادي يتجمد بسرعة كان يسكبه على الأرض وفوق رأس جيمس يون. اقترب المصور أكثر لالتقاط صور للنظرة التي على عيني بينه، والتي لم أرها من مكاني الذي أراقب فيه، لكنني تصورت أنها مزيج غريب من الألم والنشوة. ورغم كل ذلك العقاب لم ينطق بكلمة، أو على الأقل أي كلمة مفهومة.

الفصل الحادي عشر

كلما طالت مدة عملي في الفيلم، زاد اقتناعي بأني لست مجرد مستشار ضمن مجال فني، لكن يبدو أنني تورطت في عمل يخدم بروباغندا معينة. رجل مثل اوتور سينكر ذلك، ويعتبر فيلمه عملاً فنياً بحتاً، لكن من يخدع من؟ الأفلام طريقة أمريكا في إرضاء بقية العالم عنها، وهوليوود لا تكف عن شن حملاتها الذهنية على الجمهور باللقطة، ومشاهد الانفجارات المدوية، والأفلام التي تتطلب ميزانيات ضخمة، نعم، حتى قنبلة صغيرة توضع في صندوق البريد. ليس المهم القصة التي يشاهدها هذا الجمهور، المسألة المهمة أنها القصة الأمريكية التي يشاهدونها ويحبونها، حتى يأتي اليوم الذي ربما هم أنفسهم يتعرضون للقصف من الطائرات التي رأوها في أفلام أمريكية.

ليس من المستغرب أن يفهم مان الدور الذي تقوم به هوليوود في إطلاق صاروخ بالستيكي عابر للقارات لتحقيق الحلم الأمريكي. كتبت إليه رسالة تعبر عن قلقي بشأن أهمية عملي في الفيلم، وأجابني برسالة تفصيلية أكثر من رسائله السابقة. في البداية وصف أسباب مخاوفي بشأن اللاجئين قائلاً إن: الظروف هنا مبالغة صارخة لما هي عليه هناك. تذكر مبادئ حزبنا. أعداء الحزب ينبغي أن يستأصلوا. ورسالته الثانية تناولت مخاوفي من التعاون مع اوتور. تذكر كلام ماو في يينان. ذلك كل ما قاله لي، لكنه طرد الغراب الأسحم الذي كان جاثماً على كتفي. متى كانت آخر مرة يجد فيها رئيسٌ أمريكي أن مما يستحق الاهتمام إلقاء خطاب عن أهمية الفن والأدب؟ لا أتذكر. ومع ذلك، في

يينان، قال ماو إن الفن والأدب شيئان أساسيان للثورة. ومن ناحية أخرى حذّر من أن الفن والأدب يمكن أيضاً أن يكونا من أدوات الهيمنة. الفن لا ينفصل عن السياسة، والسياسة تحتاج إلى الفن من أجل الوصول إلى الشعب في الأماكن التي يعيش فيها، من خلال توفير المتعة للجماهير. حين دفعني مان لأن أتذكر كلمات ماو، كان يخبرني بأهمية مهمتي في هذا الفيلم. ربما الفيلم نفسه ليس مهماً كثيراً، لكن الأشياء التي يعرضها من خلال عبقرية الفيلم الأمريكي، هي المهمة. الجمهور ربما يحب أو يكره الفيلم، أو يتجاهله ويعتبره مجرد قصة تافهة، غير أن هذه المشاعر ذات مغزى. المهم أن الجمهور بعد أن يدفع ثمن التذكرة، يترك الأفكار والقيم الأمريكية تتغلغل في النسيج الخفيف للدماغ وفي التربة الخصبة للقلب.

عندما ناقش مان في البداية هذه المسائل معي، في حلقة دراسية شاركنا فيها، أذهلتني براعته وذكاءه إضافة إلى انبهاري بحكمة كلمات ماو. كنت طالباً من لوسي لم يسبق أن قرأ ماو، ولم يفكر بأن للفن والأدب أي علاقة بالسياسة. كان مان يقطع الدرس لينشغل معي وعضو ثالث ضمن خليتنا، وهو شاب يضع نظارات يدعى نيغو، في مناقشة حماسية لمحاضرة ماو. وكانت مقولات ذلك «الربان العظيم» عن الفن تثير حماسنا. الفن يمكن أن يكون شعبياً، يتوجه إلى الجماهير الواسعة، ومع ذلك يكون راقياً، يروّج لمعايير جمالية خاصة فضلاً عن الارتقاء بذوق الجماهير. كنا نتناقش في إمكانية كل هذا في حديقة منزل نيغو بروح مرهقين متهورين واثقين من أنفسهم، تقاطعنا بين الحين والحين ووالدة نيغو لتقدم لنا وجبات خفيفة. المسكين نيغو مات لاحقاً في مركز للتحقيقات الإقليمية بعد أن اعتقل بتهمة حيازة منشورات سرية معارضة للحكومة، في ذلك الوقت كان فتى متهوراً شغوفاً بشعر بودلير. على العكس من مان ونيغو، لم تشغلني كثيراً مسائل التنظيم أو التحريض، وهذا أحد الأسباب، كما قال مان لاحقاً، لأن تقرر اللجان التي أشرت إليها آنفاً أن أكون جاسوساً مزدوجاً.

كان يستخدم الكلمة الإنكليزية mole التي تعلمناها منذ زمنٍ ليس بالبعيد في دورة اللغة الإنكليزية، علمنا إياها بروفيسور كان مصدر متعته العظيم تحليل معاني الجمل والكلمات. ذلك نوع من الجرذان يسمى الخلد؟ قلت. الذي يحفر أنفاقاً تحت الأرض.

النوع الآخر من هذا الحيوان.

هناك نوع آخر؟

حتماً. إذا فكرت في الخلد على أنه الحيوان الذي يحفر الأنفاق تحت الأرض فهو سوء فهم لمعنى الكلمة. واجب الجاسوس ليس أن يخفي نفسه حيث لا يراه أحد، لأنه لن يتمكن من رؤية شيء هو نفسه. واجب الجاسوس أن يختفي حيث يراه أي شخص وبإمكانه رؤية كل شيء. الآن اسأل نفسك: ماذا يستطيع أي شخص أن يراه فيك بينما أنت لا تستطيع ذلك؟

كفى هذه الألغاز، قلت. أنا أستسلم.

انظر هناك - وأشار إلى وجهي - انظر إلى نفسك بوضوح.

ذهبت نحو المرآة لأرى بنفسي، وكان مان ينظر من فوق كتفي. هناك في الواقع جزءٌ من نفسي توقفت منذ مدة طويلة عن الانتباه إليه. ضع نصب عينيك أنك لست مجرد جرذ عادي، قال مان، لكن ستكون الجرذ الذي يشكل علامة فارقة للجمال على أنف السلطة نفسها.

كان مان يتمتع بقدرة طبيعية لابتكار الدور الذي يقوم به الخلد أو الجاسوس، وغير ذلك من المهمات الخطرة المحتملة التي يجعلها تبدو جذابة. من تراه يرغب في أن يكون مجرد علامة فارقة جميلة؟ واحتفظت بذلك في ذهني عندما رجعت إلى قاموسي الإنكليزي، حيث اكتشفت أن تلك الكلمة يمكن أن تعني أيضاً نوعاً من الرصيف أو المرفأ، أو وحدة قياس في الكيمياء، أو كتلة من نسيج الرحم، أو إذا لفظت بشكل مختلف، تعني صلصة مكسيكية حارة جداً من الفلفل والشوكولاته جربتها ذات يوم واستمتعت بمذاقها جداً. لكن الشيء الذي أثار اهتمامي بقي معي منذ الوقت الذي رأيت فيه الرسم التوضيحي المرافق للكلمة في القاموس وكل شيء فيه لا يمت إلى الجمال بصلة لكنه حيوان يعيش تحت الأرض، يأكل الديدان، وهو من الثدييات وله قدمان بمخالب كبيرة، خطمه أنبوبي متمايل، وعيناه كأنهما الثقوب. من المؤكد أنه يبدو قبيح الشكل لكل من يراه باستثناء أمه، ويكاد يكون أعمى.

***

كان العمل في الفيلم يمضي ويكتسح ضحاياه في طريقه، يدور بعزم لا يلين كأنه فرقة دبابات بانزر باتجاه ذروة الاشتباكات النارية في عرين كينغ كونغ، والتي سيتبعها ما يقال إنه التبخر الحارق لعرين الدجال من قبل سلاح الجو الأمريكي. بعد عدة أسابيع من التصوير وصلنا إلى مشهد يستغرق خمس عشرة دقيقة من زمن الفيلم الكامل، يعج بالمروحيات، وإطلاق الصواريخ، ومعارك البنادق، وتدمير شامل ورائع للإنشاءات الكثيرة التي أقيمت مع كل النوايا بأن تكون التكاليف منخفضة. كميات هائلة من التجهيزات والذخيرة وقنابل الدخان ضمنت أن تغطي السدم الكثيفة موقع التصوير، بينما تطلق رشقات الرصاص غير الحقيقي من كل مكان، وتستخدم الصواعق والمتفجرات، بحيث اختفت كل الطيور والبهائم الموجودة في المكان وانتشر أفراد الطاقم هنا وهناك وقد وضعوا كمامات واقية على آذانهم. بطبيعة الحال لم يكن كافياً تدمير القرية والكهف الذي يختبئ فيه كينغ كونغ؛ لإشباع رغبة اوتور في تجسيد مشاهد دموية حقيقية، كل الكومبارس ينبغي أن يقتلوا. لأن النص ورد فيه مقتل المئات من الفيتكونغ وكذلك من سكان لاوس، بينما لا يتوفر لدينا سوى مائة من الكومبارس، وأغلبهم ماتوا أربع أو خمس مرات. لقد تقلص الطلب على الكومبارس فقط بعد أن جاء دور المشاهد التي تعتبر حقاً تحفة رائعة في الإبداع السينمائي وتقلصت بالتالي الحاجة للاشتباك بالأسلحة النارية، ضربة مرعبة موجهة بقنابل النابالم نفذها زوجٌ من طائرات مقاتلة تحلقان على ارتفاع منخفض نوع أف 5 يقودهما طياران من سلاح الجو الفلبيني. لذلك تعرض أغلب الأعداء للإبادة، كل ما كان مطلوباً خلال الأيام الأخيرة للتصوير عشرون فرداً من الكومبارس، وهو عدد قليل جعل مخيم اللاجئين كأنه بلدة أشباح.

هنا ذهب من بقي حياً لكي ينام واستيقظ الذين لم يموتوا، وفي فجر كل يوم من الأيام الثلاثة اللاحقة، كان الموقع يفيق على صرخات تنادي: «أيها الفيتناميون الموتى، خذوا أماكنكم!» قبيلة من الزومبي المتمردين خرجت من باطن الأرض، مجموعة من الموتى المقطعين يمشون متعثرين وقد خرجوا من خيمة المكياج وكلهم جروح وخدوش ودماء، وملابسهم ممزقة. البعض منهم انحنوا متكئين على رفاقهم وكانوا يعرجون على ساق واحدة، والساق الأخرى مشدودة على الفخذ. في إحدى اليدين يحملون طرفاً اصطناعياً، والعظم الأبيض ظاهر للعيان، وضعوه في مكان قريب عندما استقروا. وآخرون لديهم ذراع واحدة داخل قميص والكم يتدلى فارغاً، ويحملون ذراعاً مبتورة، بينما عدد

قليل منهم يلتقطون أدمغتهم التي تسيل من رؤوسهم. البعض منهم يمسكون بحذر أحشاءهم الداخلية المتدلية التي تبدو كأنها خيوط لامعة من السجق النيئ، وهي بالفعل كذلك. كان استخدام السجق فكرة ملهمة، في اللحظة المناسبة تماماً عندما بدأ التصوير كشف هاري عن كلب صيد ضال يندفع بوحشية وهو جائع نحو موقع التصوير ويبدأ بالنهش الجنوني لأحشاء الموتى. تلك الجثث كل ما تبقى من الأعداء الذين احترقوا في عرين كينغ كونغ، تناثرت هنا وهناك في أوضاع مزرية في الأماكن التي سقطت فيها بعد إطلاق النار عليها، أو طعنها بالسكاكين، أو ضربها بالهراوات، أو خنقها حتى الموت في المعركة الشرسة باليدين التي دارت بين الفيتكونغ وأصحاب البيريات الخضر، إلى جانب قواتهم الشعبية. كان من بين الموتى الكثير من تعساء الحظ، وأشخاص لا تعرف هوياتهم من القوات الشعبية فضلاً عن الأربعة من الفيتكونغ الذين قاموا بتعذيب بينه والاعتداء على كيم ماي، نهايتهم أوقعت بهم بما يتماشى مع شهوة الانتقام على يد شاموس وبيلامي، وهما الآن يلوحان بالخناجر في نوبة هستيرية من الجنون الملحمي مشابهة لما يصفها هوميروس..

حتى وقفا يلهثان في ميدان المعركة الذي يُسمع فيه هسيس الجمر.

شاموس: هل تسمع؟

بيلامي: لا أسمع شيئاً.

شاموس: حقاً. إنه صوت السلام.

يا ليت الفيلم لم يكتمل بعد! اندفعت امرأة عجوز من الكهف نحو الشلال، كانت تنتحب، اتجهت إلى جسد ابنها الميت من الفيتكونغ. تعرّف عليها رجل من أصحاب البيريات الخضر على أنها من جماعتهم، أسنانها سوداء مهشمة وتعمل في المبغى البائس الذي كانوا يمارسون فيه الرذيلة.

بيلامي: تباً، إنه ابن ماما سان من الفيتكونغ.

شاموس: كلهم أبناؤها، أيها الفتى، كلهم أبناؤها.

بيلامي: ماذا نفعل معها؟

شاموس: لا شيء. لنرحل من هنا.

نسي شاموس القانون الكاردينالي للغربيين، والقصص البوليسية، وأفلام الحروب: أبداً لا تدر ظهرك لأي عدو أو امرأة خاطئة. فلما فعلا ذلك، أمسكت ماما سان الغاضبة بندقية ابنها أ ك - 47، ورشقت شاموس بالرصاص من الورك حتى ألواح الكتف، ثم سقطت هي نفسها ضحية لبيلامي الذي التف بسرعة وأفرغ فيها مخزنه. وهكذا ماتت بحركة بطيئة، تغطي جسدها أربع عشرة نافورة دماء من أثر المؤثرات الخاصة التي جهزها هاري وأعطاها اثنتين أو أكثر منها لتعض عليها. هذا طعمه فظيع، قالت لاحقاً، والفم والحنك تغطيهما دماء مزيفة كنت أمسحها عنها. هل كنت مقنعة؟ مذهلة، قلت معلقاً على أدائها الرائع في الإقناع. لا أحد يموت مثلما متّ.

باستثناء، بطبيعة الحال، تالينت. لضمان أن لا أحد منهم يدعي أن آسيا سو أو جيمس يون يفوقانه في الأداء، طلب أن يصور موته ثماني عشرة مرة. كان من المطلوب بذل جهد استثنائي من قبل أيدول الذي عليه أن يحتضن ويل شاموس الميت بين ذراعيه، وهو عمل شاق لأن تالينت لم يستحم منذ سبعة أشهر من التصوير. رغم حقيقة أن أحداً من الجنود لم يفوت فرصة للاستحمام أو رش الماء على جسمه، أو ربما ليس أكثر من دعك نفسه بالصابون والماء البارد الذي يؤتى به من إحدى القرى. ذكرت هذا إلى تالينت ذات ليلة في وقت مبكر من التصوير، وردّ عليّ بنظرة تعبر عن الإشفاق والاستمتاع معاً والتي أصبحت معتاداً عليها الآن، ذلك النوع من النظرات التي لا تتضمن فقط القول إن مكاني الذي أعيش فيه مهمل وقذر، لكن ليس ثمة ما يستحق الرؤية إن كان فيه شيء. فلا أحد من الجنود فعل ما أقوم به، قال. ونتيجة لهذا، لا أحد يستطيع الأكل على هذه الطاولة إذا اقترب منه خمسة عشر أو عشرين قدماً، رائحته العفنة مرعبة إلى درجة أنها تجعل الدموع تتساقط على وجه أيدول وهو ينحني مقترباً مع كل لقطة، يبكي ويسد أنفه، ليسمع شاموس يهمس بكلماته الأخيرة: الساقطة! الساقطة!

بعد موت شاموس أصبح الموقع جاهزاً لبيلامي ليطلب توجيه ضربة على شكل قوس بالقنابل الفسفورية على عرين كينغ كونغ. في السماء فوقنا، كانت طائرة قاصفة غير مرئية من نوع ب - 52 ستراتافرتريس تطلق ثلاثين ألف رطل من القنابل الثقيلة على العرين، والغرض من ذلك ليس قتل الأحياء وإنما لتنظيف الأرض من الموتى، أو لتقوم

برقصة النصر على جثة كينغ كونغ، أو لمسح الابتسامة عن وجه أمنا الأرض، أو لتقول للعالم ليس بالإمكان تفادي هذا - نحن أمريكان. لقد تطلب المشهد إمكانات إنتاجية هائلة من حفر الخنادق التي ملئت وقتذاك بألفي غالون من النفط، فضلاً عن ألف من قنابل الدخان، ومئات من الشعل الفسفورية، وعشرات من عصي الديناميت، وعدد لا يحصى من الصواريخ، والمشاعل والمفرقعات، كلها وظفت لإخراج مشاهد محاكية للانفجارات التي تأتي من أكداس ذخيرة كينغ كونغ المدمرة، وفرها الصينيون والسوفييت. كل واحد من أفراد الطاقم كان ينتظر هذه اللحظة، أكبر انفجار يحدث في تاريخ السينما في العالم. إنها اللحظة التي ننتظرها، هتف اوتور مخاطباً الطاقم الذين تجمعوا في الأسبوع الأخير، اللحظة التي نظهر فيها أن صناعة هذا الفيلم سوف تحدث انقلاباً على مجرى الحرب. حين يسألك أحفادك عما فعلته خلال الحرب، يمكنك أن تقول إنني صنعت هذا الفيلم. أديت عملاً عظيماً من أعمال الفن. كيف تعرف أنك قدمت عملاً فنياً عظيماً في الفن؟ العمل الفني العظيم لا بد أن يكون واقعياً مثل الواقع نفسه، وفي بعض الأحيان يكون حتى واقعياً أكثر من الواقع. بعد زمن طويل من انتهاء هذه الحرب ونسيانها وكل شخص نجا منها يكون قد مات، وأجسادهم تحولت إلى تراب، وذكرياتهم إلى ذرات، وعواطفهم لم تعد تتأثر بشيء، وتصبح الحرب مجرد فصل يقرأ في كتاب مدرسي، فالطلاب لا يبالون حتى بالقراءة، هذا العمل الفني سوف يبقى يشع بالتألق لأنه ليس عن الحرب فقط بل الحرب نفسها.

هنا تكمن المغالطة العبثية. الأمر لا يتعلق بعدم وجود نوع من الحقيقة بشأن ادعاءات اوتور، لأن العبث كثيراً ما يحمل بذرة من الحقيقة. نعم، الفن بالتالي يبقى بعد الحرب، البراعة فيه تبقى بعد زمن طويل من دفن الطبيعة لأجساد ملايين المحاربين وتحولهم إلى تراب، لكنني لست أشك في أن خيال اوتور المفرط في الأنانية يصور له أن عمله الفني في الوقت الحاضر أكثر أهمية من تلك الملايين الثلاثة أو الأربعة أو الستة الذين ماتوا بعد أن عرفوا المعنى الحقيقي للحرب. هم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، لا بد أن يمثلهم طرف آخر. كان ماركس يتكلم عن الطبقة المضطهدة التي لا ترى نفسها كطبقة، ولكنها شيء أكثر واقعية من الموتى، أم أنها الكومبارس؟ مصيرهم فارغ من أي معنى بحيث يشربون الشراب بالدولار الذي يتقاضونه كل ليلة، وهو تصرف شاركتهم فيه بسعادة، وكنت أحس بجزء من نفسي يموت معهم. كان يساورني إحساس بوضاعة الإنجاز

الذي حققته، كنت مخدوعاً بأني أستطيع إحداث تغيير في الطريقة التي يمثلوننا بها. قمت بتعديل الكثير من الفقرات في النص هنا وهناك، وشجعت على خلق بضع حوارات، لكن ما النتيجة؟ لم أخرج هذا الوحش الهائل عن مساره، أو أغير اتجاهه، فقط جعلت مساره أكثر سلاسة كمستشار فني يحرص على المصداقية، تلك الروح التي تسكن الأفلام الهابطة والتي تطمح أن تكون جيدة. تتمثل مهمتي في ضمان أن الناس الذين يهربون في خلفية الفيلم يكونون فيتناميين حقيقيين يريدون إنقاذ فيتناميين حقيقيين ويلبسون ثياباً فيتنامية حقيقية، قبل أن يموتوا. تفصيل الملابس وتحوير اللهجة يجب أن تكون من الأشياء الواقعية، لكن المهم حقاً في مثل هذا الفيلم، مثل العواطف والأفكار، يمكن أن تكون مزيفة. كنت مجرد مصمم أزياء عليه التأكد من أن تصاميمها مناسبة للموقف، وخياطتها جيدة، ويستعملها السكان البيض الأثرياء في العالم. إنهم يمتلكون وسائل الإنتاج، ولهذا فهم يمتلكون حق توزيع الأدوار في التمثيل، وأقصى ما نطمح إليه أن ننطق بكلمة على الهامش قبل أن يأتي موتنا المجهول.

الفيلم مجرد حلقة ضمن مسلسل حربنا هذه، وتمهيد للفيلم اللاحق الذي سوف تصمم أمريكا على تمويله. قتل الكومبارس كان إما إعادة تصوير لما حدث لنا نحن أبناء الوطن أو مجرد بروفة لاختيار الثياب استعداداً للحلقة التالية، مع استمرار لقطات الفيلم يُحقن العقل الأمريكي بمخدر من صنع محلي، لحمايته من أي تأثيرات جانبية قبل أو بعد هذا العمل. على كل حال، التكنولوجيا التي تستخدم لطمس ملامح المحليين تأتي من مجمع الصناعة العسكرية الذي تعتبر هوليوود جزءاً منه، فهي تؤدي دورها بحذافيره ضمن عملية الطمس المقصود لملامح السكان. أدركت هذا أخيراً، في اليوم الذي كان يفترض أن يصور فيه المشهد الأخير، في الدقيقة الأخيرة، عندما قرر اوتور الارتجال بكميات وافرة مما تبقى من النفط والمتفجرات. قبل يوم، كنت أجهل هذا، كان الفنيون المختصون بالمؤثرات الخاصة تلقوا توجيهات اوتور: أعدوا المقبرة للتفجير. هذه المقبرة سلمت من التفجير في النسخة الأصلية من النص عندما هاجم كينغ كونغ القرية، لكن الآن أراد اوتور مشهداً آخر يوضح الوحشية الحقيقية للطرفين. في هذا المشهد، تختفي عصبة من الانتحاريين بين القبور، ولدى ذلك يستدعي شاموس ضربة جوية بالقنابل الفسفورية البيضاء على المملكة المقدسة لأسلاف سكان القرية، فتختلط جثث الأحياء والأموات بقنابل من عيار 155 ملم. إذا نظرنا إلى ولوع اوتور بالارتجال فأنا لم أعرف شيئاً

عن هذا المشهد الجديد حتى صباح يوم التصوير، حين كان من المخطط أصلاً التقاط المشاهد. لا، قال هاري. جماعة المؤثرات الخاصة انتهوا من تجهيز المقبرة ليلة البارحة.

إنني أحب تلك المقبرة. إنها أعظم شيء أنجزتموه.

لديك ثلاثون دقيقة فقط لالتقاط الصور قبل بدء الانفجارات.

إنها مجرد مقبرة مزيفة ذات قبور غير حقيقية منها قبر أمي، لكن إزالة هذا الابتكار، بهذا الطيش وهذه النزوات، يؤلمني بقسوته غير المتوقعة. كان علي أن أؤدي آخر طقوس احترامي لأمي وللمقبرة، لكني وحدي في هذا المكان المقفر إلا من مشاعري. المقبرة مهجورة، وأفراد الطاقم لا زالوا يتناولون الإفطار. وسط القبور الآن لمحت ظلاً أو شبحاً يتحرك بين الخنادق الضحلة، مع انعكاسات ضوئية على سائل كأنه النفط، بينما تكومت على الشواهد عصي من الديناميت والقنابل الفسفورية. كتل من قنابل الدخان متناثرة على الأرض، مخفية عن الكاميرا خلف شواهد القبور والعشب الذي يصل إلى الركبتين يدغدغ كاحلي وسيقاني. كانت كاميرتي تتدلى من رقبتي ومررت على أسماء الموتى التي كتبها هاري على شواهد القبور، أستنسخها من دليل تليفون لوس أنجلس ويفترض أنها لأشخاص أحياء. من بين أسماء الأحياء في المقبرة اسم أمي وحده ينتمي بشكل غريب لعالم الموتى. انحنيت على شاهد قبرها لأقول لها وداعاً. التغيرات المناخية خلال سبعة أشهر ماضية بددت ملامح وجهها في الصورة الفوتوغرافية المستنسخة، بينما الخط الأحمر الذي كتب به اسمها تحول إلى لون باهت كالدم المتخثر على الرصيف. الكآبة تتسلل من ملمس يدها على الورق الجاف نحو يدي كما يحصل دائماً بينما كنت أفكر في أمي وحياتها القصيرة، والفرص التي توفرت لها لا تكاد تذكر، التي ضحت كثيراً، وكان عليها أن تعاني من إذلال أخير من أجل الترفيه عن الآخرين.

ماما، قلت وجبهتي على شاهد قبرها. ماما، إنني أفتقدك كثيراً.

سمعت الصوت الغامض للرائد البدين، يغرغر. هل كان من وحي خيالي المريض، أم توقفت ضوضاء الطبيعة الساكنة؟ في ذلك الهدوء الخارق للطبيعة خلال الاتصال الروحي مع أمي، فكرت في أنني ربما نجحت في استدعاء روحها، لكن فقط عندما همست أمي بشيء لي، سمعت ضوضاء كالصاعقة مسحت كل الأصوات من أذني. في الوقت نفسه

أحسست بخبطة على وجهي رفعتني من ركبتي ودفعتني نحو بقعة من الضوء، فقدت عندها التركيز، جزءٌ من روحي يطير والآخر يراقبني. في وقتٍ لاحق ربما كان يمكن أن أدّعي أن ذلك مجرد حادث عارض، انفجار نتج عن خطأ أعقب الانفجار الأول، رغم أنني قررت عند ذاك أنه ليس حادثاً أبداً. رجل واحد فقط يمكن أن يكون وراء ما حدث في موقع التصوير، ذلك الموسوس بشأن كل التفاصيل التي خطط لها أسبوعياً، اوتور. أثناء الانفجار المدوي، كانت روحي الهادئة تؤمن أن الله وحده وجه ضربة لروحي الملحدة. من خلال هاتين العينين في روحي الهادئة رأيت روحي الهستيرية تصرخ وتمد ذراعين وترفرف بهما هنا وهناك كأنها طير غير قادر على الطيران. صفحة هائلة من النيران سدت الطريق على الطير، بينما موجة الحرارة تكتسح فوقه بكثافة بحيث فقدنا أنا وهو أي نوع من الإحساس. ثعبان هائل يلتف بجسده العملاق الأملس حولنا ويخنقنا، يعصرنا ويرجعنا معاً إلى روح واحدة سابقة بقوة لا توصف بحيث أوشكت أن أغيب عن الوعي لولا أن ارتطم ظهري بالأرض. الآن اللحم في جسدي يملح، يشوى، وينضج، والعالم حولي كله اشتعل بالنيران وتصاعدت أبخرة النفط من وحوش صوفية من الدخان الأسود تتدلى وتحوم قربي بوجوهها التي تفوح منها روائح النفط وتتغير من شكل إلى آخر. رأيت شبحاً عملاقاً يصفق ويمزق الصمت ويصم أذني وأنا أتعثر وأسقط على ركبتي. قطعٌ من نيازك الصخور والتراب تمرُّ قربي، مددت إحدى ذراعي على رأسي وسحبت قميصي فوق أنفي وفمي. رأيت هناك ممراً ضيقاً وسط النيران والدخان، وبينما كنت أغمض عيني وأسد أذني وأكاد أختنق من الدخان الأسود، ركضت، مرة أخرى، لأنجو بحياتي. صفعتني موجة انفجار آخر وأرجعتني إلى الوراء، وطار شاهدُ أحد القبور بالكامل فوق رأسي، وتساقطت قنابل الدخان على الممر وغطتني سحابة رمادية وأعمت بصري. مضيت في طريقي أتجنب الحرارة، وكنت أسعل وأنفاسي ألتقطها بصعوبة حتى وصلت أخيراً إلى فسحة مفتوحة فتنفست الصعداء. ومع ذلك أصبت بالعمى، وتابعت الركض، ويداي تتحركان، وأنا ألهث لالتقاط الأوكسجين، وأحس كما يحس الجبان دائماً، يريد أن يشعر بأنه ما يزال حياً. الإحساس ممكن فقط بعد الكسب في جولة روليت روسية مع مقامر أبداً لا يخسر، الموت. كنت على وشك أن أشكر الله الذي لم أؤمن به، نعم، بالتأكيد، كنت جباناً، أيقظني دوي طبول وصمّ سمعي. وسط الصمت، اختفت الأرض - المادة اللاصقة للجاذبية تبخرت - وكنت أندفع باتجاه السماء، وبقايا المقبرة المدمرة تتراشق أمامي،

تتراجع معي، والعالم يمر بي في سديمٍ يتلاشى ويتحول إلى ظلام دامس.

***

ذلك السديم.. ذلك السديم هو حياتي تمرّ أمام عيني، تدور كشريط سينمائي بحركة سريعة إلى درجة لم أتمكن من رؤية الكثير منها. ما رأيته هو نفسي، لكن الغريب أن حياتي مرت أمام عيني بطريقة عكسية، كما يحصل في تلك الأفلام المتسلسلة حين يسقط شخصٌ ما من بناية ويتهشم جسده على الرصيف وفجأة يقفز في الهواء ويطير عائداً إلى النافذة. إذن ذلك يحصل في داخلي، الركض بجنون إلى الوراء بإزاء خلفية انطباعية من المناظر المرقطة والألوان. تقلصتُ تدريجياً في الحجم حتى رجعت مراهقاً، ثم طفلاً، ثم أخيراً، وليداً يزحف، وبالتالي كنت أندفع وأنا عار وأصرخ عبر ذلك النفق الذي لدى كل أم، وأخرج نحو ثقب أسود وتختفي كل الأضواء. ومع تلاشي تلك الومضة الأخيرة، تبين لي أن الضوء في نهاية النفق الذي يراه الناس الذين ماتوا ورجعوا إلى الحياة ليس موجوداً في السماء. أليس من المنطقي أكثر أن ما رأوه غير موجود أمامهم، ولكنه خلفهم؟ هذه الذاكرة الشمولية عن النفق الأول الذي اجتزناه جميعاً، الضوء في نهايته يخترق ظلامنا ونحن أجنة في الأرحام، يعكر جفوننا المغلقة، يرشدنا باتجاه المنزلق الذي يسلمنا إلى موعدنا المحتوم مع الموت. فتحت فمي لأصرخ ثم فتحت عيني..

كنت في سرير محاط بستارة بيضاء، منحشراً تحت ملاءة بيضاء. خارج الستارة أصوات أثيرية؛ مكعبات الثلج تخشخش وترتطم بالمعدن؛ تشقلب العجلات على الأرضية الصقيلة؛ صرير مجنون لنعال مطاطي؛ طقطقة بائسة لآلات إلكترونية. كنت ألبس ثوباً خفيفاً ناعم الملمس، ورغم خفة ثوبي هذا وخفة الأغطية، هناك ثقل مخدر يضغط علي، يخدش جسدي كأنه بطانية الجيش، يضطهدني كعلاقة غرامية غير مرغوب فيها. وقف رجلٌ بمعطف أبيض عند طرف سريري، يقرأ مخططاً على لوحة خشبية. شعره أشعث مهمل كأنه طالب في الصفوف المنتهية في الفيزياء الفلكية؛ بطنه منتفخة تتدلى خارج حزامه؛ وكان يتلمس جهاز تسجيل. جاء المريض يوم أمس يعاني من حروق من الدرجة الأولى، استنشاق الدخان، كدمات، ارتجاجات. في هذه اللحظة انتبه إلى أنني أنظر إليه. آه، مرحباً، صباح الخير، قال. هل يمكنك أن تسمعني، أيها الشاب؟ حرك رأسك. جيد جداً. هل يمكنك أن تقول شيئاً؟ لا؟ لا شيء في حبالك الصوتية أو لسانك. ومع ذلك فأنت

مصاب بصدمة، هذا رأيي. هل تتذكر اسمك؟ أومأت برأسي. جيد! هل تعرف أين أنت الآن؟ أومأت برأسي. مستشفى في مانيلا. أفضل ما يمكن الحصول عليه بالأموال. في هذه المستشفى، جميع الأطباء ليسوا حاصلين فقط على شهادة ماجستير في الطب. لدينا أيضاً من يحملون الدكتوراه. هذا يعني أننا جميعاً أطباء فلبينيون. المختصر M.D يعني أطباء من مانيلا. هاه، فقط أمزح معك، يا صديقي الشاب الأصفر. بطبيعة الحال M.D تعني دكتوراه في الطب والمختصر PH.D دكتوراه فلسفة، وهذا يعني أنني أستطيع تحليل ما يمكنني أن أراه وما لا أراه. كل شيء من الناحية المادية فيك بحالة جيدة نسبياً، إذا نظرنا إلى ما تعرضت إليه أخيراً من كارثة مرعبة. بعض الأضرار، نعم، لكنها ليست سيئة إذا افترضنا أنك كنت على وشك الموت أو التشوه الخطير. ذراع مكسورة أو ساق، على الأقل. باختصار، أنت محظوظ جداً. بعد أن قلنا هذا، أشك في أن لديك صداع من النوع الذي كانت تعاني منه زازا غابور39. أنصحك بأي شيء غير التحليل النفسي. ما أنصحك به أن تبقى معك ممرضة، لكننا قمنا بتصدير كل الممرضات الجميلات إلى أمريكا. هل من أسئلة؟ حاولت أن أتكلم لكن لا كلمات تخرج من فمي، لذلك أومأت برأسي نفياً. عليك أن ترتاح إذن. تذكر أن أفضل علاج طبي لا يخلو من بعض النسبية. بصرف النظر عن مدى سوء إحساسك الآن، عليك أن تعرف أن هناك شخص يشعر بحال أسوأ منك.

بعد أن أنهى كلامه، خرج من الستارة وبقيت وحدي. فوقي رأيت السقف الأبيض. أغطيتي بيضاء. وثوب المستشفى الذي ألبسه أبيض. لا بد أنني بحالة جيدة إذا كان كل شيء أبيض باستثنائي أنا. كنت أكره الغرف البيضاء، والآن أنا وحدي في غرفة كل شيء فيها أبيض وما من شيء يثير انتباهي. بإمكاني العيش دون تلفزيون، لكن ليس دون كتب. ولا حتى مجلة أو مريض آخر يخفف العزلة، ومع مرور الثواني، والدقائق، والساعات كأنها اللعاب يسيل من فم مريض عقلي، هبط علي إحساسٌ عميق بالضيق، إحساس خانق بأن صور الماضي كلها بدأت تتجلى أمامي كالفيلم على هذه الجدران البيضاء. وأنقذني من هذه الخيالات أن وصل لاحقاً بعد الظهر أربعة من الكومبارس الذين لعبوا دور المستجوبين الغلاظ من الفيتكونغ. كانوا حليقي اللحى ويلبسون الجينز والقمصان الخفيفة، لم يظهروا كأنهم من العتاة الأوغاد لكنهم مجرد نازحين، مرتبكين قليلاً لأنهم يشعرون بأنهم ليسوا في مكانهم الصحيح. كانوا يحملون من بين كل الأشياء، سلة فاكهة ملفوفة بالسيلوفان وزجاجة جوني ووكر. كيف حالك؟ قال زعيمهم، أصغر رجل ضمن

الكومبارس. يبدو في حالة مزرية.

جيد، قلت كأني غرابٌ ينعق. لا شيء خطير. ما كان ينبغي لكم المجيء.

الهدايا ليست منا نحن، قال العريف الطويل. المخرج هو الذي أرسلها.

شيءٌ جميل منه.

تبادل العريف والرجل الذي يدعى شورتي النظرات. كما تشاء، قال شورتي.

ما معنى هذا؟

تنهد العريف الطويل. لم أرد التحدث عن هذا مبكراً، أيها النقيب. انظر، عليك أن تشرب أولاً. أقل ما يمكنك عمله من أجلنا أن نشرب معاً.

لا بأس بالقليل منه، قال شورتي.

اسكب لكل واحد منا شيئاً، قلت. ماذا تقصد بقولك أقلّ ما يمكنني القيام به؟

أصر العريف على أن أشرب أولاً، ثم أدت تلك الرشفات الحارة من الشراب الاسكتلندي الرخيص أثرها على أعصابي، كانت مريحة كزوجة من الوطن تفهم احتياجات الرجل. ما حصل يوم أمس كان حادثاً، قال. لكن يا لها من مصادفة، أليس كذلك؟ تتشاجر مع المخرج - نعم، الجميع سمعوا بالأمر - ثم تتعرض أنت دون غيرك للتفجير. ليس لدي أي دليل. فقط يا لها من مصادفة!

لم أقل شيئاً وهو يصب لي كأساً أخرى. نظرتُ إلى شورتي. ما رأيك؟

لن أستثني الأمريكان. هم لا يخافون من خلع رئيسنا، أليس كذلك؟ ما الذي يجعلك تفكر بأنهم لن يلاحقوك؟

ضحكت، رغم أنني أحسست بروحي من الداخل كالكلب المسعور على أهبة الاستعداد للانقضاض، الأنف والأذنان باتجاه الريح. أنتم أيها الأصدقاء موسوسون كما أعتقد، قلت.

أي شخص موسوس يصدق حدسه مرة على الأقل، قال العريف. عندما يموت.

صدق أو لا تصدق، قال شورتي. لكن انظر، سبب مجيئنا إلى هنا ليس فقط للحديث عن هذا. أردنا أن نشكرك، أيها النقيب، على كل ما فعلته أثناء هذا الفيلم. لقد أديت عملاً ممتازاً، اعتنيت بنا، حصلت لنا على أجور إضافية، وتكلمت مراراً مع المخرج.

دعونا نحتسي شراب هذا الوغد، في صحتك، أيها النقيب، قال العريف.

ترقرقت الدموع في عيني وهم يرفعون كؤوسهم لي، رفيقٌ فيتنامي يشبههم رغم كل شيء. احتياجي إلى الصدق والرفقة أثار استغرابي، لكن صدمة الانفجار لا بد أنها أضعفتني. مان سبق أن حذرني من أنني في هذا النوع من العمل تحت الأرضي الذي نقوم به، لن أحصل على ميداليات أو ترقيات أو استعراضات. بعد أن استسلمت نفسي لتلك الظروف، جاء مديح هؤلاء اللاجئين بشكل غير متوقع. ارتاحت نفسي إلى كلماتهم بعد أن ذهبوا، فضلاً عن تمتعي بجوني ووكر، وتركت الكأس ورحت أشرب مباشرة من الزجاجة. لكن بعد أن فرغت الزجاجة ليلاً، لم يبق شيء سوى نفسي وأفكاري، وهي مثل سائقي التاكسيات يأخذونني إلى أماكن لا أريد الذهاب إليها. الآن بعد أن صارت غرفتي مظلمة، كل ما أراه الألوان البيضاء التي كنت وسطها، في مركز التحقيقات الوطني هناك في سايغون، أجري أول تحقيقاتي تحت إشراف كلود. في تلك المرة لم أكن مريضاً. المريض الذي ينبغي أن أسميه هكذا حقاً هو السجين، أتذكر وجهه بوضوح تام، كثيراً ما تمعنت فيه من خلال الكاميرات المنصوبة في زوايا غرفته. كل بوصة منه مصبوغة بالبياض، بما في ذلك هيكل السرير، المنضدة، الكرسي، والسطل، وغير ذلك من الأثاث. حتى الصواني والأطباق التي فيها طعامه وقدح الماء وقالب الصابون كلها بيضاء، ويسمح له فقط بارتداء قميص أبيض وحذاء رياضي أبيض. بجوار الباب، هناك فتحة صغيرة سوداء لتصريف النفايات في ركن الغرفة.

كنت هناك عندما شيد العمال تلك الغرفة ثم صبغوها. فكرة هذه الغرفة التي كل شيء فيها أبيض تعود لكلود، وهو الذي اقترح مكيفات الهواء لجعل الغرفة تحتفظ بحرارة ثماني عشرة درجة تحت الصفر، وهي درجة شديدة البرودة حتى ضمن القياسات الغربية لتجميد المريض. هذه إحدى التجارب، قال كلود، لنرَ إن كان السجين سوف يشعر بالاسترخاء تحت بعض الظروف. هذه الظروف تتضمن مصابيح نيون فوق الرأس لا تنطفئ أبداً، توفر مصدر الضوء الوحيد للسجين الذي لا يعرف الليل من النهار، مع

فقدان الإحساس بالمكان بسبب البياض الغامر. وهناك ميكرفونات بيضاء أيضاً كلمسة أخيرة تتدلى من السقف وجاهزة للبث في أي لحظة من اليوم. ماذا ينبغي أن نبث له؟ تساءل كلود؟ يجب أن يكون شيئاً لن يقوى على تحمله.

نظر لي متوقعاً الإجابة، مستعداً لتقييمي. هناك القليل مما يمكنني فعله للسجين، مهما حاولت. ووجد كلود بالتالي الموسيقى التي لا يمكن تحملها، وإن لم أساعده، فسمعتي كطالب متفوق سوف تفقد شيئاً من جاذبيتها. الأمل الحقيقي الوحيد لدى السجين للخلاص من هذا الوضع لا يتعلق بي أنا، لكن بتحرير الجنوب كله. لذلك قلت، موسيقى ريفية. فأي فيتنامي اعتيادي لن يستطيع تحمل تلك الموسيقى. ذلك الرنين الصاخب، والإيقاع الممل، تلك القصص التافهة - إنها تجعلنا مجانين.

رائع، قال كلود. إذن أي أغنية سوف تبث؟

بعد قليل من البحث، اشتريت شريطاً من محل تسجيلات موسيقى شعبية في إحدى حانات سايغون التي تعج بالجنود البيض. «يبدو جميلاً» إنه من أغاني الشهير هانك وليمز، أيقونة الموسيقى الشعبية، صوته تجسيدٌ مطلق لبياض الموسيقي وهو يغني..

هيه ييييييياااااا أيها الوسيم..

ششششششاااهد.. الطبخ جيد..

ما رأيك بطبخ شيءٍ، سريعاً!!!

مع.. معععععيييييي..

أي شخص مطلع على الثقافة الأمريكية مثلي يمكن أن يجفل فزعاً عند الاستماع إلى هذا الشريط، فقد تخدش وتشوه من كثرة الإعادة. الموسيقى الشعبية أكثر الأنواع كساداً في أمريكا، حتى السكان البيض يسمعون الجاز والسود يغنون الأوبرا. لا أحد من السود يغني موسيقى الريف، وهي الموسيقى التي يستمتع بها الدهماء أثناء تعليق ضحاياهم من السود. موسيقى الريف لا تصلح بالضرورة للعزف عند تنفيذ الإعدام، لكن لا توجد موسيقى أخرى يمكن تخيلها بحيث ترافق تنفيذ الإعدام. السيمفونية التاسعة لبتهوفن

كانت محبذة في معسكرات الاعتقال النازية من قبل قادتهم، وربما كان يستمع إليها الرئيس ترومان وهو يتأمل في إلقاء القنبلة النووية على هيروشيما، الموسيقى الكلاسيكية تعتبر الاختيار الممتاز لإبادة الشعوب بوحشية. أما موسيقى الريف فتصلح أكثر لنبضات القلب الأمريكي المتعطش للدماء. الخوف من انتكاس نبضات هذا القلب دفع الجنود السود لتجنب حانات سايغون حيث رفاقهم البيض يبقون المسجلات تصدح بأغاني هانك وليمز وما شابه ذلك، وهي إشارة صوتية تنادي، في جوهرها بمقولة، لا يسمح للزنوج بالدخول.

إذن بثقة تامة اخترت هذه الأغنية لتعزف على الأنشوطة الأبدية في غرفة السجين خلال الأوقات التي أحضر فيها. عينني كلود رئيساً للمحققين، وواجبي في كسر إرادة السجين سوف يشكل اختبار تخرجي في دورة الاستجواب. أبقينا السجين في الغرفة لمدة أسبوع قبل أن أراه، لا شيء يقطع استمرار الضوء والموسيقى سوى فتح باب زنزانته ثلاث مرات في اليوم، حين تقدم إليه وجبة الطعام: صحن من الرز، مائة غرام من الخضار المغلية، خمسون غراماً من اللحم المسلوق، اثنتا عشرة أونصة من الماء. إذا أحسن السلوك، كما أخبرناه، سوف نعطيه الأصناف التي يختارها هو. كنت أراقبه على الكاميرا وهو يأكل، يقرفص في زنزانته، يغتسل في السطل، يذرع غرفته، ينام على سريره ويضع ذراعيه على عينيه، يمارس بعض التمارين الرياضية، يسد أذنيه بأصابعه. حين كان يفعل ذلك، أرفع الصوت مجبراً لأن كلود يقف بجانبي. وحين كان يخرج أصابعه من أذنيه أخفض الصوت، وينظر إلى إحدى الكاميرات ويصرخ بالإنكليزية، سحقاً لكم أيها الأمريكان! ويقهقه كلود. وأخيراً يتكلم الرجل. الأشخاص الذين لا يقولون شيئاً عليك أن تقلق منهم.

كان قائداً لخلية سي 7 من وحدة الإرهابيين ز - 99. مقرها في منطقة سرية من مقاطعة بينه ديونغ، كانت ز - 99 مسؤولة إجمالاً عن مئات الهجمات بالرمانات اليدوية، والعبوات الناسفة، والتفجيرات، والقصف بالهاونات، والاغتيالات التي قتل فيها بضعة آلاف من الناس وزرعت الرعب في سايغون. العلامة التي تميز ز - 99 عن غيرها أن تشن هجوماً مزدوجاً بالقنابل، والهجوم الثاني يهدف لقتل المنقذين الذين يأتون لمساعدة ضحايا الهجوم الأول. الواجب المكلف به سجيننا صنع ساعات يدوية لتوقيت هذه

القنابل المبتكرة. عقارب الثواني والساعات ترفع من الساعة، ويدخل سلك بطارية من ثقب في الكريستال، وعقرب الدقائق يوضع على الوقت المطلوب للتفجير. حين يلامس عقرب الدقائق السلك، تدوي القنبلة. القنابل مصنوعة من الألغام الأرضية، وتسرق من مخازن الولايات المتحدة، أو تشترى من السوق السوداء. وهناك قنابل أخرى يتم تجميعها من الديناميت، وتهرب إلى المدينة بكميات صغيرة، وتخفى داخل الأناناس والخبز الفرنسي وما شابه ذلك، حتى في حمالات صدور النساء، مما أدى إلى إطلاق الكثير من النكات في الفرع السري. كنا نعلم أن لدى ز - 99 صانع ساعات، وقبل أن نعرف شخصيته على وجه اليقين، أعطيناه هذا اللقب، هكذا كنت أتصوره.

نظر لي صانع الساعات باهتمام في أول مرة أدخل فيها غرفته، بعد أسبوع من بدء التعامل معه. لم يكن ذلك رد الفعل الذي توقعته. هيه، أيها الوسيم، قال بالإنكليزية. هل راقبت الطبخ جيداً؟ ششششششاااهد.. الطبخ جيد.. لقد حفظ نغماتها، مع أنه غير واثق من معناها. شرحت له المعنى بينما كنا ندخن السجائر، وهي نفحة مترفة حرم منها. جلستُ على كرسيه وهو على السرير، رجل ضئيل، مرتعش، شعره أشعث مغبر، تحول إلى هيكل أسود مخيف في الغرفة البيضاء. إذن الطبخ الجيد كناية في اللهجة العامية عما يحصل، قال. ذات مضامين رومانسية، قلت. إنها تعني هذه الأجواء الحارة بطرق مختلفة. أنا ممتن للدرس في اللغة الإنكليزية، قال مبتسماً لي بفظاظة. استمروا في عزف تلك الموسيقى! أنا أحبها! بطبيعة الحال كان يكذب. رأيت معنى خافياً في عينيه، اللمحة الأكثر اختصاراً التي تدل على الانزعاج، رغم أن ذلك ربما جاء لأنه خريج فلسفة من جامعة سايغون والابن الأكبر لعائلة كاثوليكية محترمة تخلت عنه بسبب نشاطاته الثورية. صنع الساعات من النوع الشرعي - تلك كانت مهنته قبل أن يتحول إلى إرهابي - يعني ببساطة أن تدفع الفواتير، كما أخبرني خلال محاوراتنا الأولية. كان هذا حديثاً عابراً، طريقة للتعرف على ملامح الشخصية، لكن البحث عن المعاني الضمنية التي وراء المجاملات يشكل إدراكنا المشترك لأدوارنا كسجين ومحقق. كنت أدرك أن مهمتي صعبة بعد أن عرفت أن كلود يراقبنا على شاشة الفيديو. وشعرت بالامتنان لهم لتشغيل جهاز التكييف. وإلا لكنت أتصبب عرقاً محاولاً التكهن كيف أكون العدو والصديق في آن واحد مع صانع الساعات.

ألقيت عليه التهم المسجلة ضده بالانشقاق، والتآمر، وارتكاب الجرائم، لكني ركزت على أنه بريء حتى تثبت إدانته، مما جعله يضحك. رؤساؤك الأمريكان يحبون قول ذلك، مع أنه من الأشياء الغبية، قال. التاريخ، الإنسانية، الدين، هذه الحرب تخبرنا بصدق بأشياء عكس ذلك. نحن مذنبون حتى تثبت براءتنا، الأمريكان أثبتوا ذلك. لماذا يعتقدون أن كل شخص هو من الفيتكونغ؟ لماذا يطلقون النار أولاً ثم يطرحون الأسئلة؟ لأن في نظرهم كل الناس ذوي البشرة الصفراء مذنبون حتى تثبت براءتهم. الأمريكان شعب موسوس ومذعور لأنهم لا يستطيعون الاعتراف بهذا التناقض. يؤمنون بعالم من العدالة الكونية المقدسة يكون فيه الجنس البشري مذنباً بالخطيئة الأولى، لكنهم أيضاً يؤمنون بعدالة علمانية ينظر فيها إلى البشر على أنهم أبرياء. لا يمكن الجمع بين الأمرين. أتعرف كيف يتعامل الأمريكان مع هذا؟ إنهم باستمرار أبرياء مهما فقدوا براءتهم. المشكلة أن أولئك الذين يصرون على براءتهم يصدقون أي شيء يقومون به ويدعون أنه من العدالة. على الأقل نحن نعترف بذنوبنا وندرك أي أشياء فظيعة يمكن أن نرتكبها.

كنت منبهراً باستيعابه للثقافة الأمريكية وسيكولوجيتهم، لكني لم أستطع إظهار إعجابي به. بدلاً من ذلك قلت، إذن تفضل أن تكون مذنباً؟

إذا لم تفهم أن سادتك الآن يعتقدون أنني مذنب وسوف يتعاملون معي على هذا الأساس، فأنت لست ذكياً بالقدر الذي تتصور أنك عليه. لكن هذه ليست مفاجأة. أنت من الأوغاد، ومثل كل المختلطين عرقياً، فأنت جاسوس.

إذا تأملت في الأمر، لم أتصور أنه يقصد الإساءة لي. مثل أغلب الفلاسفة، هو ببساطة يفتقر إلى مهارات اجتماعية. بطريقته القاسية في التعبير هو يتكلم عما يعتقد هو والكثيرون أنه حقيقة علمية. ومع ذلك، في تلك الغرفة البيضاء، أعترف أنني رأيت اللون الأحمر. كان يمكن أن أمدد هذا الاستجواب لسنوات لو أردت، أطرح عليه أسئلة لا تنتهي دون أن تقود إلى شيء وأنا أحاول، كما يبدو، اكتشاف نقاط ضعفه، وأبقيه في وضع آمن قدر الإمكان بشكل سري. لكن كل ما أردته في تلك اللحظة أن أثبت له أنني ذكي في الواقع مثلما أؤمن بداخلي بأني ذكي، وذلك يعني أنني أذكى منه. بيننا نحن، أنا وهو، فقط واحد يمكن أن يكون السيد، والآخر يجب أن يكون العبد.

كيف أثبت له هذا؟ ذات ليلة في مكان إقامتي، بعد أن هدأ غضبي واستردت

صلابتي، ذهلت عندما اكتشفت أنني، ابن الحرام، فهمت ذلك الفيلسوف بوضوح تام. قوة أي سجين دائماً تشكل نقطة ضعفه، والعكس صحيح. نقطة الضعف موجودة لأراها إذا أردت رؤيتها. في حالة صانع الساعات، نقطة ضعفه تكمن في الإصرار الثوري على الابتعاد عن أكثر الأشياء أهمية بالنسبة إلى الفيتنامي وللكاثوليكي، عائلته، التي ترى أن التضحية الوحيدة المقبولة يجب أن تكون في سبيل الله. قوته تكمن في تضحيته، وعلي أن أحطمها. جلستُ مباشرة إلى مكتبي وكتبت اعترافاً جاهزاً بالنيابة عن صانع الساعات وحملته إليه. وقرأ السيناريو الذي كتبته في صباح اليوم التالي وهو لا يصدق، ثم قرأه ثانية قبل أن يحملق بي. أنت تقول إنني أعترف بوجود نوع من الشذوذ في سلوكي؟ أنك شخص شاذ، صححت له. سوف تنشر هذه القذارة حولي؟ قال. أكاذيب؟ لم يسبق لي أن كنت شاذاً، لم أحلم يوماً أن أكون كذلك. هذا - هذا شيء قذر. ارتفع صوته واحمر وجهه. إذا قلت إنني شاركت في الثورة لأني أحببت رجلاً؟ إذا قلت أن هذا سبب هروبي الحقيقي من عائلتي؟ أن شذوذي يفسر حبي للفلسفة؟ أن الشذوذ سبب رغبتي في تدمير المجتمع؟ أنني خدعت الثورة حتى أتمكن من إنقاذ رجل أحبه، والذي أمسكتموه؟ لا أحد يصدق هذا!

إذن لن يهتم أحد إذا نشرنا هذا في الصحف مع اعتراف حبيبك والصور الشنيعة لكما.

لن تحصل على صورة لي من التي تتحدث عنها.

لدى وكالة المخابرات الأمريكية مواهب مبتكرة في التنويم المغناطيسي والمخدرات. وهنا سكت. وتابعتُ كلامي: إذا تناولت الصحف هذا، ستعرف أن ليس فقط رفاقك من الثوريين يدينونك، طريق العودة إلى عائلتك ينغلق إلى الأبد. ربما يقبلون ثورياً إصلاحياً، أو حتى منتصراً، لكنهم لن يقبلوا شاذاً مهما تغيرت الأمور في بلادنا. ستكون رجلاً ضحى بكل شيء من أجل لا شيء. لن يتذكرك حتى رفاقك أو عائلتك. على الأقل إذا تحدثت معي بشأن هذا الاعتراف لن تعاقب. سمعتك تبقى سليمة إلى اليوم الذي تنتهي فيه الحرب. توقفت عن الكلام. فكر في الأمر. لم يقل شيئاً ولم يفعل أي شيء باستثناء النظر إلى اعترافه. وقفت عند الباب. هل ما زلت تعتقد أنني ابن حرام؟

كلا، قال بنبرة غامضة. أنت إنسان ساقط.

***

لماذا فعلت ذلك؟ في غرفتي البيضاء هذه لم يكن لدي شيء سوى الوقت للتفكير في هذه الحادثة التي غسلتها من دماغي، الحادثة التي أعترف بها الآن. صانع الساعات أغضبني، دفعني نحو فعل غير عقلاني بتقييمه العلمي المزيف. لكنه لم يكن ليفعل ذلك لولا أنني ببساطة نفذت دوري كجرذ حقير. أعترف أنني استمتعت بالقيام بما يفترض أن أقوم به وما لا يفترض أن أقوم به، أستجوبه حتى ينهار، كما طلب ذلك كلود. وأعاد علي عرض المشهد لاحقاً في غرفة المراقبة، حيث شاهدت نفسي وأنا أنظر إلى صانع الساعات وهو ينظر إلى اعترافه، مدركاً أنه لا يملك الوقت، كأنه شخصية في فيلم من إنتاج كلود وإخراجي أنا. لم يتمكن صانع الساعات من تمثيل نفسه، لقد قمت أنا بدوره.

عمل ممتاز، قال كلود. حقاً هزمت الرجل.

كنت طالباً مجتهداً. أعرف ما يريده أستاذي، والأكثر من ذلك أنني استمتعت بإطرائه على حساب السخرية من الطالب الفاشل. ألم يكن ذلك ما كان عليه صانع الساعات؟ لقد تعلم ما لقنه إياه الأمريكان، لكنه رفض تلك التعاليم مباشرة. كنت أكثر تعاطفاً مع طريقة تفكير الأمريكان، وأعترف بأني لم أتمكن إلا من النظر إلى نفسي وأنا أقف معهم وأحطم إرادة صانع الساعات. كان يهددهم، ولهذا إلى حد ما هو يهددني. إلا أن الاقتناع الذي أحسست به مقابل هذا الثمن لم يدم طويلاً. في نهاية الأمر، سوف يظهر للجميع معنى ما ينجزه طالب فاشل. سوف يتفوق علي في الذكاء بأن يثبت أن من الممكن تخريب وسائل الإنتاج التي ليست ملكك، وأن تحطم أسلوب التمثيل المفروض عليك. حصلت خطوته اللاحقة ذات صباح بعد أسبوع من تقديم اعترافه له، عندما تلقيت مكالمة في مكاتب الضباط من الحارس في غرفة المراقبة. في الوقت الذي وصلت فيه إلى المركز الوطني للتحقيقات، وجدت كلود أيضاً هناك. كان صانع الساعات ممدداً على سريره الأبيض، مواجهاً للحائط الأبيض، ببنطلونه الأبيض القصير وقميصه. عندما قلبناه رأينا وجهه أرجوانياً وعينيه جاحظتين. عميقاً في فمه المفتوح، عند مؤخرة البلعوم، هناك ورم أبيض. ذهبت إلى الحمام، وكان الحارس يبكي. كان يأكل طعام الإفطار. ماذا يمكن أن يفعل خلال دقيقتين؟ ما فعله صانع الساعات أن خنق نفسه حتى الموت. كان يتصرف بصورة اعتيادية خلال الأسبوع الماضي، وكافأته وأعطيته ما أراد للإفطار. أحب أن

أتناول البيض المسلوق، قال. لذلك قشر وأكل أول بيضتين قبل أن يبلع الثالثة كلها، بقشرتها. هيه ييييييييااااااا أيها الوسيم..

أوقف الموسيقى اللعينة، قال كلود للحارس.

توقف الزمن بالنسبة لصانع الساعات. ما لم أفهمه إلا بعد أن تمشيت في غرفتي البيضاء أن الزمن توقف بالنسبة لي أنا أيضاً. كان بإمكاني رؤية الغرفة الأخرى البيضاء بوضوح تام من غرفتي الخاصة، عيني تحملق من خلال كاميرا المراقبة التي في الزاوية، أراقب كلود ونفسي نقف فوق جثة صانع الساعات. إنها ليست غلطتك، قال كلود. حتى أنا لم أتوقع هذا. ربّت على كتفي مطمئناً لكني لم أقل شيئاً، رائحة الكبريت جرفت كل شيء من ذهني باستثناء فكرة أنني لست حقيراً، أنا لست حقيراً، أنا لست كذلك، لست كذلك، لست كذلك، إلا إذا، بطريقة ما، كنت كذلك.

الفصل الثاني عشر

في الوقت الذي خرجت فيه من المستشفى، لم تبق ثمة حاجة لخدماتي، ولم أتلق دعوة للرجوع إلى موقع التصوير لأن الفوضى التي حدثت بعد التصوير انتهت. بدلاً من ذلك، وجدت تذكرة الطائرة قد حجزت لرحيلي فوراً من الفلبين، وأمضيت الرحلة بأكملها وأنا أفكر في معضلة التمثيل. ليس امتلاك وسائل الإنتاج يمكن أن يقود إلى موت مبكر، لكن عدم امتلاك وسائل التمثيل أيضاً نوع من الموت. لأننا إذا قام الآخرون بتمثيلنا، أليس من المحتمل أنهم ذات يوم يغسلون آثار موتنا عن أرضية الذاكرة الصقيلة؟ ومع ذلك كنت أشعر بالألم من جروحي حتى الآن، ولا أتمكن من مقاومة التساؤلات، وأكتب هذا الاعتراف، سواءً كنت أملك حق تمثيل نفسي أو كنت أنت، الذي تسمع اعترافاتي، تملك ذلك.

جعلني منظر بون وهو ينتظرني في مطار لوس أنجلس أشعر بشيء من الارتياح. يبدو أنه لم يتغير أبداً، ولما فتحت باب شقتنا، ارتحت أكثر عندما رأيتها على حالها أيضاً طوال تلك الفترة، ولم تتحول إلى الأسوأ. بقيت الثلاجة ملاذنا الوحيد على بساطتها، ملأها بون بما يكفي من علب الشراب لكي أشفى من دوار اختلاف التوقيت، لكن ليس ما يكفي لأتخلص من الأحزان غير المتوقعة التي تتغلغل في مساماتي. كنت متيقظاً عندما خلد هو إلى النوم، تركني مع آخر رسالة وصلت من عمتي الباريسية. قبل أن أترك العمل، أرسلت تقريري إليها بحرص. مشروع هاملت انتهى، هكذا كتبت لها. لكن الشيء الأهم أن الحركة أصبح لها مورد مالي جديد.

مطعم؟ قلت عندما أعلن بون الخبر بعد أول علبة من الشراب.

هذا ما قلته. المدام في الواقع طاهية ممتازة.

أطباقها كانت آخر طعام فيتنامي محترم أكلته، وهذا سبب كاف لي للذهاب إلى الجنرال في اليوم التالي وتهنئته على مشروع المدام الجديد. كما هو متوقع، شجعني للمجيء ثانية لتناول وجبة في المطعم، الذي وجدته في برودواي تشايناتاون، يحيط به مقهى ومن الجانب الآخر محل عطارة. ذات مرة أحاط بنا الصينيون في شو لون، قال الجنرال من خلف مكتبه كأمين للصندوق. والآن نحن محاطون بهم أيضاً. تنهد بينما استقرت يداه على أزرار ماكينة تسجيل النقود، على أهبة الاستعداد لعزف نغمة صاخبة على ذلك البيانو المؤقت. تتذكر حين جئت إلى هنا وأنا لا أملك شيئاً؟ طبعاً أتذكر، قلت، رغم أن الجنرال لم يأت في الواقع إلى هنا وهو لا يملك شيئاً. المدام أخفت كمية لا بأس بها من القطع الذهبية في طيات ملابسها وملابس أطفالها، والجنرال لبس حزاماً فيه جيوب مليئة بالدولارات حول خصره. لكن النسيان طبع أمريكي مثل اختيار فطيرة التفاح، وهي المفضلة لدى الأمريكان على غيرها من الفطائر المتواضعة والأطعمة المستوردة من قبل متطفلين أجانب. مثلنا، الأمريكان تساورهم الشكوك بإزاء أي طعامٍ غير مألوف، يربطونه مع خصائص الغرباء الذين جلبوه. نحن نعرف غريزياً أنه من أجل أن يجد الأمريكان لاجئين مثلنا ويقبلوا بنا، عليهم أولاً أن يجدوا طعامنا مستساغاً (ولا داعي لذكر ضرورة أن تكون التسمية التي تطلق عليه سهلة). فليس من السهولة التغلب على هذه الوساوس في الذوق أو الاستفادة منها، كان لدى الجنرال والمدام شجاعة في مشروعهما، كما أخبرته.

شجاعة؟ أرى أنها كلمة محبطة. هل توقعت اليوم الذي أمتلك فيه مطعماً؟ أشار الجنرال إلى المكان الصغير الذي كان في السابق محلاً للوجبات السريعة، وما تزال عليه لطخات بنية من الدهن على الجدران. كلا، يا سيدي، قلت. حقاً، ولا أنا أيضاً. على الأقل كان يمكن تحويله إلى مطعم لطيف، بدلاً من ذلك. كان يتكلم بإحباط يرثى له حتى أحسست بالتعاطف يتجدد معه. لا شيء قمنا به لتجديد المطعم، مشمع الأرضية تم تسويته، الطلاء الأصفر كان كئيباً، والأضواء فوق الرؤوس كانت مباشرة وساطعة. العمال من الجنود القدامى. بعضهم من القوات الخاصة، وآخرون من المظليين. يلبسون قبعات

سائقي الشاحنات وبدلات فضفاضة لا بد أنها نهبت من مخازن الخردوات، أو منحت إليهم من قبل كفيل بخيل، العمال لم يبدوا كأنهم قتلة، بل مثل رجال مجهولين مشعثين مغبرين جلبوا معهم أكلاتهم الصينية الجاهزة، ينتظرون بعصبية في ردهات طوارئ المستشفيات دون ضمان صحي، أو هربوا من حوادث السيارات لأنهم لا يملكون رخصة قيادة أو أوراق تسجيل. كانوا يترنحون مثل الطاولة التي قادني إليها الجنرال لأن سيقانها غير مستوية. المدام نفسها جلبت لي صحناً خاصاً من الحساء وانضمت إلينا، وكلاهما يراقباني وأنا آكل أفضل الأصناف التي استمتعت بها من حسائنا المحلي. ما يزال شهياً مثل السابق، قلت بعد الرشفة الأولى. المدام لم تتحرك، كانت كئيبة مثل زوجها. يجب أن تفخروا بهذا.. هذا الحساء.

ينبغي أن نفخر لأننا نبيع هذا الحساء؟ قالت المدام. أو امتلاك جحر في الحائط؟ ذلك ما يسميه زبائن هذا المكان. هو حتى ليس ملكاً لنا، قال الجنرال. لقد استأجرناه. كآبتهما كانت واضحة من مظهرهما. شعر المدام مشدود إلى الوراء بمشبك رخيص، بينما تسريحة شعرها كانت في السابق منفوشة كخلية النحل لتذكرها بالأيام الخوالي في أوائل الستينيات. هي، مثل الجنرال، تلبس الآن ملابس غير لائقة تتألف من قميص كأنه رجالي، وبدلة خاكي، وحذاء رياضي أمريكي لا يليق بعمرها. هما باختصار يلبسان ما يلبسه زوج من الأمريكان في متوسط العمر مثل الذين صادفتهم في المتجر، أو في مكتب البريد، أو محطة البنزين. الانطباع عن الملابس يراد منه أن يجعلهما يبدوان، مثل الكثير من الأمريكان، كأنهما من المراهقين، وذلك الانطباع يتعزز حين يرى الناس هؤلاء الكبار، كما يحصل دائماً، يشربون من فوهات زجاجات الصودا. تلك المطاعم الصغيرة البرجوازية لا يرتادها الوطنيون الأرستقراطيون الذين عشت معهم طوال سبع سنوات وكنت أشعر نحوهم بشيءٍ من الخوف، وشيء من التعاطف أيضاً. حزنهم حزني أيضاً، لذلك حولت الحوار باتجاهٍ آخر ربما يرفع معنوياتهم.

إذن، قلت، ما هذا الذي يقال عن تمويل المطعم للثورة؟

إنها فكرة رائعة، أليس كذلك؟ قال الجنرال، وقد أشرق وجهه. ورأيت عيني المدام تتجهان إلى السقف، وشككت بأنها في الواقع فكرتها. شئت أم أبيت، فهذا أول مطعم من نوعه في هذه المدينة، قال. ربما حتى في هذه البلاد. كما ترى، مواطنونا يشتاقون لمذاق

الوطن. على الرغم من أن الساعة فقط الحادية عشرة والنصف صباحاً، فكل الطاولات والأماكن محجوزة من الناس الذين يأكلون الحساء بعصي الطعام بيد والملعقة باليد الأخرى. المطعم تفوح منه رائحة الوطن وترن فيه الأصوات التي تذكرنا به، لكنة لساننا المحلي تتنافس مع اللقم والرشفات في إيقاع شهي. هذا مشروع غير ربحي، إذا أردت الحقيقة، قال الجنرال. كل الأرباح تذهب للحكومة.

حين سألت عن الأشخاص الذين يعرفون هذا، قالت المدام، الجميع يعرفون ولا أحد يعرف. إنه سر، لكنه سرٌ مفتوح. الناس يأتون إلى هنا ويكون حساؤهم متبلاً بفكرة أنهم يساعدون الثورة. أما عن الثورة، قال الجنرال، فكل شيء في مكانه، حتى البدلات النظامية تم توفيرها. المدام مسؤولة عن تلك الأمور، علاوة على مسؤوليتها عن نشاطات النساء وصنع الرايات. يا له من انطباع جميل بإمكانها أن تخلقه! كان عليك رؤية الاحتفالات التي نظمتها في اورنج كاونتي. كان يجب أن تراها! لدي صور لها. كيف كان الناس يصرخون ويهتفون مرحاً وهم يرون رجالنا المتنكرين وغير المتنكرين، يحملون الرايات. لقد هيأنا أول مجموعة من المتطوعين، كلهم من المحاربين القدامى. إنهم يتدربون في نهاية كل أسبوع. من هذه المجموعة، يمكن أن نستخلص الأفضل للخطوة اللاحقة. انحنى على الطاولة ليهمس لي بالباقي. سنرسل كتيبة استطلاع إلى تايوان. سوف يتصلون هناك مع قاعدة ميدانية أمامية ويشقون ممراً سرياً إلى فيتنام. يقول كلود إن الوقت يكاد يكون مناسباً.

سكبت لنفسي كوباً من الشاي. هل بون جزء من العملية؟ بطبيعة الحال. أكره أن أخسر مثل هذا الرجل المتحمس، لأنه أفضل من ينجز هذا النوع من العمليات. ما رأيك؟ كنت أفكر فقط في طريق بري من تايلاند يتضمن عبور لاوس أو كمبوديا، ويتجنب المسارات المعروفة ويخترق الأراضي الوعرة والغابات التي تكثر فيها الأوبئة، ويمر عبر الجبال حيث السكان الوحيدون من القردة، والنمور التي تأكل البشر، وأناس عدائيون، خائفون من غير المحتمل أن يقدموا المساعدة. هذه التضاريس الأرضية تشكل أفضل موقع لتصوير الأفلام، وهي أرض مرعبة للقيام بمهمة تعتبر اختياراً بين أن تقوم بها أو تموت. لا ينبغي أن أخبر بون بهذا. صديقي المجنون لم يرغب في التطوع، ليس لأن فرصه في النجاة ضئيلة، ولكن بسببهم. نظرتُ إلى يدي، الخطوط الحمراء منقوشة هناك. فجأة

انتبهت إلى وضعية جسدي، الإحساس بالكرسي تحت فخذي، هشاشة القوة التي تحمل جسدي وحياتي. لن يتطلب الأمر كثيراً لتحطيم تلك القوة التي يقتنع بجدواها أغلب الناس حتى تأتي اللحظة التي يصبحون فيها عاجزين. رأيي، قلت، ولم أسمح لنفسي بالتفكير بأي شيء آخر، إذا كان بون سيشارك، فسوف أذهب معه.

صفق الجنرال بيديه ابتهاجاً ونظر إلى المدام. ألم أقل لك؟ كنت أعرف أنه سيتطوع. أيها النقيب، لم أشك فيك يوماً. لكنك تعرف مثلي أن من الأفضل لك البقاء هنا وتعمل معي في أمور التخطيط واللوجستيات، وغير ذلك من تعزيز التمويل والقضايا الدبلوماسية. أخبرت عضو الكونغرس أن الناس يجمعون التبرعات لمساعدة اللاجئين في تايلاند. بمعنى آخر، ما نقوم به نحن، لكننا سنحتاج إلى إقناع مستمر لمن يساندوننا في تلك القضية، أو على الأقل إعطائهم سبباً للتظاهر بالاعتقاد أنها قضيتنا، قلت. هز الجنرال رأسه باقتناع. صحيح تماماً! أعرف أنك محبط، لكن هذا من أجل الأفضل. ستكون أكثر نفعاً هنا وليس هناك، وبون يمكنه الاهتمام بنفسه. الآن اسمع، إنه وقت الظهيرة تقريباً. أعتقد أنه الوقت المناسب لنشرب الشراب، ألا ترغب بذلك؟

من خلف كتف المدام رأيت الساعة تتعلق على الجدار بين راية وملصق لماركة جديدة من الشراب، فيه ثلاث شابات يلبسن البكيني ونهودهن بارزة بحجم وشكل بالونات الأطفال؛ وراية الجمهورية المدحورة، فيها ثلاثة أشرطة أفقية حمراء فاقعة على حقل أصفر لامع. إنها راية الوطن، كما أشار الجنرال أكثر من مرة لي، راية شعب فيتنام الأحرار. لقد رأيت الراية مرات لا تحصى من قبل، وملصقات أخرى تشبه ذلك الملصق كثيراً، لكنني لم أشاهد هذا النوع من الساعات، داخل إطار منقوش من الخشب الصلب يشبه خارطة بلادنا. لأن هذه الساعة التي تشبه الوطن، وهذا الوطن الذي يشبه الساعة، كانت عقارب الثواني والدقائق والساعات مسمرة عند الجنوب، والأرقام على القرص تشكل هالة حول سايغون. بعض الصناع في المنفى تصوروا أن هذه التحفة التي تقيس الزمن سوف يعشقها المنفيون عن بلادهم. كنا مواطنين أزيحوا عن أماكنهم، لكن الوطن أكثر من مجرد مكان يحدد خصائصنا. بينما المسافة للعودة إلى ديارنا الضائعة بعيدة جداً لكنها محددة، فإن السنوات التي تستغرقها العودة وقطع تلك المسافات ربما لا تكون محدودة. لهذا، بالنسبة لمن أزيحوا عن أماكنهم، أول سؤال يكون دائماً عن الزمن: «متى

يمكنني العودة؟».

إذا توخينا الدقة، قلت للمدام، ساعتكم تشير إلى توقيت خاطئ.

لا، قالت، ونهضت لإحضار الشراب. إنها على توقيت سايغون.

بطبيعة الحال، فهمت. كيف يمكن أن لا أرى هذا؟ توقيت سايغون يختلف عن هنا بأربع عشرة ساعة، مع أن المرء إذا حكم على الزمن الذي تشير إليه هذه الساعة، فنحن من يختلف في الزمن لأربع عشرة ساعة. لاجئون، منفيون، مهاجرون، أياً كانت تسميات البشر الذين أزيحوا عن أماكنهم، فنحن ببساطة لا نعيش ضمن ثقافتين، نحتفي بالمأدبة الأمريكية العظيمة الساخنة التي نتخيلها. الذين أزيحوا عن أماكنهم أيضاً عاشوا ضمن منطقتي توقيت مختلفتين، هنا وهناك، الحاضر والماضي، لأننا رحالة كسالى عبر الزمن. بينما قصص الخيال العلمي تتخيل مسافرين عبر الزمن ينتقلون إلى الأمام أو إلى الخلف في الزمن، هذه الآلة التي تقيس الزمن تظهر تاريخاً مختلفاً. السر مفضوح للساعة، مفضوح لجميع من يرونها، نحن ندور في حلقات فحسب.

***

بعد الغداء، حكيت للجنرال والمدام عن مغامراتي في الفلبين، والتي ضاعفت كآبتهما وزادت إحساسهما بالامتعاض. الامتعاض ترياق الكآبة، كما هي الحال مع الحزن، والسوداوية، واليأس، وما إلى ذلك. من الطرق لنسيان نوع من الألم عليك أن تشعر بنوع آخر من الألم، كما يحصل عندما يفحصك الطبيب ليقرر إن كنت تصلح لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية (وهو فحص لن تفشل فيه أبداً، إلا إذا كنت مصاباً بمرض الثروة) يلطمك على إحدى وجنتيك بينما يقرصك على الوجنة الأخرى. الشيء الوحيد الذي لم أخبر به الجنرال والمدام - إلى جانب الحادث الذي كاد يقضي على حياتي وأتحول فيه إلى بطة مشوية تتدلى من مؤخرتها في محل أكلات صينية مجاور - أنني تلقيت تعويضات عن الحادث. في صباح اليوم اللاحق لمجيء الكومبارس وهم يحملون الهدايا، جاءني اثنان من الضيوف، فيوليت ورجل أبيض طويل ونحيف يرتدي سترة زرقاء، ربطة عنقه عريضة مثل ربطة الفيس بريسلي وقميصه بلون البول الأصفر بعد وجبة غنية من الهليون[40]. كيف حالك؟ سألتني. كل شيء فيّ أصبح أبيض اللون، همستُ، مع أنني كنت أستطيع

الكلام بشكل طبيعي. نظرت لي بارتياب وقالت، نحن جميعاً قلقون عليك. يريدك أن تعلم أنه كان ينوي المجيء بنفسه لكن الرئيس ماركوس سيزور الموقع اليوم.

هو الذي لا داعي لذكر اسمه، بطبيعة الحال، اوتور. أومأت برأسي فحسب، برصانة وحزن، وقلت، إنني أتفهم هذا، مع أن مجرد ذكر اسمه كان يثير غضبي. هذه أفضل مستشفى في مانيلا، قال الرجل ذو السترة الزرقاء، وكشر عن ابتسامة كأنها مصباح كاشف في وجهي. نحن جميعاً نحرص على أن تتلقى أفضل رعاية. كيف تشعر الآن؟ إذا أردت الحقيقة، قلت، وكنت مستمراً في الكذب، أشعر بحالة سيئة. يا للخجل، قال. اسمح لي أن أعرفك بنفسي. أخرج بطاقة ناصعة البياض ذات حافات حادة خفت أن تجرحني. أنا المندوب عن أستوديو التصوير. نريدك أن تعلم أننا ندفع كل مصاريف المستشفى.

ما الذي حدث؟ Telegram @read4lead

ألا تتذكر؟ سألت فيوليت.

انفجار. العديد من الانفجارات.

كان حادثاً غير متوقع. لدي التقرير هنا، قال المندوب، ورفع حقيبة جلدية صغيرة بما يكفي لأرى إبزيماتها الذهبية اللامعة. يا للروعة! انتزعت منه التقرير. لم تكن تفاصيله ذات أهمية كما اتضح، ذلك جاء سريعاً، كما يحصل في بلادنا، كأنك تفرك راحتي يديك. هل أنا محظوظ لأني على قيد الحياة؟ محظوظ تماماً، قال. ما زلت متمسكاً بحياتك، ورفاهيتك، وشيك في حقيبتي بمبلغ خمسة آلاف دولار. حسب التقارير الطبية التي اطلعت عليها، أنت عانيت من استنشاق الدخان، وبعض الخدوش والكدمات، وبعض الحروق الطفيفة، وخبطة على رأسك، وارتجاج. لا كسور، لا تمزق، لا عاهة مستديمة. لكن الأستوديو يريد ضمان تلبية جميع احتياجاتك. فتح المندوب حقيبته وأخرج وثيقة تضم بعض الأوراق البيضاء مثبتة بدبوس مع قصاصة طويلة خضراء، الشيك. بطبيعة الحال، عليك أن توقع على الاستلام، إضافة إلى هذه الوثيقة التي تعفي الأستوديو من أي التزامات مستقبلية.

هل تساوي حياتي البائسة خمسة آلاف دولار؟ أعترف أنه مبلغ محترم، أكثر مما رأيته في أي وقت من حياتي. ذلك ما يعولون عليه، حتى في حالتي المشوشة، كنت أعرف

أشياء أفضل من القبول بالعرض الأول. أشكرك على هذا الكرم، قلت. من الجيد أن الأستوديو يقلق على حالتي، وأن يتعاطف معي. لكن ربما تعلم أو لا تعلم أنني المعيل الوحيد لعائلتي. مبلغ خمسة آلاف دولار شيء رائع إذا فكرت فقط في نفسي، لكن كرجل آسيوي - هنا توقفت وكأنني أنظر بعيداً، من الأفضل أن أعطيهم الوقت الكافي لتخيل شجرة الأثاب العملاقة التي تمتد بفروعها المتشابكة فوق رأسي، تظللني بثقلها القمعي من خلال الأجيال المتعاقبة التي من ابتكار أوهامي - الآسيوي لا يمكن أن يفكر في نفسه فقط.

هكذا سمعت، قال المندوب. العائلة هي كل شيء. مثلنا نحن في إيطاليا.

نعم، أنتم الإيطاليون! الآسيوي يفكر في أمه، وأبيه. وذريته، وأجداده. أبناء عمه، وقريته. لو تركت الكلمات تخرج من فمي، لحسن حظي لن تكون لها نهاية.. وكل من يحبهم. سوف تأتيني طلبات لا نهاية لها بقيمة خمسين دولاراً للفرد، ومائة دولار توزع على هذا وذاك. الأيادي سوف تنهشني من كل الجهات. لن أستطيع أن أرفض. لهذا ترى المأزق الذي وقعت فيه. من الأفضل أن لا آخذ النقود. سوف أعفي نفسي من هذا الموقف المحرج. أو هناك بديل آخر. أن تعطوني ما يكفي من النقود لتلبية هذه الطلبات فضلاً عن مبلغ يكفيني أنا شخصياً.

انتظر المندوب حتى أكمل، وانتظرته حتى يرد. وأخيراً يئس من الانتظار وقال، لم نكن ندرك تعقيدات العائلات الآسيوية، لا أعرف المبلغ المناسب الذي ربما يلبي التزاماتك العائلية، والذي أدرك أنه بأهمية ثقافتك التي أحترمها كثيراً.

انتظرت أن يكمل، وانتظر مني الرد. لست متأكداً تماماً، قلت. لكن رغم هذه الشكوك، أعتقد أن عشرين ألف دولار ستكفي لتلبية احتياجات أقاربي. الاحتياجات المتوقعة وغير المتوقعة.

عشرون ألف دولار؟ تحرك حاجبا المندوب واتخذا وضعية ساكنة وكأنه يمارس اليوغا، تقوسا في حركة حادة توحي بالارتباك. أوه، لو كنت تعرف لوائح التعويضات كما أعرفها! مقابل عشرين ألف دولار عليك أن تفقد أحد أصابعك والأفضل لو فقدت عضواً أكبر، أو إذا كنا نتكلم عن أمور غير مرئية، تخسر عضواً أكثر حيوية أو إحدى حواسك

الخمس.

لكني بالفعل بعد أن أفقت من الانفجار، شيءٌ ما كان يلح علي لا أستطيع معرفة كنهه، وخزة ليست مادية. الآن أعرف ما هو - لقد نسيت شيئاً، لكن ما هو؟ لا أعرف. من بين ثلاثة أشياء نسيتها، هذا هو الأسوأ. أن تعرف ما نسيته فذلك شيء مألوف، كما هي الحال مع التواريخ، والمعادلات الرياضية وأسماء الناس. لكن أن ننسى دون أن نعرف أننا نسينا ينبغي أن يكون أكثر شيوعاً، أو ربما أقل، لكنه شيء يدعو للأسف: في هذه الحال لا يمكن أن نعرف ما ضاع منا. لكن أن يعرف المرء أنه نسي شيئاً دون أن يعرف ما هو ذلك الشيء جعلتني أرتجف. لقد فقدت شيئاً، قلت، وكان الألم يعتصرني ويتضح في صوتي. خسرت جزءاً من عقلي.

نظرت فيوليت إلى المندوب. أخشى أنني لا أفهم ما تقصد، قال.

جزءٌ من ذكرياتي، قلت، انمحى تماماً، بعد الانفجار إلى الآن.

هذا شيءٌ مؤسف، ربما يصعب إثباته.

كيف تثبت لشخصٍ ما أنك نسيت شيئاً، أو أن المرء كان يعرف شيئاً والآن لم يعد يعرفه؟ ومع ذلك، واصلتُ مع المندوب بإصرار. حتى في حالتي المريضة، حافظت على غرائزي القديمة. كأني أداعب سيجارة بين أصابعي، أو أحرك عجلة الروليت، الكذب مهارة وعادة ليس من السهولة نسيانها. هذا ينطبق أيضاً على المندوب، الذي انتبهت إلى أساليبه المراوغة. في المفاوضات، كما في الاستجواب، الكذبة لا تكون مقبولة فحسب، وإنما متوقعة. كل أنواع المواقف تكون حاضرة حين يقول الإنسان الأكاذيب من أجل الوصول إلى حقيقة مقبولة، واستمر حوارنا حتى اتفقنا على المبلغ المقبول من الطرفين، عشرة آلاف دولار، وهو وإن كان نصف ما طلبته، إلا أنه ضعف عرضهم الأصلي. بعد أن حرر المندوب شيكاً جديداً، وقعت على الوثائق وودع أحدنا الآخر بعبارات مجاملة لا قيمة لها مثل مصافحات بين لاعبي بيسبول مجهولين. توقفت فيوليت ويدها على أكرة الباب، ونظرت من فوق كتفها لي - هل هناك وقفة أكثر رومانسية، حتى من امرأة مثلها؟ - وقالت، تعرف أننا ما كنا لنستطيع إنجاز هذا الفيلم لولا مشاركتك معنا.

إذا صدقت كلامها فذلك يعني تصديق كلام الساحرات، أو كلام مرشح للانتخابات،

أو وجود رجال صغار خضر من الفضاء الخارجي، أو حسن تعامل رجال الشرطة، أو رجال الدين مثل أبي الذي لم يكن في جواربه ثقوب فقط، ولكن هناك ثقب في مكان ما من روحه. لكني أردت أن أصدق، وما الضير في تصديق كذبتها البيضاء الصغيرة؟ لا شيء. وبقيت وحدي وسط طنين الديسكو في رأسي والشيك الأخضر. رغم أنه لا وزن له، كان يساوي مبلغاً معتبراً. أحسست كأنني أمة كاملة، تزهو فخراً بضجيج الكومبارس، والموتى، كل أولئك التعساء الذين لا يمثلهم أحد، أو يساء تمثيلهم، مثل الديناصورات، لا يساوون شيئاً أكثر من الوقود الذي يغذي ماكينة الحرب وماكينة الأفلام. أحسست بالانسحاق، جسدي وحياتي الآن لها قيمة، ثمني مختوم على جبهتي. كنت مثل علبة الشمندر. إنسان قيمته وهو ميت أكثر من قيمته وهو حي، وكل ما كلفني ذلك، ما لم يكونوا كاذبين، ورمٌ في رأسي وجزء من ذاكرتي، التي لدي الكثير منها. ومع ذلك، لماذا أشك في أن العملية كانت تستهدفني بينما أرزح تحت تأثيراتها، تركتني مخدراً بلا إحساس في حالة أتعس من الإحساس بالألم؟ لماذا أشعر بالسراب في ذاكرتي، فراغ بقيت معه أحاول الحفاظ على توازني؟

بعد أن رجعت إلى كاليفورنيا مع هذه التساؤلات التي لم أجد لها إجابات، صرفت الشيك وتركت نصف المبلغ في حسابي الذي كان منذ ذلك الوقت خالياً. في اليوم الذي زرتُ فيه الجنرال والمدام، كان النصف الآخر من المبلغ داخل مغلف في جيبي. في وقتٍ لاحق من الظهيرة ذهبت بالسيارة إلى مونتيري بارك، وسط ضواحي المدينة، الرقيقة الجاحدة المتعفنة مثل اللبن المخثر، كان لدي موعد مع أرملة الرائد البدين. أعترف بأن خطتي تقتضي أن أعطيها النقود التي في جيبي، النقود التي أعترف بأنها يمكن أن تستثمر لأغراض ثورية. لكن ما الشيء الأكثر ثورية من مساعدة أعداء المرء وأقاربه؟ ما الشيء الأكثر تطرفاً من طلب المغفرة؟ حتماً هو لم يكن الشخص الذي يطلب المغفرة؛ وإنما أنا، لما اقترفته بحقه. لم تكن من علامة عما فعلته ضده في المرآب، ولا كانت أجواء البناية التي فيها الشقة توحي بالانزعاج من شبحه. مع أنني كنت جاحداً في إيماني، إلا أنني أؤمن بوجود الأشباح. كنت أعرف أن هذا صحيح لأني ربما لا أخاف الله، بل أخاف الأشباح. الله لن يظهر لي طبعاً لكن شبح الرائد البدين يمكن أن يظهر، وحين فتح الباب، حبست أنفاسي، خشيت أن يده هو ربما تكون على أكرة الباب. لكنها أرملته جاءت لترحب بي، امرأة فقيرة مسكينة تفاقمت مأساتها فجعلتها بدينة رغم أنها تتضور جوعاً.

النقيب! شيءٌ جميل أن أراك! ودعتني للجلوس على أريكة زهرية اللون مغطاة بمشمع شفاف كان يصدر صوتاً كلما تحركت بثقلي عليه. كان ينتظرني على الطاولة إبريق الشاي الصيني وطبق من حلوى زنود الست الفرنسية. أرجوك خذ من زنود الست، قالت متوسلة. كنت أعرف تلك النوعية من الحلوى، تلك الشركة التي تصنع بسكويت تلاميذ المدارس في طفولتي لا أحد يمكن أن يبتكر المتعة المحرمة مثل الفرنسيين. زنود الست من الحلوى المفضلة لأمي، يعطيها لها أبي كإغراء، رغم أنها اعتادت كلمة «هدية» حين تذكرها لي في سنوات مراهقتي. كان لدي ما يكفي من الوعي لأفهم ما يعنيه أن يحمل كاهنٌ زنود الست إلى صبية في الثالثة عشرة عندما جاء أبي يسعى خلفها. في بعض ثقافات اليوم أو في الماضي، السنة الثالثة عشرة جيدة بما يكفي للفراش، والزواج، والأمومة، أو ربما لشيئين فقط من ثلاثة في بعض الحالات، لكن ليس في فرنسا المعاصرة أو في بلادنا. ليس أنني لم أفهم نوايا أبي، الذي في الوقت الذي أصبح فيه أكبر مما أنا عليه الآن ببضع سنوات مع زند ست يذوب في فمي. الفتاة في الثالثة عشرة - أعترف بأني تراودني في بعض الأحيان أفكار على وجه التحديد عن فتيات أمريكيات ناضجات، بعضهن في الثالثة عشرة يتميزن بأنهن أكثر نضجاً من فتيات الكليات في بلادنا. لكن هذه مجرد أفكار، وليست أفعالاً. نحن جميعاً سينتهي بنا الأمر إلى جهنم إذا خضعنا لأفكارنا.

خذ المزيد من زنود الست، ألحت علي أرملة الرائد البدين، والتقطت واحدة وانحنت إلى الأمام كي تدسها في فمي. كانت ستحشر تلك الحلوى بين شفتي بإلحاح أمومي لكنني أمسكت يدها، وأخذت منها زند الست. إنها لذيذة، لذيذة تماماً، قلت. دعيني أتناول رشفة من الشاي أولاً. عند هذا، أجهشت السيدة الطيبة بالبكاء. ما الأمر؟ قلت. تلك الكلمات نفسها التي كان يقولها، قالت، مما جعلني عصبياً، كما لو أن الرائد البدين حتى الآن يسخر مني من خلف الستائر التي تفصل مسرح الحياة عن كواليس الآخرة.

إنني أفتقده كثيراً! قالت وهي تبكي. تململت على الامتداد البلاستيكي بيننا وربتت على كتفها. لم أستطع منع نفسي من تخيل الرائد البدين وأنا أواجهه آخر مرة شخصياً إن لم يكن روحياً، ممدداً على ظهره مع عين ثالثة على جبهته، وعيونه الأخرى مفتوحة وجامدة. أنا لا أحتاج للاعتراف بذنوبي لأحد، لكنني أحتاج لإرضاء روح الشبح الذي وجهه

حتى الآن يسطع بالنور وينظر لي من المذبح على جانب الطاولة. هناك في زي طالب كلية عسكرية يقف الرائد البدين وهو شاب، التقطت له صورة فوتوغرافية في تلك المرحلة قبل أن يحلق ذقنه لأول مرة، عيناه الداكنتان تحملقان بي وأنا أخفف المأساة عن أرملته. كل ما لديه ليأكله في الحياة الآخرة برتقالة يابسة من العفن، وعلبة لحم مغبرة، وقطع من حلوى الأطفال ذات الألوان المغرية، مصطفة أمام صورته ومضاءة بأضواء أعياد الميلاد المتنافرة البراقة التي علقتها له على حافة المذبح. هل يوجد ظلم في الآخرة؟ حيث المنحدرون من أصول غنية أمامهم صحون فيها فواكه طازجة، وزجاجات الشراب، وما لذ وطاب. والمنحدرون من أصول بائسة يحرقون القرابين والبخور باستخدام أوراق لا تتضمن غير عقود السيارات والمنازل القديمة، وبعض الأعداد الشهيرة من مجلة بلاي بوي. الجسد الدافئ لامرأة ممتلئة هو كل ما يريده الرجل في البرد، وحياة الآخرة الطويلة، وأقسم للرائد البدين أنني سأقدم له قرباناً من الصور المذهلة للجميلة الآنسة مارش.

إلى أرملته، قلت، وعدتُ زوجك إذا احتجت إلى أي شيء فسوف أفعل ما بوسعي للاهتمام بك وبأطفالك. أي شيء آخر أخبرتها به كان حقيقة، الحادث المفتعل لي في الفلبين والمكافأة التي حصلت عليها، نصفها في المغلف الذي دفعته إليها. رفضت باحترام لكن عندما قلت لها، فكري بالأطفال، أذعنت. لم يكن هناك شيء أفعله بعد ذلك سوى الخضوع لطلبها في أن أرى أطفالها. إنهم في غرفة النوم، نائمين شأنهم شأن كل الأطفال. إنهما مصدر سعادتي، همست ونحن ننظر إلى التوأم. إنهما سبب بقائي على قيد الحياة في هذه الأيام الصعبة، أيها النقيب. إذا فكرت فيهم فأنا لا أفكر في نفسي كثيراً، أو في زوجي العزيز. قلت، إنهما جميلان، وتلك ربما كانت كذبة أو ليست كذبة. لم يبد لي أنهما جميلان، لكنهما ربما كانا جميلين في نظرها. أعترف أنني لست مغرماً بالأطفال، فقد كنت طفلاً ووجدت الأطفال من أمثالي ونفسي عموماً مكروهين. على العكس من كثيرين، لم أكن عازماً على إعادة إنتاج نفسي، شئت ذلك أم أبيت، لأن جزءاً من شخصيتي الانفصامية كان أكثر من كاف بالنسبة لي لأتحمله. لكن هذا التوأم، ولم يبلغا بعد سنة من العمر، لا زالا غير مدركين لخطيئتهما. في غفوتهما تلك، يبدوان من الوجوه الغريبة وبإمكاني رؤيتهما كمهاجرين جدد من السهل إخافتهما، تعرضا للنفي تواً إلى عالمنا.

الميزة الوحيدة التي أتمتع بها وتجعلني ربما أفضل من هذا التوأم أن كان لي أب في

طفولتي ليعلمني أشياء عن الخطيئة، وهما لا أب لهما. أبي كان يلقي دروساً على صفوف الأطفال في الأبرشية، أجبرتني أمي على حضورها. في الصف تعلمت الإنجيل وتاريخ اللاهوت، وقصة أسلافي الفرنجة وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية. في ذلك الوقت، حين كانت سنوات عمري تعد على أصابع اليدين، كنت ساذجاً وجاهلاً لحقيقة أن هذا الأب بثوبه الكهنوتي الأسود، هذا الرجل الوقور الذي ينضح عرقاً في ثوبه الفضفاض لإنقاذنا من خطايانا الاستوائية، كان أبي أيضاً. وعندما عرفت ذلك السر كان سبباً في ارتدادي عن كل شيء تعلمته منه، ابتداءً من هذه العقيدة الأساسية للإيمان، الخطيئة التي حفرت بأزميل في صفوفنا الكاثوليكية الصبيانية من قبل الأب وهو يتمشى جيئة وذهاباً أمامنا، يقرأ شفاهنا ونحن ندندن جماعياً بالجواب:

س. ما هي الخطيئة التي نتوارثها من آبائنا الأوائل؟

ج. الخطيئة التي نتوارثها من آبائنا الأوائل تسمى الخطيئة الأصلية.

بالنسبة لي، السؤال الأكثر أهمية الذي كان دائماً يشغلني بخصوص هذه الخطيئة تحديداً، لأن الأمر يتعلق بهوية أبي. كنت في الحادية عشرة عندما عرفت الجواب، معرفتي رافقتها حادثة على الأرض الموحلة للكنيسة بعد درس الأحد، وهي ساحة يمارس فيها الأطفال مع بعضهم الكثير من الأعمال الوحشية الإنجيلية. بينما كنا نراقب الكلب الضخم الذي يتبع الأب يندفع على رفيقته الأنثى التي تئن تحت ظل شجرة يوكالبتوس، لسانه يتدلى، والبالون القرمزي لكيس الصفن الهائل يتمايل بإيقاع مخدر، أحد زملائي العارفين أكثر منا عرض ملحقاً لهذا الدرس في الثقافة الجنسية. كلب وكلبة، هذا شيء طبيعي، قال. لكن هذا الولد - وهنا حول عيناً محتقرة وإصبعاً باتجاهي - جاء من عملية تشبه ما يحصل حين تجتمع قطة وكلب ليفعلان ذلك. تحول انتباه الجميع لي. وقفت في مكاني كأنني على قارب متمايل يبتعد عن الشاطئ الذي يقفون عليه منتظرين، رأيت نفسي في عيون الآخرين كمخلوق غريب ليس كلباً ولا قطة، ليس بشراً ولا حيواناً.

كلب وقطة، قال المهرج الصغير لي. كلب وقطة -

حين لكمته في الأنف، نزف المهرج لكنه بقي صامتاً، مصدوماً، عيناه احولّتا مؤقتاً وهو يحاول أن يرى الجرح. ولما لكمته مرة أخرى في الأنف، تدفق الدم، في هذه المرة

صرخ بصوت عال. ولكمته مرة أخرى، واتجهت إلى أذنيه والخدين والعينين ومن ثم إلى الكتفين المحدودبين حول رأسه لحماية نفسه عندما سقط على الأرض وجثمت فوقه. تجمع زملاؤنا حولنا، يصرخون، ويضحكون وأنا مستمر في ضربه حتى أحسست بيدي تؤلمني. لم يجرؤ أحد من هؤلاء الذين شهدوا العراك على التدخل لمساعدة المهرج الذي أوقفني أخيراً عندما بدأ يبكي بصوت كأنه ضحك مخنوق لشخص يسمع أبشع النكات التي قيلت. عندما وقفت، توقف الصراخ والضحك أيضاً، وعلى الوجوه البريئة لتلك الوحوش الصغيرة كنت أرى الخوف، إن لم يكن الاحترام. ثم عدت إلى البيت وأنا مضطرب، أتساءل عما سمعته، عاجزاً عن التعبير عن ذلك بالكلمات. ذهني لا شيء فيه غير الصورة الفاضحة لكلب يصعد فوق قطة، وجهها الحيواني يستبدل بوجه آخر، وجه أمي لا غيرها، صورة مريعة بحيث أنني عندما وصلت إلى المنزل ورأيتها أجهشت فوراً بالبكاء واعترفت بكل شيء اطلعت عليه في تلك الظهيرة.

ولدي، ولدي، أنت لست ابناً غير شرعي، قالت أمي، واحتضنتني وأنا أبكي على صدرها الذي تفوح منه رائحة المسك المميزة. أنت هدية الله لي. لا شيء أو لا أحد يمكن أن يكون أكثر شرعية منك. الآن أصغ إلي، يا طفلي. حين نظرت إلى عينيها من خلال ستارة دموعي، رأيت أنها هي أيضاً تبكي. أردت دائماً أن تعرف أباك، وأخبرتك أنك عندما تعرف، سوف تكون رجلاً. عليك أن تودع طفولتك الآن. هل أنت واثق من أنك تريد أن تعرف؟

حين تسأل أمٌ ولدها إن كان على استعداد لأن يكون رجلاً، هل يمكن أن يقول أي شيء سوى نعم؟ لذلك أومأت بالإيجاب وضممتها بقوة، وحنكي على صدرها وخدي على عظم ترقوتها.

عليك أن لا تخبر أي شخص بما سأقوله لك. أبوك -

نطقت اسمه، وهي ترى الارتباك في عيني، وقالت، كنت مجرد فتاة شابة أعمل في خدمته. كان دائماً عطوفاً معي، وأشعر بالامتنان له. علمني القراءة والحساب بلغته، عندما لم يتمكن والداي من الإنفاق عليّ وإرسالي إلى المدرسة. لقد أنفق الكثير من وقته معي مساء كل يوم، وكان يقص عليّ حكايات عن فرنسا وعن طفولته. كنت أرى أنه يعاني من الوحدة. الوحيد من نوعه في قريتنا، وبدا لي أنني كنت الوحيدة من نوعي أيضاً.

انتزعت نفسي من صدر أمي، وأغلقت أذني. لم أعد أرغب في سماع صوتها، لكني لم أقل شيئاً، واستمرت أمي بالكلام. لم أعد أرغب في رؤيتها، لكن الصور طفت أمام عيني رغم أنهما مغلقتان. لقد علمني كلمة الرب، قالت، وتعلمتُ القراءة والحساب عن طريق دراسة الكتاب المقدس وحفظ الوصايا العشر. كنا نقرأ ونحن نجلس معاً في مكتبه على ضوء الشموع. وذات ليلة.. لكن كما ترى، لهذا السبب أنت لست ابن حرام، يا ولدي. الله نفسه بعثك لي، لأن الله لن يسمح بما حصل بيني وبين والدك ما لم يكن له دور من نوع ما لك ضمن نواياه العظيمة. هذا ما أعتقد به وما يجب أن تؤمن به أنت أيضاً. أنت لديك قدرك الذي كتب لك. تذكر أن يسوعاً قد غسل قدمي مريم المجدلية، ورحب بالمجذومين وأجلسهم قربه، ووقف ضد الفريسيين41 والمتجبرين. الضعفاء سوف يرثون الأرض، يا ولدي، وأنت واحدٌ منهم.

لو كانت أمي تراني الآن، واقفاً قرب أطفال الرائد البدين، ترى هل ستعتقد بأني من الضعفاء؟ أما بالنسبة إلى هذين الطفلين، كم سيبقيان غافلين عن الخطيئة التي يتحملانها الآن، والخطايا والجرائم التي كتب عليهما ارتكابها؟ ألا يحتمل أن كل واحد منهما في قلبيهما الصغيرين، وهما يقتربان من بعضهما كأنهما يبحثان عن صدر أمهما، يتمنى الآن، وإن قليلاً، اختفاء الآخر؟ لكن الأرملة لم تنتظر جواباً على هذه الأسئلة وهي تقف قربي، تحملق في عجائب رحمها. كانت تنتظر مني أن أرش عليهما الماء المقدس من كلمات إعجاب لا معنى لها، تعميد ضروري بالكاد كنت قادراً على تقديمه وهذا ما أفرح الأرملة التي أصرت على أن أتناول العشاء معها. كنت في حاجة إلى قليل من الإصرار في الواقع لأقبل دعوتها، إذا نظرنا إلى الأطعمة المجمدة التي لا مذاق لها في ثلاجتي، وسرعان ما اتضح لي لماذا أصبح الرائد البدين أسمن مما هو عليه برعاية حبها. لحمها المترجرج لا يقارن بغيره، وفرحتها الصباحية الدافئة تذكرني بابتسامة أمي، وحساؤها من الشمام الشتوي يخفف إحساسي بالذنب. حتى الرز الأبيض كان منفوشاً ولذيذاً أكثر من أي شيء أكلته في حياتي، كأنه ريش النعام الناعم يذكرني بالسنوات التي كنت أنام فيها على الصوف الخشن. يجب أن تأكل.. كُل! كُل! كُل! كانت تتوسل بي، ووسط تلك التوسلات من المستحيل أن لا أسمع صوت أمي وهي تلح علي بصرف النظر عن أطعمتنا الشحيحة. أكلت حتى لم أعد أتحمل المزيد، ولما اكتفيت، قالت إن هناك طبق ما يزال مليئاً بزنود الست.

بعد ذلك ذهبت بالسيارة إلى محل مشروبات مجاور، يرتاده المهاجرون في العادة ويديره رجل سيخي غير متزمت ذو شارب عريض جميل لا أتمناه لنفسي أبداً. واشتريت نسخة من مجلة (بلاي بوي)، وسجائر مارلبورو، وزجاجة شراب روسي ماركة ستوليشنايا تكاد تبدو شفافة عليها زخارف جميلة. ذلك الاسم، بالأصداء التي يرسلها عن لينين، ستالين، وكلاشينكوف، جعلتني أشعر بحال أفضل بشأن ميولي الرأسمالية. الشراب الروسي من بين ثلاثة أشياء صنعها الاتحاد السوفييتي تصلح للتصدير، ولا داعي لذكر المنفيين السياسيين؛ الشيئان الآخران هما الأسلحة والروايات. الأسلحة أنا شخصياً ومهنياً معجب بها، إلا أنني أعشق الشراب الروسي والروايات. هناك رواية روسية من القرن التاسع عشر كم من الجميل قراءتها مع الشراب الروسي! قراءة رواية بينما أنت تحتسي الشراب الروسي تضفي شرعية على الشراب، بينما الشراب يجعل الرواية تبدو أقصر مما هي عليه. كنت سأعود إلى المتجر لشراء مثل هذه الرواية، لكن بدلاً من (الحرب والسلام) كان مكتظاً بالقصص الشعبية الرخيصة مثل (سرجنت روك)42.

وقفتُ متردداً في ساحة وقوف السيارات وذراعي تحتضن حقيبتي بحذر، فلمحت كشك الهاتف. كانت الحاجة للاتصال بصوفيا موري تلح عليّ. وكنت أؤجلها لسبب غامض، محاولاً جهدي رغم أنها ربما لا فكرة لديها بأني أريد الاتصال بها. بدلاً من تضييع عملات صغيرة للاتصال بها، قفزت إلى سيارتي واتجهت إلى شقتها عبر شوارع لوس أنجلس العريضة. أحسست نوعاً ما بالراحة بعد أن دفعت دية دم الرائد البدين إلى أرملته، وكنت أمضي بسرعة على الطريق السريع، الذي تتناثر عليه بعض السيارات في ساعات ما بعد الذروة، سمعت شبح الرائد البدين يقهقه في أذني. ركنت السيارة على شارع مزدحم قريب من شقة السيدة موري وأخذت حقيبتي والنقود التي بداخلها، وتركت مجلة (بلاي بوي) على المقعد الخلفي لشبح الرائد البدين، كانت مفتوحة على سيقان الآنسة مارش وهي تسترخي بإغراء على كومة من القش إلا من حذاء مماثل لما تلبسه راعيات البقر ومنديل.

الحي الذي تسكن فيه السيدة موري أتذكره جيداً، منازل بيجية اللون مع بقع خضراء وصفراء من العشب الذابل وبنايات ذات شقق رمادية وأخرى لمؤسسات كأنها

ثكنات الجيش. كانت الأضواء متوهجة في شقتها، والستائر البنفسجية مسدلة. حين فتحت الباب، أول شيء لاحظته شعرها البني المنسدل على كتفيها والذي لم يعد معقوصاً، مما جعلها تبدو أصغر مما أتذكر أنني رأيتها قبل ذلك، وهو تأثير ربما أضفته عليها ثيابها البسيطة، قميص أسود خفيف وبنطلون جينز أزرق. إنه أنت! صاحت، وفتحت ذراعيها لي. حين تعانقنا، عاد كل شيء إلى سابق عهده، استخدامها لبودرة الأطفال وليس العطر، حرارة جسدها الدافئ، صدرها من خلف القطيفة، الذي عادة ما يندس داخل حمالات مبطنة بالحرير تراعي هشاشته، لكنه الليلة تحرر من كل القيود. لماذا لم تتصل؟ ادخل. سحبتني إلى داخل الشقة المألوفة لدي، ذات الديكور البسيط، والمؤثثة بطراز ثوري فيه نكران للذات من خلال صور الشخصيات التي تحبها مثل تشي غيفارا وهوشي مينه، رجال يرحلون بخفة. أكبر قطعة في الأثاث عبارة عن أريكة قابلة للطي في غرفة المعيشة عليها تجلس قطتها السوداء في أكثر الأحيان. هذه القطة دائماً تحافظ على مسافة آمنة بينها وبيني. ليس بسبب الخوف أو الاحترام، كلما كنت أقترب من السيدة موري، تجثم القطة على المصباح الليلي الخافت وتراقب أدائي بعينين خضراوين ملؤهما الاحتقار، وبين الحين والحين تمد كفيها وتلعق ما بين مخالبها. القطة هناك، لكنها لم تستقر مباشرة على الأريكة. بدلاً من ذلك استلقت على حضن سوني الذي جلس على الأريكة بساقين متقاطعتين تنحشران تحته، حافي القدمين. ابتسم كأنه يعتذر، ومع ذلك أحاطت به هالة من الزهو وهو يبعد القطة عن حضنه وينهض. كم هو رائع رؤيتك من جديد.. يا صديقي القديم، قال، وهو يمد يده. كثيراً ما نتحدث عنك، أنا وصوفيا.

الفصل الثالث عشر

ما الذي كنت أتوقعه؟ لقد غبتُ منذ سبعة شهور ولم أتصل بها ولو مرة، اتصالاتي بها لم تتجاوز بضع بطاقات بريد مخربشة بالكلمات. أما السيدة موري، فلم تكرس نفسها للزواج ولا للرجال، وهذا يعني أنها لم تهتم بأي رجل تحديداً. لقد أعلنت عن ولائها من خلال ترتيب الأثاث في غرفة المعيشة، ورفوف الكتب منحنية كأنها ظهور حمالين تحت ثقل سيمون دو بوفوار، انايس نين، أنجيلا ديفس وغيرهن ممن يتنازعن حول قضية المرأة. الرجال الغربيون منذ آدم إلى فرويد سبق أن طرحوا ذلك السؤال، رغم أنهم وضعوه بالصيغة التالية: «ما الذي تريده المرأة؟» على الأقل كانوا يفكرون في المسألة. وظهر لي عندئذ أننا نحن الفيتناميون لا نكترث للتساؤل عما تريده المرأة. لم تراودني أدنى فكرة عما تريده السيدة موري. ربما كنت سأحصل على معنى خافٍ لو أنني قرأت بعض هذه الكتب، لكن كل ما أعرفه عن النساء تلك الملخصات المكتوبة على صدورهن العاجية. غريزتي تخبرني أن سوني في الواقع سبق أن قرأ بعض تلك الكتب كاملة، ولما جلستُ قربه، كنت أشعر بالنفور الذي ينتاب بدنه الحسّاس وهو يلامس جلدي، فتفجرت بداخلي نوبة من العدوانية أضرمتها ابتسامته الزائفة.

ماذا لديك هنا؟ قال سوني، وأشار إلى الحقيبة التي في حضني. ذهبت السيدة موري لإحضار قدح آخر. اثنان يجلسان الآن إلى طاولة ومعهما زجاجة من الشراب الأحمر، ومفتاح قناني وسدادة تلطخها بقع كالدم، والبوم صور. سجائر، قلت وأخرجت العلبة من الحقيبة. وزجاجة شراب روسي.

لم يكن لدي اختيار آخر سوى أن أعرض الشراب الروسي على سوني، وأراها للسيدة موري لما عادت من المطبخ. ما كان ينبغي أن تأتي بها، قالت بمرح، ووضعتها قرب الشراب. تلك الزجاجة الجميلة الشفافة من الشراب الروسي ماركة ستوليشنايا احتفظت بمزاجها الروسي الرائق ونحن ننظر إليها بصمت. كل زجاجة شراب تحمل رسالة، أو مفاجأة لن يكتشفها أحد حتى يشربها. لقد خططت لقراءة رسالة تلك الزجاجة مع السيدة موري، كما بدا واضحاً لها ولسوني، أو ربما جلسنا ببساطة نغرق في عرق إحراجنا البارد لولا الحضور الجميل للسيدة موري. إنها مبادرة لطيفة منك، قالت. خصوصاً وسجائرنا كادت تنتهي. سوف آخذ واحدة، إذا سمحت.

إذن، قال سوني، كيف كانت رحلتك إلى الفلبين؟

أريد أن أسمع كل شيء عنها، قالت السيدة موري، وسكبت لي الشراب معهما. أردتُ دائما الذهاب منذ أن كان عمي يتكلم عن الفترة التي قضاها هناك أثناء الحرب. وفتحت علبة السجائر وقدمتها لها، وأخذت أنا سيجارة، وبدأت أروي حكايتي التي حفظتها جيداً. تثاءبت القطة بامتعاضٍ مهيب، وزحفت ثانية إلى حضن سوني، وتمددت، وكشرت لي عن أنيابها، ثم ما لبثت أن نامت من الضجر. كان لدي انطباع أن سوني والسيدة موري يهتمان هامشياً فقط للاستماع لحكايتي، ودخنت سيجارتي، وطرحت بعض الأسئلة غير المحرجة. كنت محبطاً فلم أمتلك الشجاعة لأخبرهما حتى عن الحادثة التي وقعت لي وكادت تودي بحياتي، وقصتي التي لم تصل إلى نهايتها. وقع نظري على البوم الصور الذي كان مفتوحاً على صفحة فيها صورٌ بالأبيض والأسود يظهر فيها أشخاص من الطبقة الوسطى ينتمون إلى عقود ماضية، أم وأب في منزلهما يجلسان على الكراسي المغلفة بقماش مزركش، والأبناء والبنات يلعبون ويعزفون على البيانو، يتعانقون، يتجمعون حول طاولة الطعام استعداداً لتناول وليمة، يلبسون ثياب تلك الأيام وتسريحات الثلاثينيات. من هؤلاء؟ قلت. عائلتي، قالت السيدة موري. عائلتك؟ حيّرني جوابها. حتماً أعرف أن للسيدة موري عائلة، لكنها نادراً ما تحدثت عنهم، وحتماً لم تعرض علي صورهم. كل ما أعرفه أنهم كانوا يعيشون في الشمال بعيداً عن هنا، في إحدى البلدات على وادي سان جواكون الحار المغبر. هذه بيستي وتلك الينور، قال سوني، وكان ينحني ليشير إلى الوجوه على الصور. وهذا جورج وذلك آبي. المسكين آبي.

نظرتُ إلى السيدة موري وهي تشفط الشراب. هل مات في الحرب؟

كلا، قالت. رفض الذهاب إلى الحرب. لذلك أرسل إلى السجن.. ما يزال كئيباً بسبب ذلك. ليس لأنه ما كان ينبغي أن يسجن. الله يعلم أنني ربما سأحزن أيضاً لو كنت مكانه. أحببت أن يكون أكثر سعادة مما هو عليه. مضت على الحرب ثلاثون سنة وما زالت تعيش بداخله، رغم أنه لم يقاتل.

لقد قاتل، قال سوني. قاتل في الوطن فحسب. من يلومه؟ الحكومة وضعت عائلته في مخيم وطلبت منه أن يذهب ويقاتل من أجل البلاد؟ كنت سأجِنَ أيضاً.

غشاوة الدخان الآن فصلت الواحد منا عن الآخر. دوامات خافتة من أفكارنا تطفو، تتخذ أشكالاً مادية شفافة، وللحظات طافت رؤى شاحبة كالأشباح عن نفسي فوق رأس سوني. أين آبي الآن؟ قلت.

في اليابان. ليس لأنه سعيد هناك أكثر من هنا. بعد أن انتهت الحرب وأطلق سراحه، فكر في الرجوع إلى شعبه، هكذا كان يقول له طوال حياته السكانُ البيض، رغم أنه ولد هنا. لذلك ذهب ووجد الناس في اليابان لا يعتقدون أنه واحد منهم أيضاً. بالنسبة إليهم هو واحد منا، وبالنسبة إلينا هو واحد منهم. لا هذا ولا ذاك.

ربما رئيس قسمنا يمكنه مساعدته، قلت.

يا إلهي، آمل أنك تمزح، قالت السيدة موري. حتماً كنتُ أمزح، لكن لأني شريك غير مرغوب فيه في هذا التهريج المعقد، رأيت أنني أعزف خارج الإيقاع. عدت إلى رزانتي وأنهيت شرابي. ولما نظرت إلى الزجاجة، وجدتها فارغة. هل تريد المزيد من الشراب الروسي؟ قالت السيدة موري. ونظراتها محملة بالشفقة، الشيء الوحيد الذي كان فاتراً. الاشتياق اجتاح قلبي، كل ما استطعت فعله أن أحنيت رأسي دون أن أقول شيئاً. ثم ذهبت إلى المطبخ وعادت بأقداح نظيفة للشراب الروسي بينما جلستُ مع سوني بصمت أخرق. الشراب الروسي حين يسكب مذاقه لاذع ورائع كما تخيلته، السائل الخفيف الذي احتجت إليه لإزاحة الكدر عن جوفي.

ربما نذهب إلى اليابان في يومٍ ما، قال سوني. أحب أن أقابل آبي.

أريدك أن تقابله، قالت السيدة موري. إنه مقاتل مثلك.

كان الشراب الروسي يصلح للكلام بصدق، خصوصاً مع الثلج، مثل الشراب الفرنسي. الشراب الروسي بالثلج شفاف، واضح، قوي، تلهم من يشربها تلك الصفات. احتسيت ما تبقى في كأسي، وهيأت نفسي للإصابات المحتملة. هناك شيءٌ طالما تساءلت عنه منذ أيام الكلية، سوني. كنت دائماً تتكلم آنذاك كيف أنك تؤمن بالناس وبالثورة. كان ينبغي أن تسمعيه، سيدة موري. كان يلقي خطابات بليغة جداً.

أتمنى لو أنني سمعتها، قالت السيدة موري. أتمنى ذلك كثيراً.

لكنك لو سمعتها، لسألت نفسك عن سبب عدم رجوعه للقتال من أجل الثورة التي يؤمن بها. أو لماذا لا يرجع الآن ويكون جزءاً من الناس ومن الثورة غداً؟ أخوك آبي ذهب إلى السجن ورحل إلى اليابان من أجل ما يؤمن به.

انظروا إلى أين أدى به ذلك، قالت السيدة موري.

أريد جواباً على سؤالي، سوني. هل ما زلت هنا لأنك تحب السيدة موري؟ أم أنك تبقى هنا لأنك خائف؟

صُعق من المفاجأة. وجهت إليه ضربة في المكان الذي يؤلمه، في الصميم من ضميره، حيث كل شخص يدعي المثالية يواجه الضعف. تجريد المثالي من السلاح أمر سهل. على المرء فقط أن يسأل لماذا لا يكون المثالي في الخطوط الأمامية للمعركة التي اختارها. السؤال يتعلق بالالتزام، وكنت أعرف، حتى إذا لم يعرفوا هم، أنني إنسان ملتزم. نظر إلى قدميه الحافيتين، أحس بالخجل، لكن لسببٍ ما لم يكن لهذا أي تأثير على السيدة موري. نظرت إليه وكان يبدو عليها التفهم، لكن عندما حولت نظرتها باتجاهي مباشرة بقيت ملامحها ممزوجة بالإشفاق وشيء آخر - الندم. عندها وجدت الوقت مناسباً للتوقف والتهيؤ للمغادرة بكرامة، إلا أن الشراب الروسي الذي لا يجف سريعاً في حلقي وقلبي حفزني للاستمرار في المناورة. كنت دائماً تتكلم بإعجاب عن الناس، قلت. لو أردت أن تكون مع الناس إلى هذه الدرجة، ارجع إلى وطنك.

وطنه هنا، قالت السيدة موري. لم أرد منها أكثر مما تفعله الآن، تدخن سيجارة وتصد الهجمات. بقي هنا لأن الناس الذين يحبونه موجودون هنا أيضاً. هناك عمل

ينبغي القيام به معهم ومن أجلهم. ألا تفهم؟ أليس هذا وطنك الآن أنت أيضاً؟

وضع سوني يده على ذراعها وقال، صوفيا. هناك غصة في حلقي لا أستطيع تحملها، وأنا أراقبها تضع يدها على يده. لا تدافعي عني، إنه على حق. كنت محقاً إذن؟ لم أسمعه من قبل يقول هذا. ينبغي أن أفرح، لكن كان أكثر من واضح أن هناك القليل مما يمكنني قوله ومن شأنه أن يقنع السيدة موري لتحويل قلبها، أو عقلها، عن سوني. ازدرد ما تبقى من الشراب الروسي وقال، عشتُ في هذه البلاد منذ أربع عشرة سنة. بعد سنوات قليلة سأكون قد أمضيت من الزمن هنا ما يساوي ما أمضيته في بلادنا. لم يكن ذلك ما خططت له أبداً. لقد جئت إلى هنا، مثلك، من أجل الدراسة فقط. أتذكر جيداً أنني ودعت والدي في المطار ووعدتهما بأني سوف أرجع وأساعد بلادنا. سوف أحصل على شهادة أمريكية، أفضل تعليم في العالم. وسوف أستخدم تلك المعرفة لأساعد شعبنا في تحرير أنفسهم من الأمريكان. أو هكذا كنت أطمح.

مدّ كأسه إلى السيدة موري، وسكبت له المزيد من الشراب. بعد أن أخذ رشفة، استمر في النظر إلى ناحية ما بيني وبينها. ما تعلمته، ضد إرادتي، أن من المستحيل العيش وسط شعب أجنبي دون أن تخضع لتأثيرهم وتتغير. راح يلوّح بكأس الشراب الروسي وشربه جرعة واحدة كأنه يعاقب نفسه. أحياناً أشعر بأني غريب بعض الشيء عن نفسي نتيجة ذلك، قال. أعترف أنني خائف. أعترف بجبني، وغطرستي، وضعفي وعاري. أعترف أنك أفضل مني. لكني لا أتفق مع رجال السياسة الذين تؤيدهم - إنني أحتقرهم - لكنك ذهبت إلى الوطن عندما كان لديك اختيار وقاتلت من أجل القضية التي تؤمن بها. أنت وقفت مع شعبك كما رأيتهم. من أجل ذلك أنا أحترمك.

لم أصدق. لقد أجبرته على الاعتراف بإخفاقاته. ربحت جولة النقاش مع سوني، وهذا ما لم يحدث منذ أيام الكلية. إذن لماذا كانت السيدة موري تتمسك به وتتمتم بشيء لتواسيه؟ لا بأس عليك، قالت. أعرف تماماً كيف تشعر. لا بأس؟ كنت أحتاج إلى كأس أخرى. انظر لي، سوني، تابعت السيدة موري كلامها. ماذا أعمل أنا؟ سكرتيرة لرجل أبيض يتصور أنه يطري علي عندما يناديني «الآنسة فراشة». هل أعترض وأقول له أن يذهب إلى الجحيم؟ لا. أنا أبتسم له ولا أقول شيئاً وأستمر في الطباعة. لست أفضل منك، سوني. كانا يتبادلان النظر إلى بعضهما كما لو أنني غير موجود. ملأت الكؤوس لكن أنا وحدي

الذي شربت. جزءٌ من نفسي كان يقول، أحبك، سيدة موري. ولكن لم يسمع أحد. ما سمعاه ذلك الجزء الذي كنت أتظاهر بتمثيله وهو يقول، الوقت ليس متأخراً أبداً للقتال، أليس كذلك، سيدة موري؟

انقلب السحر. حوّل سوني نظراته ثانية باتجاهي. أدى بعض حركات الجودو الفكرية وتحول لكي يفجرها ضدي. لكنه لم يستعرض شيئاً من حركات النصر كما في أيام الكلية. كلا، الوقت ليس متأخراً أبداً للقتال، قال. وكان صاحياً رغم الشراب الفرنسي والروسي. أنت محق تماماً، يا صديقي. نعم، قالت السيدة موري. بالطريقة التي نطقت بها ذلك المقطع، الطريقة التي ركزت بها على سوني بشدة فظيعة لم تظهرها لي، الطريقة التي اختارت بها كلمة نعم، عرفت أن الأمر انتهى بيننا. ربحتُ النقاش، لكن بطريقة ما، كما في أيام الكلية، ربح هو الجمهور.

***

الجنرال أيضاً كان يرى أن الوقت لن يكون متأخراً للقتال، كما قلت في رسالتي الأخرى إلى عمتي الباريسية. وجد فسحة منعزلة من الأرض لتنفيذ التدريبات والمناورات لجيشه المزعوم، في تلال مكشوفة للشمس، في مكان بعيد شرق لوس أنجلس، قرب محمية هندية بعيدة. تحرك قرابة مائتي رجل على الطرقات المفتوحة مروراً بالضواحي والوهاد إلى تلك المنطقة الوعرة، التي في الماضي، ربما دفن الغوغاء فيها بعض ضحاياهم. لم يكن تجمعاً غريباً كما قد يتصور المرء. المصابون برهاب الأجانب سوف يرون جماعة من الأجانب بثياب مموهة، يقومون بمناورات عسكرية، وربما يتصورون أننا طلائع غزو آسيوي لوطنهم أمريكا، وباء أصفر في مملكة الذهب، كابوس شيطاني عن مينغ الذي لا يرحم وقد عاد للحياة. لكن هذا بعيد عن الحقيقة. رجال الجنرال، من خلال تهيئة أنفسهم لمداهمة وطننا الشيوعي الآن، في الواقع يحولون أنفسهم إلى أمريكان جدد.

على كل حال، لا شيء أكثر أمريكية من حمل السلاح وتكريس النفس للموت من أجل الحرية والاستقلال، إلا إذا كان حمل السلاح لسلب الحرية والاستقلال من الغير.

عشرة رجال من الصفوة، استدعى الجنرال هؤلاء إلى مطعمه، حيث شرح لي الخطط التنظيمية لجيشه المصغر ورسمها على منديل. وفي وقتٍ لاحق أخذت المنديل في جيبي

وأرسلته إلى عمتي الباريسية، المخطط يصور قيادات أحد الفصائل، ثلاثة فصائل بنادق وفصيل بالأسلحة الثقيلة، رغم عدم وجود أسلحة ثقيلة. لا مشكلة، قال الجنرال. جنوب شرقي آسيا غارقة في الأسلحة الثقيلة. سوف نحصل عليها من هناك. هنا الهدف بناء التنظيم، وبناء الأجسام، وتهيئة العقول، وجعل هؤلاء المتطوعين يفكرون بأنفسهم كجيش من جديد، ويحلمون بالمستقبل. كتب أسماء قادة الفصائل والضباط من معاونيه، وشرح لي تاريخهم: هذا كان سابقاً الضابط التنفيذي للفرقة كذا، وهذا آمر كتيبة في فوج كذا، وما إلى ذلك. هذه التفاصيل أرسلتها إلى عمتي الباريسية فوراً، باستعمال شيفرة معقدة. وكذلك اختصرت ما أخبرني به الجنرال، هؤلاء جميعاً من الرجال المحترفين، وصولاً إلى أصغر واحد منهم رتبة. جميعهم كانوا نشطين في الوطن، كما قال. جميعهم متطوعون. لم أستخدم التلفون العمومي، بل نظمت ضباطي. أولاً جعلتهم يتصلون برجال يثقون بهم من نواب الضباط، ثم كلفت هؤلاء بالبحث عنهم وتسجيلهم. تطلب الأمر سنوات لجمع هذه الجزئيات. الآن نحن على استعداد للمرحلة التالية. التدريب البدني، والمناورات، وتحويلهم إلى وحدة قتالية. هل أنت معي، أيها النقيب؟

دائماً، يا سيدي. سوف أجد فيها نفسي في زي عسكري مرة أخرى، رغم أن واجبي اليوم أن أوثق وليس أن أكون جندي مشاة. مائتا رجل أو نحو ذلك جلسوا على الأرض مثل الهنود، السيقان متقاطعة، بينما وقف الجنرال أمامهم وأنا خلفهم، والكاميرا بيدي. مثل رجاله، الجنرال يلبس بدلة عسكرية مموهة للمعركة، اشتراها من متجر خردوات وخاطتها المدام لتناسبه. في بدلته، لم يعد ذلك الرجل الكئيب صاحب متجر الكحول والمطعم، بل تحول إلى برجوازي صغير يفكر بطموحاته ويغير سجل خدمته. بدلته العسكرية، وبيريته الحمراء، وحذاؤه الميداني الصقيل، ورتبته المرصعة بالنجوم على ياقته وعلامة المحمولين جواً على كمه أعادت إليه جزءاً من هيبته التي كان يتمتع بها ذات يوم في بلادنا. أما بخصوص بدلتي العسكرية، فهي سترة خاصة بصنف الدروع مفصلة من القماش. مع أن رصاصة أو سكيناً يمكن أن تخترقها بسهولة، أحسست بأني أقل عرضة للإصابة مقارنة بملابسي المدنية الاعتيادية. إذا لم ألبس درعاً واقياً ضد الرصاص، على الأقل معي تعويذة سحرية، مثل كل الرجال.

التقطت صوراً لهم من زوايا شتى، هؤلاء الرجال تعرضوا للإحباط من خلال ما

يعانون منه في المنفى. في بدلات العمل كمساعدين في الحافلات، أو في المطاعم والحانات، أو البساتين والحقول، أو صيد السمك، أو الأعمال اليدوية، أو الحراسة، أو ببساطة البطالة، تلك الأمثلة الرثة على المعارضين للشيوعية المندمجين في البيئة أينما وجدوا، دائماً تراهم في تكتلات، ولا تراهم أبداً منفردين. لكنهم الآن، بملابسهم النظامية وشعرهم المقصوص على عجل تحت قلنسوات وبيريات، من المستحيل ألا تعرفهم. رجولتهم التي عادت إليهم تتجلى واضحة من الطريقة التي تصلبت بها ظهورهم واستقامت، بدلاً من التراخي والكسل في مخيمات اللاجئين، الطريقة التي يمشون بها بافتخار ويدوسون الأرض، بدلاً من الخوض في الوحل كما يفعلون عادة بأحذية رخيصة أو صنادل بالية. عادوا الآن رجالاً، هكذا كان يخاطبهم الجنرال. يا رجال، صاح بهم. أيها الرجال! الشعب يحتاج إلينا. حتى من مكاني، سمعته بوضوح، رغم أنه بدا لا يبذل جهداً في إخراج صوته. الشعب يحتاج إلى الأمل وإلى قادة، قال الجنرال. وأنتم هؤلاء القادة. ستظهرون للناس ما يمكن أن يحدث إذا تحلوا بالشجاعة للنهوض، لحمل السلاح، والتضحية بأنفسهم. راقبت الرجال لأرى إن كانوا يرتجفون من فكرة التضحية بأنفسهم، لكنهم ليسوا كذلك. تلك هي القوة السحرية للزي النظامي، للتكتلات، أن الرجال لن يحلموا أبداً بالتضحية بأنفسهم ضمن سياق حياتهم اليومية وهم ينتظرون على طاولات المقاهي، لن يتقبلوا تلك الفكرة أثناء تسكعهم تحت الشمس الحارة. أيها الرجال، قال الجنرال. أيها الرجال! شعبنا يناديكم للحصول على الحرية! الشيوعيون وعدوا بالحرية والاستقلال، لكنهم لم يجلبوا لنا سوى الفقر والعبودية. لقد خدعوا الشعب الفيتنامي، بينما الثورات لا تخدع الشعوب. حتى في هذا المكان نحن نبقى مع الشعب، وسوف نعود لتحرير الشعب الذي حرم من الحرية التي نتمتع بها هنا. الثورات تحدث من أجل الشعب، وتنطلق من صفوف الشعب، وتقوم بها الشعوب. تلك هي ثورتنا!

لا شيء يمثل هذا الصدق، ولا شيء يمثل هذا الغموض، لأن أسئلة من يكون الشعب، وما الذي يريده، تبقى بلا إجابات. عدم وجود إجابة شيءٌ غير مهم؛ في الواقع، هذا جزءٌ من قوة الفكرة، أن الشعب جعل الرجال يقفون على أقدامهم والدموع تترقرق في مآقيهم وهم يهتفون لتسقط الشيوعية! مثل سمك السلمون الذي يعرف غريزياً متى يسبح إلى أعلى التيار، نحن جميعاً نعرف من يكون الشعب ومن لا يكون من الشعب. أيّ شخص يضطر لبيان من يكون الشعب ربما لا يشكل جزءاً من الشعب، هكذا كتبت

إلى عمتي الباريسية. وكذلك أرسلت لها صوراً عن الرجال الذين يهتفون ويرفلون فرحاً بأزيائهم النظامية، مع آخرين يتدربون ويقومون بمناورات خلال ما تبقى من عطلة نهاية الأسبوع. لعل هؤلاء يبدون تافهين أو أغبياء، وهم يؤدون التمارين الرياضية بينما النقيب الأشهب يصرخ فيهم، أو يقرفصون خلف الأشجار ويصوبون بنادقهم العتيقة تحت قيادة ملازمٍ متجهم عديم المشاعر، أو يقومون بدوريات مموهة مع بون وسط الأجمات حيث كان الهنود ذات مرة يتصيدون. لكن لا تنخدع، حذرتُ مان في رسائلي المشفرة. الثورات تبدأ هكذا، برجال مستعدين للقتال مهما كانت الظروف، يتطوعون للتخلي عن أي شيء لأنهم لا يملكون شيئاً. هذا هو الوصف المناسب للنقيب الأشهب، الذي سبق أن كان صياداً للغوريلا وأصبح الآن طاهياً للوجبات السريعة، والملازم المتجهم، الوحيد الذي نجا من كمين للأعداء وكان يكسب قوته كعامل توصيل طلبات. مثل بون، هما حتماً من المجانين الذين تطوعوا في مهمة استطلاع إلى تايلاند. قرروا أن الموت جميلٌ مثل الحياة، وهي جميلة في رأيهم لكنها مملة في رأيي إذا اضطررت للذهاب معهم.

ماذا عن زوجاتكم وأطفالكم؟ قلت. كنت أجلس مع أربعة منهم تحت شجرة بلوط، والأكمام مرفوعة فوق المرفق، نأكل وجبة منتصف النهار من تموين الجيش، والتي بدت مشابهة تماماً وهي تدخل للجسم البشري لما يخرج منه. النقيب الأشهب كان يخشخش بملعقته في علبة الطعام قال، انفصلنا عن عائلاتنا أثناء تلك الفوضى في دا نانغ. لم يتمكنوا من الخروج. آخر ما سمعته أن الفيتكونغ أرسلوهم لردم المستنقعات، تفاصيل هذه الجريمة رويت لي. أعتقد أنني إما أن أنتظرهم يهربون أو أذهب إليهم بنفسي. كان من عادته الكلام بينما يطبق أسنانه، ويعض كلماته كأنها العظام. أما الملازم المتجهم، فكل عواطفه انقرضت. كان يحمل شبهاً بعيداً ببني البشر، وبينما يتحرك جسده، لا تلمس لوجهه وصوته أي حركة. لذلك، حين قال، إنهم موتى، كان التصريح خالياً من نبرة مميزة وأكثر شناعة مما لو كان ينتحب أو يلعن. خشيت أن أسأله عما حدث. بدلاً من ذلك، قلت، أنتم أيها الرفاق لا تنوون الرجوع، أليس كذلك؟ أدار الملازم المتجهم رأسه بضع درجات وسلط عينيه باتجاهي. نرجع من أجل ماذا؟ وهنا اختنق النقيب الأشهب بالضحك. لا تندهش، أيها الفتى. أمرت رجالاً كثيرين بالتوجه إلى موت محتوم. الآن ربما جاء دوري. ليس لأني أريد أن أبدو شاعرياً على الإطلاق. لا تأسفوا عليّ. إنني أطمح إلى هذا المصير. الحرب ربما كانت جحيماً، لكن هل تعرفون شيئاً؟ يبدو أن الجحيم أفضل من

هذه البالوعة. بعد هذا ذهب الملازم المتجهم والنقيب الأشهب إلى مكان ما للتبول.

لم أشعر بالحاجة لأن أكتب في رسالتي إلى باريس أن هؤلاء الرجال ليسوا من الأغبياء، على الأقل حتى الآن. رجال الميليشيات ليسوا أغبياء في اعتقادهم أن بإمكانهم دحر أصحاب المعاطف الحمر من البريطانيين، أكثر من غباء أول فصيل أعلام حربي تابع لثورتنا في تدريباته على الأسلحة البدائية. ثم تحول ذلك الفصيل فيما بعد إلى جيش من مليون مقاتل. من يقول إن المصير نفسه لن ينتظر هذه الفرقة؟ عمتي العزيزة، كتبت بالحبر المرئي، هؤلاء الرجال لا ينبغي الاستهانة بهم. قال نابليون ذات مرة إن الرجال يموتون من أجل قطع قماش توشح صدورهم، لكن الجنرال يرى أن المزيد من الرجال سوف يموتون من أجل أن تذكر أسماؤهم، مثله هو. عندما كان يستعرضهم، تمشى بين صفوفهم، أكل من طعامهم، ناداهم بأسمائهم وسألهم عن زوجاتهم، وأطفالهم، وصديقاتهم، وبلداتهم. كل ما يريده الإنسان أن يُحترم ويتذكره أحد. والأمران مترابطان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. هذه الرغبة تجعل هؤلاء الصبية الذين كانوا يعملون على الحافلات، وعمال المطاعم، والبوابين، والبستانيين، والميكانيكيين، والحراس الليليين، وموصلي الطلبات، يدخرون ما يكفي من النقود لشراء بدلات عسكرية، وأحذية، وبنادق، لحاجتهم لأن يصبحوا رجالاً من جديد. يريدون أن تعود لهم بلادهم، يا عمتي العزيزة، لكنهم أيضاً يشتاقون للاحترام والتذكر من ذلك الوطن الذي لم يعد موجوداً، من زوجات وأطفال، من أجيال المستقبل، من ماضيهم حينما كانوا رجالاً. إذا ما فشلوا، يمكنك تسميتهم بالأغبياء. لكن إذا لم يفشلوا، فهم أبطال وحالمون، سواءً كانوا أحياء أم أمواتاً. ربما سأعود معهم إلى الوطن، بصرف النظر عما يقوله الجنرال.

حتى عندما كنت أفكر باحتمال العودة، بذلت ما في وسعي لإقناع بون بأن لا يفعل الشيء نفسه. جلسنا ندخن السيجارة الأخيرة تحت شجرة البلوط، كأنه الوداع الأخير قبل البدء بمسيرة عشرة أميال. كنا نراقب الرجال يقودهم النقيب الأشهب والملازم المتجهم أثناء التدريبات، تمزقت أجزاء من أبدانهم المترهلة. هؤلاء يتمنون الموت، قلت. ألا تفهم؟ ليست لديهم أي نوايا للعودة. إنهم يعرفون أنها مهمة انتحارية.

الحياة مهمة انتحارية.

هذا قول فلسفي جداً. قلت. لكنه لا يغير حقيقة أنك أحمق.

ضحك بمرح واضح، وهي حالة نادرة منذ أيام سايغون، مما جعلني أستغرب. للمرة الثانية منذ أن عرفته، انهمك في كلامٍ كأنه شعر ملحمي. من الحماقة العيش عندما لا يكون هناك سبب للحياة، قال. ما الذي أعيش من أجله؟ الحياة في شقتنا؟ ذلك ليس بالمنزل. إنها زنزانة من غير قضبان. كلنا - كلنا نعيش في زنزانات بلا قضبان. نحن لم نعد رجالاً. ليس بعد أن أذلنا الأمريكان مرتين وجعلوا زوجاتنا وأطفالنا يرقبون المشهد. أولاً قال الأمريكان سوف ننقذ بشرتكم الصفراء. عليكم أن تفعلوا ما نقوله لكم. قاتلوا بطريقتنا، خذوا نقودنا، أعطونا نساءكم، ثم تكونوا أحراراً. الأمور لا ينبغي أن تجري على هذا المنوال، أليس كذلك؟ ثم، بعد أن أذلونا، قاموا بإنقاذنا. لكنهم لم يخبرونا بأنهم سوف يقطعون أعضاءنا التناسلية وألسنتنا في الطريق. هل تعرف شيئاً؟ لو كنا رجالاً حقاً، ما كنا لنسمح لهم بذلك.

في أكثر الأحيان يستعمل بون كلمات مثل رصاص القناصين، لكن كلماته الأخيرة كانت رشقات بندقية رشاشة أسكتتني للحظات. بعد ذلك قلت، أنت لا تعطي هؤلاء الأشخاص ما يكفي من الأهمية على ما يقومون به، وما يواجهونه. رغم أنهم أعدائي، لكني أفهم قلوب الجنود، فهي تنبض بالإيمان بأنهم قاتلوا بشجاعة. كنت صعب المراس عليهم. وضحك من جديد، هذه المرة خلت ضحكاته من المرح. أنا قاس حتى على نفسي. لا يمكن أن أسمى رجلاً أو حتى جندياً. عليك أن تسمي هؤلاء الذين بقوا في الوطن رجالاً وجنوداً. الرجال في فرقتي. مان. كلهم ماتوا أو يقبعون في السجون، لكنهم على الأقل يعرفون أنهم رجال. إنهم يتسمون بالخطورة بحيث يحتاج الأمر إلى رجال آخرين بأسلحتهم لإبقائهم مكبلين. هنا، لا أحد يشعر بالخوف منا. الوحيدون الذين يخافون منا زوجاتنا وأطفالنا. وأنفسنا، إنني أعرف هؤلاء. أبيع لهم الكحول. أسمع حكاياتهم. يأتون إلى المنزل من العمل، يصيحون على زوجاتهم وأطفالهم، يضربونهن مرة بين الحين والحين لإظهار أنهم رجال. لكنهم ليسوا كذلك، هذا كل ما في الأمر. الرجل هو الذي يحمي زوجته وأطفاله. الرجل لا يخاف من الموت في سبيلهم، وفي سبيل بلاده، ورفاقه. إنه لا يعيش ليراهم يموتون جميعاً أمام عينيه. لكن ذلك ما فعلته أنا.

أنت انسحبت، هذا كل ما حدث، قلت، ووضعت يدي على كتفه. انتفض وأزاح يدي. لم يسبق أن رأيته يتكلم عن آلامه بمثل هذه الصراحة. أردت التخفيف عنه

وأزعجني أنه لن يسمح لي. كنت مضطراً لإنقاذ عائلتك. ذلك لا يجعلك أقلّ شأناً من أي رجل أو أي جندي. أنت جندي، وعليك أن تفكر كجندي. هل من الأفضل المضي في هذه المهمة الانتحارية وعدم الرجوع، أم من الأفضل الذهاب مع الموجة التالية التي من المحتمل أن تأتي أو لا تأتي؟ ألقى سيجارته وداسها بعقب الحذاء، ثم دفنها تحت طبقة من التراب. هذا ما يقوله أغلب هؤلاء الرجال. إنهم خاسرون والخاسرون دائماً لديهم ذرائع يقدمونها. إنهم يتأنقون في ملابسهم، ويتكلمون بخشونة، ويلعبون دور الجنود. لكن كم منهم يرجع حقاً إلى الوطن للقتال؟ الجنرال طلب متطوعين. وحصل على ثلاثة فقط. الباقون يختبئون وراء زوجاتهم وأطفالهم، الزوجات والأطفال أنفسهم الذين يضربونهم لأنهم لا يتحملون أن يختفي وراءهم أحد. امنح الجبان فرصة ثانية، سوف يهرب مرة أخرى. هذا ما يحصل مع أغلب هؤلاء. إنهم يكذبون.

كم أنت حقير في تهكمك! صحت به. لماذا تضحي بحياتك إذن؟

لماذا أضحي بحياتي؟ صاح رداً عليّ. أضحي لأن هذا العالم الذي أعيش فيه لا يستحق أن نموت من أجله! إذا كان هناك شيء يستحق أن يموت المرء من أجله، فهناك سبب للحياة لا للموت.

لم يكن لدي شيء أقوله. هذا صحيح، حتى ضمن هذا الفصيل من الأبطال أو ربما الأغبياء. أياً كانوا، الآن لديهم شيءٌ يعيشون من أجله إن لم يموتوا. لقد لبسوا الأكفان بتحمس بعد أن عاشوا حياة مدنية متوسطة الأعمار، واستوعبوا إغراءات ثياب السخرة التي تزينها أشرطة مرقطة بالنمور وأوشحة ذات ألوان براقة، صفراء، وبيضاء، أو حمراء فاقعة حول أعناقهم، ترسل هالة من مجد العسكرية مثل أزياء الأبطال الخارقين. لكن، مثل الأبطال الخارقين، لا يريدون إبقاء أنفسهم سراً لفترة طويلة. كيف يمكنك أن تكون بطلاً خارقاً إذا لم يعرف أحد بوجودك؟

انتشرت الشائعات الآن حولهم. حتى قبل التجمع في الصحراء، في تلك الليلة التي أعترف فيها سوني بفشله ومع ذلك حقق الفوز، سألني عن هؤلاء الرجال الغامضين. وتوقفت محاور حديثنا عن الدوران في حلقة مفرغة، القطة السوداء عيونها تشمت بهزيمتي، ووسط الصمت الذي أثاره الشراب الروسي تطرق سوني إلى أسرار الجيش الذي يتأهب لهجوم سري. أجبت على ذلك قائلاً إنني لم أسمع بشيء من ذلك، فأجاب قائلاً، لا

تتظاهر بالبراءة. أنت رجل الجنرال.

لو كنت رجله، قلت، فهذا يدعوني أكثر لعدم البوح بشيء لرجل شيوعي.

من قال إنني شيوعي؟

تظاهرت بأنني مندهش. أنت لست شيوعياً؟

لو كنت كما تزعم، هل كنت سأخبرك؟

تلك معضلة المخربين. بدلاً من المباهاة والتبختر بثياب الأبطال المريبة، كنا نختبئ بعباءات غير مرئية هنا كما في سايغون. هناك، حين كنت احضر الاجتماعات السرية مع مخربين آخرين تعقد في الأقبية العفنة لبيوت آمنة، جالسين على سلال وصناديق مملوءة بالرمانات اليدوية اشتريناها من السوق السوداء وصنعت في الولايات المتحدة الأمريكية، وأخفي وجهي بغطاء يكشف فقط عن عيني. المكان تضيئه الشموع أو فانوس نفطي، بعضنا يعرف الآخر فقط من خلال أسمائنا الرمزية، ومن شكل أجسامنا، ونبرات أصواتنا، وبياض عيوننا. والآن، وأنا أرى السيدة موري تضطجع على ذراع سوني، كنت واثقاً من أن سحر عيني لم يعد له ذلك التأثير السابق لكنهما تحولتا إلى احمرار الدم من أثر الشراب الفرنسي والشراب الروسي والتبغ. صدر كل واحد منا تشبع بالدخان مع الهواء الفاسد، بينما على طاولة القهوة منفضة السجائر تعاني بصمت من إذلالها المألوف، جوفها محشور بأعقاب السجائر والرماد المرير. أسقطت ما تبقى من سيجارتي في فتحة زجاجة الشراب الفرنسي، حيث غرقت في ما تبقى من السائل مصدرة هسيساً خافتاً، كأنها تستنجد. الحرب انتهت، قالت سيدة موري. ألا تعرف ذلك؟ أردت أن أقول شيئاً ذا مغزى وأنا أقف لأودعهما. أردت إثارة إعجاب السيدة موري بفطنتي التي لم ترها مرة أخرى. الحروب لا تموت أبداً، قلت. فقط تنام مؤقتاً.

هل معنى هذا أن الجنود القدامى ينامون مؤقتاً أيضاً؟ سألت، ولم يظهر عليها الانبهار. بطبيعة الحال ذلك صحيح، قال سوني. إذا لم يخلد الجنود للنوم، فكيف لهم أن يحلموا؟ أجبت تقريباً قبل أن أدرك أنه سؤال بلاغي.

أعطتني السيدة موري قبلة أخيرة على خدي ومدّ سوني يده ليصافحني. قادني إلى الباب واتجهت إلى المنزل مخترقاً نسمات الليل الباردة فذهبت إلى سريري مباشرة، وكان

بون نائماً في سريره فوقي. أغمضت عيني، ولما أحسست بنفحة الظلام، طفوت بأغطيتي على نهر أسود متجهاً إلى بلاد أجنبية لا تحتاج إلى جواز سفر لزيارتها. من أبرز سماتها الحكمة وسكانها من الأشباح، الآن أتذكر شيئاً واحداً، ذهني مسح كل شيء باستثناء هذه البصمة الحادة، شجرة السيبة43 القديمة مستقري الأخير، على لحائها المتشعب المفاصل وضعت خدي. كنت نائماً تقريباً عندما أدركت تدريجياً أن عقدة الأغصان التي استقرت عليها أذني في الواقع هي أذن حقيقية، مدورة وصلبة، والشمع الذي يسجل تاريخها السمعي يغلف الأشنات الخضراء لقناتها الملتوية. نصف شجرة السيبة يشبه السقف فوق رأسي، والنصف الآخر مرئي على الأرض بجذوره، ولما نظرت إلى الأعلى لم أر أذناً واحدة بل الكثير منها تخرج من لحاء جذعها السميك، مئات الآذان تصغي، كما كانت في السابق تصغي، لأشياء لا أسمعها، منظر تلك الآذان فظيع إلى درجة أنها أرجعتني إلى الوراء باتجاه النهر الأسود. نهضت من النوم وأنا ألهث غارقاً بعرقي، متشبثاً بجوانب رأسي. بعد أن أزحت الأغطية الرطبة ونظرت تحت الوسادة استلقيت من جديد، مرتعشاً. كان قلبي يخفق بشدة كأنه طبل قبائل متوحشة، لكن سريري لم يعد مليئاً بالآذان المبتورة.

الفصل الرابع عشر

أحياناً العمل مع المخربين يكون له هدف، وفي أحيان أخرى، أعترف بهذا، يكون مجرد شيء تافه. إذا فكرت في الأمر، ربما استنتجت أن اختباري لشجاعة سوني دفعه لكتابة موضوع رأيته منشوراً بعد أسبوعين من المناورات الميدانية، «هيا تحركوا، الحرب انتهت». رأيتُ المقال على مكتب الجنرال في غرفة العمليات الخاصة به ضمن متجر المشروبات، ملقى على لوح الكتابة وفوقه كابسة أوراق. المشاعر التي يثيرها عنوان المقال ربما يرحب بها البعض، لكن ليس الجنرال. تحت ذلك العنوان صورة فوتوغرافية لاجتماع الأخوية في حديقة ويستمنستر، يحضره أصحاب الرتب والألقاب وصفوف من المحاربين القدماء، وجوههم متجهمة ببدلات رسمية وقمصان بنية وبيريات حمراء. وفي صورة أخرى، هناك مدنيون سيماؤهم توحي بأنهم من المنبوذين واللاجئين يلوّحون باللافتات ويمسكون رايات تحمل رسائل قصيرة من الاحتجاجات السياسية: «هوشي مينه = هتلر!».. «الحرية للشعب!».. «شكراً لأمريكا!»، بحيث إن المقال ربما كان يهدف إلى زرع بذور الشك في نفوس المنفيين بشأن استمرار الحرب، وخلق انقسامات بين فئاتهم وطوائفهم، كنت أعرف أن استفزازي لسوني حقق دون قصد التأثير المطلوب.

التقطتُ صوراً للمقال بكاميرتي المينوكس الصغيرة التي جاء دورها أخيراً. خلال الأسابيع القليلة الماضية، كنت ألتقط الصور لملفات الجنرال، وكلها وجدت طريقها إلى يدي لأني مساعده الشخصي. منذ عودتي من الفلبين، لم أجد شيئاً أقوم به باستثناء هذا العمل التطوعي المميز من أجل الجنرال، العمل مع الأخوية والحركة. حتى الجيوش السرية والجبهات السياسية تحتاج إلى موظفين. ينبغي كتابة مدونات؛ وثائق ميدانية؛

عقد الاجتماعات؛ تنظيم الملفات، الطباعة، توزيع الكتب الرسمية؛ التقاط الصور؛ جدولة اللقاءات؛ العثور على متبرعين، والأكثر أهمية لأغراضي الشخصية، متابعة المراسلات بالبريد، ثم الاستلام والقراءة قبل أن تعطى للجنرال. التقطتُ الصور لكل شيء يتعلق بخطط الجنرال القتالية، ابتداء بالمجموعة التي هنا إلى الكتيبة في تايلاند، ومن الاستعراضات الشعبية للأخوية إلى المناورات الخاصة بالحركة، فضلاً عن الاتصالات بين الجنرال وضباطه في مخيمات اللجوء في تايلاند، يقودهم أدميرال متمسك بتراب الوطن. ولا يفوتني أن أذكر أنني التقطت الصور أيضاً لوثائق تتعلق بالحسابات المصرفية حيث أخفى الجنرال بعض الأموال المتواضعة الخاصة بالحركة، تجمعت من تبرعاتٍ بسيطة من مجمعات اللجوء، وعائدات مطعم المدام، وكمية محترمة من تبرعات منظمات خيرية لصالح الأخوية على أن تعطى للاجئين المساكين والمحاربين السابقين الأكثر تعاسة منهم.

كل هذه المعلومات جرى تجميعها وتنظيمها في حزمة أرسلت إلى عمتي الباريسية. من محتويات تلك الحزمة رسالة مع هدية تذكارية ملفوفة بورق مزركش، كرة ثلج تدور أوتوماتيكياً تحمل علامة لهوليوود. هذه الهدية تحتاج إلى بطاريات بقوة 9 فولت، أرفقتها معها بعد أن أفرغت جوفها. وداخل كل بطارية أدخلت شريحة من أفلام مينوكس، وهي طريقة أكثر تعقيداً مما كان العميل في سايغون الذي أتعامل معه يبادلني من خلالها المعلومات. عندما أخبرني مان لأول مرة بساعي البريد هذا، اشتريت على الفور واحدة من هذه الدمى الجميلة الرشيقة التي تشتهر بها بلادنا عن جدارة، وهي بيضاء مثل السكر النقي من الخارج، وقرمزية مثل غروب الشمس من الداخل، نسخة صينية من ماتا هاري[44]. ساعي البريد الذي كان يقف عند بابي كل صباح ليس سوى سيدة عجوز، خطوط وجهها تنبئ بأسرار أكثر مما تنبئ به راحتا يديها، كأن تلك الأخاديد أفواه متلعثمة مراوغة تفرز عصير الخنافس إلى جانب شيء آخر تشتهر به، رز لزج ملفوف بأوراق الموز. كنت أشتريه منها للإفطار كل صباح، وهناك ربما وجدت أو لا أجد رسالة ملفوفة ومغلفة بالنايلون. على نحو مماثل، في اللفافة الصغيرة من النقود التي كنت أدفعها لها، ربما أضع أو لا أضع شريحة فيلم أو رسالة كتبتها بالحبر السري من ماء الرز على ورقة ممزوجة بالنشا. المثلبة الوحيدة في هذه الطريقة أن الخالة العجوز كانت طاهية مرعبة، الرز اللزج الذي تعمله يشبه كرة من الغراء أضطر لابتلاعها، خشية أن تجدها الخادمة في القمامة وتتساءل عن السبب الذي يدفعني لشراء شيء لن آكله.

اشتكيت للعمة ذات مرة، لكنها شتمتني ولم تتوقف عن الشتائم اللاذعة التي من ابتكارها بحيث كان عليّ مراقبة ساعتي والرجوع إلى قاموسي. حتى أن سائقي العربات الذين يتجولون حول قصر الجنرال بحثاً عن زبائن أذهلهم ذلك. من الأفضل لك أن تتزوجها، أيها النقيب، صاح السائق وهو يلوح بذراعه اليسرى. لن تبقى عزباء طويلاً!

فزعت من تلك الذكريات وسكبت لنفسي كأساً من زجاجة شراب اسكتلندي عمرها خمس عشرة سنة كان الجنرال يحتفظ بها في درج مكتبه. إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنني لم أكن أتلقى أجوراً، فالجنرال يحرص دائماً على سعادتي، وأعترف أنني أعتمد عليه في كل شيء، مع هدايا سخية من الشراب الفاخر أو الرخيص من مخزنه الذي لا ينضب. كنت في حاجة إلى ذلك. كتبت بالحبر السري ضمن الرسالة بعض التواريخ والتفاصيل عن تحركات بون وتلك الخاصة بالنقيب الأشهب والملازم المتجهم، ابتداء من تذاكر سفرهم إلى موقع معسكر التدريب. لم تختلف المعلومات في جوهرها عما سبق أن أرسلته عن طريق الخالة العجوز، معلومات سرية عن الأمور اللوجستية للعمليات التي من المؤكد أن تقود إلى كمائن مهلكة. مقالات الصحف كانت تتطرق إلى عدد الجنود الأمريكان أو الجمهوريين من القتلى أو الجرحى، لكنها معلومات غامضة مثل موتى مجهولين في كتب التاريخ. يمكنني كتابة هذه الرسائل بسهولة، لكن الرسالة عن بون تطلبت مني ليلة كاملة، ليس بسبب كلماتها، وإنما لأنه صديقي. سوف أعود أنا أيضاً، هكذا كتبت، رغم أنني لا أعرف الآن كيف سأفعل ذلك. من الأفضل الإبلاغ عن تحركات العدو، كتبت، مع أنني نويت حقاً إنقاذ حياة بون. هذه الفكرة لم أعرف كيف أنجزها، إلا أن الجهل أبداً لن يمنعني من اتخاذ قرار ما قبل وقت.

لم تكن لدي فكرة عن طريقة خداع بون وإنقاذه في الوقت نفسه، فتمددت باحثاً عن الإلهام في قعر الزجاجة. رتبت آخر الوثائق الجديدة للجنرال، وأمنت كاميرا المينوكس في جيب سترتي، وقرأت مقال سوني، وكنت أحتسي من الزجاجة الثانية عندما دخل الجنرال. كانت الساعة تشير إلى ما بعد الثالثة بقليل، الوقت الروتيني لعودته من مطعم المدام بعد ساعة الذروة التي يشهدها في منتصف النهار. كعادته بدا متضايقاً من الساعات التي يقضيها وهو يشرف على الحسابات. تلقاه جنود سابقون بالتحية، وهي علامة احترام تذكره رغم كل شيء بالنجمات التي لم تعد تزين كتفيه، بينما يتلقاه شخصٌ

مدني بذيء، ودائماً ما تكون امرأة، بالقول، ألست ذلك الجنرال؟ وإذا كانت بذيئة جداً، تترك له البقشيش، وهو في العادة مبلغ لا يتجاوز دولاراً، إيماءة تعتبر من التصرفات الأمريكية السخيفة. هكذا يصل الجنرال في فترات ما بعد الظهر إلى متجر الكحول، مثلما وصل اليوم، فيرمي حزمة من الدولارات المجعدة على مكتبه، ثم ينتظرني لأسكب له كمية مزدوجة من الشراب الاسكتلندي. يتكئ على كرسيه، ويستمتع بمذاق الشراب وهو يغمض عينيه ويتنهد بانفعال. لكنه اليوم، بدلاً من الاسترخاء على الكرسي، انحنى على مكتبه، ونقر على الصحيفة، وقال، هل قرأت هذه؟

لم أشأ أن أحرم الجنرال من فرصة الانفجار، فقلت كلا. أشار برأسه بتجهم وبدأ يقرأ بعض الفقرات بصوت مرتفع. هناك شائعات حول هذه الأخوية وأغراضها الحقيقية، قال الجنرال، بينما خلا وجهه من أي تعبير مميز وكذلك صوته. الإطاحة بالنظام الشيوعي واضح أنها الهدف، لكن إلى أي مدى تصل الأمور؟ في الوقت الذي تطلب فيه الأخوية معونات وتبرعات لمساعدة اللاجئين، هذه الأموال ربما تتجه لإنشاء حركة مسلحة من اللاجئين في تايلاند. الشائعات تقول إن الأخوية استثمرت في بعض الأعمال التجارية التي تجني منها الأرباح. الناحية الأكثر إحباطاً في الأخوية ذلك الأمل الزائف الذي تروّج له وسط مواطنينا بأننا نستطيع ذات يوم استرجاع بلادنا بالقوة. من الأفضل لو أننا اتبعنا منهج المصالحة بطريقة سلمية، على أمل أن نتمكن ذات يوم في المنفى من استرداد الأمل في بناء بلادنا. طوى الجنرال الصحيفة وأعادها على مكتبه في مكانها السابق. هناك شخص ما يزود هذا الرجل بمعلومات مؤكدة، أيها النقيب.

شربت ما في الكأس لأخفي حقيقة أنني كنت ازدرد لعابي الذي تجمع في حلقي. لدينا تسريبات، يا سيدي، مثلما يحدث في الوطن. انظر إلى الصورة. كل هؤلاء الرجال يعرفون شيئاً عما يحصل. كل ما على سوني أن يقوم به أن يتمشى وهو يحمل قدحاً فيلتقط قطرة من هنا وأخرى من هناك. وسرعان ما يحصل على ما يملأ قدحاً أو قدحين من المعلومات.

أنت على حق، بطبيعة الحال، قال الجنرال. يمكن أن تكون لدينا عشيقات في السر ولكن لا يمكننا الاحتفاظ بالأسرار. هذا الشيء - وهنا ربت على الصحيفة - يبدو رائعاً، أليس كذلك؟ المصالحة، العودة إلى الوطن، إعادة البناء. من لا يريد ذلك؟ ومن يمكن أن

يستفيد أكثر؟ الشيوعيون. لكن بالنسبة إلينا، من المحتمل إذا رجعنا فكأننا نتلقى رصاصة في الرأس أو نبقى فترة طويلة في حالة إعادة تأهيل. هذا ما يقصده الشيوعيون بالمصالحة وإعادة البناء، التخلص من أشخاص مثلنا. هذا الصحفي يروج لهذه البروباغندا اليسارية وسط الفقراء الذين يتشوقون لأي نوع من الأمل. أصبح أكثر إثارة للإزعاج، ألا تتصور؟

حتماً، قلت، ومددت يدي لأخذ الزجاجة. مثل دماغي كانت الزجاجة شبه فارغة وشبه مليئة. رجال الصحافة دائماً يثيرون الإزعاج إذا كانوا مستقلين.

كيف نعرف أنه مجرد صحفي؟ نصف رجال الصحافة في سايغون كانوا متعاطفين مع الشيوعيين، ونسبة كبيرة منهم كانوا شيوعيين. كيف نعرف أن الشيوعيين لم يرسلوه إلى هنا منذ سنوات مع خطة في أذهانهم، لكي يتجسس على أي شخص منا مقيم هنا فيتمكن من تدمير صفوفنا؟ أنت كنت تعرفه في الكلية. هل ظهر عليه هذا التعاطف آنذاك؟ لو قلتُ لا، وعرف الجنرال لاحقاً العكس من شخص آخر، سأكون في ورطة. الجواب الوحيد هو نعم، وهنا قال الجنرال، كضابط استخبارات تعمل معي، لا تقدم لي الكثير من المعلومات، أليس كذلك، أيها النقيب؟ لماذا لم تحذرني عندما كنت ألتقي به؟ هز الجنرال رأسه استهجاناً. ألا تعلم ما هي مشكلتك، أيها النقيب؟ لدي قائمة طويلة من المشاكل، لكن كان من الأفضل ببساطة القول بأنني لا أعرف. أنت متعاطف أكثر من اللازم، قال الجنرال. لم تر الخطر في الرائد لأنه كان بديناً وأنت كنت تشفق عليه بسبب ذلك. والآن تظهر الأدلة أنك تجاهلت عن قصد حقيقة أن سوني ليس مجرد يساري متطرف بل يحتمل أن يكون عميلاً شيوعياً من الخلايا النائمة. كانت نظرات الجنرال عميقة إلى درجة خارقة، حتى بدأ وجهي يؤلمني لكني لم أجرؤ على أن أحكّه. شيءٌ ما ربما يتحتم القيام به، أيها النقيب، ألا تتفق معي؟

نعم، قلت، وكان بلعومي جافاً. يجب أن نفعل شيئاً.

***

كان لديّ الكثير من الوقت للتفكير في الطلب الغامض للجنرال خلال الأيام اللاحقة. كيف يمكن للمرء أن لا يوافق على ضرورة عمل شيء؟ دائماً على الإنسان أن يفعل شيئاً. هناك إعلان ظهر في صحيفة سوني يذكر أن لانا كانت تغني كجزء من عرض مسرحي

وغنائي منوع يسمى «فانتازيا» أعطاني فرصة للتحرك، رغم أنه ليس ذلك النوع من العمل الذي يحتمل أن يفكر به الجنرال. كنت بحاجة إلى مهلة، ولو ليلة، للتفكير في العمل المجهد السري في مجال التخريب. بالنسبة إلى جرذ، اعتاد على العمل في الظلام، النادي الليلي هو المكان المثالي الذي يمكن أن يخطر في بالي. كانت محاولة إقناع بون للذهاب إلى «فانتازيا» لسماع الأغاني والأصوات عن بلادنا التي تلاشت دون أن تزول ذكراها من أذهاننا أقلّ صعوبة مما توقعت، لأن بون بعد أن قرر الموت، كان أخيراً يبدي علامات على الحياة. حتى إنه سمح لي بقص شعره، والذي دهنه بزيت بريلكريم حتى بدا متوائماً مع حذاءينا اللامعين بلونهما الأسود. البريلكريم والكولونيا أضفيا على سيارتي مسحة ذكورية مخدرة ونحن نستمع إلى أغاني فرقة رولنغ ستونز، فالسيارة كانت تنقلنا ليس غرباً فقط إلى هوليوود ولكنها تعيدنا إلى أيام المجد في سايغون حوالي سنة 1967. في ذلك الوقت، قبل أن يصبح بون ومان أبوين، كنا ثلاثتنا نمضي عطل نهاية الأسبوع في شبابنا وسط حانات سايغون ونواديها الليلية، مثلما يفترض أن يفعل الشباب. إذا لم نُضِع الشباب، فكيف يمكن أن يسمى شباباً؟

ربما ألوم فترة الشباب على صداقتي مع بون. ما الذي يدفع شاباً في الرابعة عشرة من عمره لأن يقسم عهد الدم ليؤاخي شاباً آخر؟ والأكثر أهمية، ما الذي يدفع الشاب للالتزام بذلك القسم؟ ألا ينبغي أن تكون الأشياء المهمة، مثل الأيديولوجيا والاعتقاد السياسي، وثمار رجولتنا الناضجة، أكثر أهمية من المثاليات غير الناضجة وأوهام الشباب؟ اسمحوا لي أن أتصور الحقيقة، أو بعض وجوهها، التي ربما توجد في سخافات الشباب هذه التي نسيناها، وخسرناها، مع النضج. هنا أتطرق إلى مشهد ربما يوضح كيف توطدت صداقتنا: ملعب كرة قدم في لايسي، وأنا طالب جديد محاط بطلاب أكبر منه سناً، وأطول منه، خيول سباق قوية في المدرسة. كانوا على وشك إعادة مشهد يلقنه لهم رجل من فجر التاريخ، اللحظة التي ينقلب فيها القوي على الضعيف أو المستجد على الرياضة. كنت مستجداً لكنني لست ضعيفاً، كما أثبتت ذلك لمهرج القرية الذي نعتني بالابن غير الشرعي. مع أنني ضربته وهزمته، فقد تعرضت للضرب أيضاً، وهيأت نفسي لمعركة خاسرة. في ذلك الوقت ظهر صبي جديد آخر فتكلم بشكل غير متوقع دفاعاً عني، تقدم من حلقة الجمهور وقال، هذا ليس عدلاً. لا تستفردوا به. إنه واحد منا. ضحك الصبي الأكبر سناً. من أنت لتقول إنه واحد منا أو لا؟ ولماذا تتصور أنك واحد منا؟ الآن

ابتعد عن طريقي. لكن مان لم يبتعد، ولهذا تلقى أول ضربة، أو صفعة على الأذن جعلته يترنح. وهنا وجهت لكمة برأسي إلى أضلاع الصبي الأكبر وأوقعته أرضاً، فاستقر على صدره وانفرجت ساقاه، ومن هناك جثمت عليه ووجهت له ضربتين قبل أن يسرع رفاقه الحمقى لنجدته. كانوا خمسة ضدي وصديقي الجديد مان، رغم أنني قاتلت ودافعت عن نفسي بكل ما أوتيت من قوة وغضب، كنت أعرف أننا سوف نهزم. أحاط بنا الأولاد الآخرون في المدرسة أيضاً. إذن لماذا قفز بون إلى الأمام من دون الجميع ووقف معنا؟ كان طالباً جديداً وضخم الجثة مثل الصبيان الكبار، صحيح، لكن رغم هذا لم يتمكن من هزيمتهم جميعاً. كان يلكم أحدهم، ويضرب الآخر بالمرفق، وينطح الثالث، ثم سقط بعد أن تكاثروا عليه. وهكذا تعرضنا للضرب، وهزمونا، وتركونا بعد أن أشبعونا لكمات أدمت وجوهنا، وانسحبوا مبتهجين. نعم، كانوا مبتهجين! لأننا خضعنا لاختبار عسير جعلنا ننفصل عن الأوغاد من جهة وعن الجبناء من جهة أخرى. في تلك الليلة نفسها، تسللنا من منزل الطلبة، واتجهنا إلى بستان قريب تكثر فيه أشجار تمر الهند، وتحت الأغصان جرح كلّ منا راحة يده، وامتزجت دماؤنا مرة بعد مرة، نحن الفتيان الذين تعارفنا تواً وتصورنا أننا متشابهون في كل شيء، أكثر من أي أخ، وتعاهدنا على الإخلاص والوفاء.

أي براغماتي، أو مادي حقيقي، سوف يستنكر هذه القصة وينتقد شدة تمسكي بها ويرى أنها من الرومانسية. لكن القصة تحكي كل شيء عن نظرتنا لأنفسنا وإلى بعضنا الآخر في ذلك العمر، كفتيان يعرفون غريزياً أن قضيتهم الوقوف بجانب الضعفاء. أنا وبون لم نتكلم عن تلك الحادثة خلال فترة طويلة، لكني أحسست أنها تجري في دمه ودمي ونحن نترنم بالأغاني التي تعود إلى فترة شبابنا ونحن في طريقتنا إلى أي مكان نقصده أو إلى فندق روزفلت. كان الفندق بناية متداعية على ضاحية هوليوود بوليفارد يرتاده في الماضي بعض مشاهير السينما التي كانت بالأبيض والأسود، أما الآن فقد عفا عليه الزمن كأنه نجم سينمائي في السينما الصامتة. مجاميع من الأشرار تحوم في الشوارع، بأسمال بالية وأحذية عسكرية يفتشون في القمامة، الشعر على طراز تسريحات الهنود الحمر من قبائل الموهوك والعظام في أنوفهم. ربما كانوا مصدر تلك الروائح النتنة للبول التي تهيمن على المكان وتفوح من الأرصفة، حتى أكثر أكاليل الأزهار جمالاً لن تبددها. في الداخل يخفي السجاد البالي بلاطات مشوهة متكسرة، وأثاث الردهة من طاولات للعب الورق ومقاعد طويلة من الخيزران، على استعداد لاستقبال لاعبي البوكر بالبنسات

أو بالألماس. كنت أتوقع نوعاً من ألق وأمجاد هوليوود، منتجي أفلام الدعارة بكروشهم السمينة وياقاتهم وبناطيل الجينز الزرقاء، يمسكون نساءً متبرجات من أياديهن التي تغطيها الحلي والجواهر. أفضل الأشخاص أناقة في الفندق بدا أنه من مواطني البلد، ثيابه لا بأس بأناقتها رأيناه ونحن نتجه إلى غرفة الجلوس حيث تنتظرنا فرقة الفانتازيا. أما الزبائن الآخرون فإنهم على ما يبدو من نزلاء الفندق يلبسون قمصاناً ذات نقوش على شكل مربعات ملونة، وأحذية رياضية، وظلال جانبية تحوم حولهم، الشيء الوحيد الذي أثار انتباهي قنينة الأوكسجين التي معهم. كعادتنا وصلنا متأخرين، حتى عن تلك اللحظة الهوليوودية المميزة.

مع ذلك، كانت الأجواء في غرفة الجلوس الدافئة تبعث على البهجة. بعض المستثمرين استأجر قاعة الفندق لاستقبال الفانتازيا، والنتيجة مكانٌ للجوء دون أي علامة على وجود لاجئين، الرجال متجهمون بستراتهم الأنيقة والنساء جذابات في ثياب السهرة. برجوازيتنا الواعدة على ما يبدو وجدت أعمالاً تستغرق أربعين ساعة في الأسبوع مع ساعات إضافية، ولديهم محفظات مليئة بما يكفي للجلوس بارتياح، يسعون الآن للاستمتاع بالشراب الفرنسي والأغاني. بينما استقر بنا المقام مع بون على طاولة في المؤخرة، كانت مغنية جذابة تلبس سترة مناسبة لموسيقى البوليرو الإسبانية وتترنم بأغنية تؤلم القلب وهي نسخة من أغنية فام دوي «مدينة الأحزان». هل من طريقة أخرى للغناء عن مدينة للأحزان؟ المدينة التي حملها كل واحد منا في قلبه أثناء المنفى. بعد الحب، أليس الحزن من أكثر الأسماء ألفة في ذخيرتنا الغنائية؟ هل يسيل لعابنا للحزن، أم أن أذواقنا تطورت لتتقبله، لم يعد لدينا اختيار سوى الاستمتاع بما نجبر على سماعه؟ هذه الأسئلة تتطلب إما كامو أو الشراب للإجابة عنها، ولأن كامو غير موجود، فقد طلبتُ الشراب.

دفعتُ ثمن جرعات الشراب دون الشعور بتأنيب الضمير من نقودي المتضائلة، لأني على قناعة ثابتة بأن النقود لن تعيش إلا إذا أنفقت، وعلى وجه التحديد برفقة الأصدقاء. حين لمحت النقيب الأشهب والملازم المتجهم يقفان عند المشرب ينظران إلى زجاجات الشراب، أرسلتُ إليهما الشراب. جاءا إلى طاولتنا وشربا معنا نخب الرفاق، رغم أنني لم أقتنع بعد بفكرة الرجوع مع الجنرال من جديد. لكن ذلك هو القرار الذي توصلت إليه،

وكنت سعيداً لصرف نقودي هنا على الشراب مرة بعد مرة. الشراب يجعل الأشياء في حالة أفضل، إنه يعادل قبلة الأم على خد ابنها، وهكذا شغلتنا أصوات المغنين وهم يتناوبون على خشبة المسرح واحداً بعد الآخر. رجالٌ ونساء، يدندنون، ينتحبون، يتنهدون، يضربون، يئنون، يزمجرون، ومهما كانت الأغاني أو طريقة الغناء، كان الجمهور يتفاعل معهم ويحييهم. عدنا جميعاً، حتى بون، في الزمن إلى الوراء مع أصوات المغنين، طوينا الزمن والمسافات إلى نوادينا الليلية في سايغون حيث الذوق الرفيع في اختيار الشراب، إلى جانب الأطعمة المألوفة والتلميحات، تحملنا دائماً إلى حافة البكاء. الكثير من الدموع، ودمعة واحدة تكفي؛ لا شيء، من منا غير مستباح أو مستعبد؟ قطرة واحدة من هذا الإكسير كل ما يحتاج إليه اللسان قبل أن يتمكن من النطق باسم واحد: سايغون.

تلك الكلمة قالها كل من شارك في الغناء، وكررها عريفُ حفل الفانتازيا نفسه، رجلٌ متواضع البنية والثياب، عليه سترة خفيفة رمادية، الشيء المميز الوحيد فيه نظارته. لم أشاهد عينيه لكنني عرفت اسمه. يسمونه الشاعر وكان كاتباً أيضاً ظهرت أعماله في العديد من المجلات الأدبية والصحف، من أبياتٍ لطيفة غارقة في الحزن والحنين إلى الوطن تتناول نسيج الحياة اليومية. تذكرت بيتاً محدداً له عن عيد الغطاس الذي يتمثل في غسل الرز، وبينما لم أتذكر عيد الشاعر تحديداً، تذكرت الإصرار في القصيدة للعثور على معنى حتى في أحقر الأشياء وأكثرها رتابة. في بعض الأحيان، حين أغسل الرز وأغطس يدي في الماء لأتلمس الحبوب الرطبة، أفكر في الشاعر. كنت أشعر بالفخر عندما أرى أن في ثقافتنا، ربما يكون الشاعر عريف الحفل أو مدير المراسم والتشريفات لليلة من الغناء والشراب الفرنسي والعربدة من أجل متعة الناس العاديين. نحن نحترم شعراءنا ونتصور أنهم يملكون شيئاً مهماً يعلموننا إياه، وهذا الشاعر قام بمهمته على أحسن وجه. كتب بضعة أعمدة في صحيفة سوني، شرح فيها غرابة الحياة الأمريكية أو الاختلافات الثقافية التي تمنع التواصل بين الأمريكان وبيننا، وضمن هذا السياق أعطى تعليماته إلى المغنين من خلال دروس مختصرة عن ثقافتنا أو الثقافة الأمريكية. وحين جاء دور لانا في الغناء، بدأ يقول، البعض منكم ربما سمعوا أن الأمريكان من الشعوب التي تعشق الأحلام. هذا صحيح، مع أن البعض يقولون إن أمريكا دولة الرفاهية، إلا أنها في الواقع دولة الأحلام. هنا يمكننا أن نحلم بأي شيء، أليس كذلك، سيداتي سادتي؟ سوف أخبركم ما هو حلمي الأمريكي، قال، وكان يمسك المايكروفون بحرص كأنه يمسك عصا ديناميت. حلمي الأمريكي

أن أرى مرة أخرى، قبل أن أموت، تلك الأرض التي ولدت فيها، أتذوق مرة أخرى فاكهة الكاكي من حديقة عائلتي في تاي نينه. حلمي الأمريكي أن أرجع إلى وطني وأشعل البخور عند قبور أجدادي، أطوف في بلادنا الجميلة التي تنعم بالسلام أخيراً بعد أن توقفت أصوات المدافع التي طغت على صيحات الفرح. حلمي الأمريكي أن أتنقل من مدينة إلى قرية، ومن قرية إلى مزرعة لأرى الصبيان والفتيات يضحكون ويلعبون لأنهم لم يسمعوا أبداً عن الحرب، وأتنقل من دا نانغ إلى دا لات، ومن كا ماو إلى شاو دوك، ومن سا ديك إلى سونغ كاو، ومن بيان هوا إلى بان مي ثاوت -

القطار يعبر مدننا وبلداتنا الكبيرة والصغيرة، لكني نزلت في بان مي ثاوت، بلدتي الأم، التي بين التلال، بلدة التراب الأحمر، على الهضاب التي تنتج أفضل أنواع القهوة، أرض الشلالات الهادرة، والفيلة المنهكة، والناس الذين يتضورون من الجوع في جيا راي بملابس تصل إلى الخاصرة، حفاة، عراة الصدور، الأرض التي ماتت فيها أمي وأبي، الأرض التي دفن فيها حبلي السري في حديقة أمي الصغيرة، الأرض التي وجه فيها جيش الشعب البطل أول ضربة للأعداء في تحريره للجنوب أثناء الحملة العظيمة لسنة 1975، الأرض التي كانت وطني. ذلك هو حلمي الأمريكي، قال الشاعر، تلك أرضي بصرف النظر عن الملابس التي أرتديها والطعام الذي آكله أو اللغة التي أتكلمها، قلبي لن يتغير. هذا هو السبب الذي جعلنا نجتمع هنا الليلة، سيداتي وسادتي. مع أننا لا نستطيع العودة إلى الوطن في الواقع، لكن يمكن أن نعود من خلال الفانتازيا.

هتف الجمهور بحماس لشاعرنا الوقور، لكنه كان حكيماً ويعرف أننا تجمعنا هنا لغرض آخر غير الاستماع له. سيداتي سادتي، قال، رافعاً يده لإسكات الجمهور، اسمحوا لي أن أقدم لكم حلماً أمريكياً آخر، من خيالنا الفيتنامي -

الآن هذا الحلم الأمريكي يمكن أن يسمى بهذا الاسم أو ذاك، جون، بول، جورج، رنغو.. ماري، تقدمت على خشبة المسرح بصدرها المخملي العامر، وتنورة قصيرة عليها رسم النمر، وقفازين أسودين، وحذاء جلدي طويل بأعقاب كالخناجر. كاد قلبي يتوقف من رؤية حذائها العالي المدبب، أو بطنها الملساء المشدودة، بين التنورة القصيرة وحمالة الصدر لا شيء يحجب جسمها، لكن توليفة الأشياء الثلاثة أسرت قلبي وهي تضرب بحماس وقوة كأنها فرقة شرطة لوس أنجلس. الشراب ساعد قلبي في الهدوء، لكن بعد أن

جف حلقي كان من السهل أن يحترق بأغنيتها التي ألهبت المسرح. كانت تمشي على الجمر وحدها بخطوات غير متوقعة، سمعتها تغني سوف أحبك كما تريدني، التي سمعتها فقط من الرجال. سوف أحبك كما تريدني أغنية للعزاب والمتزوجين التعساء من جيلي، سواءً في نسختها الأصلية الإنكليزية أو نسختها الفرنسية التي تماثلها في الروعة وفي الأداء الفيتنامي. المعاني التي تعبر عنها تلك الأغنية بصورة مثالية، من الكلمات إلى اللحن، تتلخص في الحب من طرف واحد، ونحن الفيتناميون لا نغرم بشيء أكثر من الحب من طرف واحد، قلوبنا المحطمة نقطة ضعفنا الأساسية بعد السجائر، والقهوة، والشراب.

بعد الاستماع لغنائها، كل ما أردته أن أضحي بحياتي من أجل ليلة واحدة معها لأبقى أتذكرها إلى الأبد. كل رجل في الصالة كان يشاركني في عاطفتي ونحن نراقبها لا تفعل شيئاً غير التمايل مع ذبذبات المايكروفون، صوتها كفيل بتحريك أي جمهور، أو يجعلنا جامدين في أماكننا. لا أحد يتكلم، أو يتململ باستثناء رفع سيجارة أو كأس، التركيز أطبق على كل شيء، جدار الصمتُ لم يتحطم حتى جاءت أغنيتها الثانية الأكثر صخباً من الأولى، بانغ.. بانغ. غنتها نانسي سيناترا أولاً، ولكنها كانت مجرد أميرة من البلاتين معرفتها الوحيدة عن العنف والبنادق مستمدة بالدرجة الأساس من أصدقاء أبيها من الغوغاء، فرانك. أما لانا، فقد نشأت في مدينة كان فيها رجال العصابات ذات مرة أقوياء حتى قاتلهم الجيش في الشوارع. كانت تكثر في سايغون الهجمات بالرمانات اليدوية وكأنها ظاهرة اعتيادية، وليس تفجير العبوات الناسفة بالأمر غير المتوقع، هجمات بالجملة يشنها الفيتكونغ بشكل مألوف. ماذا تعرف نانسي سيناترا وهي تغني بانغ بانغ؟ بالنسبة إليها، تلك مجرد أغنية من أغاني البوب تشبه طقطقة بالعلكة. البانغ بانغ مسارٌ يمضي عليه شريط حياتنا.

فضلاً عن هذا، نانسي سيناترا كانت، مثل غالبية الأمريكان، أحادية اللغة. أما اللغات التي تعرفها لانا فهي كثيرة، نسخة أخرى أحدث من بانغ بانغ تزخر بكلمات من الإنكليزية، والفرنسية، والفيتنامية. Bang bang, je ne l'oublierai pas، هكذا يأتي البيت الأخير بالنسخة الفرنسية، والذي يردده فام دوي في النسخة الفيتنامية هكذا، «لن ننسى أبداً». على مدرجات ملاعب سايغون الكلاسيكية التي تصدح بأغاني البوب، هذا التلون في الأداء واحد من أكثر

الإبداعات تميزاً، فهو يمزج ببراعة مشاعر الحب والعنف في قصةٍ واحدة مبهمة عن عشيقين، بصرف النظر عن أن أحدهما يعرف الآخر منذ الطفولة، أو لأن أحدهما يعرف الآخر منذ الطفولة، أطلق أحدهما النار على الآخر. بانغ بانغ صوت إطلاقة المسدس في الذاكرة على رؤوسنا، لأننا لم نستطع أن ننسى الحرب، ولم ننس العشاق، ولم ننس الأعداء، ولم ننس الوطن، ولم ننس سايغون. نحن لم ننس مذاق الكراميل في القهوة المثلجة مع السكر الخشن، لم ننس حساء المعكرونة نأكله ونحن نقرفص على الأرصفة، ودندنة صديق بالغيتار بينما نلعب على الأراجيح تحت أشجار جوز الهند، ومسابقات كرة القدم نلعبها حفاة وبلا قمصان في الأزقة، والميادين، والحدائق، والمروج، لم ننسَ دثار اللآلئ وسدم الصباح التي تغطي الجبال، والرطوبة على الشفاه ونحن ندوس على المحار الذي يخشخش تحت أقدامنا على شاطئ رملي، والهمسات الندية على شفتَي عاشق يقول فيها أكثر الكلمات إغواء في لغتنا، anh oi، خشخشة الرز وهو يطحن، العمال الذين ينامون تحت الجسور والأنفاق وفي الشوارع، لا تدفئهم غير ذكريات عائلاتهم، واللاجئون الذين ينامون على كل رصيف من كل مدينة، لسعات البعوض الحارقة البطيئة، عذوبة وصلابة ثمار المانجا الطازجة التي اقتطفت تواً من أشجارها، والفتيات اللواتي يرفضن الكلام معنا لكنهن يتشوقن للمزيد من الكلام، والرجال الذين ماتوا أو اختفوا، والشوارع والمنازل التي نسفتها القاصفات، والجداول التي نسبح فيها عراة ونحن نضحك، والمخبأ السري الذي نتلصص منه على الحوريات يسبحن ويتراشقن بالمياه في براءة الطيور، والظلال التي تلقيها الشموع على جدران الأكواخ المتهالكة، والرنين النشاز للأجراس على أعناق البقر وهي تعبر الطرقات الموحلة في الأرياف، ونباح الكلاب الجائعة في قرية مهجورة، والغبار المثير للشفقة الذي يغطي الدريان45 الطري ويزيله المرء ليأكل، ومنظر اليتامى ينوحون قرب أجساد ميتة لأمهاتهم وآبائهم، ونتانة قميص أحدهم وقت الظهيرة، ونتانة حبيبة أحدهم بعد العناق، ونتانة مواقعنا، وصياح الخنازير وهي تهرب لتنجو والقرويون يطاردونها، والتلال المشتعلة بأضواء الغروب، والرأس المتوج للفجر وهو يبزغ من أمواج البحر، والملمس الدافئ ليد الأم، وبينما يمكن لهذه القائمة أن تستمر إلى ما لا نهاية، فالمغزى ببساطة: الشيء الأكثر أهمية الذي لا يمكن أن ننساه أننا لا يمكن أن ننسى.

لما انتهت لانا من الغناء، صفق لها الجمهور، وصفروا وخبطوا، لكني جلست صامتاً مندهشاً وهي تنحني لهم وتنسحب برشاقة، كنت عاجزاً عن فعل أي شيء بحيث لم

أستطع حتى أن أعبر عن إعجابي. وبينما قدم الشاعر المغنية الثانية، كل ما سمعته هو بانغ بانغ، حين عادت لانا إلى الطاولة المحجوزة للمطربين، وجلست على مقعد آخر إلى يسار مقعد المغنية التي حلت محلها، أخبرتُ بون أنني سوف أعود خلال عشر دقائق. سمعته يقول لا تفعل، أيها الوغد الأحمق، لكن دون تفكير مني بدأت أمشي عبر القاعة. أصعب شيء يمكن القيام به في الحديث مع امرأة اتخاذ أول خطوة، والأهم أن لا تفكر. عدم التفكير أصعب مما يبدو لأول وهلة، ولكن مع النساء على المرء أن لا يفكر أبداً. في المرات الأولى التي حاولت فيها التعرف على الفتيات، أثناء سنواتي في لايسي، كنت أفكر كثيراً، أتردد، ونتيجة لهذا، أفشل مرات ومرات. ومع ذلك اكتشفت أن كل مخاوف الطفولة التي عانيت منها قد قوت عزيمتي، وجعلتني أعتقد أن الرفض الذي أواجهه أفضل من عدم الحصول على فرصة للرفض. وهكذا حصل أن مضيت في التعرف على الفتيات، والآن النساء، مع استبعاد كل الشكوك والمخاوف التي ينصح بها بوذا. جلستُ بجانب لانا دون التفكير بشيء، فقط كنت أتبع غرائزي والمبادئ الثلاثة الأولى بخصوص المرأة: لا تطلب منها الإذن؛ لا تقل مرحباً؛ لا تدعها تتكلم أولاً.

لم تكن لدي أدنى فكرة أنك سوف تغنين هكذا حين رأيتك أول مرة، قلت. نظرت لي بإعجاب بعينين أثارتا في خيالي عيون التماثيل الإغريقية القديمة، خالية من أي تعبير مع أنها معبرة. لماذا تقول هذا؟ كنت فقط في الرابعة عشرة.

وأنا كنت في الثالثة والعشرين. ماذا كنت أعرف؟ انحنيت قريباً منها لأسمع الموسيقى، ولأعرض عليها سيجارة. المبدأ الرابع: امنح المرأة فرصة لرفض شيء آخر غيرك. إذا رفضت السيجارة، مثلما هو متوقع من أي امرأة فيتنامية محتشمة، لدي حجة أن آخذ واحدة لنفسي، وهذا يمنحني بضع ثوان لقول شيء بينما تركز هي على سيجارتي. لكن لانا أخذت السيجارة، ومنحتني فرصة إشعال سيجارتها بلهب لامع، مثلما أشعلت ذات مرة سيجارة للسيدة موري. لماذا والدتك ووالدك يفكران بهذه الطريقة؟

يعتقدان أنه ضياع للوقت أن نغني ونرقص. أعتقد أنك تتفق معهما؟

أشعلت سيجارتي. لو كنت متفقاً معهما، هل سأحضر هنا؟

أنت موافق على كل شيء يقوله أبي.

أوافق فقط على بعض الأشياء التي يقولها أبوك. لكني لا أعارض أي شيء.

إذن تتفق معي فيما يتعلق بالموسيقى؟

الموسيقى والغناء تجعلنا نبقى أحياء، تعطينا الأمل. إذا ركزنا على مشاعرنا، فنحن نعرف أننا أحياء.

ونعرف أن بإمكاننا الحب. نفثت الدخان بعيداً عني، رغم أنني تمنيت لو أنها نفثته على عيني أو على أي جزء من جسمي. والداي يخافان أن الغناء سوف يدمرني ولا يجعلني أصلح للزواج، قالت. ما يريدانه لي أن أتزوج غداً من شخص محترم وغني جداً. أنت لست هذا ولا ذاك، أليس كذلك أيها النقيب؟

هل تحبذين أن أكون محترماً وغنياً؟

ستكون أقلّ إثارة للإعجاب.

ربما تكونين أول امرأة في تاريخ العالم تحس بهذا، قلت. طوال هذا الوقت كنت أثبت نظراتي عليها، وذلك يتطلب جهداً مضنياً إذا نظرنا إلى جاذبية فتحة صدرها. بينما كنت أنتقد الكثير من الأمور حين يتعلق الأمر بما يسمى الحضارة الغربية، إلا أن فتحة الصدر ليست منها. ربما اخترع الصينيون البارود والمعكرونة، لكن الغرب اخترعوا فتحة الصدر، مع تلميحات عميقة لا تعرف حقيقتها. الرجل الذي ينظر إلى صدر شبه مكشوف لا يهتم ببساطة بالجانب الشهواني، إنه يتأمل، حتى إذا لم يكن واعياً، يفكر في المعنى البصري للفعل «يفتح» الذي يعني القطع إلى جزأين أو أكثر والجمع بين الأجزاء. صدر المرأة يوضح هذا المعنى المزدوج المتناقض، فالنهدان كيانان منفصلان لهما هوية واحدة. المعنى المزدوج يوضح كيف أن فتحة الصدر تميز المرأة عن الرجل ومع ذلك فهي تجذبه إليها بقوة لا سبيل لمقاومتها للانزلاق على منحدر أملس. الرجال ليس لديهم شيء مماثل، ربما باستثناء الشيء الوحيد الذي تحرص عليه أغلب النساء، فتح وإغلاق محفظة مليئة بالأوراق النقدية. بينما النساء يمكنهن النظر إلينا طويلاً كما يردن، ونحن نقدر هذا، فالويل لنا إذا نظرنا والويل لنا إذا لم ننظر. المرأة ذات فتحة الصدر غير الطبيعية من المعقول أن تتعرض للتجريح من رجل تحاول عيناه مقاومة الانقضاض عليها، وهكذا فقط لكي أكون مؤدباً، رمقتها بنظرة تدل على ذوق رفيع بينما مددت يدي لأخذ سيجارة

أخرى. وسط فتحة ذلك الصدر المكتنز برزت شارة النصارى على سلسلة ذهبية، وأحسست في تلك اللحظة برغبة في أن أكون نصرانياً حتى أصلب هناك.

هل تريدين سيجارة أخرى؟ قلت، والتقت نظراتنا مرة أخرى وأنا أقدم لها العلبة. لم تكترث لإعجابي بصدرها. بدلاً من ذلك قبلت عرضي بصمت، ومدت يدها الرقيقة، وأخذت سيجارة، وضعتها بين شفتين كالحلوى، وانتظرت أن أشعلها من النار التي في يدي، ثم تدريجياً سحبت الدخان حتى تحولت السيجارة إلى رماد يتدلى، وتبدد الدخان بسرعة. إذا تمكن رجل من النجاة للمدة التي يتطلبها تدخين أول سيجارة، فلديه فرصة للوصول إلى شاطئ جسد المرأة. حين نجوت من السيجارة الثانية تعززت ثقتي بشكل لا يوصف. لهذا حين رجعت المغنية التي جلستُ على كرسيها، وقفتُ بثقة وقلت لها، لنذهب إلى المشرب. المبدأ الخامس: الإقرار، وليس السؤال، من المحتمل أن لا يؤدي إلى الرفض. هزت كتفيها ومدت لي يدها.

خلال الساعة التالية، بين الوقت الذي كانت فيه لانا تلهب الأرض بأغانيها والوقت الذي نامت فيه على ساعدي، تعلمت الأشياء التالية: أنها تحب الشراب الروسي، فطلبت لها ثلاث كؤوس. كل كأس يتمايل فيها سائل رقراق تطفو عليه زيتونتان خضراوان مكتنزتان، إيحاء بحلمات الصدر أو فاكهة حلوة تنتأ منهما. الرجل الذي تعمل لديه أرستقراطي لديه معرض للفنون في برنتوود. لديها أصدقاء من الشبان، وإذا ناقشت المرأة ماضيها مع أصدقائها، فهي تبلغك أنها توليك اهتماماً مقارنة بوالديها اللذين يتجسسان عليها. ولأني كنت بارعاً في أسئلتي عن السياسة أو الدين، علمت أنها تقدمية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية. تؤمن بتحديد النسل، ومنع انتشار الأسلحة، وتخفيض الإيجارات، تؤمن بتحرر الشواذ والحقوق المدنية للجميع، تؤمن بغاندي، ومارتن لوثر كنغ جونير، وبأفكار ثايش نهات هانا، تؤمن باللاعنف، وبالسلام العالمي وباليوغا، تؤمن بالإمكانات الثورية للديسكو، وبأمم متحدة للنوادي الليلية، تؤمن بحق تقرير المصير الوطني للعالم الثالث فضلاً عن الديموقراطية الليبرالية والرأسمالية المنضبطة، وكما قالت علينا أن نؤمن بأن اليد الخفية للسوق ينبغي أن تلبس القفاز الطفولي للاشتراكية. من مطربيها المفضلين بيلي هوليداي، دستي سبرنغفيلد، إيليس فونغ، كانا لاي، وتؤمن أيضاً بأن الشعب

الفيتنامي يمكن أن يغني أغاني الزنوج. من بين المدن الأمريكية تتصور أن نيويورك هي المكان الذي تريد أن تعيش فيه إذا لم تستطع العيش في لوس أنجلس. لكن من الأشياء المهمة التي عرفتها عنها: بينما أغلب النساء الفيتناميات يحتفظن بآرائهن لأنفسهن حتى يتزوجن، وحينها لا يحتفظن أبداً بآرائهن لأنفسهن، فهي لا تتردد في الإفصاح عما تؤمن به.

في نهاية الساعة أشرت إلى بون أن يأتي، كنت أتحرق شوقاً لمستمع آخر يخفف عني التوتر. هو أيضاً كان متأثراً بالشراب الذي جعله طليق اللسان على غير عادته. لم تكن لانا لتتردد في الثرثرة مع رجل عادي، وخلال الساعة التالية أصبحا صديقين يتمشيان على ممر الذكريات، يتذكران سايغون والأغاني بينما بقيت وحدي أشرب الشراب وأنا أحملق في ساقي لانا بانبهار. بدت ساقاها أطول من المعتاد وشيئاً يمتع الناظرين، تمتدان كأنما إلى الأبد، كأنهما ساقا هندي يؤدي اليوغا أو كأنهما من الطرق السريعة الأمريكية التي تخترق السهول الكبرى للصحراء الجنوبية الغربية. ساقاها تطلبان من المرء النظر إليهما ولا تقبلان أي شكل من أشكال الرفض، أو التردد. وقعت أسيراً لمنظرهما وحين سمعت لانا تقول، وماذا عن زوجتك وطفلك؟ ترقرقت الدموع وانهمرت على خدي بون فتكسرت التعويذة التي ألقتها عليّ، المنظر جعلني أنتفض من حالة الصمم. بطريقة ما تحول الحوار من سايغون والأغاني إلى سقوط سايغون، وهذا ليس بالمستغرب. أغلب الأغاني التي يستمع إليها المنفيون تنغمس بمشاعر الخسارة الرومانسية الكئيبة، ولا بد أن تذكرهم بخسارة مدينتهم. أي حديث بين المنفيين عن سايغون يصبح بالتالي حديثاً عن سقوط سايغون ومصير أولئك الذين تركوا هناك. إنهم موتى، قال بون الآن. كنت مندهشاً، لأن بون لم يتكلم أبداً عن لينه ودوك مع أي شخص غيري، أو في الحقيقة بالكاد يتكلم مع أي شخص. تلك مشكلة المسير على درب الذكريات. الدرب يبدو دائماً ضبابياً، ومن المحتمل للإنسان أن يزل ويسقط. لكن ربما هذا السقوط المحرج يستحق المحاولة، لأن لانا، بإزاء استغرابي الشديد، عانقته وضغطت رأسه العنيد القبيح على خديها. أيها المسكين، قالت لانا. أيها المسكين، أيها المسكين. دهمتني المفاجأة، فأحسست بانتفاض الحب المؤلم لصديقي العزيز ولهذه المرأة بشخصيتها المغرية كرمز للقدسية والخلود انقلب على قاعه المستدير. اشتقت لإثبات شوقي إليها من خلال فحصٍ تجريبي لمنحنيات جسدها الخليع بعيني، صدرها بين يدي، بشرتها تحت لساني. تمنيت آنذاك، وهي تركز

انتباهها على بون المنتحب، الغارق في حزنه بحيث بدا غير واع للوادي الساحر المكشوف أمامه، أن أمتلكها وتمتلكني.

الفصل الخامس عشر

أشياء كثيرة مما اعترفت به حتى الآن ربما تبدو غريبة عليكم، يا عزيزي القائد، وبالنسبة إلى هذا المفوض صاحب الوجه الغامض الذي يعمل معكم وسمعت عنه أشياء كثيرة. الحلم الأمريكي، وثقافة هوليوود، والممارسات الديموقراطية الأمريكية، وما إلى ذلك، يمكن أن تجعل أمريكا كلها مكاناً مربكاً للناس من أمثالنا الذين ينتمون إلى الشرق. على ما يبدو حالتي كنصف شرقي ساعدتني، ربما بشكل غير مباشر، على فهم الشخصية الأمريكية، وثقافة الأمريكان، وعاداتهم. لكن هناك اختلاف آخر ربما يبدو لكم محيراً هنا يتعلق بالسلوكيات والقضايا الرومانسية. نحن نتغازل لكن الأمريكان يتواعدون، وهي عادة براغماتية حيث يعقد الذكر والأنثى اتفاقاً مشتركاً للقاء في وقت محدد، كما لو أنهما يريدان التفاوض بشأن أعمال من المحتمل أن تكون رابحة. الأمريكان يفهمون أن المواعيد تتعلق بالاستثمار والمكاسب، قصيرة الأمد أو طويلة الأمد، لكننا ننظر إلى الجانب الرومانسي والغزل على أنه يتعلق بالخسائر لا المكاسب. على كل حال، الغزل الذي يستحق هذه التسمية يتضمن إقناع المرأة التي لا يمكن إقناعها، وليس المرأة المستعدة مسبقاً للرجوع إلى جدول مواعيدها لكي تقرر رأيها.

لم نتواعد أنا ولانا. كتبت إليها الرسائل طرحت فيها حالتي، مستخدماً المزيج الذي تعلمته من التخيلات المجنحة، وتعاويذ الراهبات؛ قمت بتأليف الأغاني الريفية على النمط الإيطالي والقصائد الغنائية الإنكليزية أو السونيتات متعددة الأبيات وأخرى من بيتين متقنين يتماشيان مع قواعد العروض لكنها أبيات ذات مضمون جاد في عمق الإخلاص والعاطفة؛ كنت أمسك الغيتار وهي تتركني أجلس على وسادة مغربية في شقتها

أغني لها أغاني فام دوي، ترينه كونغ سون، ومغني الشتات المحبوب الجديد دوك هيوي. وتكافئني بابتسامات مغرية ذات سحرٍ مبهم كأنها آلهة السحاب والمطر. كان لي دائماً مقعد محجوز في الصف الأمامي مع أبرز الشخصيات التي تحضر للاستماع إليها، وأتمتع بميزة الضيف الدائم لحفلاتها التي تقام أكثر من مرة في الأسبوع. كنت ممتناً ومعذباً في آنٍ واحد، وأنا أسرد ذلك لبون في أمسيات كثيرة في متجر المشروبات. لم يكن متحمساً للرد عليّ. أخبرني بهذا، أيها الفتى العاشق، قال ذات يوم، وقد عاد إلى تعليقاته المقتضبة. كان انتباهه موزعاً بيني وبين اثنين من المراهقين المعجبين بمقتنيات المحل يتسللان كالفئران من أحد الأزقة، ثنائي سنوات عمرهما أقلّ من العاشرة. ماذا يحدث لو اكتشف الجنرال الأمر؟ كنت جالساً معه خلف المنضد، ننتظر وصول الجنرال خلال فترة ما بعد الظهر. وكيف يعرف الجنرال؟ قلت. لن يخبره أحد، لانا وأنا لسنا مغرمين أحدنا بالآخر إلى درجة التفكير بأننا ذات يوم سنتزوج ونعترف له بذلك. ثم ما كل هذا العشق اليائس الجريء؟ سأل مقتبساً من وصفي السابق لعلاقتنا الغرامية. قلت: هل يجب أن ينتهي العشق اليائس الجريء بالزواج؟ ألا يمكن أن ينتهي بالحب؟ ما علاقة الزواج بالحب؟ قال ساخراً. الله خلقنا لكي نتزوج. الحب مرتبط حتماً بالزواج. أتساءل إن كان على وشك الانهيار كما حصل له تلك الليلة في مسرح الفانتازيا، لكن مناقشة الحب، والزواج، والموت ليس لها تأثير واضح عليه في هذه الظهيرة، ربما لأنه كان يركز على المرآة المحدبة المعلقة في ركن بعيد. عين المرآة الأحادية تعكس مراهقين يحملقون في الشراب البارد بانبهار، يدوخهم انعكاس النيون على زجاج الكهرمان. الزواج عبودية، قلت. عندما خلقنا الله نحن البشر لم يشأ للبعض منا أن يكونوا عبيداً للبعض الآخر.

أتعرف ما الذي يجعلنا بشراً؟ في المرآة، انتزع الصبي القصير زجاجة ودسها في جيب معطفه. في الخارج ربما كانت الحرارة تتجاوز خمسين درجة. أطلق بون تنهيدة ضجرة، وأمسك مضرب البيسبول من تحت ماكينة تسجيل النقود. ما يجعلنا بشراً أننا المخلوقات الوحيدة على هذا الكوكب التي بإمكانها أن تخدع نفسها.

ربما كان يمكن التعبير عن هذه المسألة بدقة أكبر، لكنه ليس بالشخص الذي يكترث بمسائل اللياقة. إنه يهتم أكثر بمطاردة اللصوص بهراوة غليظة حتى سقطوا على ركبهم، وسلموا الأشياء التي أخفوها في معاطفهم، وتوسلوا طالبين الصفح. لم يكن بون يريد سوى

تعليمهم الطريقة التي تعلمناها. معلمونا كانوا يؤمنون بالعقوبة العسكرية التي تخلى عنها الأمريكان، والتي ربما كانت من الأسباب التي جعلتهم لا يربحون الحروب. بالنسبة إلينا، العنف يبدأ من المنزل ويستمر في المدرسة، والآباء والمدرسون يضربون الأطفال والطلاب كأنهم السجاد الفارسي لنفض غبار الكسل والغباء عنهم، وبذلك يجعلونهم أكثر جمالاً. أبي لم يكن بالاستثناء. كان ببساطة مخلصاً أكثر من غيره، يعزف على السنطور مستخدماً مسطرته التي يضرب بها مفاصل الطلاب حتى تتغطى أيدينا الضعيفة بالكدمات الأرجوانية والسوداء. في بعض الأحيان كنا نستحق الجلد، وأحياناً لا، لكن أبي لا يظهر أبداً أي نوع من الندم حين يثبت دليل براءتنا. لأن الجميع مذنبون بالخطيئة الأصلية، فحتى العقاب الذي في غير محله يكون عادلاً.

أمي كانت مذنبة أيضاً، لكن خطيئتها من النوع غير الأصلي. لم أكن أهتم كثيراً بأن تكون الخطيئة أصلية أو غير أصيلة. حتى في الغزل مع لانا، كنت أشك في أن أي خطيئة أرتكبها معها تكفي لأن تكون أصلية. لكني أعتقد أن الخطيئة معها ربما تكفي، لأني لن أعرف ذلك إلا إذا جربت. لعلي ألمح اللانهاية إذا ألهبتها بجذوة الشهوة التي تأتي من احتكاك روحي بروحها. لعلي أخيراً أعرف الخلود دون أن ألجأ إلى هذا:

س. اذكر لي شيئاً عن مذهب الرُسل.

ج. إنني أؤمن بالله القدير، خالق السماوات والأرض..

أظن أن هذين السارقين سمعا أيضاً بهذه الصلاة، فالأفكار المسيحية مهمة جداً للشعب الأمريكي بحيث أنهم أعطوها مكانة ووضعوها على أكثر الوثائق قيمة لديهم، الدولار. نحن نؤمن بالله. وهي تطبع حتى الآن على النقود التي في محفظاتهم بينما بون يربت على جباههم بلطف بمضرب البيسبول وهم يصرخون، أرجوك، سامحنا! على الأقل هؤلاء العفاريت يعرفون الخوف، وهو واحد من الدوافع العظيمة للإيمان. المسألة التي لا يحلها مضرب البيسبول إن كانوا يعرفون الدافع الآخر، الحب، والذي لسبب ما، يصعب تعليمه.

***

وصل الجنرال في وقته المحدد، وعندئذ غادرنا، كنت أقود السيارة بينما جلس هو في

المقعد الخلفي. لم يتكلم كعادته، ولا أمضى الوقت في تقليب أوراق حقيبته. بدلاً من ذلك، كان ينظر من النافذة، وهذا ما يعتبره في العادة مضيعة للوقت، والشيء الوحيد الذي قاله لي أن أوقف الموسيقى. وسط الصمت الذي أعقب ذلك سمعت عزفاً للتشيلو ينبئ بشيء ما، يعلن الموضوع الذي كنت واثقاً أنه يشغل باله، سوني. المقال الذي كتبه سوني في الصحيفة عن عمليات مزعومة للأخوية والحركة يعكر صفو الألفة السائدة وسط جالية المنفيين، تلميحاته المسمومة أصبحت حقيقة مؤكدة والحقائق أصبحت شائعات تسري كالعدوى. ومع الوقت وصلت الشائعات لي، حكاية أن الجنرال فشل في جهوده لتمويل الحركة أو افتضح أمر الأرباح المريبة. تلك إما أن تكون أموالاً مدفوعة من حكومة الولايات المتحدة للتغاضي عن فشلها في مساعدتنا مع نهاية الحرب، أو هي أرباح ليس إلا من سلسلة المطاعم، ومن تجارة المخدرات، والدعارة، وابتزاز أصحاب الأعمال الصغيرة. الحركة كما يؤكد البعض ببساطة مجرد تمويه، ورجالها في تايلاند زمرة من المنحطين الأوغاد يعتمدون على تبرعات أبناء المجتمع. ويقول آخرون إن أولئك الرجال في الواقع كتيبة من أفضل المحاربين، وإنهم متعطشون للدماء ومجانين يريدون الانتقام. وهناك إشاعة منتشرة بين الناس مفادها أن الجنرال إما يرسل هؤلاء المجانين إلى حتفهم من مكتبه أو أنه سوف يرجع بنفسه، مثل ماكارثر46 إلى الفلبين، ليتولى قيادة الهجوم البطولي شخصياً. إذا كنت أنا سمعت بهذه الإشاعة، فالمدام حتماً سمعت بها، والجنرال أيضاً، كلنا ندور في الحلقة نفسها، نشترك في سماع القيل والقال. وهذا يشمل الرائد البدين، جسده السمين يتمدد بكرشه على حافات المقعد بجانبي. لم أجرؤ على الالتفات، رغم أنني نظرت جانبياً فرأيته يواجهني، ثلاث عيون في وجهه كلها مفتوحة. أنا لم أعمل تلك الفتحة في رأسه التي أعطته عيناً ثالثة، لكني عملت الخطة التي قادت إلى مصيره. الآن هذه العين الثالثة تسمح له بمراقبتي مع أنه ميت، أصبح مراقباً وليس مجرد خيال. لا يمكنني الانتظار لأرى نهاية هذه القصة التافهة، قال. لكني أعرف كيف ستنتهي. ألا تعرف أنت؟

هل قلت شيئاً؟ قال الجنرال.

لا، يا سيدي.

سمعتك تقول شيئاً.

كنت أتكلم مع نفسي.

لا تتكلم مع نفسك.

نعم، سيدي.

المشكلة الوحيدة بعدم الكلام مع النفس أنها أفضل مستمعٍ بإمكان المرء تخيله. لا أحد يصبر على الاستماع للمرء أكثر من نفسه، بينما لا أحد يعرف المرء أفضل من نفسه، فلا أحد يسيء فهمه أكثر من نفسه. لكن إذا كان الكلام مع النفس هو الحوار المثالي في حفلة الكوكتيل لخيال الإنسان، فالرائد البدين كان الضيف المزعج الذي يشاكس ويتجاهل أصول اللعبة. المؤامرات لها حياة خاصة بها، أليس كذلك؟ قال. أنت الذي ابتكرت هذه المؤامرة. والآن أنت الوحيد الذي يمكنك التخلص منها. هكذا سارت الأمور لبقية الرحلة إلى نادي البلد، الرائد البدين يهمس في أذني بينما أنا أمسك لساني لمدة طويلة حتى أكاد أشعر بالألم، يتورم لساني من الكلمات التي أردت أن أقولها له. في أغلب الأحيان أتمنى له أشياء كنت ذات مرة أتمناها لأبي، أن يختفي من الحياة. بعد أن تلقيت رسالة مان في الولايات المتحدة والتي نقلت خبر موت أمي، كتبت إليه قائلاً لو كانت هناك عدالة في الحياة، فأمي يجب أن تكون حية وليس أبي. كم أتمنى لو كان ميتاً! في حقيقة الأمر، مات أبي بعد فترة قصيرة من عودتي، لكن موته لم يحقق لي الراحة التي تصورت أنه سيحققها.

هذا نادي البلد؟ قال الجنرال حين وصلنا. تأكدت من العنوان؛ العنوان نفسه على بطاقة الدعوة التي أرسلها عضو الكونغرس. الدعوة تذكر أحد النوادي في الأرياف، وتصورت أننا سوف نمر بطرقات متعرجة تنهك السيارة وننتهي إلى ممر مغطى بالحصى وصولاً إلى خادم ينتظرنا بصدرية سوداء وربطة عنق قصيرة، ممر الباستيل الذي يؤدي إلى عرين مفروش بجلود دببة سوداء. على الجدران تبرز رؤوس ظباء بقرونها، تحملق بعيونها الجارحة مخترقة دخان السيجار وجدران النوافذ والصور. في الخارج مساحة واسعة من الاخضرار كأنها ملاعب الغولف التي تحتاج إلى مياه أكثر مما تحتاج إليه مدينة من العالم الثالث، حيث يمارس أثرياء القوم الرياضة التي تتطلب مهارات خارقة في استعمال المضرب إضافة إلى تمتعهم بقوة المحاربين الأشداء الضرورية لتفكيك تماسك النقابات والتهرب من الضرائب. ولكن بدلاً من الركض هنا وهناك بإمكان المرء دائماً

الاعتماد على خزين لا ينضب من كرات الغولف ذوات الندب مع ضرورة التحلي دائماً بالتهذيب والرضا عن النفس؛ العنوان الذي وصلنا إليه عبارة عن مطعم شواء في ضاحية أناهايم يتمتع بكل ما يتوقعه المرء من السحر الخلاب للفخامة وجاذبية المكان. بدا مكاناً ملائماً لتناول الطعام مع شخصية مثل ريتشارد هيد، الذي كان يزور المدينة في جولة لإلقاء المحاضرات.

بعد أن أوقفت السيارة في ساحة تشغلها فقط عجلات أمريكية أو ألمانية الصنع في مرآب افتتح مؤخراً، تبعت الجنرال إلى المطعم. كان نادل المطعم يتصرف كأنه سفير بلدٍ صغير جداً، في مزيج فريد من التكبر والعبودية. بعد أن سمع باسم عضو الكونغرس، رقت قسماته بما يكفي ليحني رأسه قليلاً وقادنا عبر متاهة من الحجرات الصغيرة حيث الأمريكان ذوي البشرة الوردية في صدريات بلون الألماس وقمصان أوكسفورد ذات الأزرار السفلية يتناولون كميات مفرطة من شرائح لحم البقر المشوية وأضلاع الضأن. توجهنا إلى حجرة خاصة في الطابق الثاني، حيث وجدنا عضو الكونغرس يتحدث مع أشخاص آخرين جلسوا على طاولة مستديرة تكفي لأن ينام المرء عليها. كل واحد من الحاضرين كان يمسك كأساً في يده، واتضح لي أن تأخرنا مقصود مسبقاً. حين نهض عضو الكونغرس، حاولت أن أخفف توتري قليلاً. أحسست أنني في حضرة أخطر الممثلين في تاريخ العالم، الرجل الأبيض في سترته.

أيها السادة، نحن سعداء لانضمامكم إلينا، قال عضو الكونغرس. اسمحوا لي بأن أعرف بعضكم على بعض. لدينا هنا ستة من الأشخاص الآخرين، رجل أعمال بارز، واثنان من مرشحي الانتخابات، واثنان من المحامين، فضلاً عن الدكتور هيد طبعاً. بينما كان عضو الكونغرس والدكتور هيد من الشخصيات المهمة جداً، فالآخرون ومنهم الجنرال، لهم أهمية ثانوية (بالنسبة لي كنت تافهاً). نال الدكتور هيد النصيب الأوفى من الاهتمام في المأدبة، والجنرال لم يهتم به أحد تقريباً كما ينبغي، رغم أن عضو الكونغرس أقام هذه المأدبة على شرفه، وهي فرصة لتوسيع شبكته من المساندين، والمستثمرين، مع جائزة كبرى تتمثل في حضور الدكتور هيد. كلمة طيبة من الدكتور هيد، كما قال عضو الكونغرس للجنرال، تكفي لتفتح الأبواب المغلقة والشيكات لصالح قضيتك. ليس بالصدفة، إذن أن المقاعد التي على جانبي الدكتور هيد كانت محجوزة للجنرال ولي أنا،

ولم أهدر الوقت في عرض نسختي من كتابه ليكتب لي إهداء.

أرى أنك قرأت هذا الكتاب بحرص بالغ، قال الدكتور، وهو يمرر إبهامه على الصفحات، وكان يبدي اهتماماً استثنائياً بحيث صار الكتاب كأنه قطعة إسفنج مشبعة بالماء. هذا الطالب الشاب ذو شخصية أمريكية، قال عضو الكونغرس. من خلال ما أخبرني به الجنرال، وما رأيته، ظننت أنه ربما كان يعرفنا أفضل مما نعرف أنفسنا. الرجال على الطاولة جفلوا من سماع الفكرة، وأنا كذلك. إذا كنت طالباً تدرس الشخصية الأمريكية، قال الدكتور هيد مشيراً إلى صفحة العنوان، فلماذا تقرأ هذا الكتاب؟ إنه يركز على الشخصية الآسيوية أكثر من الأمريكية. أعاد لي الكتاب، فقلت وأنا أحس بثقله في يدي، يبدو لي أن من الطرق التي تمكننا من فهم شخصيتنا أن نفهم طريقة تفكير الآخرين، وخاصة أولئك الذين يشبهوننا. نظر إليّ الدكتور هيد بتركيز من فوق نظارته التي بلا إطار، تلك النظرة أزعجتني، وخاصة إذا جاءت من رجل سبق أن كتب هذا:

«أي مقاتل عادي من الفيتكونغ لا يمكن أن يختلف مع توجهات أمريكا الحقيقية. إنه يواجه خلافاً مع النمر الورقي الذي خلقه رؤساؤه الكبار، لأن الكثير من الشباب المثاليين مخدوعون بالشيوعية. إذا فهم ذلك المقاتل الطبيعة الحقيقية لأمريكا، سوف يدرك أن أمريكا صديقة له، وليست عدواً». (ص 213)

لم يكن الدكتور هيد يتكلم عني تحديداً، لأني لست من المقاتلين الفيتكونغ العاديين، ومع ذلك أيقنت أنه يتكلم عني، بمعنى أنه يتعامل مع نماذج نمطية. قبل هذا اللقاء كنت قد رجعت إلى كتابه مرة أخرى ووجدت مثالين يتعلقان بنماذج مثل شخصيتي. الجانب الشرقي مني:

«المثقف الفيتنامي الراديكالي أخطر الأعداء بالنسبة إلينا. من المحتمل أنه قرأ جيفرسون ومونتين، ماركس وتولستوي، إنه يتساءل حقاً عن السبب في أن حقوق الإنسان التي تحترمها الحضارة الغربية لم تمتد لتشمل أبناء شعبه. إنه ضائع بالنسبة إلينا. بعد أن كرّس حياته لقضية راديكالية، فلا مجال للتراجع بالنسبة إليه» (ص 301)

في هذا التقييم كان الدكتور هيد محقاً. فأنا أسوأ تجسيد ممكن للقضية الراديكالية، القضية الضائعة. لكن في ذلك الوقت هناك مسار آخر، مكتوب على الجانب

الغربي لشخصيتي:

«الشباب الفيتناميون الذين يفتتنون بأمريكا يحملون المفتاح الذي يقود إلى حرية فيتنام الجنوبية. لقد ذاقوا طعم الكوكا كولا، كما هي، واكتشفوا أنها لذيذة. عرفوا تناقضاتنا الأمريكية، ومع ذلك يأملون في الحصول على شيء من إخلاصنا وطيبتنا في العمل على معالجة هذه المثالب. هؤلاء الشباب علينا تهذيبهم. إنهم بالتالي يحلون محل الجنرالات المستبدين الذي على كل حال درّبهم الفرنسيون». (ص 381)

هذه النماذج وجدتها على صفحات الكتاب، إلا أن الكتاب يتطرق إلى وصف شخصيتنا في الكثير من الصفحات، وليس في صفحة واحدة. ومع ذلك، كنت أشك، أثناء ما كان الدكتور هيد يتفحصني، بأن ما رآه ليس أنني أجسد كتاباً لكني مجرد صفحة، تقرأ وتستوعب بسهولة. وأردت أن أثبت له خطأه.

أنا مستعد للمراهنة معكم، أيها السادة، قال الدكتور هيد، وعاد باهتمامه إلى بقية الجالسين إلى الطاولة، على أن هذا الشاب هو الوحيد بينكم الذي قرأ كتابي كله. قهقه الجالسون دون إحساس بالإحراج، ولسبب ما أحسست أنني موضوع مزحة. الكتاب كله؟ قال عضو الكونغرس. لا تمزح، ريتشارد، سوف أستغرب إذا وجدت هنا أحداً قرأ أكثر من الغلاف الخلفي والتعريف بالكتاب. سرت موجة أخرى من الضحك، لكن بدلاً من أن يشعر بالإحراج، بدا الدكتور هيد مبتهجاً. كان يتقن هذا النوع من المزاح، لكنه لبس تاجه الورقي بخفة. لا شك أن الرجل كان معتاداً على المشاكسة، إذا نظرنا إلى شعبية كتبه، وظهوره المتكرر على برامج الحوارات صباح الأحد، ومكانته المرموقة كمفكر معروف في منتديات واشنطن. جنرالات القوة الجوية تحديداً يحبونه، يستفيدون منه كمستشار استراتيجي ويرسلونه دائماً إلى الرئيس ومستشاريه لإعطائهم نبذة مختصرة عن عجائب القصف الجوي. أعضاء مجلس الشيوخ والكونغرس يحبون ريتشارد هيد أيضاً، ومنهم صديقنا عضو الكونغرس الذي لا يختلف عنهم في شيء لأن مقاطعاتهم جميعاً تصنع الطائرات التي تستخدم في هذا القصف. قدر تعلق الأمر بكتابي، قال، شيءٌ من الإخلاص واللياقة فيما يتعلق بحفظ ماء الوجه يبدو ضرورياً.

هناك رجلٌ في منتصف العمر جالس قربي وحده لم يضحك. سترته زرقاء بلون محايد، وربطة عنق عادية حول رقبته. كان محامياً مختصاً بقضايا الأحوال الشخصية،

مايسترو محاكم الطبقات المخملية. التقط شيئاً من طبق السلطة، وقال، من السخافة أن تقول حفظ ماء الوجه، دكتور هيد. الأمور تغيرت، أليس كذلك؟ منذ عشرين أو ثلاثين سنة، لن يقول أي أمريكي حفظ ماء الوجه بصراحة.

هناك الكثير من الأشياء لن يقولها الأمريكان بصراحة منذ عشرين أو ثلاثين سنة ولكننا نقولها الآن، قال الدكتور هيد. حفظ ماء الوجه تعبير مناسب جداً، وأنا أقول هذا كشخص قاتل اليابانيين في بورما.

يا لهم من عباقرة! قال عضو الكونغرس، هكذا أخبرني والدي. ليس من الخطأ أن تحترم أعداءك. في الواقع، من الشهامة أن نحترمهم. انظر إلى ما فعلوه بمساعدة قليلة منا. لا يمكن أن تمضي بسيارتك اليوم دون أن ترى سيارة يابانية.

اليابانيون استثمروا كثيراً في بلادي أيضاً، قال الجنرال. إنهم يبيعون الدراجات وأجهزة التسجيل. إنني شخصياً أملك محلاً لمسجلات سانيو.

حدث هذا فقط بعد عقدين من احتلالهم لبلادك، قال عضو الكونغرس. هل تعرف أن مليون فيتنامي ماتوا من المجاعة خلال سنوات الاحتلال الياباني؟ هذا التصريح كان موجهاً للرجال ذوي البدلات الأنيقة، الذين لم يقهقهوا. لست أمزح، قال محامي الأحوال الشخصية. لا مجال للمزاح خصوصاً حين تتزامن إحصائية مثل هذه مع تقديم أطباق السلطة قبل تناول اللحم المشوي والبطاطا المقلية. للحظة حملق الجميع في الصحون والكوكتيلات، نظرات جادة كأن عيونهم تحاول أن تقرأ علامات لوحة فحص النظر. أما أنا فكنت أفكر في إصلاح الضرر الذي ألحقه عضو الكونغرس بشكل غير مقصود. لقد زاد من تعقيد موقفنا كضيوف سعداء على المأدبة بعد أن تطرق للمجاعة، شيء لم يسمع به الأمريكان حتماً. يمكن أن يجعلهم ذلك الكلام يتصورون أرضاً غريبة مليئة بهياكل الموتى، ليست الصورة الطيفية التي أردنا تقديمها، لأن الشيء الذي لا ينبغي للمرء القيام به أن يطلب من الناس تخيل أنهم أشخاص مثلنا. التخاطر الروحي يزعج معظم الناس الذين إذا حدث أن فكروا بالآخرين ذات يوم، سوف يفضلون تصور أن الآخرين مثلهم أو يمكن أن يكونوا مثلهم.

تلك مأساة حدثت منذ زمن طويل، قلت. إذا أردتم الحقيقة، أغلب سكان بلادنا

هنا لا يركزون كثيراً على الماضي مثلما يركزون على أن يصبحوا أمريكيين.

وكيف ذلك؟ تساءل الدكتور هيد، وبينما كان ينظر من وراء نظاراته بدا لي أنني أخضع للتفحص من أربع عيون، وليس اثنتين. إنهم - أقصد نحن - يؤمنون بالحياة، والحرية والسعي للسعادة، قلت، الجواب نفسه الذي أعطيته للكثير من الأمريكان. هذا أدى إلى علامات استحسان ظهرت على قسمات كل شخص على الطاولة باستثناء الدكتور هيد، الذي نسيت أنه مهاجر إنكليزي. بقي ينظر لي بأربع عيون غير مستقرة من خلف النظارة. إذن، قال، أنت تشعر بالسعادة؟ كان سؤالاً شخصياً، يكاد يكون مثل السؤال عن راتبي، بالإمكان أن يكون مقبولاً في بلادنا لكن ليس هنا. والأسوأ أنني لم أستطع التفكير في جواب مقبول. إذا قلت إنني غير سعيد، فذلك يعكس نظرة سلبية عني، لأن الأمريكان ينظرون إلى التعاسة كفشل أخلاقي ويتصورون أنها جريمة. لكن إذا قلت سعيد، فمن الذوق السيئ أن أقول ذلك، أو أنها علامة على الاستكبار، كما لو أنني أتفاخر أو أتشمت.

لحسن الحظ وصل النادل ومساعدوه في اللحظة المناسبة لإنقاذي وقد بدا عليهم وقار الخدم المصريين المستعدين لأن يُدفنوا أحياء مع الفرعون، يحملون أطباقاً ضخمة على أكتافهم بالوجبة الرئيسية. إذا تصورت أن شرائح اللحم التي أمامنا سوف تخلصني من عيني الدكتور هيد لي، فأنا على خطأ. كرر سؤاله بعد أن ذهب النادل وجماعته، وقلت له أخيراً إنني لست سعيداً. المنطاد المنفوخ لكلمتي النفي تعلق في الهواء للحظة، غامضاً وواهناً.

على ما يبدو، قال الدكتور هيد، أنت غير سعيد لأنك تسعى للسعادة ولم تصل إليها بعد. ونحن جميعاً كما يفترض، صحيح، أيها السادة؟ غمغم الحاضرون موافقين بينما كانت أفواههم مليئة باللحم والشراب الفرنسي الأحمر. الأمريكان في غالبيتهم لا يثقون بالمثقفين، لكنهم يجبرون على الإذعان للسلطة وينبهرون بالشهرة. ليس لأن الدكتور هيد لديه مقياس دقيق للأمرين، كان يتحدث أيضاً بلهجة إنكليزية، وهي تؤثر في الأمريكان بالطريقة التي تحفز بها الصفارة أنياب الكلاب. كنت بطبيعة الحال محصناً ضد تلك اللهجة، فلم تستعمرني الإنكليزية، وقررت إخفاء لهجتي في محاضرته المرتجلة تلك.

وماذا عنك أنت، دكتور هيد؟ سألته. هل أنت سعيد؟ لم يستغرب الدكتور من سؤالي، راح يقطع البازلاء بسكينه قبل أن يقرر نفس أخذ شريحة من اللحم. كما تعلم

جيداً، قال، لا يوجد جواب كامل على هذا السؤال.

أليست كلمة نعم جواباً مقبولاً؟ قال مساعد محامي المقاطعة.

لا، لأن السعادة، على النمط الأمريكي، تساوي صفراً في هذه اللعبة، يا سيدي. استدار الدكتور هيد ببطء وتحرك رأسه بشكل قوسي وهو يتكلم، في حرص على أن يرى كل شخص في الغرفة. لكي يكون المرء سعيداً، عليه أن يقيس سعادته بإزاء تعاسة غيره، وهي عملية تجري حتماً على نحو معاكس أيضاً. إذا قلت إنني سعيد، فلا بد أن شخصاً آخر يكون تعيساً، من المحتمل جداً أن يكون ذلك واحداً منكم. لكن إذا قلت إنني تعيس، فربما ذلك يعني أن البعض منكم أكثر سعادة مني، لكن هذا سوف يزعجكم، لا أحد يفترض أن يكون تعيساً في أمريكا. أعتقد أن هذا الشاب الذكي يقصد أنه بينما السعي للسعادة شيء مضمون فقط لكل الأمريكيين، فالتعاسة مضمونة للكثيرين غيرهم.

ساد جوٌ من الكآبة على الطاولة. الأشياء التي نسكت عنها قيلت أخيراً، تلك الأشياء التي لا يمكن لأشخاص مثل الجنرال وأنا نفسي أن نتكلم عنها بأسلوب مهذب وسط جماعة من الأشخاص البيض المحترمين الذين يعتبرون أنفسهم خارج نطاق الاتهام. اللاجئون مثلنا لا يمكن أن يجرؤوا على التشكيك بأيديولوجية ديزني لاند التي يتبعها معظم الأمريكان، وطنهم أسعد مكان على وجه الأرض. إلا أن الدكتور هيد كان خارج نطاق التجريح، لأنه مهاجر إنكليزي. وجوده نفسه يعطي الشرعية لمستعمرات سابقة، بينما تراثه ولهجته تؤشر محبته الكامنة للإنكليز وعقدة النقص لدى هؤلاء الأمريكان. الدكتور هيد يدرك بوضوح تفوقه وكان يبدو مستمتعاً بالانزعاج الذي يسببه لضيوفه الأمريكان. وهنا تدخل الجنرال. إنني واثق أن الدكتور الطيب محق في كلامه، قال. إذا لم تكن السعادة مضمونة، فالحرية على الأقل مضمونة، وهي أيها السادة أكثر أهمية.

اسمعوا، اسمعوا الجنرال، قال عضو الكونغرس رافعاً كأسه. أليس هذا ما يريده أي مهاجر دوماً؟ رفع بقية الضيوف أيضاً كؤوسهم، حتى الدكتور هيد، وكان يبتسم على نحو مبهم. جمع الثروة يتطلب فنوناً بارعة منها أن تحظى بمحبة الناس وتقرأ ما يدور في أذهانهم، وتلك مواهب غامضة يمتلكها الجنرال بمعدلات لا يستهان بها. كما أخبرت مان بواسطة عمتي الباريسية، فقد حقق الآن درجة بالغة من النجاح في تجميع الثروة، واستفاد من بعض المنظمات التي تعرف عليها من خلال كلود، فضلاً عن اتصالاته

الشخصية في أوساط الأمريكان الذين زاروا بلادنا وقاموا بجولات عمل هناك. هؤلاء كانوا رجالاً ذوي نفوذ ومن أصول محترمة، مثل الذين خدموا في مجالس الأمناء لهذه المنظمات. كميات الأموال التي وهبوها للأخوية كانت ضئيلة وفقاً لمعاييرهم، بالكاد تساوي شيئاً يلفت انتباه المدققين أو رجال الصحافة. لكن إذا أرسلت دولاراً واحداً إلى الخارج مثل تايلاند، بعض أنواع الهراء الغريبة التي يسمونها مثلاً معدلات التبادل سوف تكتشف الأمر. ورقة الدولار ربما تحصل بها على سندويتش لحم الضأن في أمريكا، لكن في مخيم لاجئين في تايلاند، الدولار الأخضر البسيط يتحول إلى باهيت47 ملون من الممكن أن يطعم أحد المقاتلين لأيام. مقابل باهيتات أكثر بقليل، مقاتلنا يمكن أن يلبس أحدث الثياب الزيتونية. ولهذا، باسم مساعدة اللاجئين، هذه التبرعات تلبي المتطلبات الأساسية للطعام والثياب التي تؤمن للجيش السري الذي يتألف على كل حال من اللاجئين أنفسهم. أما فيما يتعلق بالأسلحة والذخيرة، فتجهزها قوات الأمن التايلندية التي تتلقى بدورها مصروفاتها من العم سام، عملية تتم بشفافية كاملة وبموافقة الكونغرس.

الأمر يعود إلى عضو الكونغرس بطبيعة الحال لتحديد اللحظة المناسبة لنا للحديث عن السبب الحقيقي لوجودنا هنا. وقد فعل ذلك بعد أن بدأت طقوس مأدبة شواء كأنها تقام في ألاسكا وبعد عدة جولات من الكوكتيل. أيها السادة، قال عضو الكونغرس، ومرر إصبعه على شفة الكأس الطويلة، هناك سبب مهم للقائنا اليوم وتجديد عرى صداقتنا. الجنرال جاء ليتكلم معنا حول محنة تواجه تحالفنا القديم، الجندي الفيتنامي الجنوبي، الذي لولا وجوده سوف يكون العالم في وضعٍ أسوأ مما هو عليه اليوم. الهند الصينية سقطت بالفعل بيد الشيوعية، لكن انظروا إلى البلدان التي أنقذناها: تايلاند، تايوان، هونغ كونغ، سنغافورة، كوريا، اليابان. هذه البلدان تشكل حصننا ضد المد الشيوعي.

دعونا لا ننسى الفلبين، قال الدكتور هيد، أو أندونيسيا.

حتماً. ماركوس وسوهارتو حصلا على الوقت اللازم لدحر الشيوعيين لأن الجندي الفيتنامي الجنوبي كان يشكل جدارهم الناري، قال عضو الكونغرس. لذلك أتصور أننا لا بد أن نكون ممتنين لهذا الجندي، وهذا ما جعلني أطلب منكم المجيء إلى هنا اليوم. الآن أترك الأمر إلى رجل من أفضل المدافعين عن حرية الهند الصينية الذين نعرفهم، أيها الجنرال؟

أزاح الجنرال كأسه الفارغ بعيداً عنه وانحنى إلى الأمام وقد وضع مرفقيه على الطاولة ويداه مطبقتان. أشكرك، يا صديقي عضو الكونغرس. من دواعي شرفي المتواضع أن ألتقي بكم جميعاً. رجال مثلكم هم الذين شيدوا أعظم سلاح في العالم، ترسانة الديموقراطية. ما كان بإمكاننا القتال هذه المدة الطويلة ضد القوى المهيمنة دون شبابكم وأسلحتكم. يجب أن تتذكروا، أيها السادة، كيف تجمع ضدنا ليس إخوتنا الذين ضلوا السبيل فقط، ولكن العالم الشيوعي بأسره. الروس، والكوريون الشماليون، كانوا جميعاً هناك، ولم يقف معنا إلا الكثير من الآسيويين الذين كسبتم ودهم. كيف يمكنني أن أنسى الكوريين الجنوبيين، والفلبينيين، والتايلنديين الذين قاتلوا معنا، فضلاً عن الأستراليين والنيوزيلنديين؟ أيها السادة، نحن لم نقاتل في حرب فيتنام وحدها.. لم نقاتل وحدنا.. نحن خضنا معركة فيتنام ضمن معارك الحرب الباردة بين الحرية والاستبداد -

لا أحد يجادل في أن هناك بعض المتاعب ما زالت باقية في جنوب شرقي آسيا، قال الدكتور هيد. لقد رأيت الرئيس فقط يجرؤ على مقاطعة الجنرال، لكن إذا أحس الرجل بالإساءة، وبالتأكيد أحس بها، فلم يظهر أي علامة على السخط، فقط ابتسم ابتسامة خفيفة للتعبير عن سعادته لمساهمة الدكتور هيد. لكن أياً كانت متاعب الماضي، تابع الدكتور هيد كلامه، فالمنطقة أصبحت أكثر هدوءاً الآن، ما عدا كمبوديا. في هذه الأثناء هناك مسألة أخرى ذات أهمية مباشرة تبقى تقلقنا. الفلبينيون، والألوية الحمراء، والسوفييت. لقد تغيرت التهديدات وتوسعت رقعتها. عصابات الإرهابيين التي تضرب في ألمانيا، وإيطاليا، وإسرائيل. أما أفغانستان فتحولت إلى فيتنام جديدة. لا بد أن نقلق بشأن كل هذا، ألا تشعر بالقلق أيها الجنرال؟

تجهم وجه الجنرال قليلاً ليبدي اهتمامه وتفهمه. كشخصٍ غير أبيض، الجنرال مثلي أنا يعرف أن عليه التحلي بالصبر مع البيض، الذين من السهل إرعابهم من قبل غير البيض. حتى مع البيض الليبراليين ينبغي على المرء أن يحترس لخطواته، أما مع العاديين منهم فبالكاد يستطيع المضي إلى أي مكان. الجنرال كان خبيراً يفهم بعمق طبيعة الاختلافات الطبقية والشخصية للبيض، مثل أي شخص غير أبيض عاش هنا لسنوات. نحن نأكل طعامهم، ونشاهد أفلامهم، ونراقب حياتهم وسلوكياتهم من خلال التلفزيون وضمن علاقاتنا اليومية، نتعلم لغتهم، نستوعب مفاهيمهم بدقة، نضحك على نكاتهم،

حتى عندما تكون ضدنا، نتقبل بتواضع تنازلاتهم، ونتنصت على حواراتهم في الأسواق التجارية وعيادات الأسنان، ونحترمهم بأن لا نتكلم لغتنا بحضورهم، التي ربما تزعج أعصابهم. إننا أعظم دارسين أنثروبولوجيين للشعب الأمريكي، والشعب الأمريكي لا يعرف هذا لأن ملاحظاتنا الميدانية مكتوبة بلغتنا في رسائل وبطاقات بريد مرسلة إلى بلداننا الأصلية، حيث يقرأ أقرباؤنا تقاريرنا بفرح، وارتباك، وحسرة. رغم أن عضو الكونغرس كان يمزح، إلا أننا ربما نعرف بالفعل الناس البيض أفضل مما يعرفون أنفسهم، ونحن حتماً نعرفهم أفضل مما يعرفوننا. هذا في بعض الأحيان يقودنا إلى التشكيك بأنفسنا، في حالة مستمرة من اختبار الذات، تفحص صورتنا في المرآة والتساؤل عما إذا كانت تلك حقيقتنا، أو أنها الصورة التي ينظر بها البيض لنا. لكن بالنسبة إلى جميع من نعتقد أننا نعرفهم، هناك بعض الأشياء التي نعرف أننا لا نعرفها حتى بعد الكثير من سنوات التقارب الإجباري أو الطوعي، ومنها فن صنع صلصة التوت البري، والركلة الصحيحة لكرة القدم، والممارسات السرية لمجتمعات سرية، مثل الجمعيات في الكليات، التي يبدو أنها تجند فقط أولئك الأشخاص المؤهلين للانتماء للشبيبة الهتلرية. على الأقل وسط المجهولين لنا هناك معتكف مثل هذا، أو هكذا أبلغت عمتي الباريسية، حجرة مخفية عن الأنظار حيث القليل جداً من أبناء جلدتنا ظهروا من قبل، إذا كان ذلك صحيحاً. كان الجنرال يدرك هذا مثلي، على أهبة الاستعداد ذهنياً، حذراً أن لا يؤذي أحداً.

من المضحك أنك تتطرق إلى السوفييت، قال الجنرال. كما كتبت سابقاً، دكتور هيد، فإن ستالين وشعوب الاتحاد السوفييتي أقرب في الشخصية إلى الشرق من الغرب. ادعاؤك أن الحرب الباردة تمثل صداماً بين الحضارات، ليس فقط صداماً بين البلدان أو حتى الأيديولوجيات، صحيح تماماً. الحرب الباردة في الواقع صراع بين الشرق والغرب، والسوفييت الآسيويون لم يتعلموا أبداً الأساليب الغربية، على العكس منا. بطبيعة الحال كنت أنا، استعداداً لهذا اللقاء أو العرض، قد لخصت للجنرال هذه الأقاويل التي وردت في كتاب هيد. الآن لاحظت أن الدكتور هيد كان على وشك أن يرد على تشخيصي، لكن ملامحه لم تتغير. ومع ذلك، أيقنت أن تعليقات الجنرال أثرت فيه. لا أحد من المؤلفين لديه حصانة تمنع اقتباس أفكاره وكلماته والرد عليها بما يتناسب مع أهميتها. المؤلفون، من حيث الجوهر، بصرف النظر عن مدى تبجحهم وتفلسفهم أو كيف ينظرون إلى أنفسهم، مخلوقات لا تشعر بالأمان وتتصف بالأنانية، إنهم مرهفو الإحساس في تركيبتهم

مثل نجوم السينما، مع أنهم أفقر من هؤلاء وأقلّ تألقاً. المرء لا يحتاج إلا للبحث الدقيق بما يكفي لإيجاد تلك الدرنة البيضاء لذاتهم السرية، والأدوات الأكثر حدة التي يفعلون بها ذلك دائماً هي كلماتهم. أضفت مساهمتي الخاصة في هذا الجهد وقلت، مما لا شك فيه أن علينا مواجهة السوفييت، دكتور هيد. لكن سبب قتالهم يتعلق بالسبب الذي تؤيده في ضرورة قتال خدمهم في بلادنا ولماذا نستمر في قتالهم الآن.

أي سبب تعني؟ قال السقراطي المحنك الدكتور هيد.

سأقول لك السبب، قال عضو الكونغرس. ليس بكلماتي لكن بكلمات جون كونسي آدمز48 عندما تكلم عن بلادنا العظيمة. «كلما انتشرت معايير الحرية والاستقلال الآن، أو سوف تنتشر في المستقبل، هناك بلد يمثل قلبها، وروحها، وبركاتها، وصلواتها. أمريكا - أفضل بلد يتمنى الحرية والاستقلال للجميع». ابتسم الدكتور هيد مرة أخرى وقال، جيد جداً، يا سيدي. حتى الرجل الإنكليزي لا يمكن أن يجادل جون كونسي آدمز.

الشيء الذي ما زلت لا أفهمه كيف فاتنا، قال مساعد محامي المقاطعة، أن نطلب من النادل كوكتيلاً آخر. برأيي، قال محامي الأحوال الشخصية، وآمل أن تفهموا أيها السادة، فاتنا ذلك لأننا كنا حذرين أكثر مما ينبغي. كنا نخاف من الأضرار بسمعتنا، لكن إذا تقبلنا ببساطة أن أي ضرر لن يدوم طويلاً، فيمكننا أن نسلط قوة خارقة ونظهر لشعبكم أي جهة كانت تستحق الفوز.

لعل ستالين وماو قاما بالتصرف الصحيح، قال الجنرال. بعد موت بضعة ملايين من البشر، ما أهمية ملايين قليلة أخرى؟ ألم تكتب شيئاً من ذلك، دكتور هيد؟

يبدو أنك قرأت كتابي بتركيز أكثر مما توقعت، أيها الجنرال. أنت رجل بلا شك رأى أسوأ ما في الحرب، مثلي أنا، إذن سوف تسامحني إذا تكلمت عن الحقيقة غير المستساغة بشأن سبب خسارة الأمريكان لفيتنام. رفع الدكتور هيد نظارته إلى الأعلى على أنفه حتى حملقت عيناه من خلال العدسات. جنرالاتكم الأمريكان قاتلوا في الحرب العالمية الثانية وهم يعرفون قيمة استراتيجياتكم اليابانية، لكنهم لم يمتلكوا الإرادة الكافية لإدارة الحرب. بدلاً من خوض حرب إبادة، النوع الوحيد من الحروب التي يفهمها ويحترمها الشرقيون - نوتا بيني، طوكيو، هيروشيما، ناغازاكي - كان عليهم اختيار حرب الاستنزاف. الشرقي يفسر

هذا، وهو على حق، كحالة ضعف. هل أنا على خطأ، جنرال؟

إذا كان لدى الشرق مورد لا ينفد، قال الجنرال، فهو الشعب.

هذا صحيح، وسوف أخبرك بشيءٍ آخر، جنرال. يحزنني أن أصل إلى هذا الاستنتاج، لكني رأيت الدليل بنفسي، ليس فقط في الكتب والأرشيف، ولكن في ميدان المعركة في بورما. لا بد من الاعتراف. الحياة رخيصة في الشرق وكل شيء فيها وفير. الحياة - توقف الدكتور هيد - الحياة ليست مهمة، بحسب الفلسفة الشرقية. ربما ليس من اللياقة قول هذا، لكن الشرقي ببساطة لا يضع القيمة العالية نفسها للحياة مثل الغربي.

كتبت إلى عمتي الباريسية فقلت إن لحظة الصمت سادت على الطاولة ونحن نستوعب هذه الفكرة مع عودة النادل ورفاقه بالكوكتيلات. هز عضو الكونغرس كأسه وقال، ما رأيك، جنرال؟ ازدرد الجنرال الشراب والصودا، وابتسم، وقال، بطبيعة الحال دكتور هيد على حق، يا صديقي عضو الكونغرس. الحقيقة كثيراً ما تبدو مزعجة. ما رأيك، أيها النقيب؟

التفت جميع الحاضرين لي، وكأس الشراب نصف الملآن على شفتي. أنزلته بتكاسل. بعد ثلاث رشفات وكأسين من الشراب الفرنسي الأحمر، أحسست بالانتعاش التام والصحوة، نفحة الحقيقة توسعت في عقلي وطلبت أن تخرج. جيد، قلت، اسمحوا لي بأن أختلف مع الدكتور هيد. الحياة في الواقع لها قيمة بالنسبة للشرقي. بدا الجنرال متجهماً فتوقفت. لا أحد منهم تغيرت ملامح وجهه، لكن كان في وسعي الإحساس بتيار من التوتر يتراكم. إذن تقول إن الدكتور هيد على خطأ، قال عضو الكونغرس، وكان يحرص على أن يبدو بشوشاً ربما مثل الدكتور مينغيلي49 مع الرفقة المناسبة. أوه، كلا، أسرعت للقول. كنت أتعرق، حتى قميصي أصبح رطباً. لكنكم ترون أيها السادة، بينما الحياة ذات قيمة بالنسبة إلينا - توقفتُ عن الكلام من جديد، وانحنى الحاضرون باتجاهي ملليمترين أو نحو ذلك - فهي تافهة بالنسبة للغربي.

تحول انتباه الحاضرين إلى الدكتور هيد، الذي رفع كأس الكوكتيل لي وقال، ما كنت لأعبر عن هذا بصورة أفضل منك، أيها الشاب. وبذلك شارفت المحادثة على الانتهاء، وبقينا نرشف الكوكتيل باستمتاع كأننا مجموعة من الجراء. التقت عيني بعين الجنرال

وأحنى رأسه موافقاً. الآن، اكتفى الحاضرون من الضيوف بالثرثرة، وكان باستطاعتي أن أطرح سؤالاً خاصاً من اختياري. ربما يكون هذا شيئاً ساذجاً، قلت، كنا نتصور أننا حقاً في نادي البلد.

دمدم الحاضرون وتضاحكوا كما لو أنني قلت أكثر النكات روعة. حتى الدكتور هيد بدا منهمكاً في القهقهة، بل كاد يختنق من الضحك وجرعات الشراب. تجهم الجنرال وأنا كذلك، انتظرنا تفسيراً لذلك. حملق عضو الكونغرس في النادل، الذي انحنى وقال، أيها السادة، الآن يبدو أن الوقت مناسب لتقديمكم إلى نادي البلد. لا تنسوا الكوكتيل. قادنا النادلُ في صفٍ إلى خارج غرفة الطعام وكؤوس الكوكتيل بأيدينا. على الردهة وجدنا باباً آخر، فتحه النادل وقال، جميع السادة هنا. داخل الغرفة التي غلفت جدرانها بالألواح الخشبية رأينا رأس ظبي، قرونه المتفرعة تكفي لتعليق معاطفنا. الغرفة يملؤها الدخان والإضاءة خافتة، جو مثالي للإطراء على الشابات الوسيمات اللواتي يلبسن الحرير ويتوزعن على أرائك جلدية.

أيها السادة، قال عضو الكونغرس، مرحباً بكم في نادي البلد.

لا أفهم شيئاً، همس الجنرال.

سوف أخبرك لاحقاً، يا سيدي، تمتمت. أنهيت الكوكتيل وأعطيت الكأس إلى النادل عندما أشار عضو الكونغرس إلى اثنتين من الشابات. جنرال، نقيب، اسمحا لي أن أعرفكما. نهضت رفيقاتنا. بدت قاماتهن بالأحذية العالية أطول من الجنرال ببوصتين أو ثلاث. الفتاة التي وقفت أمامي كانت شقراء ضخمة وأسنانها ناصعة البياض ليست بمثل صلابة ونصاعة عينيها الزرقاوين الإسكندينافيتين. في إحدى يديها كأس شراب تعلوه رغوة، وفي اليد الأخرى سيجارة رفيعة داخل أنبوبة تمنع امتصاص النيكوتين. بدت لي محترفة بعد أن رأت الكثيرين من أمثالي آلاف المرات، وهذا شيء لا مشكلة لدي فيه، إذا نظرنا إلى أنني سبق أن رأيت أمثالها بعدد مماثل بنفسي. رغم أنني حركت خدي وشفتي في ابتسامة مفتعلة رداً على ابتسامتها، لم يتجمع في داخلي الحماس المألوف بينما كان عضو الكونغرس يعرف أحدنا على الآخر. ربما جذبتني طريقتها في نفض رماد سيجارتها على السجادة، وبدلاً من أن يجذبني جمالها انصرف انتباهي إلى تجاعيد خفيفة تكاد تختفي تحت حنكها، الخط الباهت بين رقبتها الصافية والمسحوق الأبيض الذي يغطي وجهها. ما

اسمك مرة أخرى؟ قالت، وهي تضحك لا لسبب معين. انحنيت لأخبرها باسمي وكاد وجهي يرتطم بفتحة صدرها، وأحسست بالدوار المفاجئ بسبب كلوروفورم عطرها الفواح.

أحب لهجتك التي تتكلمين بها، قلت، وتراجعتُ قليلاً. لا بد أنك من مكانٍ ما من الجنوب.

جورجيا، يا عزيزي، قالت، وضحكت من جديد. أنت تتكلم إنكليزية ممتازة بالنسبة لرجلٍ شرقي.

ضحكتُ، وضحكت هي أيضاً، وعندما نظرت إلى الجنرال ورفيقته ذات الشعر الأحمر، وجدتهما يضحكان أيضاً. كل من في الغرفة كان يضحك، ولما وصل النادلُ ورفاقه بالمزيد من الشراب، كان واضحاً للجميع أننا سوف نقضي أسعد الأوقات، ومن ضمنهم الدكتور هيد. بعد إعطاء كأس إلى رفيقته البدينة وكأس أخرى لي، قال، آمل أنك لن تمانع أيها الشاب، إذا استخدمت عبارتك المحورة في كتابي القادم. رفيقاتنا الجميلات نظرن لي بلا اهتمام، انتظرن مني الرد. لا شيء يمكن أن يجعلني أكثر سعادة، قلت، وإن كنت لأسباب لا يمكن التصريح بها هنا، تعيساً غاية التعاسة.

Telegram @read4lead

الفصل السادس عشر

أتى لي الجنرال بمفاجأة من العيار الثقيل ونحن نركن السيارة خارج مقر إقامته المعتم في ذلك المساء، بعد منتصف الليل بقليل. كنت أفكر في طلبك بالرجوع إلى الوطن، قال من مكانه على المقعد الخلفي، رأيتُ عينيه على المرآة الخلفية. إنني أحتاج إليك هنا، لكني أقدر شجاعتك. على العكس من بون والآخرين، أنت لم تختبر ميادين القتال. ووصف لي النقيب الأشهب والملازم المتجهم كبطلين من أبطال الحرب، رجال يمكن أن يثق بهم ويأتمنهم على حياته في المعارك. لكنك تحتاج لأن تثبت أنك تستطيع أن تفعل ما يفعلون. ينبغي أن تفعل ما ينبغي أن تفعل. هل يمكنك ذلك؟ بطبيعة الحال، سيدي. ترددت قليلاً، ثم سألت السؤال الواضح: لكن ماذا ينبغي أن أفعل؟ أنت تعرف ما ينبغي أن تفعل، قال الجنرال. جلستُ وقد وضعت يدي على عجلة القيادة في وضع الساعة العاشرة وعشرة، على أمل أن أكون مخطئاً. أردت فقط التأكد من أنني أفعل الصواب، سيدي، قلت وأنا أنظر إليه في المرآة الخلفية. ماذا بالضبط ينبغي أن نفعل؟

تململ الجنرال في المقعد الخلفي، فتش في جيوبه. أخرجت ولاعتي. شكراً، أيها النقيب. للحظات أضاءت الشعلة وجهه. ثم انطفأت واختفى وجهه ولم أعد أراه. لم أتكلم معك أبداً عن كيف أنني أمضيت سنتين في معسكرات الاعتقال الشيوعية، أليس كذلك؟ لا داعي للتفاصيل المكتوبة. يكفي القول إن العدو أحاط برجالنا في ديان بيان فو. ليس الفرنسيين والمغاربة والجزائريين والألمان فقط، كان هناك أعداؤنا أيضاً، الآلاف منهم.

تطوعت للانقضاض على ديان بيان فو، مع أنني كنت أعرف أنني سوف أمنى بالفشل. لكني لم أستطع ترك رفاقي من الجنود يموتون دون أن أفعل شيئاً. عندما سقطت ديان بيان فو، تعرضت للأسر مع الآخرين. رغم أنني أضعت سنتين من عمري في السجن، لكني لم أندم على ذلك الإنزال الجوي. أصبحت الرجل الذي أنا عليه اليوم بسبب الإنزال وتحمل العيش في ذلك المعسكر. لا أحد طلب مني التطوع. لا أحد أخبرني بما ينبغي أن أفعل. لا أحد ناقش النتائج. كل هذه الأشياء مفهومة. هل تفهم، أيها النقيب؟

نعم، سيدي، قلت. جيد، إذن. إذا قمت بما ينبغي أن تفعل، عندئذ يمكنك الرجوع إلى الوطن. أنت شاب ذكي جداً، أيها النقيب. إنني أثق بك وأترك لك التفاصيل. لا داعي للرجوع إليّ. سوف أرتب أمر رحلتك. سوف تستلم تذكرة الطائرة عندما أتلقى الأخبار عن الإجراءات التي قاموا بها. توقف الجنرال، وكان الباب مفتوحاً قليلاً. نادي البلد، هاه؟ أخذ يقهقه. عليّ أن أتذكر هذا. راقبته يمشي على الممر المؤدي إلى منزله المعتم، من المحتمل أن تكون المدام في سريرها، تقرأ، تنتظر عودته، مثلما كانت تفعل في قصرهم. كانت تعرف أن واجبات الجنرال ربما تمتد إلى ما بعد منتصف الليل، لكن هل تعرف ما تتضمنه بعض تلك الواجبات. نحن أيضاً لدينا مثل هذه النوادي؟ في بعض الأحيان، بعد توصيله إلى القصر أقف وقد خلعت حذائي في الممر وأصغي لأي علامة شجار تصدر من غرفتهما. لم أسمع أي شيء من ذلك، لكن أظن أنها كانت ذكية بما يكفي لتعرف.

أما ما أعرفه أنا، فهذا: عمتي الباريسية ردت والكلمات غير مرئية تجلت تدريجياً وكانت مختصرة. لا ترجع. وكتب مان. نحن نحتاج إليك في أمريكا، وليس هنا. هذه هي الأوامر التي نعطيها لك. أحرقت الرسالة وألقيتها في سلة النفايات، مثل كل الرسائل، وتلك حتى اللحظة الراهنة طريقتي في التخلص من الأدلة. لكن في تلك اللحظة، أعترف أن إحراق الرسالة يعني أيضاً إرسالها إلى الجحيم، أو ربما تقديم قربان إلى إله يمكنه أن يحفظني أنا ومان. لم أخبر بون بشأن الرسالة بطبيعة الحال، لكني أخبرته عن عرض الجنرال وأردت رأيه. كان صريحاً كعادته. أنت غبي، قال. لكن لا يمكنني منعك من الذهاب. أما بالنسبة إلى سوني، لا شيء يدعوك للإحساس بالكراهية نحوه. الرجل لديه فمٌ واسع. هذا النوع من العزاء يعبر عن الطريقة الوحيدة التي يعرفها، في قاعة البليارد حيث اشترى لي عدة أنواع من الشراب ونحن نلعب جولات على الطاولة التي كأنها بركة

تغرق بالضوء. شيء من جو الألفة الذي يسود قاعة البليارد أعاد الثقة لروحي. بركة الضوء المركز على الطاولة الخضراء جعلني أتخيلها مستنبتاً داخلياً ينمو عليه نبات شوكي من العاطفة الذكورية، نبات حساس جداً لضوء الشمس والهواء النقي. بعد المقهى، لكن قبل النادي الليلي أو المنزل، تعتبر قاعة البليارد المكان الذي من المحتمل جداً للمرء أن يلتقي فيه برجل فيتنامي من الجنوب. هنا يكتشف أن في البليارد، كما في العلاقة الجنسية، الهدف الحقيقي يزداد صعوبة بما يتناسب مع كميات الشراب المستهلكة. لهذا، مع اقتراب الليل، كانت مبارياتنا تطول وتطول. لكن لحسن حظ بون، المقترح الذي عرضه عليّ كان في أول مباراة لنا، قبل أن يدلهمّ الليل ونحن نغادر بركة الضوء بأطراف مخدرة مع الدقائق الأولى للفجر، إلى شارع مجدب العلامة الوحيدة للحياة فيه خباز ملطخ بالطحين نراه يكدح من خلال نافذة محله. سوف أفعلها، قال بون، وهو يراقبني أركل الحصى. أخبر الجنرال أنك أنت الذي فعلتها، لكني سوف أحضره لك.

لم يفاجئني عرضه أبداً. حتى وأنا أشكره، كنت أعرف أنني لن أوافق. إنني أغامر بالذهاب إلى البراري التي استكشفها كثيرون قبلي، اجتياز العتبة التي تفصل أولئك الذين ارتكبوا جريمة القتل عن الذين لم يقتلوا. الجنرال على حق في أن الرجل الذي تلقى هذا الطقس فقط يمكن السماح له بالرجوع إلى الوطن. ما كنت أحتاج إليه هو طقس ديني لا وجود له بخصوص هذه المسألة. لماذا لا؟ ترى من نخدع بالاعتقاد أن الله لا يريد لنا الاعتراف بدناءة القتل؟ لنرجع إلى مسألة مهمة أخرى من تعاليم أبي:

س. ما هو الإنسان؟

ج. الإنسان مخلوق من جسد وروح، ليكون على صورة الله.

س. هل هذا الشبه في الجسد أم الروح؟

ج. الشبه بالأساس في الروح.

لا أحتاج إلى النظر في المرآة أو إلى وجوه رفاقي لاكتشاف الشبه. أحتاج فقط لأن أنظر إلى نفوسهم وإلى داخلي لأدرك أننا لن نكون قتلة إذا كان الله يكره القتل أيضاً.

لكن بطبيعة الحال أنا أتكلم ليس عن القتل فقط، ولكن عن ملحقات ونتائج الجريمة. هز بون كتفيه استهجاناً من ترددي وانحنى على الطاولة، وعصا البليارد على يده

المفلطحة. أنت دائماً تريد تعلم الأشياء، قال. لا بأس، ليس هناك معرفة أعظم من قتل الإنسان. أعاد تسديد عصا البليارد جيداً وعندما ضرب الهدف، تدحرجت الكرة إلى الخلف برفق، واصطفت مع نظيراتها بانتظار الضربة التالية. ماذا عن الحب والخلق؟ قلت. والزواج، وإنجاب الأطفال؟ أنت، من بين كل الناس، ينبغي أن تؤمن بذلك النوع من المعرفة. استقر ردفه على حافة الطاولة، وكلا يديه تمسكان عصا البليارد التي وضعها على كتفه. أنت تختبرني، صحيح؟ حقاً؟ لدينا آراء مختلفة عن الحياة والخلق. لكن حين يلجأ أشخاص مثلي للقتل، فكل شخص يشعر بالسعادة ولا أحد يريد الحديث عن الأمر. سوف يكون من الأفضل قبل أن يتكلم الكاهن في كل يوم أحد لو نهض أحد المحاربين وأخبر الناس بمن قتلهم بالنيابة عنهم. الإصغاء كل ما يقومون به. هز كتفيه استهجاناً. لكن ذلك لا يحصل. إذن إليك نصيحة عملية. الناس يحبون لعب دور الموتى. أتعرف كيف تميز الشخص الميت حقاً؟ اضغط بإصبعك على حدقة عينه. إذا كان حياً، سوف يتحرك. وإذا كان ميتاً، لن يتحرك.

بإمكاني أن أتخيل نفسي أطلق النار على سوني، بعد أن رأيت مثل هذا المشهد عدة مرات في الأفلام. لكن ليس بإمكاني تخيل إصبعي يضغط على حدقة عينه المترجرجة. لماذا لا تطلق النار عليه مرتين؟ قلت. لأن ذلك، أيها الذكي، يصدر ضوضاء. الأمر ينتهي برصاصة واحدة. من قال أي شيء عن إطلاق النار عليه ولو مرة واحدة؟ أحياناً نحن نقتل الفيتكونغ بأشياء غير البنادق. إذا كان ذلك يجعلك تشعر بحال أفضل، فهذه ليست جريمة. إنها حتى ليست قتلاً، بل عملية اغتيال. اسأل صديقك كلود إذا لم تكن قد سألته بعد. سوف يتبجح ويقول، ها هي قائمة التسوق. اذهب وأحضر أحدهم. إذن سوف نذهب إلى القرى ليلاً ومعنا قائمة التسوق. إرهابي من الفيتكونغ، متعاطف مع الفيتكونغ، متعاون مع الفيتكونغ، ربما يكون هذا الرجل من الفيتكونغ، وهذه المرأة ربما تحمل طفلاً من الفيتكونغ في بطنها. هذا الشخص يفكر في أن يكون من الفيتكونغ. وهذا الشخص يعتقد الجميع أنه من الفيتكونغ. أب هذا الشخص أو أمه من الفيتكونغ، لذلك فهو يتدرب ويصبح من الفيتكونغ. سوف يداهمنا الوقت قبل أن نقضي عليهم جميعاً. ينبغي أن نمحوهم إذا تهيأت لنا الفرصة. لا يجب أن نرتكب الخطأ نفسه. اقض على هذا الفيتكونغ قبل أن يكبر، قبل أن يحول الآخرين إلى فيتكونغ. هذا كل ما في الأمر. لا شيء يستحق أن تأسف عليه. لا شيء تبكي عليه.

الأمر ليس بهذه البساطة. المشكلة في قتل كل الفيتكونغ أن هناك دائماً المزيد منهم، يولدون بين جدران أذهاننا، يتنفسون تحت ألواح أرواحنا، يؤدون طقوس الاختفاء والظهور أمام عيوننا. والمشكلة الأخرى أن سوني ليس من الفيتكونغ، لأن المخرب، من خلال تعريفه، لن يكون له فم عريض. لكن ربما كنت مخطئاً. العميل المُحرّض يمكن أن يكون مخرباً، وواجبه أن يطلق النار من فمه، يثير غضب الآخرين ضمن الحلقة اللولبية للراديكالية. لكن في تلك الحالة، العميل المُحرّض هنا ليس شيوعياً، فهذا من شأنه أن يحفز المناهضين للشيوعية للانتظام ضده. إنه مناهض للشيوعية، يشجع الأشخاص المشابهين له في التفكير على التطرف، لأنهم ينبهرون بحمى الأيديولوجيا، فيتحولون إلى فاسدين مثيرين للاشمئزاز. من خلال التعريف، يحتمل أن يكون العميل المؤيد هو الجنرال، أو المدام؟ ولِمَ لا؟ مان أكد لي أن لدينا أشخاصاً من أعلى الرتب. سوف تستغرب عندما تعرف من يحصل على الأوسمة بعد التحرير، قال. هل أنا مستغرب الآن؟ المزحة تشملني أيضاً إذا كان الجنرال والمدام متعاطفين. وهي مزحة نحن جميعاً نضحك منها حين يُحتفل بنا كأبطال للشعب.

بعد أن امّحت آثار نصيحة بون من ذهني، رحت أبحث عن العزاء لدى الشخص الوحيد الآخر الذي يمكنني الكلام معه، لانا. ذهبت إلى شقتها في الأسبوع التالي ومعي زجاجة شراب فرنسي. في المنزل بدت كأنها طالبة كلية تلبس فانيلة جامعة كاليفورنيا، وبنطلون جينز أزرق خفتت ألوانه، مع أقلّ قدر من المكياج. طبخت شيئاً كما تطبخ أي فتاة مثلها، لكن لا يهم. تناولنا الغداء في غرفة المعيشة بينما كنا نشاهد فيلم آل جيفرسون وهي كوميديا تلفزيونية عن الأصول السوداء غير المعترف بها لتوماس جيفرسون، ثالث رئيس لأمريكا وكاتب إعلان الاستقلال. بعد ذلك شربنا زجاجة شراب فرنسي أخرى ساعدت في هضم النشويات في بطني. أشرت إلى التحف المعمارية المضيئة على التلال من مسافة بعيدة، رأيتها واضحة من نافذتها، وأخبرتها أن إحداها من أملاك اوتور، الذي سرعان ما سيظهر آخر فيلم له. كنت قد حكيت لها عن مغامراتي في الفلبين، وشكوكي أو وساوسي في أن اوتور حاول قتلي. سوف أعترف، قلت لها، أنني تخيلت بعض الأشياء عن قتله مرة أو مرتين. استغربت وأطفأت سيجارتها. نحن جميعاً نتخيل أننا نقتل بعض الناس، قالت. إنها مجرد أفكار عابرة، مثل، أوه، ماذا لو دهست ذلك الشخص بالسيارة. أو على الأقل نحن نتخيل ما يكون عليه الأمر إذا مات شخصٌ ما. أمي، على

سبيل المثال. تلك ليست حقيقة، بطبيعة الحال، لكن ماذا لو.. صحيح؟ لا تتركني أشعر كالمجنونة. وضعت غيتارها على حضني، وعزفت لحناً إسبانياً مؤثراً. ما دمنا نعترف، قلت لها، فأنا فكرت في قتل أبي. إنها ليست حقيقة، بطبيعة الحال، مجرد افتراض.. هل أخبرتك مرة أنه كان كاهناً؟ انفتحت عيناها على اتساعهما. كاهن؟ يا إلهي!

صدمتها غير المفتعلة قربتها مني. رغم ماكياج النادي الليلي ووراء قناع المغنية اللامعة المصطنعة ما تزال تلك الفتاة البريئة، غير ملوثة إلى حد أنني أردت أن أدعك وجهي الخشن الأصفر على بشرتها البيضاء الناعمة. أردت تكرار ذلك الديالكتيك القديم معها، موضوعه آدم والنقيض حواء التي قادت إلى وجودنا، تلك التفاحة المتعفنة للإنسانية، سقطت بعيداً عن شجرة الرب. ليس لأننا أبرياء مثلما كان آباؤنا الأوائل. لو كان آدم وحواء تمردا على حكمة الرب، فنحن بدورنا تمردنا على آدم وحواء، بحيث أن ما أردته حقاً ديالكتيك الغابة الحارة المبخرة «أنا طرزان، وأنت جين». هل كان أي من هذين القرينين أفضل من فتاة فيتنامية وكاهن فرنسي؟ أمي اعتادت أن تخبرني بأنه ليس من الخطأ أن أكون ابن الغرام لقرينين مثلهما، قلت لها هذا. على كل حال، قالت ماما، نحن أناس ولدنا من اقتران تنين وحورية. ما أغرب ذلك! لكن الناس ينظرون لي باحتقار رغم كل شيء، وأنا ألقي اللوم على أبي. مع مرور السنوات، كنت أتخيل أنه في يوم ما سوف يقف أمام الناس ويقول، هذا ابني الذي ربما تعرفونه. ليقترب منكم حتى تتعرفوا إليه وتحبونه كما أحبه. أو أي شيء من ذلك. سأكون سعيداً لو أنه زارنا فقط أو أكل معنا ودعاني ابنه ولو في السر. لكنه لم يفعل، لذلك تخيلت صاعقة تأتي، أو فيلاً جامحاً، أو مرضاً عضالاً، أو ملاكاً ينزل خلفه وهو على المنبر وينفخ بوقاً ضخماً في أذنه ويرجعه إلى خالقه.

لكنها ليست تخيلات عن القتل.

أوه، لكني تخيلت قتله، ببندقية.

لكن هل سامحته؟

أحياناً أتصور أنني سامحته. وفي أحيان أخرى أتصور أنني لم أسامحه، خصوصاً حين أفكر بأمي. هذا يعني، كما أتصور، أنني لم أسامحه حقاً. انحنت لانا إلى الأمام في ذلك

الوقت، ووضعت يدها على ركبتي. ربما المسامحة شيء مبالغ فيه، قالت. وجهها أقرب لي من أي وقت، وكل ما أحتاج إليه أن أنحني للأمام. في ذلك الوقت ارتكبت أكبر الحماقات في حياتي. انخفضت، أو بالأحرى، اضطجعت، تاركاً مسافة بيني وبين الوجه الجميل، الشق المغري للشفتين المفتوحتين قليلاً. يجب أن أذهب، قلت.

تذهب؟ من تعبير وجهها، كان واضحاً أنها لم تسمع تلك الكلمات من قبل من أي رجل. ما كانت لترفض لو طلبتُ منها ارتكاب أكثر الأفعال شناعة منذ أيام سدوم50. وقفت قبل أن أغير رأيي، أعطيتها الغيتار. هناك شيء ينبغي أن أفعله. قبل أن أتمكن من عمل ما ينبغي أن أفعله هنا. الآن جاء دورها في الاضطجاع، مستمتعة، وداعبت أناملها الأوتار الحزينة. تبدو جاداً، قالت. لكن أتعرف شيئاً؟ أنا أعشق الجادين.

لو كانت تعرف كيف أكون جاداً أحياناً. أمضيت ساعة في السيارة بين شقتها وشقة سوني ويدي على المقود، كنت أتنفس بعمق وانتظام لكي أتغلب على ندمي لترك لانا وعصبيتي من لقائه. التنفس بعمق درس علمني إياه كلود، وهو من ممارسات رهباننا البوذيين. كل شيء يعتمد على التركيز والتنفس. شهيق وزفير ببطء، أحدهما يزيح ضوضاء الحياة، والآخر يجعل الذهن حراً وينعم بالسلام كي يتفرغ لتأملاته. حين يكون الموضوع والهدف واحداً، قال كلود، يدك لن تهتز وأنت تضغط على الزناد. في الوقت الذي ركنت فيه سيارتي عند زاوية قريبة من شقة سوني، كان ذهني مثل طائر النورس ينزلق على الشاطئ، لا تحمله إرادته أو حركته وإنما يحمله النسيم. خلعت قميصي الرياضي الأزرق ولبست فانيلة بيضاء. ركلت حذائي البني الخفيف وخلعت بنطلوني الخاكي، ثم لبست بنطلون جينز أزرق وحذاء القنب البيجي. وآخر شيء كان عليّ فعله أن أرتدي سترة واقية، وأضع قبعة على رأسي. تركتُ السيارة، وحملت معي محفظة جلدية صغيرة تلقيتها هدية مقابل اشتراكي بمجلة تايم، وضعتها داخل حقيبة الظهر، مع الملابس المرتبة فيها، وقلنسوة البيسبول، وباروكة شعر أشقر، ونظارات ملونة، ومسدس أسود نوع والثر ب22 مزود بكاتم للصوت. الجنرال أعطى بون مغلفاً فيه بعض النقود، واشترى بون المسدس وكاتم الصوت من العصابة الصينية التي وفرت له مسدس 38. ثم جعلني أراجع الخطة معه حتى حفظتها.

كان الرصيف فارغاً من المارة أو السيارات. المشي على الشارع ليس من العادات

الأمريكية، مثلما تأكد لي بعد مراقبة الحي عدة مرات. الساعة تشير إلى ما بعد التاسعة بقليل حين توقفت عند مدخل البناية التي فيها شقته، بدت لي البناية كأنها مصنع كئيب من طابقين لإعادة تدوير مئات النسخ المشوهة عن الحلم الأمريكي. كل النزلاء يتخيلون أحلامهم فريدة في نوعها، لكنها في الواقع مجرد نسخ مزيفة بعد أن ضاعت النسخ الأصلية. طلبت رقماً على جهاز الاتصال الداخلي. هلو؟ قال. حين أعلنت عن وصولي، توقف قليلاً قبل أن يرد، سوف أفتح لك. صعدت السلالم بدلاً من المصعد لكي أتجنب أن ألتقي بأي شخص. على الطابق الثاني، نظرت إلى الصالة للتأكد من عدم وجود أحد هناك. فتح الباب حالاً بعد أن طرقت.

رائحة الشقة تذكرني بالوطن، سمك مقلي، ورز أبيض يتصاعد منه البخار، ودخان السجائر. أعرف سبب مجيئك، قال وأنا أجلس على أريكته. أمسكت الحقيبة. لماذا أنا هنا؟ قلت. صوفيا، قال، وكان صوته جاداً مثل صوتي بينما رأيت قدميه محشورتين في صندل وردي كالضباب. كان يلبس ملابس داخلية وبلوزة رمادية بأزرار. على طاولة الطعام خلفه تربض آلة طابعة مع أوراق تتدلى من بكرتها، متخمة بأكوام عشوائية من الوثائق. فوق الشمعدان، على منفضة السجائر، تطفو سحابة من الدخان تتلاشى رويداً، كأنها عادم ماكينة ذهن سوني المهموم. وعلى الجدار فوق الطاولة، من خلال طبقة الدخان رأيتُ الساعة التي تشبه نظيرتها في مطعم الجنرال والمدام، مضبوطة على توقيت سايغون.

كنت أتوقع أننا سنتحدث عنها قبل كل شيء، قال. كان آخر كلام دار بيننا مثيراً للانفعال. أعتذر على ذلك. لو كنا مهذبين بشأن هذا، ربما كتبنا لك رسالة وأنت في الفلبين، اهتمامه غير المتوقع بي يبدو غريباً بحيث جعلني أتوخى الحذر. إنها غلطتي، قلت. لم أكتب لها رسالة في المقام الأول. نظر أحدنا إلى الآخر للحظة ثم ابتسم وقال، إنني مضيف فاشل، لم أقدم لك شراباً. ما رأيك؟ على الرغم من اعتراضي، نهض وذهب إلى المطبخ، كما توقع بون. وضعت يدي على مسدس والثر ب22 الذي في الحقيبة لكني لم أمتلك العزيمة للنهوض، أو أن أتبعه إلى المطبخ، فأضع بسرعة كاتم الصوت خلف أذنه كما نصحني بون. إنه الإجراء الآمن الذي ينبغي القيام به، كما قال. نعم، إنه بالفعل كذلك، غير أن كتلة النشا التي تجثم على معدتي خدرتني وسمرتني على الأريكة، الأرضية مفروشة ببساط

خشن يمتص الصدمات مصمم لغرف الفنادق التي يلتقي فيها العشاق. أكوام من الكتب تكدست على رفوف الجدران، وعلى التلفزيون القديم جهاز ستيريو يدندن. فوق الكرسي بذراعيه المنفرجتين لوحة بألوان زيتية مبهرة في أسلوبها الذي على غرار أسلوب مونيه الجنوني فيها إيحاءات مثيرة، الجمال لا يحتاج للإيحاء بأن البيئة المحيطة بك أكثر جمالاً. أي شيء بمنتهى القبح يمكن أن يجعل المكان القذر يبدو أقلّ قبحاً من خلال المقارنة. هناك طريقة أخرى لإضافة لمسة من الجمال والمحبة إلى العالم ليس بهدف لتغييره، ولكن لتغيير نظرة الإنسان إليه. ربما كان هذا من أغراض زجاجة البوربون التي عاد بها سوني، زجاجة ثالثة مليئة.

هل تسمع ذلك؟ قال، وأشار إلى جهاز الستيريو. وضع كل منا الكأس في حضنه. لقد غزونا كمبوديا. تتصور أننا نلنا كفايتنا من الحرب بحيث لا نريد حرباً أخرى. رأيتُ أن الغزو كان ضربة مباغتة جاءت لصالح الجنرال، شيء يشتت انتباه الجميع ليتجهوا باهتمامهم إلى مكان آخر غير حدودنا مع لاوس. المشكلة مع النصر، قلت، أنه يجعل الجميع متحفزين للقتال من جديد. هز رأسه وازدرد ما تبقى في كأسه. الشيء الجيد في الهزيمة أنها تبعدك عن الدخول في حرب أخرى، على الأقل لفترة وجيزة. مع أن هذا لا ينطبق على جنرالك. كنت على وشك الاعتراض عندما رفع يده وقال، سامحني. إنني أتكلم في السياسة من جديد. أقسم أنني لن أتطرق إلى السياسة الليلة، يا أخي. تعرف كم يصعب هذا على شخص يؤمن بأن كل شيء يرتبط بالسياسة.

حتى البوربون؟ قلت. ابتسم بتجهم. طيب، ربما البوربون لا علاقة له بالسياسة. لا أدري ما الذي أتكلم عنه غير السياسة. إنها نقطة ضعف. أغلب الناس يستطيعون تحمل الأمر. باستثناء صوفيا. إنني أتكلم معها ليس كما أتكلم مع أي شخص آخر. هذا هو الحب.

أنت تحبها؟

ألم تكن مغرماً بها؟ إنها تقول إنك لا تحبها.

إذا قالت هذا، إذن أتصور أنني لم أكن أحبها.

أفهم ما تعنيه. خسارة امرأة مثلها شيء مؤلم حتى إذا لم تكن تحبها. هذه طبيعة

البشر. أنت تريد الرجوع إليها. لا تريد خسارتها وتتنازل عنها إلى شخص مثلي. لكن أرجوك، انظر للأمر من وجهة نظري. نحن لم نخطط لكل هذا. عندما بدأنا نتكلم معاً في حفل الزفاف، لم نتمكن من التوقف. الحب يمكن أن يتسلل إلى شخص ما بلا مقدمات، بلا إخفاء، وفي الوقت نفسه يشعر المرء بأنه لا يحتاج لأن يقول كلمة. على الأقل تلك إحدى الطرق التي استنتجتها عن كيفية وصف الحب. لم يسبق لي أن أحببت امرأة من قبل. إنه يجعلني أشعر برغبة غريبة لإيجاد استعارة مناسبة لوصف الحب. كأنني طاحونة الريح، وهي الريح. هذا غباء، نعم؟

كلا، ليس غباءً، تمتمت، أدركت أننا نقترب من موضوع أكثر تعقيداً من السياسة. نظرت إلى الكأس الفارغة التي احتضنتها بيدي، ومن خلال ثمالة البوربون في قعر الكأس رأيت الندبة الحمراء. إنه ليس ذنبها، قال. أعطيتها رقمي في حفل الزفاف وطلبت رقمها، لأن، قلت، ألا يكون شيئاً عظيماً إذا كتبت مقالاً عن كيف ينظر اليابانيون إلينا نحن في فيتنام؟ أمريكان من أصل ياباني، صححت لي. لن تكونوا يابانيين. وأمريكان من أصل فيتنامي، لن تكونوا فيتناميين. عليك المطالبة بأمريكا، قالت. أمريكا لن تمنحك نفسها بسهولة. إذا لم تطالب بأمريكا، إذا لم تكن أمريكا في قلبك، سوف تلقي بك في مخيم اللاجئين أو محمية أو مزرعة. ومن ثم، إذا لم تطالب بأمريكا، فأين ستذهب؟ يمكننا الذهاب إلى أي مكان، قلت. تتصور هذا لأنك لم تولد هنا، قالت. ولدت هنا ولا مكان لي لأذهب إليه. لو كان عندي أطفال، هم أيضاً لن يكون لديهم مكان آخر. سوف يكونون مواطنين. هذه بلادهم. وفي تلك اللحظة، بكلماتها تلك، أحسست برغبة غير متوقعة تسيطر عليّ. أردت أن يكون لي طفل منها. أنا، من يرغب بالزواج! من يتخيل أن يكون أباً!

هل لي بكأسٍ أخرى؟

حتماً! ملأ الكأس لي. أيها الوغد الغبي، صوت بون يرن في رأسي. أنت تجعل الأمر أسوأ. انته من الأمر. الآن، تابع سوني الكلام، أدرك قدر تعلق الأمر بالأطفال والأبوة هو مجرد حلم غير قابل للتحقيق. صوفيا تجاوزت سنوات الإنجاب. لكن هناك مسألة التبني. أعتقد أن الوقت قد حان للتفكير بشيء آخر غيري أنا. في السابق كنت فقط أريد تغيير العالم. ما زلت أريد ذلك، لكن من السخرية أنني لم أرد تغيير نفسي. هكذا تبدأ الثورات

عادة! والوسيلة الوحيدة لاستمرار الثورات أن نستمر في النظر إلى الداخل، ننظر إلى كيفية نظر الآخرين إلينا. هذا ما حدث عندما قابلت صوفيا. رأيت نفسي بالطريقة التي تنظر بها لي.

عند ذلك لاذ بالصمت. قراري تعرض للوهن بحيث لم أتمكن من رفع ذراعي اليمنى للوصول إلى الحقيبة وإخراج المسدس. اسمع، قلت. لدي شيء أعترف لك به.

إذن أنت تحب صوفيا. بدا حزيناً بوضوح. أنا آسف.

لست هنا بسبب السيدة موري. ألا يمكننا أن نتكلم عن السياسة بدلاً من هذا؟ كما تشاء. سألتك من قبل إن كنت شيوعياً. وقلت إنك لن تخبرني لو كنت شيوعياً. لكن ماذا لو أخبرتك بأني شيوعي؟ ابتسم وهز رأسه. لا أؤمن بالفرضيات، قال. ما مغزى ممارسة لعبة ماذا أنت أو من تكون؟ إنها ليست لعبة، قلت. أنا شيوعي. أنا حليفك. كنت عميلاً للمعارضة وللثورة لسنوات. ما رأيك بهذا؟

ما رأيي؟ تردد بأن يصدق كلامي. ثم احمر وجهه من الغضب. لا أصدق أبداً، هذا رأيي. أعتقد أنك جئت إلى هنا لتخدعني. تريد مني القول إنني شيوعي أيضاً، حتى تقتلني أو تكشف حقيقتي، أليس كذلك؟

إنني أحاول مساعدتك، قلت.

كيف على وجه التحديد تريد مساعدتي؟

لم يكن لدي جواب على سؤاله. أعترف بأني لا أعرف ما الذي دفعني للكلام بهذه الصراحة معه. أو، بالأحرى، لم أعرف آنذاك، لكن ربما عرفت الآن. لقد وضعت القناع على وجهي مدة طويلة، وهذه فرصتي للتخلص منه بأمان. تعثرت خطواتي حتى وصلت إلى هذا غريزياً، من خلال الإحساس بأنه ليس إنساناً غريباً عليّ. لا يمكن أن أكون الإنسان الوحيد الذي يعتقد بأنه إذا عرف الآخرون شخصيتي الحقيقية، سوف يفهمونني، وربما يحبونني. لكن ما الذي يمكن أن يحصل إذا أزاح المرء القناع ونظر إليه الآخرون ليس بتعاطف وإنما برعب، واحتقار، وغضب؟ ماذا لو كانت الذات التي يكشفها المرء مزعجة للآخرين مثلها مثل القناع، أو حتى أسوأ؟

هل الجنرال كلفك بهذا؟ قال. يمكنني رؤية أنكما تتآمران عليّ. إذا رحلتُ عن الدنيا، ربما يكون الأمر مناسباً لكما، بلا شك.

اسمعني -

أنت تحسدني لأني حصلت على صوفيا، رغم أنك لم تكن تحبها. أعرف أنك غاضب مني، لكنني لم أعرف أنك سوف تنحدر إلى هذا المستوى الوضيع وتأتي لتنال مني. هل تتصور أنني غبي إلى هذه الدرجة؟ هل تتصور أنك فجأة تبدو جذاباً في نظر صوفيا مرة أخرى إذا اعترفت بأنك شيوعي؟ ألا تتصور أنها ستشم رائحة يأسك وتضحك عليك؟ يا إلهي، لا أستطيع تخيل ما ستقوله حين أخبرها -

مع أنه كان يبدو من المستحيل أن لا أصيب الهدف من مسافة خمسة أقدام، كان ذلك ممكناً جداً، وخاصة بعد الكثير من الشراب الفرنسي وكأس أو كأسين من البوربون ممزوجة بمرارة الماضي. خرقت الرصاصة الراديو، كتمت صوته لكنها لم تسكته تماماً. نظر لي باندهاش تام، نظرته مثبتة على المسدس الذي بيدي، وكاتم الصوت أضاف إليه بضع بوصات. توقفت عن التنفس، قلبي لم يعد ينبض. اهتز المسدس بعنف وصاح كالمجنون، كاد يخترق اليد التي يتدلى منها. وفجأة أفاق من موته الوشيك، وثب على قدميه واستدار ليهرب. الرصاصة الثالثة وقعت ما بين لوح الكتف والعمود الفقري، تعثر ولكن لم يتوقف وقفزت فوق طاولة القهوة، لحقت به قبل أن يصل إلى الباب. الآن كنت في وضعٍ مثالي، أو كما قال بون، على بعد قدم من هدفي، في البقعة المسدودة أمامه، حيث لا يمكن للمرء أن يخطئ. كلك، كلاك طقطق المسدس، رصاصة خلف الأذن، وأخرى في الجمجمة، وسقط سوني أولاً على الوجه بثقل متهور لينكسر أنفه.

وقفتُ فوق جسده المنكفئ، خده التصق بالسجادة، وكميات غزيرة من الدماء تتدفق من فتحات في رأسه. من الزاوية التي وقفت فيها لم أتمكن من رؤية عينيه لكني رأيت يده المقلوبة مع ثقب في راحتها، وذراعه ممددة ببلادة بجانبه. كتلة النشويات تبددت من حلقي، لكن الآن سوائلها تترجرج في أحشائي وتهدد بالخروج. تنفست بعمق وأطلقت الزفير ببطء. فكرت في السيدة موري، ربما كانت في منزلها، والقطة في حضنها، تقرأ بحثاً عن الأنثوية الراديكالية، تنتظر أن يتصل بها سوني، ذلك الاتصال الذي لن يأتي، الاتصال الذي يحدد علاقتنا مع الرب، نحن العشاق اليائسون من الرحمة ندعوه دائماً.

الآن سوني اجتاز العتبة الكبرى، تاركاً خلفه مجرد ظل بارد مظلم، شمعته انطفأت إلى الأبد. على ظهر بلوزه لطخة قرمزية، وحول رأسه هالة دموية منتفخة. اجتاحتني موجة من الغثيان والقشعريرة هزتني من أعماقي، وسمعت أمي تقول، سوف تكون أفضل منهم، أليس كذلك، يا بني؟

تنفست بعمق وأطلقت الزفير ببطء مرة، ومرتين، ومرة ثالثة، وتباطأ الارتعاش رويداً. تذكر، قال بون من داخل رأسي، أنت تفعل ما ينبغي أن تفعل. قائمة أشياء أخرى ينبغي أن تُفعل عادت إلى ذهني. خلعت معطفي وبلوزتي ولبست قميصي الأزرق من جديد. بنطلون الجينز وحذاء القنب خلعتهما، استبدلتهما ببنطلون خاكي وحذاء رياضي. قلبت المعطف على وجهه الأبيض، وضعت غطاء رأس كالباروكة، الشعر الأشقر لامس مؤخرة عنقي، ولبست قبعة لاعبي البيسبول. وأخيراً جاء دور النظارة الملونة، أصبح التغير كاملاً بعد أن وضعت المحفظة الصغيرة والمسدس في حقيبة الظهر. الباروكة، والقبعة، والنظارة من بنات أفكار بون. جعلني أختبر منظري المنعكس على مرآة الحمام، والنتيجة صورة ضبابية مع استحقاق سنة من رذاذ معجون الأسنان. انظر؟ قال. الآن أنت رجل أبيض. بالنسبة لي ما زلت أبدو أنا نفسي ولم أتغير، أختفي وراء قناع اعتيادي جداً في حفلات تنكرية أو أعياد الهالووين. تلك هي الفكرة. إذا لم يعرف شخصٌ ما كيف يبدو شكلي، فأنا لا أختفي وراء قناع.

مسحت بصمات الأصابع عن نظارتي بمنديلي، ولففت المنديل على أكرة الباب وتصورت أنني سمعت سوني يئن. نظرت إلى يده المنتفخة، لم أسمع أكثر من صوت الدماء تنبض في أذني. أنت تعرف ما ينبغي أن تفعل، قال بون. نهضتُ على ركبتي، انحنيت لأنظر إلى إحدى عيني سوني المفتوحتين. حين ارتفعت المحتويات السائلة لطعامي إلى مؤخرة حلقي، وضعت يدي على فمي. ابتلعت كل شيء بإصرار وتذوقت طعم الدناءة. عين سوني خامدة وفارغة. لا بد أنه ميت، لكن كما أخبرني بون، أحياناً الميت لا يعرف أنه ميت. لذلك قرّبت إصبع السبابة ببطء، اقتربت أكثر من العين التي لم تتحرك. إصبعي يحوم على بعد بوصة من العين، ثم بضعة ملليمترات. لا توجد حركة. ثم لامس إصبعي تلك العين الرقيقة المطاطية، كأنه يلامس بيضة مقشرة ذابلة، فأحسست به يرمش. قفزت إلى الوراء وارتعش جسده، قليلاً فقط، ثم أطلقت رصاصة أخرى على بدنه من مسافة

قدم. الآن، قال بون، هو ميت.

استنشقتُ الهواء بعمق، وأطلقت الزفير ببطء، كنت على وشك الانهيار. بعد أكثر من ثلاث دقائق منذ أول إطلاقة، استنشقت الهواء بعمق وأطلقت الزفير ببطء، والمحتويات السائلة حققت توازناً مزعزعاً. بعد أن هدأ كل شيء، فتحت باب شقة سوني وخرجت بثقة رئاسية، كما نصحني بون. تنفس، قال كلود. وتنفست، نزلت السلالم مهرولاً والصدى يتبعني، وتنفست مرة أخرى وأنا أخرج نحو الردهة، حيث وجدت الباب الرئيسي مفتوحاً.

رأيتُ رجلاً أبيض، يعمل على جزازة العشب، في منتصف العمر تقريباً، مساحة واسعة من رأسه خالية من الشعر. بدلة العمل الأنيقة التي يرتديها تبدو رخيصة الثمن رغم أنها تضفي جاذبية على قامته المعتدلة في هذه المهنة ذات الأجور الزهيدة التي تتطلب استقامة الظهر، حيث يعمل المرء بتكليف من الآخرين. كان حذاؤه يلمع كأنه حراشف سمكة مجمدة. عرفت كل هذا لأني نظرت إليه، بينما نصحني بون أن لا أنظر لأحد. لا تنظر لأي شخص تلتقي به. لا تعط الناس سبباً لإلقاء نظرة أخرى عليك. لكنه لم ينظر لي. عيناه متجهتان للأمام، يمشي قربي كما لو أنه لا يراني، كأنني شبح، أو من المحتمل مجرد رجل أبيض آخر غير مثير للاهتمام. مررت قرب ذيل البخار المتصاعد من الحاوية السوداء في مؤخرة الماكينة والعامل المزهو بها، ولمحت الباب الخارجي قبل أن يوصد. وسرعان ما أصبحت في الشارع، استنشقت هواء كاليفورنيا الجنوبية، مشبعاً برذاذ الدخان الضبابي، منشغلاً بفكرة أنني أستطيع الذهاب إلى أي مكان أريده. قطعتُ المسافة إلى سيارتي. هناك، انحنيت على العجلة، وتقيأت، أخرجت كل ما في جوفي حتى لم يبق شيء، وتلطخت البالوعة بأوراق الشاي التي خرجت من أحشائي.

الفصل السابع عشر

إنه شيء اعتيادي، قال بون في صباح اليوم التالي. خفف عني كلامه شيئاً من التوتر الذهني بمساعدة زجاجة من الشراب الاسكتلندي، أعطاها له الجنرال. كان ينبغي أن تفعل ذلك، نحن الأشخاص الذين علينا تحمل ذلك. الآن أنت تفهم. اشرب. وشربنا. أتعرف ما هو أفضل علاج؟ تصورت أن أفضل علاج هو الرجوع إلى لانا، وهذا ما فعلته بعد أن تركت شقة سوني، لكن حتى المساء الذي لا ينسى معها لم يساعدني في نسيان ما فعلته مع سوني. هززت رأسي ببطء، حذراً أن لا يشوش ذهني المنهك. يجب أن ترجع إلى الميدان. سوف تشعر بحال أفضل في تايلاند. إذا كان ذلك صحيحاً، إذن لحسن الحظ لن أضطر للانتظار طويلاً. سوف نغادر غداً، الجدول المحدد يهدف لمساعدتي في تجنب احتمال التورط مع القانون وتلافي ضعف موقفي الواضح أمام السيدة موري. لدى سماعها بموت سوني، ربما بدت أفكارها مشوشة، لكن شكوكها لاحقاً ربما تحولت باتجاهي، عشيقها الذي هجرته. الجنرال كان واثقاً من أنني سوف أنجز العمل بالموعد الذي وعدته به، وقد وفر لي تذكرة الطائرة قبل أسبوع. كنا في مكتبه، والصحيفة على الطاولة، وحين فتحت فمي لأتكلم، رفع يده وقال، لا داعي للكلام، أيها النقيب. أغلقت فمي. ونظرتُ إلى التذكرة، في ذلك المساء كتبت إلى عمتي الباريسية. بالشيفرة، أخبرت مان أنني أتحمل مسؤولية عصيان أوامره، لكنني سأعود مع بون لإنقاذ حياته. لم أبلغ مان عن خطتي أو كيف سأفعل ذلك، لأني ما زلت لا أملك خطة. لكنني ورطت بون في الموقف، ويجب عليّ إخراجه منه إذا استطعت.

إذن، بعد يومين من إنجاز كل ذلك، ولم يلاحظ أحد بعد غياب سوني، ربما باستثناء

السيدة موري، غادرنا دون أي ضجة غير التي أثارها الجنرال والمدام في بوابة المطار. كان هناك أربعة منا يغادرون على هذه الرحلة المزعجة: بون، وأنا، والنقيب الأشهب، والملازم المتجهم، نحلق فوق الباسفيكي في طائرة بوينغ أسرع من الصوت. وداعاً، أمريكا، قال النقيب الأشهب بعد صعودنا، وكان ينظر من النافذة إلى التضاريس التي لم أستطع رؤيتها من مقعدي على الممر. لقد نلت كفايتي منك، قال. الملازم المتجهم، كان جالساً في المنتصف، وافق على ذلك. لماذا نسميها البلد الجميل؟ قال. لم يخطر ببالي أي جواب. كنت أعاني من الدوار ومنزعجاً جداً، قربي على مقعدين مجاورين جلس الرائد البدين من جانب وسوني من الجانب الآخر. تلك رابع مرة أركب فيها طائرة نفاثة، وهو ضعف المرات بالنسبة إلى بون، والنقيب الأشهب، أو الملازم المتجهم. طرت إلى ومن أمريكا للالتحاق بالكلية، ثم مع بون من غوام إلى كاليفورنيا، وهذه هي المرة الأخيرة. فرصي في العودة إلى أمريكا تكاد تكون ضئيلة، وندمت على الأشياء التي سوف أفتقدها هناك: العشاء مع مشاهدة التلفزيون، تكييف الهواء، نظام المرور المنظم الذي يلتزم به الناس بصرامة، ونسبياً انخفاض معدلات الوفاة، على الأقل مقارنة ببلادنا، وروايات عصر الحداثة، وحرية التعبير التي إذا لم تكن مطلقة كما يحب الأمريكان الاعتقاد فهي ما تزال أكبر مما هي عليه في وطني، والتحرر الجنسي، وربما الأهم تلك النزعة التامة للتفاؤل والتي سببها المخدرات، والدفق الإبداعي الذي لا ينتهي للعقل الأمريكي النشط باستمرار في إزاحة مخلفات اليأس، والغضب، والكراهية في إنكار عجيب للذات التي تخربش هواجسها هناك ليلاً كالجرذان بدافع من السحر الأسود للاوعي. هناك الكثير من الأشياء عن أمريكا كنت أقلّ انبهاراً بها، لكن لماذا نكون سلبيين؟ سوف أترك النزعة السلبية المعادية لأمريكا والتشاؤم لبون، الذي لم يستوعب الأمر وكان مرتاحاً للمغادرة. كأنني أختبئ في منزل شخص آخر، قال، في مكان ما من الباسفيكي. كان جالساً على الممر قربي. المضيفة اليابانية كانت تقدم بعض الأكلات البحرية مع الخضار مذاقها على كل حال أفضل من الكلمة الأخيرة التي حبسها الجنرال في فمي عند بوابة المغادرة. سجين بين جدران زنزانة، قال بون كأنه يهذي، يصغي لأشخاص آخرين يعيشون في الخارج، لا يخرجون إلا ليلاً، يمكنني التنفس الآن. نحن عائدون إلى مكان كل شخص فيه يشبهنا. مثلك أنت، قلت، أنا لا أشبه أي شخص هناك. تنهد بون. توقف عن التذمر والنواح، قال، وملأ كأسي بالشراب الاسكتلندي الذي أعطاه له الجنرال عند البوابة. مشكلتك أنك تفكر

كثيراً، مشكلتك أن الجميع يعرفون ما تفكر فيه. إذن سوف أسكت، قلت. نعم، اسكت فقط، قال. جيد، إذن، سوف أسكت، قلت. بحق المسيح، قال.

بعد عشرين ساعة قضيناها في رحلة طويلة لم ننم فيها تضمنت تبديل الطائرة في طوكيو، وصلنا إلى بانكوك. كنت منهكاً، لكنني غير قادر على النوم. في كل مرة أغمض فيها عيني، أرى إما وجه الرائد البدين أو وجه سوني، لم أتحمل النظر إليهما طويلاً. ولم أستغرب أنني عندما التقطت كيس أمتعتي من الحزام المتحرك وجدته أثقل من المعتاد، محملاً الآن بالخطايا، وبالذعر والتوجس. الكيس المتخم بالذنوب القطعة الوحيدة من أمتعتي، لأني قبل أن أترك الشقة، أعطيت المفتاح إلى الموقر رررراامون وأخبرناه أن يبيع كل مقتنياتنا ويتبرع بالنقود إلى كنيسة الأنبياء. كل مقتنياتي الآن معبأة داخل الكيس، ونسخة من كتاب (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار) في قاعه المخفي عن الأنظار، الكتاب تمزق إلى درجة أنه كاد ينقسم إلى نصفين من وسطه المعقوف. كل ما نحتاج إليه سوف يؤمن في تايلاند، كما قال الجنرال. الأمور سوف تعالج من قبل الأدميرال المسؤول عن معسكر القاعدة إضافة إلى كلود الذي سيكون هناك في زي تنكري مألوف، بذريعة أنه يعمل لصالح منظمة غير حكومية لمساعدة اللاجئين. رحب بنا في بوابة الرحلات الدولية وكان عليه قميص من هاواي وبنطلون خفيف، وبدا كأنه لم يتغير منذ أن رأيته آخر مرة في منزل البروفيسور هامر، باستثناء أن لونه أسمر بعمق. رائع أن أراكم أيها الأصدقاء، قال، وصافحني مع الآخرين. مرحباً بكم في بانكوك. هل سبق لكم يا رفاق أن زرتم هذا المكان؟ لا نعتقد ذلك. لدينا ليلة واحدة ونريد أن نستمتع بها في هذه البلدة. من دواعي سروري. ألقى ذراعه حول كتفي وربّت بتعاطف مميز، قادني وسط الحشد المتململ باتجاه بوابة المغادرة. ربما بسبب حالتي الذهنية المضطربة، أو معدتي التي كأنها منهكة من عسر الهضم بحيث تصورت أن كل واحد من السكان المحليين كنا نمر ينظر إلينا. تساءلت إن كان بينهم أحد عملاء مان. تبدو بحالة ممتازة، قال كلود. هل أنت مستعد لإنجاز هذا العمل؟

بطبيعة الحال، قلت، كل مشاعر الخوف والتلهف كانت مثل بالوعة تطفح في مكان ما من أحشائي. كنت أشعر بالدوار مثل شخص يوشك أن ينفذ خطة مجهولة العواقب، لأني أتيت مع بون إلى شفا الهاوية دون معرفة كيف نخرج منها. أليست هذه سياقات

كل الخطط في التطور، لا يعرف من يخطط شيئاً عن مصيره حتى يفتح مظلة الهبوط، أو يتبخر في الهواء؟ لم يكن بوسعي حتى طرح ذلك السؤال على كلود، الذي بدا أنه المتحكم بمصيره دائماً، على الأقل لغاية سقوط سايغون. ربت على كتفي من جديد. أنا فخور بك. أريدك أن تعرف هذا. مشينا معاً بصمت للحظة، تركنا ذلك الإحساس يدور بيننا، ثم ربّت على كتفي من جديد وقال، سوف أجعلك تتمتع بأجمل اللحظات في حياتك. ابتسمتُ رداً على ابتسامته، الأشياء التي لم يقلها أن هذه ربما تكون آخر الأوقات الجميلة في حياتي. كان حماسه واهتمامه يثيران الريبة في نفسي، طريقته عندما قال إنه يحبني، أو ربما طريقته بأن يوفر ما يعادل وجبة أخيرة من المتعة لإنسان انتهى مصيره. قادنا إلى خارج المطار نحو أجواء ديسمبر المتأخرة، أفضل أوقات السنة لزيارة تلك المنطقة. حشرنا أنفسنا داخل إحدى السيارات، وقال كلود، لن تتخلصوا من إرهاق السفر بالذهاب إلى الفندق للحصول على شيء من الراحة. سوف أبقيكم يقظين حتى منتصف الليل، وغداً ننطلق إلى المعسكر.

انطلق بنا السائق على طريق يعج بالسيارات، والشاحنات، والدراجات. أحاطت بنا الضوضاء وأبواق السيارات، والرنين، وضجيج مدينة محشوة بالقطع المعدنية المتحركة، والأجساد البشرية، والمشاعر المكبوتة. هل يذكركم هذا بالوطن؟ قال كلود. هذا أقرب مكان تصلون منه إلى وطنكم منذ سنوات. لا يختلف عن سايغون، قال النقيب الأشهب. الشيء نفسه مع وجود اختلاف، قال كلود. لا حرب ولا لاجئون. كل ذلك يحدث على الحدود، حيث ستذهبون أيها الرفاق. وزع علينا كلود السجائر وأشعل كل منا سيجارته. أولاً كان سكان لاوس يهربون عبر الحدود. والآن لدينا الكثير من الكمبوديين. كل شيء يوحي بالتعاسة، لكن مساعدة اللاجئين توفر لنا سبيلاً للوصول إلى الأرياف. هز الملازم المتجهم رأسه وقال، كمبوديا. هناك شيوعيون أشرار فيها. فقال كلود، هل يوجد سبيل آخر؟ على كل حال، ستعبرون عن طريق لاوس. إنها أقرب مكان إلى الجنة في أندونيسيا. لقد أمضيت زمناً طويلاً هناك أثناء الحرب وكان شيئاً لا يصدق. إنني أحب هؤلاء الناس. إنهم من ألطف الناس وأكثرهم كرماً على وجه الأرض إلا إذا أرادوا قتلك. حين نفخ الدخان، تعلقت الدوامة الصغيرة على مقدمة السيارة فنفخها باتجاهنا. في مرحلةٍ ما، هل كان كلود وغيره من الأجانب يعتبروننا من ألطف الناس، وأكثرهم كرماً على وجه الأرض؟ هل كنا دائماً نحب الحرب، أو عدوانيين؟ أشك في الأمر الأخير، لكن المبالغات والفظائع

التي تحصل في كمبوديا تلقي بظلالها على كل شيء حققناه في يوم من الأيام. الكمبوديون المساكين! كمبوديا المسكينة! طوال دقيقة تقريباً تحدثنا عن ذلك البلد، لكن ما الذي يمكن للمرء أن يقول؟ الإبادة الجماعية من الأمور الصعبة، قبل كل شيء كانت شيئاً لا يوصف.

عندما خرج السائق عن الطريق السريع، لكزني كلود وقال، لقد سمعت عما فعلته. ما الذي فعلته؟ ما الذي فعلته؟ لما لم يقل كلود شيئاً وبقي ينظر لي بثبات، تذكرت الشيء الوحيد الذي فعلته والذي لا بد من السكوت عنه. أوه، نعم، تمتمت. لا تحزن، قال كلود. من خلال ما أخبرني به الجنرال، ذلك الشخص كان يستحق ما حصل له. يمكنني أن أؤكد لك أنه لا يستحق ذلك، قلت. ذلك ليس ما أعنيه، قال كلود. رأيت الكثير من هذه الأشياء. متذمرون محترفون. مازوخيون يعتقدون بأنهم على حق. لا يروقهم شيء ولن يشعروا بالسعادة حتى تجري تصفيتهم. وأنت تعرف ما يمكن أن يقوله هذا النوع من الأشخاص عندما يواجهون فرقة الإعدام؟ لقد أخبرتك! الشيء الوحيد المختلف في حالتك أن ذلك الساذج المسكين لم يحصل على وقت كافٍ للتفكير. كما تقول، كلود، قلت. أنا لا أقول هذا، قال. إنه مذكور في الكتاب. الشخصية التي ترتكب الخطيئة.

كان بوسعي رؤية الصفحات في الكتاب الذي أشار إليه كلود، الكتيب التعليمي لفن الاستجواب الذي كنا ننكبُ على دراسته في الدورات التي يقيمها، الكتاب الذي يحمل عنوان (كوبارك). فيه تعريفات لنماذج مختلفة من الشخصيات التي يحتمل أن يصادفها المحقق، ويواجه المشاكل معها، الفقرة التي عن الشخصية المثقلة بالخطايا لمحتها أمام عيني. «هذا النوع من الأشخاص يتسم بالقسوة الشديدة، وضميره غير واقعي. حياته كلها تبدو مكرسة لاستعادة مشاعره بالخطيئة. أحياناً يبدو مصمماً على التعويض عن النقص؛ وفي أحيان أخرى يصر على أن أي شيء يقع خطأ هو من عمل شخص آخر. في أي من الحالتين يسعى جاهداً للبحث عن دليل أو إشارة خارجية على أن الذنب الذي يقع على الآخرين أكبر من خطاياه. غالباً ما يلاحظ أنه يبذل جهوداً جبارة لإثبات أنه يُعامل بظلم. في حقيقة الأمر، ربما يثير مسألة التعامل بظلم للتخفيف عن ضميره من خلال العقاب. الأشخاص الذين لديهم مشاعر شديدة بالذنب ربما يتوقفون عن المقاومة ويتعاونون إذا ما تعرضوا للعقاب بطريقة ما، وذلك بسبب الشعور بالتطهير من خلال

العقاب». ربما كان سوني من هذا النوع في الواقع، لكنني لن أعرف الحقيقة على وجه التأكيد، فلا مجال للتحقيق معه.

لقد وصلنا، قال كلود. كانت وجهتنا التي نقصدها زقاقاً فوقه قوس قزح من أضواء النيون الاصطناعية، والأرصفة تعج بأشكال شاحبة لقرود من مختلف الأعمار والأحجام، بعضها بتسريحات شعر عسكرية والأخرى شعرها طويل لقبائل من الهيبيين، جميعهم سكارى أو على وشك أن يصبحوا سكارى، والكثير منهم يصيحون ويزمرون في هياج واضح. الحانات والنوادي على طول الزقاق، وعند المداخل وقفت فتيات بأطرافهن العارية ووجوههن المطلية بالماكياج الكثيف. توقفت السيارة عند منزل على بابه لافتة عمودية ضخمة كتب عليها بخط أصفر فاقع (الديك الذهبي). كان الباب مفتوحاً وعلى جانبيه تقف فتاتان تبدوان في العشرين من العمر أو نحو ذلك، أو بالأحرى ربما كانتا في الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة. تلبسان ما يمكن أن يسمى مجازياً ثياباً، مشدودة بأربطة، وأزرار البكيني، وأحذية عالية لا تتناسب مع ابتسامتهن الحنونة، تبدوان محبوبتين ورقيقتين كأنهما معلمتان في حضانة للأطفال.

يا للهول، قال النقيب الأشهب وهو يبتسم بجسارة حتى رأيت أضراسه المتآكلة. حتى الملازم المتجهم قال، يا له من شيء لطيف! رغم أنه لم يبتسم. يسعدني أن أعجبكم هذا، قال كلود. كل ذلك من أجلكم. الملازم المتجهم والنقيب الأشهب كانا قد دخلا عندما قال بون، كلا. سوف أتمشى قليلاً. ماذا؟ تتمشى؟ قال كلود. تريد رفيقة معك؟ سوف تحصل عليها، ثق بي. هؤلاء الفتيات محاربات. يعرفن كيف يعتنين بالخجولين. هز بون رأسه، النظرة التي لاحت في عينيه تعبر عن الخوف. لا بأس، قلت، سوف أتمشى معك. كلا بحق الشيطان! قال كلود، وجر بون من مرفقه. افهم ذلك. ليس كل شخص معتاد على هذا النوع من الأشياء. لكن تمشى قليلاً واترك صديقك العزيز هنا يقضي ليلة العمر. إذن فقط تعال واجلس ودعنا نشرب شيئاً. ليس عليك أن تلمس شيئاً. ولا حتى أن تنظر إذا شئت ذلك. فقط اجلس وأغمض عينيك. افعل هذا من أجل صديقك، وليس من أجلك. ما رأيك؟ وضعت يدي على ذراع كلود وقلت، لا بأس. اتركه وحده. أنت أيضاً، قال كلود.

الأخلاقيات من الأمراض المعدية وربما تكون قاتلة، لكني تمكنت من إبقاء نفسي نظيفاً منها حتى الآن. ربما كان مصدر العدوى التي أصبت بها هو بون، الذي في أخلاقياته

ربما مرض انتقالي. عرضت عليه سيجارة بعد أن يأس كلود من إقناعنا وذهب إلى الداخل، ووقفنا هناك ندخن، متناسين البائعين الذين يتشبثون بقمصاننا لكننا عجزنا عن تجاهل الحشود المارة بنا من السائحين الأقزام الذين يشبهون القردة حين ارتطموا بنا وأزاحونا. يا إلهي! قال أحدهم من خلفي، هل رأيت ماذا فعلت تلك المرأة التي تمسك كرة البينغ بونغ، يا صديقي؟ بينغ بونغ شينغ شونغ، قال شخصٌ آخر. أيها المتفاخر برجولتك وأين كان عقلك؟.. دوك دونغ. سحقاً، أعتقد أن تلك العاهرة سرقت محفظتي. ألقى بون سيجارته وقال، لنذهب من هنا قبل أن أقتل شخصاً ما. انتفضت. إلى أين نذهب؟ أشار من فوق كتفي، وحالما استدرت رأيت ملصق الفيلم الذي أثار انتباهه.

***

شاهدنا فيلم «هاملت» في إحدى دور العرض المليئة بالمحليين الذين لم يتعلموا بعد أن السينما فن محترم، أحدهم أثناء العرض كان يتمخط من غير منديل، وآخر جلب معه الأكل، والشراب، أو مستلزمات النزهة، وأخرى تضرب طفلها، أو بالعكس تهدهد طفلها، وآخر يصرخ بانفعال على أصدقائه الجالسين على بعد صفوف، يناقشون مسائل تتعلق بالماضي، والحاضر، والمستقبل، وآخرون يثرثرون، أو ينبطحون على مقاعدهم وآخر يضع فخذه على فخذ جاره طوال مدة العرض. ولكن من يجرؤ على القول إنهم مخطئون؟ كيف يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان الفيلم رائعاً أم رديئاً إذا كان الجمهور لا يتفاعل معه؟ بدا الجمهور مستمتعاً بعمق، إذا نظرنا إلى المرح والتصفيق، وليكن الله في عوني إذا لم أجد نفسي منبهراً بالقصة والمناظر المرحة. المشهد الذي تفاعل معه الجمهور بقوة تلك المعركة التي تشكل ذروة الحبكة، أثناءها كان قلبي يخفق بسرعة. ربما كان ذلك العزف المسعور يشبه إحدى سيمفونيات بيتهوفن بمقاطعها الجهنمية التي تتخللها حفرٌ عميقة تسكنها الشياطين، دوم - دوم - دا - دوم - دا - دوم - دا - دا - دااا؛ أو هسيس مراوح الهليكوبتر بسرعتها البطيئة؛ أو المقطع العرضي لنظرات بيلامي وشاموس يركبان حصانين طائرين، ونظرات فتيات الفيتكونغ يحملقن من خلال مزاغل مدافع مضادة للطائرات؛ أو قنابل تنفجر في السماء؛ أو منظر الفيتكونغ المتوحشين يغرقون بحمام من الدماء، النوع الوحيد من الحمامات التي يسبحون فيها؛ أو كل هذه الأشياء جعلتني أرغب في أن أحمل بندقية في يدي حتى أتمكن من المشاركة في مذبحة العهد

القديم للفيتكونغ الذين يبدون، إن لم يكونوا مثلي تماماً، فإنهم إلى حد ما يشبهونني. يبدون مثل هؤلاء المشاهدين الذين يهتفون ويضحكون بأصوات متنوعة النبرات مع قعقعة السلاح الأمريكي الصنع، السلاح الذي يمزق ويقطع أوصال جيرانهم بعد أن انتهك حرماتهم. تململتُ في مقعدي، أفقت من غيبوبتي. أردت إغلاق عيني لكنني لم أستطع ذلك، لم أستطع فعل شيء أكثر من الرمش بضع مرات بسرعة أثناء المشهد السابق، المشهد الوحيد الذي جعل الجمهور يلوذ بالصمت المطبق.

هذا المشهد الوحيد الذي لم أره أثناء التصوير. اوتور لم يستخدم فيه أي موسيقى تصويرية، الأنين الحزين يرافق صرخات كيم ماي واحتجاجاتها، التي يفهمها أربعة من الفيتكونغ يضحكون، ويشتمون، ويهزؤون. عدم وجود موسيقى جعل صمت الجمهور المفاجئ مسموعاً أكثر، الأمهات اللواتي حرصن على تغطية وجوه أطفالهن عن تقطيع الأوصال، وإطلاق النار، وقطع الرؤوس، الآن أخذن يصفقن ويرفعن أيديهن عن عيون أطفالهن. صيحات طويلة جاءت من زوايا هذا الكهف المظلم كأنها تصدر من إخطبوط بشري يتلوى في منتصف الكهف، وكيم ماي العارية تكافح تحت ظهور وأطراف المغتصبين شبه العاريين. بينما رأينا لمحات من جسمها العاري، أغلبها مخفية وراء سيقان تتخذ أوضاعاً استراتيجية، وأذرع، وأرداف الفيتكونغ، وأنين الجسد، والدم القرمزي، وثيابهم الممزقة السوداء والبنية تتكشف في مشاهد ذات ظلال من عصر التنوير أعاد لي ذكريات باهتة من دروس تاريخ الفن. تناوبت مع هذه الصيحات لقطات قريبة جداً لوجه كيم ماي الملطخ مع فمها الذي يئن وأنفها الدامي، وإحدى عينيها متورمة بحيث انغلقت تماماً. اللقطة التي امتدت أطول من غيرها في الفيلم مكرسة للوجه الذي ملأ الشاشة كلها، عينها المفتوحة تدور في محجرها، والدماء تنز من شفتيها وهي تصرخ: ماما، ماما، ماما، ماما، ماما، ماما، ماما.

انكمشتُ على نفسي، ولما توقف الفيلم أخيراً عند لقطة ارتجاعية رأينا الأشباح والشياطين ذات البشرة الحمراء كما يظهرون على عيني كيم ماي، وجوههم متوردة من شراب الأرز المحلي الصنع، أسنانهم العارية تيبست عليها الأشنات الخضراء، عيون مزورة متشنجة في انغلاقها من النشوة، الإحساس الوحيد الذي يختلج في أحشاء أحدهم تلك الرغبة في انقراضهم جميعاً. وهذا ما وفره اوتور لاحقاً، في المعركة الأخيرة الشنيعة

بالسلاح الأبيض، التي بالإمكان أيضاً مقارنتها مع فيلم عن مدرسة للتدريب الطبي على عمليات التشريح.

مع اللقطة الأخيرة للفيلم، التي يظهر فيها داني بوي جالساً عند المدخل المفتوح لمروحية هيوي التي تصعد ببطء نحو السماء الزرقاء الصافية، ينتحب على وطنه الذي دمرته الحرب، متجهاً إلى بلد آخر لا تفرز أثداء النساء فيه مجرد الحليب لكنها تقدم المثلجات والآيس كريم - أو هكذا أخبره جندي أمريكي - كان عليّ الاعتراف بموهبة اوتور، مثلما أعجب ربما بمهارة صانع أسلحة عبقري. لقد أقحم في وجودنا إسفيناً من الجمال والرعب، وذلك شيء مبهج للبعض ومحطم لآخرين، إنجاز الغرض منه تضخيم حجم الدمار. حين بدأت أسماء المشاركين في الفيلم بالظهور، أحسست بالخزي من نفسي لأني أسهمت في هذا العمل المخزي، مع أنني أحسست بالفخر أيضاً بمساهمات الكومبارس الذين عملوا معي. بعد أن واجهتهم أدوارٌ مخزية، تصرفوا بأكبر قدر من الحيوية والبراعة. كان هناك أربعة من المحاربين لعبوا دور المعتدين من الفيتكونغ: المعتدي #1، المعتدي #2، المعتدي #3، المعتدي #4، فضلاً عن آخرين ظهروا لأول مرة على الشاشة وقاموا بأدوار مختلفة: قروي يائس، فتاة ميتة، صبي أعرج، ضابط فاسد، ممرضة جميلة، شحاذ أعمى، لاجئ حزين، موظف غاضب، أرملة باكية، طالب مثالي، عاهرة لطيفة، مجنون في المبغى. لكنني لم أشعر بالفخر لما قمت به بنفسي. هناك أيضاً كل هؤلاء الزملاء الذين كرسوا أنفسهم للعمل خلف الكواليس، مثل هاري. هذا الفنان من المؤكد أنه يستحق الترشيح للأوسكار على إنجازاته المبهرة بتفاصيلها الدقيقة، وعمله القيم لا تشوهه حتى تلك الحادثة البسيطة التي تتضمن استئجار أحد العمال المحليين لترتيب أوضاع الجثث الحقيقية التي أخذت من مقبرة قريبة في المشهد الختامي. قال للجندرمة الذين جاءوا لاعتقاله ببراءة واضحة، لم أتصور أن هذا عمل غير قانوني، أيها الضابط. وكل شيء انتهى بإرجاع الجثث بسرعة إلى قبورها، مع منحة لاحقة من قبل اوتور إلى الجمعية الخيرية للشرطة، أحياناً يسمونها المبغى المحلي. بدا عليّ الانزعاج الواضح لدى رؤية اسم فيوليت مكتوباً كمساعدة للإنتاج، لكنني اقتنعت بأن لها كل الحق في المجيء قبلي على التسلسل الهرمي للمكاسب. وتذكرت بابتهاج المساعدات المستمرة التي كان يقدمها الفنيون والحرفيون أثناء عملهم، والرعاية المخلصة لفريق الإسعافات الأولية، والنقل اليومي الذي يقوم به السائقون، رغم أن خدماتي كانت بصراحة أكثر تخصصاً من خدمات

أي من هؤلاء. أعترف أنني ربما كنت مزدوج الثقافة، وأتمتع بمهارة إتقان لغتين لكنني لم أؤدّ عملاً متميزاً مثل ذلك المدرب الذي أشرف ببراعة على تعليم مهارات مختلفة وتولى قيادة المهرجين المذهلين الذين قاموا بأدوار حيوانات سيرك مدللة تبناها أصحاب البيريات الخضر، الذين حملوا أسماء من قبيل الكلب سمايتي، أو مروض الحيوانات الغريب الأطوار الذي سافر على متن طائرة DC-3 مستأجرة تحمل نمراً بنغالياً شرساً في قفص - اسمه ليلي - وحرص كثيراً على حسن تصرف الفيلين الضخمين آبوت وكوستيلو. وبينما كنت معجباً بالعمل المثابر الذي قامت به عاملات النظافة والغسيل - ديليا، مارييبيللي، كورازون، وغيرهن - هل يستحق كل هؤلاء أن تظهر أسماؤهم قبلي؟ أسماء عاملات النظافة استمرت بالظهور على الشاشة، مع عبارات الشكر للمحافظ، وأعضاء المجلس، ورئيس مكتب السياحة، والقوات المسلحة الفلبينية، والسيدة الأولى إيملدا ماركوس والرئيس فرديناند ماركوس، حتى أدركت أخيراً أن اسمي لن يذكر أبداً.

في الوقت الذي ظهرت فيه أسماء العاملين في التصوير والصوت، تلاشى تذمري من وقاحة اوتور وتحول إلى غضب يغلي في عروقي ربما يدفعني للتهور. فشله في تجاهلي في الحياة الواقعية، جعله ينجح في قتلي في الخيال، تحاشى أي ذكر للدور الذي قمت به بطريقة جعلتني أعرف حقيقته أكثر. كنت ما أزال أغلي وأنا أغادر قاعة العرض وواجهت نفحات الليل الحارة مرة أخرى، لفحاتها لم تكن جهنمية مثل الانفعالات في داخلي. بماذا تفكر؟ سألت بون، وكان صامتاً كالمعتاد بعد أي فيلم نشاهده. نفث دخان سيجارته وأشار إلى إحدى سيارات التاكسي. الآن بماذا كنت تفكر؟ وأخيراً التفت لي، نظرته كانت مزيجاً من الإشفاق والإحباط. كنت تريد التأكد من نجاحنا؟ قال. لكننا لم نكن حتى بشراً. اقتربت سيارة تاكسي متهالكة باتجاه الرصيف. الآن أنت تحولت إلى ناقد سينمائي؟ قلت. هذا رأيي، يا خريج الكلية، قال، وهو يصعد السيارة. ما الذي أعرفه أنا؟ لولا وجودي، قلت وأنا أغلق الباب، لما كانت هناك أي أدوار تعطى لشعبنا. سوف نكون مجرد شاخص للتصويب عليه. تنهد وأنزل زجاج النافذة. كل ما فعلته أن أعطيتهم مبرراً، قلت. الآن يقول البيض، انظروا، جعلنا الصفر يأتون معنا هنا. نحن لا نكرههم. بل نحبهم. بصق خارج النافذة. أنت حاولت ممارسة لعبتهم، صحيح؟ لكنهم هم الذين يديرون اللعبة. أنت لا تتحكم بأي شيء. هذا يعني أنك لا تستطيع تغيير شيء. ليس من الداخل. إذا لم تحصل على شيء، عليك تغيير الأشياء من الخارج.

لم نتكلم بشيء خلال ما تبقى من الرحلة، ولما وصلنا إلى فندقنا ذهب لينام فوراً. وبقيت مستلقياً على السرير في غرفتنا المعتمة مع منفضة السجائر على صدري، أدخن وأتأمل، كيف فشلت في المهمة الوحيدة التي اتفق عليها مان والجنرال، ذلك التخريب المتعمد في الفيلم وكل ما يمثله، على وجه التحديد إساءة تمثيلنا فيه. حاولت النوم لكني لم أستطع، بقيت مستيقظاً على طنين أبواق السيارات والمنظر المثير للأعصاب الذي رأيت فيه سوني والرائد البدين يتمددان على السقف فوقي، يتصرفان كأنهما دائماً يقضيان الأوقات هنا. الصرير الرتيب لنوابض السرير في الغرفة المجاورة لم يساعدني في شيء، استمر الصرير لوقت طويل على نحو عبثي بحيث شعرت بالأسف على ما افترضت أنها امرأة مسكينة تتحمل كل هذا بصمت. حينما شاركها الرجل في الأنين واشتدت حدة الصراخ، ارتحت لأني توقعت أن ينتهي ذلك، لكن الأمر لم يحسم، وعندما انتهى، أطلقت شريكته صرخة نشوة متقطعة من الأعماق. مثل هذه المفاجآت يبدو أنها لن تنتهي، منذ أن جاء الجنرال والمدام لرؤيتنا في المطار، يلبس سترته الصوفية المرقطة وهي في ثوب أبيض مثل أزهار الليلك. عرّفنا على أربعة من الأبطال مع تقديم زجاجة شراب اسكتلندي لكل واحد منا، والتقط لنا صورة تذكارية، وصافحنا قبل أن نمرّ من بوابة قطع التذاكر، وأنا مررت بعدهم. لكنه تشبث بيدي وقال، أريد أن أقول لك شيئاً، أيها النقيب.

انزويتُ جانباً لكي أسمح للمسافرين الآخرين بالمرور. نعم، سيدي؟ أنت تعرف كيف أنني والمدام كنا نعتبرك ابننا بالتبني، قال الجنرال. لم أكن أعرف ذلك، يا سيدي. النظرة التي بدت على وجهه ووجه المدام متجهمة، لكنها النظرة نفسها التي كان يبادلني بها أبي عادة. كيف تفعل هذا؟ قالت المدام. كنت معتاداً على النفاق فابتكرت نظرة استغراب. كيف أفعل ماذا؟ أن تحاول إغواء ابنتنا، قال الجنرال. الجميع يتحدثون عن هذا، قالت المدام. الجميع؟ قلت. الشائعات، قال الجنرال. كان ينبغي لي أن أعرف هذا عندما غنيت معها في حفل الزفاف، ولكن لا. لم يخطر في بالي أنك سوف تشجع ابنتي في مساعيها للغناء في النادي الليلي. ليس هذا فقط، أضافت المدام، أنتما معاً عملتما مشهداً فاضحاً في ذلك النادي. الجميع شاهدوا ذلك. تنهد الجنرال. أنت تحاول إفسادها، قال، لا يمكنني تصديق ذلك. بعد أن عشت في منزلنا وكنت تتعامل معها كطفلة وأخت. أخت، قالت المدام مؤكدة. أشعر بخيبة الأمل والمرارة من تصرفاتك، قال الجنرال. أردتك هنا معي. ما كنت لأتركك ترحل لولا ذلك.

سيدي -

كان يجب أن تتصرف بطريقة أفضل، أيها النقيب. أنت جندي. كل شيء وكل شخص لا بد أن يكون في موقعه الصحيح. كيف تصدق أننا يمكن أن نترك ابنتنا مع شخص مثلك؟

شخص مثلي؟ قلت. ماذا تعني بشخص مثلي؟

أوه، أيها النقيب، قال الجنرال. أنت شاب طيب، لكنك أيضاً، في حال لم تلاحظ، ابن غير شرعي. انتظرا مني أن أقول شيئاً، لكن الجنرال أخرسني وانحشرت الكلمة الوحيدة التي أرادت أن تخرج من فمي. ولما رأيا أنني لا أملك شيئاً لأقوله، هزا رأسيهما بغضب، وحزن، وإدانة، وتركاني عند البوابة مع زجاجة الشراب الاسكتلندي التي أعطيت لي. أردت أن أفتحها في ذلك الوقت وذلك المكان، لأن الشراب الاسكتلندي ربما يساعدني في النطق بتلك الكلمة. كانت منحشرة في بلعومي ولها مذاق جوارب صوفية ملطخة بوحل الوطن، الوجبة التي نسيت أنها محجوزة لطبقة من أحقر الناس.

نهضنا قبل أن تشرق الشمس ذات صباح مظلم. بعد وجبة الإفطار التي لم يتكلم أثناءها أحد باستثناء الهمهمة، أقلنا كلود بالسيارة من بانكوك إلى المعسكر، رحلة استغرقت نهاراً كاملاً وانتهت بالقرب من الحدود مع لاوس. حين انحرف إلى طريق جانبي غير مبلط نحو غابة من أشجار الكاجيبوت51 البيضاء، بين الأخاديد والحفر، كانت الشمس في طريقها إلى الغروب خلفنا. وقطعنا كيلومتراً آخر داخل غابة يكللها الغسق حتى وصلنا إلى نقطة تفتيش عسكرية فيها سيارة جيب واثنان من الجنود الشباب في بدلات عسكرية زيتونية، كل واحد منهما يحمل تعويذة بوذا التي تحميه حول عنقه وبندقية م - 16 في حضنه. شممت رائحة الماريغوانا التي لا يخطئها أنفي. دون أن يكترثا للنهوض من سيارة الجيب أو رفع عيونهما الناعسة، أشارا إلينا بالمرور. ومضينا على الطريق المتعرج، واخترقنا أعماق الغابة حيث الأغصان المتشابكة كالهياكل العظمية لأشجار طويلة بتفرعاتها النحيفة تتدلى فوقنا، إلى أن ظهرت لنا بقعة منفتحة صغيرة، فيها أكواخ مربعة أو مستطيلة، ذلك المنظر أنقذنا من الخمود من خلال ضوء مصباح كهربائي

يتسلل من النوافذ. باروكات من سعف النخيل تغطي السقوف والألواح الخشبية تؤدي إلى أبواب مرتفعة عن الأرض. الكلاب التي كانت تنبح علينا أرشدتنا إلى مداخل الأكواخ، وفي الوقت الذي تعثرت فيه أقدامنا ونحن نخرج من الأجمات، اقتربت منا مجموعة من الظلال. لقد جاءوا، قال كلود. آخر الرجال الباقين من القوات المسلحة لجمهورية فيتنام.

ربما كانت صورهم التي رأيتها في مكتب الجنرال قد التقطت لهم في أوقات أفضل من هذه، لكن هؤلاء المقاتلين الأشداء من أجل الحرية يشبهون الآن ميليشيات منهكة. في صورهم تلك رأينا رجالاً حليقي اللحى والأوشحة الحمراء والنياشين تزين أعناقهم وصدورهم يتنكرون بملابس الغابات، وأحذية القتال، والبيريات، يقفون على أهبة الاستعداد تحت ضوء الشمس الذي يتسلل من أعالي الغابة. بدلاً من الأحذية والتمويه، كانوا يلبسون الصنادل وبلوزات سوداء والسراويل القصيرة. وبدلاً من الأوشحة والنياشين، الشعار الأسطوري لحراس الغابات، لبسوا قبعات القرويين عريضة الحافات. وبدلاً من الخدود النظيفة، تركوا لحاهم خشنة، وشعرهم أشعث مغبر. عيونهم التي كانت ذات مرة تشع بالألق بدت كئيبة كالفحم. كل واحد منهم يحمل بندقية أك - 47 مع مخزنها الذي يشبه الموز الذابل، هذه الأيقونة، إلى جانب كل السمات الأخرى، لا بد أن تقود إلى تأثير بصري آخر غير متوقع.

لماذا يبدون مثل الفيتكونغ؟ قال النقيب الأشهب.

ليس رجال حرب العصابات وحدهم يشبهون أعداءهم القدامى، مثلما اكتشفنا عندما قادتنا جماعة منهم إلى كوخ قائدهم. على السطح الخفيف لهذه السقيفة وقف رجلٌ نحيف خلفه عمود مصباح كهربائي. أليس هذا - قال بون، قبل أن يتوقف عن السؤال العبثي. الجميع يقولون لا، قال كلود. رفع الأدميرال يده مرحباً بنا بابتسامة مستهجنة. كان وجهه يبدو من زاوية نظرنا نحيفاً، فيه شيء من الوسامة، يوحي بالنمط الكلاسيكي للنبلاء أو العلماء أو الأفندية. الشعر رمادي لكن ليس كله أشيب، القليل منه على قمة الرأس، ومشذباً بحيث بدا قصيراً. اللحية التي اقتصرت على الحنك سمته الأكثر تميزاً، أضفت عليه أناقة نبيلٍ في منتصف العمر أفضل حالاً من الشباب اليافعين ذوي الشعر المنسدل على الكتفين. مرحباً بكم، أيها الرجال، قال الأدميرال، حتى نبرات صوته الرقيق ذكرتني بأصداء خطابات هوشي مينه بصوته الهادئ. لا بد أنكم قطعتم مسافة

طويلة، تبدون متعبين حتماً. أرجوكم، ادخلوا معي إلى خيمتي.

مثل هوشي مينه، الأدميرال كان يسمي نفسه العم. ومثل هوشي مينه أيضاً يلبس زياً يتسم بالبساطة الثورية، بلوزة سوداء وبنطلون يماثل ما يلبسه أفراد جماعته. ومثل هوشي مينه كانت خيمته وأثاثها تتسم بالبساطة وتوحي محتوياتها بالاهتمام بالثقافة. جلسنا بعد خلع أحذيتنا على بساط من القصب في الكوخ الذي يتألف من حجرة واحدة بسيطة، القادمون الجدد بيننا كانوا منزعجين من حضور هذا الشبيه الغريب. لا بد أننا سوف ننام على الأرضية الجرداء، فلا توجد أي علامة للأسرة. رفوف كتب صنعت من الخيزران تصطف في رتل واحد، ومكتب بسيط من الخيزران وكرسي يحتلان زاوية أخرى. أثناء العشاء، ونحن نحتسي شراب الجنرال، أجرى لنا الأدميرال اختباراً ليتعرف على تفاصيل سنواتنا في أمريكا ونحن بدورنا اختبرناه وسألناه كيف جاء إلى هذه الغابة كأنه نجا من سفينة غارقة. ابتسم ونفض رماد سيجارته في منفضة من نصف ثمرة جوز الهند. في اليوم الأخير للحرب، كنت أتولى قيادة سفينة نقل مليئة بالبحارة، والجنود، ورجال الشرطة، والمدنيين الذين هربوا من الموانئ. كان يمكن أن أبحر باتجاه الأسطول السابع، مثل الكثير من زملائي القباطنة. لكن الأمريكان خدعونا من قبل، ولم يكن هناك أمل في القتال من جديد إذا هربت إليهم. الأمريكان انتهى دورهم. الآن فشل عرقهم الأبيض، كانوا يتركون آسيا للعرق الأصفر. لذلك أبحرت باتجاه تايلاند. كان لدي أصدقاء تايلنديون وكنت أعرف أنهم سوف يمنحوننا اللجوء. لم يكن لديهم مكان آخر يتجهون إليه، على العكس من الأمريكان. التايلنديون يقاتلون الشيوعية، لأنها تضغط على حدودهم مع كمبوديا. ولاوس أيضاً ستسقط قريباً. هل ترون، لم أكن مهتماً بالنجاة، على العكس من الكثيرين من أبناء وطني القرويين. توقف هنا وابتسم مرة أخرى، وما من أحد منا كان يحتاج لأن يتذكر أننا جزء من هؤلاء القرويين. الرب أنقذني مسبقاً، تابع الأدميرال كلامه. لم أكن أحتاج إلى أن ينقذني الأمريكان. أقسمت على متن سفينتي أمام الرجال على أننا سوف نستمر في القتال لأشهر، وسنوات، وحتى عقود. إذا نظرنا إلى نضالنا من عيني الله، فالزمن لا يعني شيئاً.

إذن، قال بون، تعتقد أن لدينا فرصة، يا عم؟ ضرب الأدميرال على لحيته قبل أن يجيب. يا ولدي، قال وما زال يمسّد لحيته، تذكر يسوع وكيف بدأت المسيحية برجل

واحدٍ فقط، ثم جار الحواريون، وكان إيمانهم بكلمة الرب. نحن نشبه هؤلاء المؤمنين الصادقين. لدينا مائتان من الحواريين في هذا المعسكر، ومحطة إذاعة تبث كلمة الحرية إلى وطننا المستباح، ولدينا أسلحة. لدينا كل الأشياء التي لم تكن لدى يسوع وحوارييه، ولكن لدينا إيمانهم، والأهم من كل ذلك أن الله معنا.

أشعل بون سيجارة أخرى. يسوع مات، قال. وحواريوه أيضاً.

سوف نموت نحن أيضاً، قال الملازم المتجهم. بصرف النظر عن معنى كلماته، أو ربما بسببها، كانت طريقته في الكلام تفتقر للتعاطف. ليس لأن هذا شيءٌ سيء، قال.

أنا لا أقول إنكم سوف تموتون في هذه المهمة، قال الأدميرال. لكن إذا حدث أن لقيتم حتفكم في هذه المهمة، عليكم أن تعلموا أن الذين تنقذونهم سيشعرون بالامتنان لكم، مثلما كان الناس الذين أنقذهم الحواريون ممتنين لهم.

الكثير من الناس الذين ذهبوا لإنقاذهم لم يريدوا أن ينقذهم أحد، أيها العم، قال بون. لهذا انتهى بهم الأمر إلى الموت.

يا ولدي، قال الأدميرال، ولم يبتسم الآن، يبدو أنك لست مؤمناً. إذا كنت تعني بهذا مؤمناً بالدين أو مناهضة الشيوعية أو الحرية أو أي شيء نعبر عنه بكلمات كبيرة مثلها، لا، أنا لست كذلك. كنت في السابق مؤمناً، لكن ليس الآن. لا أبالي بإنقاذ أي إنسان، ومنهم أنا نفسي. أريد فقط أن أقتل الشيوعيين. لهذا السبب أنا الرجل الذي تبحث عنه.

يمكنني تحمّل ذلك، قال الأدميرال.

الفصل الثامن عشر

أمضينا أسبوعين في التأقلم على المناخ والعيش مع رفاقنا الجدد، وسطهم ثلاثة أشخاص لم أتوقع رؤيتهم مرة أخرى. هؤلاء من الملازمين في البحرية كانوا ملتحين وشعرهم أطول مما كان عليه في تلك الليلة التي رأيناهم فيها أنا وبون في ذلك الزقاق في سايغون، يغنون سايغون الجميلة، أوه سايغون، أوه سايغون!. لكنهم ما يزالون صامتين بشكل مثير للاستغراب. لقد قطعوا كل تلك المسافة إلى أرصفة الميناء في اليوم الذي سقطت فيه سايغون، وهناك قفزوا على متن سفينة الأدميرال. كنا في تايلاند منذ ذلك الوقت، قال ضابط المارينز قائد المجموعة. كان غاطساً في وحل دلتا الميكونغ طوال حياته، مثل رفاقه، جميعهم كتبت عليهم الحياة تحت الشمس من جديد، ولكن بأشكال مختلفة. قائدهم أسمر اللون، لكن أحد المارينز الآخرين أكثر سمرة منه، والثالث أكثرهم سمرة، بل هو أسود مثل كوب الشاي. تصافحت معهم أنا وبون في شيء من التذمر. سوف نذهب معكم لنعبر الحدود، قال المارينز الأسمر. من الأفضل لنا البقاء معاً. كان هذا هو المارينز الذي سحبت عليه مسدسي، لكن لأنه اختار أن لا يذكر هذه الحقيقة، لم أذكرها.

على كل حال تجمع اثنا عشر رجلاً في فريق الاستطلاع الذي انطلق مبكراً ذات ليلة، يقودهم قروي من لاوس وكشاف من هامونغ في جبال الصين. ذلك القروي من لاوس لم يكن لديه رأي في الأمر. لقد اختطفه رجال الأدميرال في عملية استطلاع سابقة، واعتاد الآن على القيام بدور الدليل، نظراً لمعرفته بتضاريس المنطقة التي نتحرك عليها. لم يكن يتكلم الفيتنامية لكن الكشاف يتقن اللغة وخدمنا كمترجم له. حتى من مسافة بعيدة،

بإمكان المرء رؤية عيني الكشاف محتقنتين، معتمتين، مغلقتين كنافذتي قصر مهجور. كان يلبس ثياباً سوداء، مثلنا جميعاً، لكنه وحده يضع على رأسه بيرية خضراء باهتة اللون حجمها كبير جداً، بحيث استقرت حافتها الأمامية على أذنيه ورموش عينيه. سلاحه بندقية قديمة من نوع م - 1، صغيرة وخفيفة، مع ساطور م 1967 داخل غمد. تبعه المارينز الأسمر الذي كان متطرفاً في اختيار أسلحته. كان يفضل متانة بندقية أ ك - 47، لكن على فخذه يتدلى مسدس أمريكي نوع م 1911أي1. والمارينز الأكثر سمرة الذي جاء بعدهما يحمل بندقية م - 79 عليها علامة الفيل على صدرته، وذخيرتها الطويلة اللامعة، ولدى الاقتراب منه أكثر رأيته يحمل رمانات يدوية أيضاً. إذا ما اقترب العدو كثيراً، بإمكانه الاعتماد فقط على مسدسه، وسكينه، وروحه القتالية. بعد المارينز جاء الملازم المتجهم والنقيب الأشهب، اللذان لم يعتادا استعمال بندقية العدو أ ك - 47 وبدلاً منها حملا بندقية م - 16 التي سبق أن استخدماها طوال الحرب، اختاراها من ترسانة الأدميرال. كل واحد منهما كان يحمل أيضاً لغماً من نوع كلايمور، قادر على تصفية كتيبة جوالة بانفجار عنقودي، وكيساً من قنابل متشظية تطلق من بندقية م - 26. خلف النقيب الأشهب يأتي مشغل اللاسلكي النحيف، الذي إلى جانب بندقية تطلق اللهب، كان يحمل جهاز لاسلكي ب ر س - 25 على ظهره. وبعده يأتي المسعف الطبي الذي يلقبونه بالمتفلسف، مع عدته الطبية في كيسٍ على ظهره. اختار هذا البندقية الثقيلة الموثوقة م - 14، لأن لا أحد من فريق الاستطلاع يمكنه الذهاب بلا أسلحة، المسعف المتفلسف وأنا التقطنا واحدة منها على الفور ذات مساءٍ مشبع بعطر الياسمين والماريجوانا. رغم الحزن والأسى، سألني، ما الشيء الثقيل حقاً ولكن لا وزن له أبداً؟ حين رآني مرتبكاً، قال، العدم. وكانت تلك فلسفته في الواقع. خلفه جاء حامل المدفع الرشاش الذي يستخدم يده اليسرى، وكان يحمل أحزمة الذخيرة على كتفيه وبندقية م - 60 بين ذراعيه. ثم أتينا أنا وبون. لقد سبق لي أن اعتدت روح حرب العصابات واخترت بندقية أ ك - 47. مثل أي شخص آخر، حملت على كتفي المؤن في كيس أمتعتي. وكان بون يلوّح ببندقيته م - 16، وبدلاً من كيس الأمتعة، هناك حمولة من الرمانات اليدوية، رؤوسها المنتفخة فوق الأنابيب الطويلة تذكرنا بأزهار اللوتس. هذه تطلق من مدفع ب - 40 السلاح المفضل لدى المارينز الأسود، الذي يحمي مؤخرة الرتل.

لأغراض الدفاع، بدلاً من واقيات الرصاص التي تلبس على الصدر والخوذ، كل واحد

منا استلم صورة صقيلة للعذراء مريم يمكن حملها في محفظة يضعها على قلبه. الأدميرال باركنا بهذه الهدايا قبل رحيلنا من المعسكر، وكان ذلك بالنسبة لأغلبنا مصدراً للارتياح. أمضينا أياماً في مناقشة التكتيكات، وتحضير المؤن، ودراسة خارطة مسارنا عبر الطرف الجنوبي من لاوس. هذه تضاريس سبر أغوارها المارينز في جولات استطلاع سابقة، وهي مألوفة للرجل القروي من لاوس. المهربون، كما قال، يعبرون الحدود طوال الوقت. بين فترة وأخرى كنا نصغي إلى راديو فيتنام الحرة، طاقم القناة يعملون من كوخ الخيزران بالقرب من خيمة الأدميرال. من هناك يبثون خطابات الأدميرال، ويقرأون فقرات مترجمة من الصحف، إلى جانب بعض أغاني البوب التي تثير ردود أفعال رجعية، جيمس تايلور ودونا سمر هما المفضلان خاصة في هذا الموسم. الشيوعيون يكرهون أغاني الحب، قال الأدميرال. إنهم لا يؤمنون بالحب أو بالرومانسية والاستمتاع. بل يؤمنون بأن الناس ينبغي فقط أن يحبوا الثورة والوطن. لكن الناس يحبون أغاني الحب ونحن نلبي طلباتهم. موجات الأثير التي تنقل أغاني الحب هذه مشحونة بالعواطف، عبر لاوس باتجاه الوطن. في جيبي راديو ترانزستور صغير مع سماعة إذن حتى أتمكن من الاستماع للإذاعة، وكنت أعتبره أكثر أهمية من سلاحي وحتى من صورة مريم. أما كلود، الذي لا يؤمن بمريم أو بأي شيء مقدس، فمنحنا بركاته العلمانية في تحية عسكرية لدى مغادرتنا. حظاً سعيداً، قال. فقط ادخلوا واخرجوا، بسرعة وهدوء. كم يبدو من السهل قول ذلك مقارنة بالأفعال! هكذا فكرت. لكني احتفظت بتلك الفكرة لنفسي، وظننت أن الكثير من أصحابي ربما كانوا يفكرون بالطريقة نفسها. كان كلود يحس بقلقي وهواجسي حين ربت على كتفي. اعتن بنفسك، يا صديقي. إذا بدأ أي شخص بإطلاق النار، اخفض رأسك. دع الباقين يقاتلون. كانت تقديراته لقدراتي مؤثرة بي ومن المرجح أنها في محلها. أراد أن يبقيني في مأمن، هذا الرجل الذي يقف إلى جانب مان، علمني كل شيء أعرفه عن الاستخبارات، عن السرية كمنهج في الحياة. سوف ننتظر عودتكم أيها الأصدقاء، قال كلود. أراك قريباً، قلت. وانتهى كل شيء.

انطلقنا في رحلتنا تحت ضوء القمر الفضي، يملؤنا التفاؤل في أن لدى المرء أحياناً في بداية رحلة شاقة خزينٌ لا بأس به من الهليوم يملأ رئتيه ويحمله إلى مسافة بعيدة. ثم، بعد قرابة ساعة من المشي المتعثر، أو بالنسبة لي على الأقل، اختفى الهليوم من رئتي واستبدل بأولى علامات التعب، كانت قطرات العرق تتشرب في جسمي كأنها قطرات ماء

تتشرب ببطء في منشفة. بعد بضع ساعات من المسير وصلنا إلى بركة ماء، حيث نادى النقيب الأشهب للراحة. جلسنا على ضفة البركة التي يضيئها القمر وأرحت ساقي المتقرحتين، كان بوسعي فقط أن أتلمس بيديّ المرتعشتين بحثاً عن ساعة الرسغ التي وجدتها تشير إلى الواحدة صباحاً. أحسست بيدي منفصلتين كأنهما عقارب الساعة، فما تريدانه الإمساك بالسيجارة في جيب صدري ومداعبتها، ولكن ذلك الاشتياق بقي مخدراً في جهازي العصبي. أما بون فلم يتأثر على ما يبدو بأي اشتياق مماثل، كان جالساً قربي على الأرض يأكل بصمت شيئاً من الرز. شممت رائحة نتنة من الوحل والنباتات المتعفنة تفوح من البركة، على سطحها طفا طائر ميت بحجم العصفور وسط كومة من الريش الذابل. هناك حفرة فيها قنبلة، تمتم بون. إنها من مخلفات الأمريكان، إنها علامة على أننا دخلنا لاوس. صادفتنا الكثير من تلك الحفر ونحن نرحل شرقاً، أحياناً فرادى، أو جماعات، وكان علينا تلمس طريقنا بحذر وسط بقايا جذوع مقطوعة من أشجار الكاجيبوت تتناثر هنا وهناك. ذات مرة اقتربنا من إحدى القرى، وعلى حافات الحفر القريبة رأينا شبكات وأوتاد، بانتظار أن تغرس في تلك الحفر التي كدس فيها القرويون الأسماك.

مع الفجر تقريباً أشار لنا النقيب الأشهب بالتوقف عن المسير عند بقعة قال القروي من لاوس إنها منعزلة ونادراً ما يصل إليها سكان المناطق الحدودية. المكان الذي ألقينا فيه رحالنا كان على سفوح أحد التلال، وتحت شجرة كاجيبوت لامبالية نشرنا أغطيتنا على الأرض وغطينا أنفسنا بشبكات التمويه التي ربطناها على سعف النخيل. تمددت بينما وضعت رأسي على كيس أمتعتي بجوار المؤن، وكنت أخفي كتاب (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار)، في قعر الكيس في حال احتجت إليه مرة أخرى. بقي اثنان أو ثلاثة أشخاص منا للقيام بمناوبات الحراسة التي تستغرق ثلاث ساعات، وكان من سوء حظي أن أكلف بمناوبة في آخر الليل. بدا لي أنني بالكاد تمكنت من النوم مع حافة قبعتي على وجهي حين أحسست بشخص ضخم يحمل الرشاش يهز كتفي وينفث أنفاسه الثقيلة البكتيرية على وجهي، أبلغني أن نوبتي في الحراسة قد حانت. كانت الشمس عالية في كبد السماء وحنجرتي جافة من العطش. رأيت نهر الميكونغ على مسافة بعيدة من خلال المنظار، كأنه حزام بني يشطر جذع الأرض الأخضر. هذه حدود حقيقية تختلف عن الحدود التي رسمها الإنسان والتي لا يراها أحد إلا إذا أحيطت بالأسلاك الشائكة. رأيت ما يشبه علامات الاستفهام والتعجب من دخان الخشب المحترق تتصاعد

من أكواخ القرويين أو من معامل الطابوق. رأيت قرويين لفحتهم الشمس يخوضون في الماء مع الجواميس، يغطسون في الوحل بين حقول الرز. رأيت الطرق الريفية وممرات تتحرك عليها العربات ببطء مضجر كأنها السلاحف. رأيت خرائب متداعية من الحجارة والرمال تعود إلى معبدٍ قديم، أقيمت منذ أزمنة سحيقة من قبل سلالة منقرضة، أشرف على بنائها أحد الطغاة المنسيين، عيون التماثيل خالية من أي تعبير كأنها أصيبت بالعمى بعد ضياع إمبراطوريته. رأيت الامتداد الشاسع للأرض، هذا الجسد العاري تحت الشمس لا يكشف عن كل الأسرار الغامضة لليل، وعلى حين غرة انتابتني رعدة بحيث فقدت الأرض اتزانها وارتعشت، وأدركت بذهول مماثل أننا مع كل المستلزمات التي جلبناها، لا أحد منا فكر بأن يجلب قطرة من الشراب.

***

الليلة اللاحقة لم تمض كسابقتها. لم يبد واضحاً لي إن كنت أمشي أثناء الليل أم أنني ببساطة أتعلق على جناحي وحش طائر ينتفض ويقفز تحتي. تيار من عصارة صفراء مرة تصاعد إلى حنجرتي، أذناي انتفختا وتمددتا وابتعدتا عن رأسي، وصرت أرتجف كأنني أعاني من التجمد في الشتاء. حين نظرت إلى الأعلى لمحت النجوم من بين فروع الأشجار، ودوامات من نتف الثلج محجوزة ضمن كرة زجاجية. سوني والرائد البدين كانا يضحكان بصوتٍ خافت وهما يراقبانني من خارج الكرة الثلجية ويهزانها بأياديهما العملاقة. الشيء الملموس الوحيد الذي جعلني أتشبث بالعالم المادي تلك البندقية التي بين يدي، لأن الساقين لا تشعران بالأرض تحتي. أمسكت بندقية أ ك - 47 مثلما كنت أمسك ذراعي لانا في تلك الليلة بعد أن تركت شقة سوني. لم تبد مستغربة وهي تفتح الباب، لأنها تعرف دائماً أنني سأعود إليها. لم أخبر الجنرال بما فعلناه أنا ولانا ولكن كان ينبغي أن أخبره. هناك شيءٌ واحد لا يستطيع أن يفعله ولكني فعلته، وبعد أن قتلت رجلاً لا شيء يمنعني من فعل أي شيء، حتى بخصوص الأشياء التي تعود له أو تصدر عنه. حتى رائحة الغابة تذكرني برائحتها، ولما رفعت كيس أمتعتي وجلست بين بون والملازم المتجهم وسط بستان قصب الخيزران، كانت رطوبة الأرض أيضاً تذكرني بها. فوق رؤوسنا تحوم يراعات لا تحصى تضيء الأغصان، وساورني شعور بأن خراطيم وعيون الغابة مثبتة علينا. بعض الحيوانات بإمكانها أن ترى في الظلام، لكن البشر وحدهم يبحثون عن قصد عن أي مسار

ممكن نحو ظلمات النفس. كنوع من الكائنات، لم نواجه كهفاً، أو باباً، أو مدخلاً من أي نوع لا نريد الدخول إليه. لا نقتنع أبداً بطريقة واحدة فقط. دائماً نجرب كل الطرق الممكنة، حتى الطرق الغامضة والأكثر رعباً وانتهاكاً للحرمات، أو هكذا تذكرت في ليلتي التي قضيتها مع لانا. أريد أن أتبول، قال الملازم المتجهم، بعد أن وقف فجأة. وسرعان ما اختفى في ظلام الغابة، بينما فوقه يراعات تنطفئ أضواؤها ثم تشتعل على التناوب. أتعرف لماذا أحبك؟ سألتني في نهاية لقائنا. أنت تجسيد لكل شيء تكرهه أمي. لم أتضايق من كلامها. لقد اعتدت على هذه الكراهية بحيث أن القليل منها بالكاد يؤثر الآن في كبدي المتبلد. لو قطع أعدائي يوماً كبدي وأكلوه، مثلما يشاع عن الكمبوديين، سوف يلعقون شفاههم باستمتاع، فلا شيء فيه أشهى من طعم الكراهية، إذا ما تجرأ أحدهم وتذوق كبدي. ارتبت من خشخشة الأغصان في الاتجاه الذي ذهب إليه الملازم، فوقي يراعات تشتعل وتنطفئ. هل أنت على ما يرام؟ قال بون. هززت رأسي، كنت أنظر إلى اليراعات بتركيز وهي تشتعل وتنطفئ في كل ثانية، علاماتها المضيئة على الخيزران كأنها مشاركة في عيد ميلاد في البراري. سمعت خشخشة الشجيرات ورأيت الشكل القاتم للملازم يظهر من الخيزران.

- مرحى، قال. هذا أنا

ومض ضوءٌ ساطع أعمى بصري وصوت الانفجار أصاب أذني بالصمم. رشقتني كومة من التراب والحصى فجفلت. أذناي عاد إليهما الإحساس وسمعت أحدهم يصرخ بينما كنت أزحف على الأرض، وذراعاي فوق رأسي. شخصٌ يصرخ، حتماً لست أنا. شخصٌ آخر يلعن ولست أنا. نفضت التراب الذي تساقط على وجهي وجبهتي ورأيت الأشجار فوق رأسي معتمة. اليراعات توقفت عن الإضاءة وشخص ما كان يصرخ. إنه الملازم المتجهم يتلوى بين نباتات السرخس. دفعني المسعف المتفلسف وقفز ليصل إلى الملازم. ظهر النقيب الأشهب من الظلام فجأة وقال، خذوا مواقعكم الدفاعية، اللعنة. إلى جانبي، سحب بون أقسام بندقيته المقعقعة - كلك كلاك - وصوّب سلاحه باتجاه الظلام. سمعت صوت كلك كلاك في كل مكان حولي مع تجهيز الأسلحة للقتال، وفعلت الشيء نفسه. أضاء أحدهم مصباحاً كاشفاً وحتى حين أدرت ظهري نحو المشهد كنت أرى الضوء الساطع. الساقان تهشمتا، قال المسعف المتفلسف. والملازم يصرخ. أمسك المصباح بينما

أربط ساقه. كل الناس في الوادي سمعوا هذا، قال المارينز الأسمر. هل سينجو؟ قال النقيب الأشهب. ربما إذا أوصلناه إلى أقرب مستشفى، قال المسعف الطبي. ثبتوه إلى الأسفل. علينا أن نخرس صوته، قال المارينز الأسمر. لا بد أنه كان لغماً، قال النقيب الأشهب. وليس هجوماً. إما أن تفعلوا ذلك أو أنا أفعله، قال المارينز الأسمر. وضع أحدهم يده على فم الملازم، وأسكت صرخاته. ونظرت من فوق كتفي، فرأيت المصباح الكاشف بيد المارينز الأسمر يشع على المسعف المتفلسف وهو يربط على غير هدى قطعة قماش لإيقاف النزيف في الطرف المبتور، جزء من العظم بارز في المكان الذي كانت فيه الساق التي نسفت من فوق الركبة. وضع النقيب الأشهب إحدى يديه على فم الملازم، ويده الأخرى تخرس منخريه. انتفض الملازم، ممسكاً بأكمام المسعف المتفلسف والنقيب الأشهب، بينما أطفأ المارينز الأسمر المصباح الكاشف. تدريجياً خفتت شدة الضوضاء والصراع، وأخيراً سكنت حركاته. لو أنه مات، لماذا ما زلت أسمع صرخاته؟

علينا أن نتحرك، قال المارينز الأسمر. لا أحد سيأتي الآن لكنهم سيأتون مع بزوغ الضوء. لم يقل النقيب شيئاً. هل سمعتموني؟ قال النقيب الأشهب نعم. إذن افعلوا شيئاً، قال المارينز الأسود. علينا الابتعاد عن هذا المكان قدر الإمكان قبل الصباح. واقترح النقيب الأشهب أن ندفنه. وعندما قال المارينز الأسود إن الأمر سيتطلب وقتاً، أعطى النقيب الأشهب الأوامر بحمل الجثة معنا. قسمنا ذخيرة الملازم ومحتويات كيس أمتعته، بينما كان القروي من لاوس يحمل الكيس الفارغ والمارينز الأسود أخذ بندقية الملازم م - 16. أعطى حامل المدفع الرشاش بندقيته م - 60 إلى المارينز الأسود والتقط جثة الملازم وحملها على ظهره. كنا على وشك الانطلاق حين قال حامل المدفع الرشاش، أين ساقه؟ أضاء المارينز الأسود مصباحه الكاشف. وهناك وجد الساق مستقرة على سرير من السراخس المبعثرة، اللحم تمزق إلى نتف والثوب الأسود ما زال عالقاً بها، وتشوه العظم الأبيض الذي نتأ من شقوق في اللحم. أين القدم؟ قال المارينز الأسود. أعتقد أنها طارت واختفت بعيداً، قال المسعف المتفلسف. قطع من اللحم القرمزي والجلد والأنسجة كانت تتعلق على السراخس، الآن زحف إليها النمل. أمسك المارينز الأسود الساق ولما نظر إلى الأعلى كنت أول من رآه. الأمر كله بين يديك، قال، ودفع الساق لي. فكرت في رفض المهمة، لكن أحدهم سوف يضطر لحملها. تذكر أنك لست أقلّ منهم شاناً، أنت متفوق عليهم في كل شيء. إذا تولى شخصٌ آخر هذه المهمة، فأنا أيضاً أستطيع ذلك. إنها

مجرد كتلة من اللحم والعظم، باردة ولزجة مع دماء ورمل ووحل يلتصق عليها. حين أخذتها ونفضت النمل عنها، وجدتها أثقل من بندقيتي م - 47، الساق اقتطعت من جسد رجل نحيف. أمرنا النقيب الأشهب بالتقدم وتبعت حامل المدفع الرشاش، وجثة الملازم تتدلى فوق كتفه. كان قميص الملازم يكشف عن ظهره، واللوح المكشوف من اللحم بدا أزرق اللون على ضوء القمر.

حملت الساق المقطوعة بإحدى يدي، بينما يدي الأخرى تمسك شريط البندقية التي تتدلى على ظهري، وكان حمل ساق الرجل يبدو أثقل من جثته. حملت ساقه وأبقيتها بعيداً عن وجهي قدر الإمكان، وزنها يزداد ثقلاً أكثر فأكثر، مثل الكتاب المقدس الذي جعلني أبي أمسكه أمام الصف في المدرسة عقاباً على بعض الانتهاكات، ذراعي ممدودة بالكتاب على راحة يدي. بقيت معي تلك الذكرى حتى الآن، إلى جانب ذكرى أبي وهو في كفنه، الجثة بيضاء مثل عظم ساق الملازم المتجهم. رنين الترانيم في تجمعات الكنيسة يتردد في أذني. سمعت بموت أبي عندما دعاني الشماس إلى مركز الشرطة. كيف حصلت على تلفوني هذا؟ قلت. كان الرقم ضمن أوراق الأب على مكتبه. نظرت إلى الوثيقة التي على مكتبي، تحقيق سري بشأن حادث غير مهم وقع في السنة الماضية، 1، حين دهم فصيل أمريكي قرية هادئة بالقرب من كوانغ نجاي. بعد إعدام الجواميس في المياه، والخنازير، والكلاب، وبعد الاعتداء على أربع فتيات، جمع الجنود الفتيات مع خمسة عشر رجلاً من كبار السن، والنساء والأطفال في ميدان القرية، وأطلقوا النار عليهم جميعاً، بحسب شهادة أحد الجنود النادمين. في تقرير آمر الفصيل يشهد على أن رجاله قتلوا تسعة عشر من الفيتكونغ، مع أن الفصيل لم يغنم أي أسلحة غير بعض المجارف، والمعاول، والفؤوس، وآلات حربية قديمة، وبندقية. لا وقت لدي، قلت. من الضروري أن تذهب، قال الشماس. لماذا من الضروري؟ قلت. بعد صمتٍ طويل، قال الشماس، كنت شخصاً مهماً بالنسبة إليه مثلما كان مهماً لك. في ذلك الوقت فقط عرفت، من غير حاجة للكلمات، أن الشماس يعرف من يكون أبي.

انتهت المسيرة التي اضطررنا إليها بعد ساعتين، المدة نفسها التي كرست لمراسم جنازة أبي. سمعنا خشخشة في الأخدود الذي توقفنا عنده حين احتك وجهي بشجيرات البوغانفيلا. ألقيت الساق عني بينما بدأ المارينز يحفرون قبراً. كانت يدي ملوثة بالدماء

وانحنيت قرب جدول لأغسلها بالماء البارد. في الوقت الذي انتهى فيه المارينز من الحفر، جفت يدي ولمحت وميضاً خافتاً من الضوء الوردي على الأفق. مدد النقيب الأشهب جثة الملازم المتجهم ولفّها بكفن من أوراق الشجر بمساعدة حامل المدفع الرشاش. أدركت عندئذ أنني سوف ألوث يدي بالدماء من جديد. التقطت الساق ووضعتها في مكانها. على الضوء الوردي رأيت عينيه المفتوحتين وفمه المتراخي، وكنت أسمعه يصرخ. أغلق النقيب الأشهب العينين والفم ولف جسده جيداً، لكن عندما رفع هو وحامل المدفع الرشاش الجثة، انزلقت الساق إلى الخارج. كنت أمسح يدي الملطخة على بنطلوني لكنني اضطررت لالتقاط الساق مرة أخرى. بعد أن انزل الجسد إلى القبر، انحنيت ووضعت الساق تحت الرداء، قرب ركبته. كانت حشرات وامضة الآن تحوم حول التراب وأنا أساعد الآخرين في إنزال التراب على القبر. كانت الحفرة عميقة بما يكفي لتخفيها ليومٍ أو يومين، إلى أن تحفر الحيوانات وتخرج الجثة لتلتهمها. الشيء الذي لم أفهمه، قال سوني، وهو يربّت على كتفي وأنا أنحني بجانب القبر، ما إذا كانت روح الملازم سوف تحوم هنا بساق واحدة أو ساقين، أو ما إذا كانت الحشرات تخرج من عينيه أم لا. حقاً، قال الرائد البدين، رأسه يطل من القبر وهو يتكلم معي، يبقى سراً من الأسرار أي شكل يتخذه الشبح. لماذا أنا هنا لولا هذا الثقب الذي في رأسي ولست كتلة مقرفة من العظام واللحم؟ أخبرني بذلك، ألا تخبرني أيها النقيب؟ أنت تعرف كل شيء عن أي شيء، أليس كذلك؟ كنت سأجيبه لو استطعت، لكن كان من الصعب أن أفعل ذلك لأني أحسست بوجود ثقب في رأسي مثله تماماً.

***

مر ذلك اليوم دون أن يكتشف وجودنا أحد، وفي وقت متأخر من المساء، بعد رحلة قصيرة، وصلنا إلى ضفاف نهر الميكونغ، رأينا المياه تلمع تحت ضوء القمر. في مكان ما على الجانب الآخر كنتم بانتظاري، أيها القائد، فضلاً عن ذلك الرجل الغامض أو المفوض. بينما ما زلت أجهل كيف عرفتم بوجودنا، كان من المستحيل أن لا أحس بالهواجس المرعبة ونحن ننتزع الطفيليات التي تلتصق بنا بعناد الذكريات المقيتة. كنا نحملها دون أن نعرف، حتى سحب القروي من لاوس كتلة سوداء من كاحله. لم يكن يسعني وأنا أحملق في وحوش صغيرة تمتص الدم من ساقي سوى الرغبة في أن تكون لانا هي التي

تلتصق بي. اتصل مشغل اللاسلكي بقاعدة المعسكر، وبينما كان النقيب الأشهب يبلغ الأدميرال بتحركاتنا، أظهر المارينز مرة أخرى أنهم يصلحون لشيء مفيد بعد أن صنعوا طوفاً من جذوع الخيزران ربطوه بأغصان نباتات متسلقة. كان بإمكان أربعة رجال عبور النهر بالتجذيف بألواح محورة من الخيزران، الوجبة الأولى كانت تتعقب حبلاً يمسكه المارينز الأكثر سمرة. الحبل مربوط من الجانبين بإحدى الأشجار على ضفة النهر، وهو يرشد المارينز نفسه لدى عودته مع الطوف. سوف يتطلب الأمر أربع رحلات لعبورنا جميعاً، المجموعة الأولى تنطلق قبل منتصف الليل: المارينز الأكثر سمرة، والكشاف من هامونغ، وحامل المدفع الرشاش، والمارينز الأسود. أما البقية فانتشروا على الضفة المكشوفة، مختبئين تحت شبكات من الأوراق، ظهورهم إلى النهر والأسلحة موجهة نحو الغابة الواسعة وكانوا مقرفصين على الأوراك.

بعد نصف ساعة عاد المارينز الأسود مع الطوف. وذهب ثلاثة رجال آخرون معه، القروي من لاوس، والمارينز الأكثر سمرة، والمسعف المتفلسف، الذي عندما اقترب من قبر الملازم الصارم قال كنوع من التأبين، نحن جميعاً الذين نعيش الآن سوف نموت. الأشخاص الوحيدون الذين لا يموتون هم الموتى. ما معنى هذا بحق السماء؟ قال المارينز الأسود. كنت أعرف معنى قوله. أمي لم تكن ستموت لأنها ماتت. وأبي أيضاً لن يموت لأنه ميت. لكنني أقف على هذا البرزخ، سوف أموت، لأني لم أمت بعد. وماذا عنا نحن؟ سأل سوني والرائد البدين معاً. سوف نموت أم موتى؟ ارتعشت أوصالي، وحملقت في ظلام الغابة، موجهاً سلاحي الطويل، فرأيت أشكالاً لأشباح أخرى وسط الأشجار المخيفة. أشباح بشرية وأخرى حيوانية، أشباح نباتات وأشباح حشرات، أرواح نمور وخفافيش ميتة ونخيل وعفاريت، عالم نباتي وآخر حيواني يسعيان حثيثاً إلى حياة أخرى. الغابة كلها تومض بألاعيب الموت، المهزلة، هذه الحياة، والتراجيديا ثنائي لا ينفصلان أبداً. أن تعيش يعني أن تسكنك حتمية العفن، وأن تموت يعني أن تسكنك ذكرى الحياة.

مرحى، همهم النقيب الأشهب، جاء دورك. نصف ساعة أخرى لا بد أنها قد مضت. كان الطوف يتمايل متجهاً إلى الضفة مرة أخرى، يسحبه من الحبل المارينز الأكثر سمرة. نهضت أنا وبون مع سوني والرائد البدين، كانا حريصين على أن يتبعاني نحو النهر. أتذكر ضوضاء الأشباح التي سمعتها من تحت النهر، والألم في ركبتي يتفاقم، وسلاحي يزداد ثقلاً

في ذراعي. أتذكر الظلم الذي أحسست به حين تساءلت كيف أن أمي لم تأت ولو مرة لزيارتي بعد موتها على كثرة المرات التي بكيت فيها عليها، على العكس من سوني والرائد البدين، اللذين أحملهما معي إلى الأبد. أتذكر كيف أن لا أحد منا كان يبدو كأنه من البشر على ضفة النهر، تغطينا شبكات تمويه من الأوراق، وجوهنا مطلية بالسواد، تمسك أسلحتنا المعدنية. أتذكر النقيب الأشهب وهو يقول خذ المجذاف ويدفعه لي، تماماً قبل أن يضرب سوط ناري أذني ورأس النقيب الأشهب يتحطم، ينزف مادته الهلامية. لطخة من شيء رطب رقيق استقرت على خدي وضوضاء صارخة ارتفعت على جانبي النهر. رأيت ومضات خاطفة تلوح على الجانب البعيد وقعقعة رمانات يدوية تخترق الصمت المريب. المارينز الأكثر سمرة اتخذ خطوة فقفز من الطوف قبل أن تستقر رمانة يدوية أو صاروخ قربنا وتنفجر، ومع ذلك تمزق جسده إلى قطع متناثرة وسط هالة من النيران والشرر حتى انجرف ما تبقى منه إلى المياه الضحلة التي تلطم ضفة النهر، استقر هناك ولم يكن ميتاً، بل كان يصرخ.

انزل، أيها الغبي! سحبني بون إلى الأرض. لم يكن مشغل اللاسلكي النحيف يرد الآن على النيران من جانب الغابة، وأصوات بنادق أوتوماتيكية تلعلع على طبلة أذني. كنت أشعر بحجم نيران البنادق وبسرعة الرصاص وهو يعبر فوق رأسي. الخوف منطادٌ انتفخ في قلبي جعل خدي يلتصق بالأرض. على الضفة منحدر أنقذنا من الكمين، فبقينا خارج نطاق رؤية الأشباح المنتفضة في الغابة. أطلق النار، عليك اللعنة، قال بون. العشرات من البراعات القاتلة انطلقت من الأسلحة في الغابة في ومضات مكتومة. لكي أطلق النار كان عليّ أن أرفع رأسي وأصوب على الهدف، غير أن البنادق كانت صاخبة حتى أحسست بالرصاص يرتطم بالتراب. أطلق، عليك اللعنة! رفعت سلاحي وصوبت نحو الغابة ولما ضغطت على الزناد لطمتني البندقية على كتفي. الوميض الأخرس يتوهج في الظلام بحيث أن كل شخص يحاول قتلنا الآن صار يعرف مكاني، لكن الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به أن أستمر في الضغط على الزناد. الألم في كتفي يزداد مع ضربات بندقيتي، ولما توقفت لإخراج مخزن الرصاص وتبديله بآخر، أحسست بالألم في أذني أيضاً، بعد أن تعرضتا لتأثيرات ستريو الإطلاقات النارية على هذا الجانب من النهر أثناء الاشتباك مع أشخاص مجهولين على الجانب الآخر. كنا نطلق النار بوحشية على الظلام، نصوب على أشباح مجهولة. وجهت سلاحي صوب الغابة وضغطت على الزناد، والنباح الوحشي الذي أخافني

لم يكن غير ذكرى جامدة في قلبي بأني إنسان جبان. في كل لحظة خفت أن ينهض بون ويأمرني بأن أهجم معه نحو مصادر نيران العدو، وكنت أعرف أنني سأعجز عن ذلك. كم خفت من الموت وأحببت الحياة! اشتقت للعيش بما يكفي لتدخين سيجارة أخرى، وشرب كأس أخرى، وتجربة سبع ثوان أو أكثر من الخطايا الإباحية، ومن ثم، ربما، ولكن من المحتمل أكثر لا، يمكن أن أموت.

على حين غرة توقف إطلاق النار باتجاهنا وبقينا أنا وبون وحدنا نرمي باتجاه الظلام. في ذلك الوقت فقط لاحظت أن مشغل اللاسلكي النحيف لم يعد موجوداً معنا. توقفت مرة أخرى عن الرمي ورأيت، تحت ضوء القمر، رأسه منحنياً على بندقيته الهامدة. بون وحده بقي يطلق النار، لكن بعد أن فرغ مخزن الرصاص، توقف أيضاً. أخيراً توقف تبادل إطلاق النار عبر النهر، ومن الجانب الآخر كان بضعة رجال يصرخون بلغة أجنبية. وبعد ذلك، من امتدادات الغابة المظلمة في الجانب الآخر، صاح شخصٌ ما بلغتنا. توقفوا! لا تموتوا من أجل لا شيء! كانت لهجته شمالية.

كل شيء أصبح هادئاً على ضفة النهر باستثناء همسات المياه من الأعماق. لا أحد يصرخ على أمه، وعند ذلك عرفت أن المارينز الأكثر سمرة مات أيضاً. استدرت إلى بون وعلى ضوء القمر رأيت بياض عينيه وهو ينظر لي، مبللاً بقطرات الدموع. لولاك أنت أيها الحقير الغبي، قال بون، لكنت سأموت هنا. كان يصرخ للمرة الثالثة هكذا منذ أن عرفته، ليس بذلك الانفعال الملحمي كما حدث لدى موت زوجته وابنه، أو بالنمط المأساوي الذي يشترك فيه مع لانا، ولكن بهدوء وانكسار. المهمة انتهت، وبقي حياً، وخطتي نجحت، مهما كانت خرقاء أو غير مقصودة. نجحت في إنقاذه، ولكن كما اتضح لاحقاً، أنقذته من الموت الذي كان يتمناه.

Telegram @read4lead

الفصل التاسع عشر

أنقذته من الموت الذي كان يتمناه؟ بدا القائد متأثراً جداً، إصبعه يستقر على الكلمات الأخيرة التي جاءت في اعترافاتي. بيده الأخرى قلم رصاص أزرق، اللون الذي اختاره لأن ستالين كان أيضاً يستعمل قلم رصاص أزرق، هكذا أخبرني. مثل ستالين، كان القائد محرراً صحفياً مجتهداً، ودائماً يكون على استعداد للالتقاط وتأشير أخطائي واستطراداتي الكثيرة ودائماً يحثني على الحذف، والتقطيع، وإعادة الصياغة، أو الإضافة هنا وهناك. الإشارة إلى أن الحياة في معسكرنا أسوأ من الموت فيها شيء من التكلف، ألا تعتقد ذلك؟ بدا القائد منطقياً بامتياز وهو يجلس على كرسي الخيزران، وكنت جالساً على كرسي مماثل، أحسست للحظة أنه رجل منطقي بامتياز. لكنني في ذلك الوقت تذكرت أنني كنت منذ ساعة فقط أقبع في زنزانة انفرادية بلا نوافذ من قرميد أحمر أمضيت فيها السنة الأخيرة منذ أن وقعنا في الفخ، أعيد كتابة الكثير من نسخ اعترافاتي، وآخرها الآن تلك التي بين يدي القائد. ربما وجهة نظرك تختلف عن وجهة نظري، أيها الرفيق القائد، قلت، محاولاً التعود على نبرة صوتي الجديدة. لم أتكلم مع أي شخص منذ أسبوع. إنني مجرد سجين، تابعت كلامي، وأنت المسؤول هنا. ربما يصعب عليك التعاطف معي، والعكس صحيح.

تنهد القائد ووضع الصفحة الأخيرة لاعترافاتي فوق الثلاثمائة واثنتين وعشرين من الصفحات الأخرى التي سبق أن قرأها، كلها مكدسة على طاولة قرب كرسيه. كم مرة عليّ أن أخبرك؟ أنت لست سجيناً! أولئك الرجال هم السجناء، قال، وأشار من النافذة إلى الثكنات التي فيها قرابة ألف نزيل، ومنهم زملائي من الناجين، القروي من لاوس، الكشاف

من هامونغ، المسعف المتفلسف، المارينز الأكثر سمرة، والمارينز الأسود، وبون. أنت حالة خاصة. أشعل سيجارة. أنت ضيف علينا وعلى المفوض.

الضيوف باستطاعتهم المغادرة، أيها الرفيق القائد. توقفت عن مراقبة ردة فعله. أردت سيجارة منه، ولن أحصل عليها إذا أثرت غضبه. لكنه اليوم يتمتع بمزاج استثنائي ولم يقطب جبينه. عظام خديه الناتئة وقسمات وجهه الدقيقة تجعله يشبه مغني الأوبرا، وحتى عشر سنوات من المعارك التي خاضها من كهف في لاوس لم تؤثر على نظراته الطيبة الكلاسيكية. ما يجعله غير جذاب في بعض الأحيان شيء يتعلق بكآبته، تعاطف دائم مع كل شخص في المعسكر، ومنهم أنا. هذا الحزن الذي يحس به الجنود الذين يحنون إلى الوطن والسجناء الذين تنضح أجسامهم بالعرق بلا توقف، يتغلغل مع رطوبة الملابس التي لا تجف، مثلما وجدت نفسي وأنا أجلس على كرسي الخيزران. القائد على الأقل يتمتع بميزة وجود مروحة كهربائية تنفخ الهواء عليه، وهي واحدة من مروحتين موجودتين في المعسكر. بحسب قول الحارس ذي الوجه الطفولي، المروحة الأخرى في خيمة المفوض.

ربما كان أفضل مصطلح غير «الضيف» هو «المريض»، قال القائد، وهو يمارس أعمال التحرير الصحفي مرة أخرى. أنت سافرت إلى أراض أجنبية وتعرضت لنوع خطير من الأفكار. لن ينفع جلب الأفكار المعادية إلى بلاد غير معتادة عليها. فكر في الناس الذين يتعرضون للإهانة منذ زمن طويل بسبب الأفكار الأجنبية. التعرض لتلك الأفكار يمكن أن يؤدي إلى كارثة حقيقية لعقول غير مستعدة لتقبلها. إذا كنت ترى الموقف من منظورنا نحن، سترى أن ذلك ضروري لاحتجازك حتى نتأكد، وإن كان يؤلمنا رؤية ثوري مثلك يحتجز في مثل هذه الظروف.

فهمت وجهة نظره بشيء من الصعوبة. هناك أسباب تدعو للشك في شخص مثلي، تحمّل الشكوك فيه طوال حياته. ومع ذلك، كان من الصعب على ذهني تجاوز تلك السنة التي قضيتها في زنزانة انفرادية يسمح لي فقط بالخروج منها لساعة واحدة في اليوم للتمارين، دون أن ترمش عيني ويشحب لوني، بلا مبرر، كما أخبرته أثناء تلك الجلسات الأسبوعية التي ينتقد خلالها اعترافاتي وأنا بدوري أنتقد نفسي. المفكرات التي أعطيتها له لا بد أن كلماتها في ذهنه، لأنه عندما فتح فمه ليتكلم ثانية، قال، أعرف ماذا ستقول. كما

أخبرتك طوال هذه المدة، حين يصل اعترافك إلى حالة مقبولة، استناداً إلى قراءتنا واعتماداً على تقاريري بعد هذه الجلسات في النقد الذاتي إلى المفوض، سوف ننتقل إلى المرحلة التالية، ونأمل أنها ستكون الأخيرة من إعادة تأهيلك. باختصار، المفوض يعتقد أنك مستعد للعلاج.

بالفعل؟ يجب أن ألتقي بالرجل الغامض، الذي يُعرف بالمفوض. لا أحد من السجناء التقى به. رأوه فقط أثناء محاضراته الأسبوعية، يجلس خلف طاولة على رأس قاعة الاجتماعات حيث يتجمع كل السجناء للاستماع لتوجيهاته السياسية. لم يسبق حتى أن رأيته هناك، لأن هذه المحاضرات، وفقاً للقائد، تقتصر على التعليم المدرسي التمهيدي ومكرسة للرجعيين المتزمتين، الدمى التي غسلت أدمغتها خلال عقود من التشبع الأيديولوجي. الرجل الغامض أعفاني من هذه الدروس البسيطة. بدلاً من ذلك، كنت أحظى بميزة الخلاص من الأعباء الأخرى باستثناء الكتابة والتأمل. في إحدى المناسبات النادرة لمحت المفوض حين رفعت رأسي أثناء التمارين ورأيته واقفاً بعيداً عني بمسافة، على شرفة من مكان إقامته المصنوع كله من الخيزران، على قمة أحد التلال التي تطل على المعسكر. مكان إقامة القائد أو خيمته شيدت على قمة تل صغير، بينما تحتل خيم الحراس المنحدرات. عند أسفل التلال هناك مجمعات أخرى تتضمن المطبخ، وقاعة للترفيه، ومشجباً للأسلحة، ومراحيض، ومخازن مستلزمات الحراس، إلى جانب زنزانات انفرادية للحالات الخاصة مثلي. تحيط بأقسام المعسكر أسلاك شائكة تفصل الحراس عن الجزء الداخلي للمعسكر حيث النزلاء تتناقص أعدادهم تدريجياً، من الجنود السابقين، وضباط الأمن، والبيروقراطيين من النظام المدحور. بالقرب من إحدى البوابات في السياج، على الجانب الداخلي، هناك خيمة كبيرة مخصصة للزيارات العائلية. السجناء أصبحوا كأشجار الصبار التي تتحمل كل شيء من أجل البقاء، لكن زوجاتهم وأطفالهم لا بد لهم من البكاء وهم يرون الأزواج والآباء الذين يلتقون بهم في الغالب مرتين في السنة، فالرحلة من أقرب المدن منهكة وتتضمن الركوب بالقطار، والحافلات، وحتى الدراجات. وراء خيمة الاستقبال، خارج المعسكر محاط ومعزول عن البراري من السهول الجرداء، وتتوزع على السياج أبراج للمراقبة مع حراس على رؤوسهم الخوذ ولديهم مناظير تمكنهم من رؤية النساء القادمات، وبحسب قول السجناء، فإنهم يمتعون أنفسهم معهن أحياناً. من المرتفع الذي عليه خيمة القائد، بإمكان المرء رؤية هؤلاء الحراس في أبراج المراقبة

والسهول الصخرية والأشجار الجرداء التي تحيط بالمعسكر، كأنها غابة من عيدان الأسنان تحوم عليها أسراب من الغربان والخفافيش بتشكيلات سوداء تنذر بالشؤم. كنت أتوقف على المرتفع قبل الدخول إلى خيمته، أتأمل للحظات المنظر الذي حرمت منه في زنزانتي الانفرادية، هناك إن لم أعالج بعد، على الأقل أحرقتني الشمس الاستوائية.

طالما كنت تشكو من زيارتك لي، قال القائد. لكن اعترافاتك تعتبر تمهيداً ضرورياً للعلاج. ليس من خطأي أنك أمضيت سنة كاملة في كتابة هذه الاعترافات، إنها من وجهة نظري جيدة جداً. كل شخص غيرك سبق أن أعترف بأنه جندي شطرنج، خادم للإمبريالية، عميل مغسول الدماغ، متعاون مع الاستعمار. بصرف النظر عما تفكر به الآن بشأن قدراتي الفكرية، أعرف أنهم جميعاً يخبروني بما أريد أن أسمع. أنت، من ناحية أخرى، لن تخبرني بما أريد أن أسمع. هل يجعلك هذا ذكياً جداً أم غبياً جداً؟

كنت مرتبكاً إلى حد ما، أرضية الخيزران تتحرك تحت كرسي الخيزران الذي أجلس عليه. دائماً يتطلب الأمر مني ساعة على الأقل لكي تتكيف عيناي على الضوء والمكان بعد الظلام الدامس في زنزانتي. حسناً! قلت، وأنا أتشبث بالمعطف المهلهل لفطنتي حولي، أعتقد أن الحياة غير المتروية لا تستحق العيش. إذن أشكرك، يا رفيقي القائد على إعطائي فرصة لإعادة النظر في حياتي. أشار برأسه موافقاً. لا أحد غيرك تمتع بالترف الذي توفر لك من خلال الكتابة وممارسة نشاطات عقلية. صوتي البائس الذي تخلى عني في زنزانتي عاد لي الآن. يمكنني القول إنني ذكي في عدة جوانب، وغبي في جوانب أخرى. على سبيل المثال، أنا ذكي بما يكفي لأن أنظر بجدية إلى نقدك واقتراحاتك في التحرير، لكني أيضاً غبي بحيث لا أفهم كيف أن اعترافاتي لم تنسجم مع معاييركم العالية، رغم كثرة مسوداتها.

نظر لي القائد من وراء النظارة التي تضخم عينيه فتجعلهما يبدوان أكبر من حجمهما الطبيعي بمرتين، نظره ضعيف لأنه عاش في المغارات لعشر سنوات. إذا كانت اعترافاتك مقنعة، فالمفوض سوف يسمح لك بالمضي في ما يسميه امتحانك الشفهي، قال. ولكن من وجهة نظري عما يسميه امتحانك التحريري فهذه اعترافات غريبة بالنسبة لي.

ألم أعترف بأشياء كثيرة، أيها القائد؟

ربما من حيث المحتوى، ولكن ليس الأسلوب. الاعترافات لها علاقة بالأسلوب أيضا

مثل المحتوى، مثلما أظهرت لنا تجربة الحرس الأحمر أثناء الثورة الثقافية في الصين. كل ما نطلبه طريقة محددة في تدوين الكلمات. تريد سيجارة؟

أخفيت فرحتي وأومأت برأسي بلا مبالاة. قرّب القائد عقب السيجارة من شفتي المفتوحتين، ثم أشعلها مستخدماً ولاعتي القديمة التي استولى عليها. استنشقت الدخان، اختراقه لطيات رئتي جعلني أهدأ رغم ارتعاش يدي. حتى في هذه الإعادة الأخيرة، أنت تقتبس من مقولات العم هوشي مرة واحدة فقط. هذا شيء هامشي وسط في اعترافاتك كلها، تفضل المفكرين الأجانب وثقافتهم على تقاليدنا المحلية. لماذا تفعل ذلك؟

هل أنا ملوث بثقافة الغرب؟

نعم. ليس من الصعب الاعتراف، أليس كذلك؟ مضحك، إذن، كيف لا تستطيع التعبير عنه بالكتابة. بطبيعة الحال، يمكنني أن أفهم أنك لم تقتبس من كتاب (كيف طوّعنا الفولاذ)52 أو من (آثار في الغابة الثلجية)53. لم تتمكن من اقتناء هذين الكتابين، وإن كان كل شخص من أبناء جيلي من الشمال قد قرأهما. ولكن لماذا لم تقتبس من توهو شاعرنا الثوري العظيم؟ وتتطرق كثيراً إلى الموسيقى الصفراء لفان دوي والخنافس؟ المفوض في الواقع لديه مجموعة من تسجيلات الموسيقى الصفراء يحتفظ بها كما يقول لأغراض البحث. لقد اقترح أن يسمح لي بالاستماع إليها، ولكني شكرته ورفضت. لماذا أرغب بالتعرض للتلوث بذلك المستوى من الانحطاط؟ قارن الأغاني التي اقتبستها مع قصيدة توهو «منذ تلك الأيام»، التي قرأتها في المدرسة الثانوية. إنه يتحدث عن «شمس الوطن التي تشرق على قلبي»، وهي تصف بدقة كيف أشعر بتأثير الثورة. كنت أحمل أحد كتبه معي إلى الصين عندما ذهبت لتدريبات المشاة، وساعدني في تحصين نفسي. أملي أن تشرق شمس الوطن عليك أنت أيضاً. لكني أفكر أيضاً بقصيدة أخرى من قصائده عن طفل غني وآخر فقير يعمل خادماً. أغمض عينيه، وردد الأبيات التالية:

طفلٌ يعيش حياة مترفة

بلا ألعاب أو دمى من الغرب

وطفل آخر ينظر إليه بانكسار

يراقبه في صمت من مكانٍ بعيد

***

فتح عينيه. إنها تستحق القراءة حقاً، ألا تعتقد ذلك؟

إذا أعطيتني الكتاب، سوف أقرأه، قلت، فلم أقرأ أي شيء منذ سنة غير كلماتي. هز القائد رأسه. لن يكون لديك وقت لقراءة أي شيء في المرحلة القادمة. لكنه أشار ضمناً إلى أنني حين أطلب كتاباً للقراءة بشكل أفضل الآن لن يكون دفاعاً مجدياً عن النفس. أنت تجاهلت الاقتباس من العم هوشي أو من الشعر الثوري، بل حتى لم تذكر أي قول شعبي أو مثلاً من الأمثال؟ ربما كنت من الجنوب -

ولدتُ في الشمال، يا سيدي.

أنت هربت إلى الجنوب ونشأت هناك. بصرف النظر عن هذا، أنت تحمل ثقافة مشتركة معي، ثقافة الشمال. ومع ذلك فأنت لا تقتبس من تلك الثقافة، ولا حتى هذا:

أفعال الأب تبقى شامخة مثل جبل ثاي سون

وفضائل الأم كأنها ينبوع يتدفق

الأم يجب تقديسها والأب يُحترم

لكي يشق الطفل طريقه في الحياة.

ألم تتعلم أشياءً مثل هذه في المدرسة؟

أمي علمتني هذا، قلت. اعترافاتي تظهر تقديسي لأمي ولماذا لا أحترم أبي.

العلاقة بين أمك وأبيك في الواقع شيءٌ بائس. ربما تتصور أنني عديم القلب، لكني لست كذلك. أنا أتفهم موقفك وأشعر بالتعاطف معك، إذا أخذنا بنظر الاعتبار حظك العاثر. كيف يمكن لطفل أن يكون مهذباً إذا كانت أصوله مختلطة؟ ومع ذلك لا يمكنني إلا أن أشعر بأن ثقافتنا، وليس الثقافة الغربية، تعلمنا شيئاً عن وضعك الصعب. «الموهبة والحظ يواجهان الضغينة». ألا تعتقد أن كلمات نغوين دو تنطبق عليك؟ قدرك أن تكون ابناً غير شرعي، بينما موهبتك، كما تقول، يجب أن ينظر إليها من جانبين. سوف تكون في

حال أفضل إذا نظرت للأمور من جانب واحد. العلاج الوحيد لكون الإنسان غير شرعي أن يتخذ جانباً معيناً.

أنت على حق، أيها الرفيق القائد، قلت، وربما كان بالفعل على حق. لكن الشيء الوحيد الأصعب من معرفة الصواب وما ينبغي أن نفعله، تابعت الكلام، أن نفعل الصواب.

أتفق معك. ما يحيرني أنك شخص متعقل في شخصيتك، لكن على الصفحات، أنت عنيد. سكب القائد لنفسه شيئاً من شراب الأرز غير المنقى من زجاجة صودا. هل من طلبات؟ هززت رأسي، رغم رغبتي الشديدة في شيء يرطب حنجرتي الجافة. شاي، أرجوك، قلت، وصوتي كان متهدجاً. سكب لي القائد كوب شاي فاتر. من المحزن جداً مراقبتك خلال تلك الأسابيع الماضية. كنت مثل المجنون الهائج. العزلة أفادتك بلا شك. أنت الآن نقي، على الأقل جسدياً.

إذا كانت المشروبات سيئة لي، فلماذا تشرب أيها القائد؟

أنا لا اشرب بإفراط، على العكس منك. إنني أضبط نزواتي أثناء الحرب. المرء يعيد التفكير في حياته كلها إذا عاش في كهف منعزل. حتى أشياء من قبيل ما تفعله بفضلاتك. هل فكرت في هذا؟

مرة بين الحين والحين.

أحس بالتهكم. ومع ذلك أنت لست مقتنعاً بوسائل الراحة في المعسكر وبغرفتك؟ هذا لا يعتبر شيئاً بالقياس إلى ما عشت فيه في لاوس. لهذا السبب أنا مندهش جداً من إحساس بعض ضيوفنا بالتعاسة. تتصور أنني أختلق التعقيدات، لكن لا، أنا مندهش تماماً. نحن لم نحشرهم في زنزانة تحت الأرض. لم نحشرهم في مكان ضيق حتى تذوب سيقانهم. لم نسكب الليمون على رؤوسهم حتى تذوب وتملأ الدماء أجسامهم. بدلاً من ذلك، تركناهم يزرعون طعامهم، يبنون بيوتهم، يستنشقون الهواء النقي، يرون ضوء الشمس، ويعملون في الأرياف. قارن هذا مع طريقة تعامل حلفائهم الأمريكان في تسميم المكان. لا أشجار. لا شيء ينمو. ألغام غير متوقعة في كل مكان وقنابل تستهدف الأبرياء. كانت هنا أرياف جميلة. والآن هي أرض خراب. إنني أحاول التطرق إلى هذه المقارنات

مع ضيوفنا ويمكنني رؤية الإنكار في عيونهم حتى وهم يتفقون معي. أنت على الأقل صريح معي، ومع ذلك، كي أكون صريحاً معك، تلك ربما ليست الاستراتيجية المثلى.

لقد عشت حياتي تحت الأرض من أجل الثورة، أيها القائد. أقلّ شيء يمكن أن تقدمه الثورة لي هو حق العيش على سطح الأرض وأن تكونوا صريحين بخصوص ما فعلته، على الأقل قبل أن تضعوني تحت الأرض من جديد.

ها أنت تبدأ من جديد، تتحدى من غير سبب. ألا ترى أننا نعيش زمناً مختلفاً؟ سوف تحتاج الثورة إلى عقود لتعيد بناء الوطن. الصراحة التامة ليست دائماً ذات قيمة في لحظات مثل هذه. لكن هذا سبب بقائي هنا. وأشار إلى جرة على طاولة الخيزران، مغطاة بقماش خشن. كان سابقاً قد عرض الجرة لي أكثر من مرة، رغم أن مرة واحدة تكفي. ومع ذلك انحنى وأزاح القماش عنها، لا شيء يمكنني فعله غير أن أتابع العرض الذي يقوم به، إذا كانت هناك عدالة في العالم، يجب أن تعرض هذه في متحف اللوفر والمتاحف العظيمة الأخرى المخصصة للإنجازات الغربية. داخل الجرة وسط سائل فورمالديهايد مسخ أخضر اللون كأنه كائن من الفضاء الخارجي أو من أعماق المحيطات الغريبة. سلاح كيميائي من اختراع فرانكنشتاين أمريكي قاد إلى هذا الطفل العاري الذي يغرق في المحلول المملح بجسد واحد لكن برأسين، أربعة عيون مغلقة مع فمين مفتوحين في تثاؤب منغولي. وجهان يشيران إلى اتجاهات مختلفة، يدان مطبقتان على الصدر، ساقان مفتوحتان تكشفان عن شيء مثل حبة فستق مشوية للعضو الذكري.

تخيل إحساس الأم. ربت القائد بإصبعه على الزجاج. أو إحساس الأب. تخيل الصرخات. ما هذا الشيء المرعب؟ هز رأسه وشرب شراب الأرز، لونه يشبه الحليب المخفف. لعقت شفتي، وبينما كانت خيوط جافة في لساني المتقرح وشفتيَّ الهشتين تصدر طقطقة مسموعة في أذني، لم يلاحظ القائد شيئاً. كان بإمكاننا أن نطلق النار على هؤلاء السجناء، قال. صديقك بون، على سبيل المثال. القاتل المتخصص ضمن مشروع فوينكس يستحق فرقة إعدام. حمايته والعفو عنه كما ترى تعتمد إلى حد ما على قراراتك. لكن المفوض يمتاز بالرحمة ويعتقد أن أي شخص بالإمكان إعادة تأهيله، حتى عندما يقتل سادتهم الأمريكان أي شخص يريدون قتله. على العكس من الأمريكان والدمى التي تتعاون معهم، ثورتنا أظهرت الكرم بإعطائهم هذه الفرصة للتوبة وممارسة

العمل. الكثير من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم قادة لم يعملوا يوماً في مزرعة. كيف يمكن أن تقود مجتمعاً زراعياً إلى المستقبل ولا فكرة لديك عن حياة القرويين؟ من غير أن يكترث بوضع القماش على الجرة، سكب لنفسه كأساً أخرى. عدم الفهم هو السبب الوحيد لتفسير كيف أن بعض السجناء يتصورون أنهم لا ينالون ما يكفي من الطعام. بطبيعة الحال أعرف أنهم يعانون. لكننا جميعاً نعاني. يجب أن نعاني أكثر وأكثر. البلاد تمر في مرحلة النقاهة، وهذا يتطلب زمناً أطول من الحرب نفسها. غير أن هؤلاء السجناء يركزون فقط على معاناتهم الشخصية. يتجاهلون ما شاهدناه نحن. لا يمكن جعلهم يفهمون أنهم يحصلون على سعرات حرارية يومية أكثر مما يحصل عليه الجندي الثوري خلال الحرب، وأكثر مما يحصل عليه القرويون الذين أجبروا على اللجوء إلى المخيمات. يعتقدون أنهم ضحايا هنا، بدلاً من الاقتناع بأنهم يعاد تأهيلهم. هذا العناد يظهر كم من إعادة التأهيل يحتاجون إليها. بالنسبة إلى شخص عنيد مثلك، ما زلت تختلف عنهم. هنا أتفق مع المفوض بشأن إعادة تأهيلك. كنت أتكلم معه عنك قبل يوم. إنه متسامح إلى حد كبير معك. حتى لم يعترض على تسميتك له بالرجل الغامض الذي بلا وجه. كلا، أنا أفهم، أنت لا تسخر منه، تصفه بوضوح، ولكنه حساس جداً بشأن.. وضعه. ألن تحس بالشيء نفسه لو كنت مكانه؟ يريد أن يلتقي بك في هذا المساء. هذا من دواعي الشرف. لا أحد من السجناء سبق أن التقى به شخصياً، ليس لأنك سجين. يريد أن يوضح بعض المسائل معك.

أية مسائل؟ قلت. نظرنا معاً إلى مخطوطتي، أوراقها مكدسة بأناقة على طاولة من الخيزران وعليها حجر صغير، ثلاثمائة واثنتان وعشرون صفحة كلها مكتوبة على بصيص فتيل في زجاجة النفط. لمس القائد صفحات اعترافاتي بأصابعه التي قطعت بعض أطرافها. أية مسائل؟ قلت. من أين نبدأ؟ آه، لقد حان وقت العشاء. كان أحد الحراس يقف عند الباب حاملاً صينية من الخيزران، صبي، بشرته تبدو صفراء من المرض. سواءً كانوا حراساً أم سجناء، أغلب الرجال في المعسكر تبدو سيماؤهم بمثل هذا الاصفرار، أو يكونون مرضى، تميل بشرتهم إلى اخضرار العفن، أو اللون الرمادي من مرض قاتل، كأنها لوحة امتزجت ألوانها تصور مريضاً من بلد استوائي فرضت عليه حمية قاسية. ما هذه؟ قال القائد. حمامة الغابات، حساء المنيهوت54، قرنبيط مقلي، ورز، يا سيدي. أوراك الحمامة المشوية وصدرها جعلت اللعاب يسيل من فمي، لأن حصتي من الغذاء لا تتعدى

المنيهوت المغلي. حتى حين أتضور من الجوع، أضطر لابتلاع المنيهوت قسراً نحو بلعومي، حيث يتكتل على جدران معدتي، وأضحك من محاولات هضمه. الخضوع لحمية المنيهوت ليس مزعجاً في الطبخ فحسب، وإنما من منظور عسر الهضم، مما يؤدي إما إلى متحجرات صلبة مؤلمة أو مادة سائلة متفجرة. ونتيجة ذلك تتهيج البواسير دائماً. حاولت دون جدوى توقيت نشاطات أمعائي، فأنا أعرف أن الحارس يُحضر صندوق الذخيرة الفارغ المخصص لهذا الغرض في الساعة الثامنة، إلا أن خراطيم إطفاء الحرائق المتشابكة في أحشائي كانت تتفجر متى شاءت، في كثير من الأحيان بعد أن يغادر الحارس تاركاً العلبة. سوائل ومواد صلبة تبقى بعد ذلك تتخمر طوال الليل والنهار، مزيج حقير يلتصق بصندوق الذخيرة كالصدأ. لكن ليس من حقي الشكوى، كما أخبرني حارسي ذو الوجه الطفولي. لا أحد يلتقط برازك في كل ساعة، قال وهو يحملق في وجهي من خلال شق في الباب الحديدي. سوف تضطر للانتظار على اليدين والقدمين، لن يأتي أحد ليمسح قذارتك. ما رأيك بهذا؟

أشكرك، يا سيدي. لم أستطع أن أسمي الحراس «رفيقاً»، فالقائد طلب مني أن أبقي تاريخي سراً، خشية أن يتسرب الأمر إلى السجناء. أوامر المفوض هذه من أجل حمايتك، هكذا أخبرني القائد. النزلاء سوف يقتلونك إذا عرفوا أسرارك. الوحيدون الذين يعرفون سري المفوض والقائد، الذين وطدت معهما مشاعر ماكرة تتضمن اعتمادي عليهما واحتقاري لهما. القائد دفعني لإعادة كتابة اعترافاتي من خلال تعليقات متكررة بقلم الرصاص الأزرق. لكن لماذا أعترف؟ لم أرتكب خطأ، باستثناء أنني تأثرت بالحياة الغربية. ومع ذلك، كان على حق. إنني شخص عنيد، كان بإمكاني أن أختصر مدة بقائي هنا بكتابة ما أراد مني. «يعيش الحزب والدولة. أنا أتبع نموذج هوشي مينه العظيم. لنبني مجتمعاً جميلاً ومثالياً!» كنت أؤمن بهذه الشعارات، لكني لا أستطيع إقناع نفسي بكتابتها. كان بوسعي القول إنني تلوثت بالغرب، لكني لن أكتب ذلك على الورق. بدا كأنها جريمة أن أسطر اعترافاً على الورق كأنني قتلت إنساناً، ذلك شيء أدركه لكني لن أعترف به، لأن قتل سوني والرائد البدين ليس جريمة في نظر القائد. ومع ذلك فالإقرار بشيء ربما يراه جريمة، لم أتمكن آنذاك من ترتيب تلك الأفعال والأفكار في ذهني أو وضع وصف لها.

مقاومتي لأسلوب الاعتراف المناسب أثارت القائد، كما أخبرني على العشاء. أنتم

الجنوبيون تمتعتم بحياتكم منذ زمن طويل، قال. تعتبرون شرائح لحم البقر شيئاً لا بد منه، بينما نحن الشماليون نعيش على طعام بسيط لا يكاد يسد رمقنا. كنا محرومين من التخمة والميول البرجوازية، لكن بصرف النظر عن المرات التي أعدت فيها كتابة اعترافاتك، لا يمكنك استئصال هذه الميول. اعترافاتك مليئة بنقاط الضعف الأخلاقية، والأنانية، والفردية، والخرافات المسيحية. لا تبدي أي إحساس بروح الجماعة، لا تؤمن بعلم التاريخ. لا تبدي استعداداً للتضحية بنفسك لإنقاذ الأمة وخدمة الشعب. إليك أبياتاً أخرى من توهو تبدو مناسبة هنا:

أنا ابن عشرات آلاف العائلات

الأخ الأصغر لآلاف الأكباد الذابلة

الأخ الأكبر لآلاف الأطفال

الذين يعيشون بلا مأوى ويتضورون من الجوع..

بالمقارنة مع توهو، أنت شيوعي بالاسم فقط. أما بالتطبيق، فأنت مفكر برجوازي. لا ألومك على هذا. من الصعب الهرب من الطبقة التي ينتمي إليها الإنسان والأصول التي نشأ منها، وأنت ملوث في الناحيتين. عليك إعادة تكوين نفسك، كما قال العم هوشي والرئيس ماو فالمفكرون البرجوازيون ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك. الشيء الجيد أنك تظهر علامات على الوعي الثوري الجماعي. أما الشيء السيئ فإن لغتك تخدعك. إنها غير واضحة، غير مختصرة، غير مباشرة، غير بسيطة. إنها لغة النخبة. يجب أن تكتب من أجل الشعب!

أنت تقول الصدق، يا سيدي، قلت. بدأت حمامة الغابة والحساء يذوبان في معدتي، موادهما الشهية تنشط دماغي. أتساءل عن رأيك في كارل ماركس، أيها الرفيق القائد. (رأس المال) ليس مكتوباً من أجل الشعب.

ماركس لم يكتب من أجل الشعب؟ فجأة كان بإمكاني رؤية الظلام في كهف القائد من خلال عينيه المضخمتين. اخرج من هنا! هل ترى كم أنت برجوازي؟ الثوري يتواضع

أمام ماركس. البرجوازي فقط يقارن نفسه بماركس. لكن الباقي مؤكد، سوف يتعامل المفوض مع عنجهيتك وميولك الغربية. لقد خصص لك غرفة امتحان مبتكرة تخضع فيها شخصياً للمرحلة الأخيرة من إعادة التأهيل، حيث تتحول من أمريكي إلى فيتنامي من جديد.

لست أمريكياً، يا سيدي، قلت. إذا كشفت اعترافاتي أي شيء، ألم تكشف عن مناهضتي للأمريكان؟ لا بد أنني تهورت بشكل مثير للسخرية، لأنه ضحك في الواقع. مفهوم المناهض للأمريكان الآن يشمل الأمريكان، قال. ألا ترى أن الأمريكان يحتاجون إلى المناهضين للأمريكان؟ الأفضل للمرء أن يحبه الآخرون بدلاً من أن يكرهوه، ولكن الأفضل أن تكره بدلاً من أن يتجاهلك الآخرون. مناهضتك للأمريكان تجعلك رجعياً. في وضعنا هذا، بعد أن دحرنا الأمريكان، لم نعد نسمي أنفسنا مناهضين للأمريكان. إننا ببساطة فيتناميون مائة بالمائة. عليك أن تؤمن بهذا أيضاً.

مع كل الاحترام، سيدي، معظم سكان الأرياف لدينا لا يعتقدون أنني واحد منهم.

وهذا سبب يدفعك للعمل لإثبات أنك واحد منا. واضح أنك تفكر في نفسك كواحد منا، على الأقل في بعض الأحيان، لذلك فأنت تحقق تقدماً. أرى أنك انتهيت من الأكل. ما رأيك بحمامة الغابة؟ اعترفت بأنها كانت شهية. ماذا لو أخبرتك أن حمامة الغابة هو اسم الغرض منه تلطيف المعنى فقط؟ راقبني وأنا أنظر مرة أخرى إلى كومة العظام الصغيرة على طبقي، مصصت كل قطعة من اللحم والأوتار. مهما كانت، فأنا أشتاق إلى حمامة أخرى. البعض يسمون هذا جرذاً، لكني أفضل تسمية «فأر الحقول»، قال. لكن هذا لا يهم، أليس كذلك؟ اللحم هو اللحم، نحن نأكل ما نضطر لأكله. هل تعرف أنني ذات مرة رأيت كلباً يأكل دماغ أحد الأطباء في كتيبتنا؟ سحقاً. أنا لا ألوم الكلب. كان فقط يأكل الدماغ لأن أحشاء الرجل أكلتها كلاب أخرى. هذه من الأمور التي تراها في المعارك. لكن خسارة كل هؤلاء الرجال كانت ذات فائدة. كل القنابل التي أسقطها علينا قراصنة الجو لم تسقط على بلادنا. ولا داعي لذكر أننا حررنا سكان لاوس. هذا ما يفعله الثوريون. نضحي بأرواحنا لإنقاذ الآخرين.

نعم، يا رفيقي القائد.

كفى هذا الحديث الجاد. ألقى القماش على جرة الطفل المتبل. أردت فقط تهنئتك شخصياً على أنك انتهيت من كتابة ما يتعلق بمرحلة إعادة تأهيلك، وإن كانت مختصرة برأيي. ينبغي أن تفرح بما أصبحت عليه، حتى إذا كنت أنتقد محدودية اعترافاتك بوضوح. بالنسبة لطالب مجتهد مثلك، ربما تفهم لاحقاً المادية الجدلية التي تحتاج إليها الثورة. والآن دعنا نذهب إلى المفوض. نظر القائد إلى ساعة يده، والتي هي أيضاً كانت ساعتي الخاصة. إنه يتوقع مجيئنا.

***

نزلنا من خيمة القائد، واجتزنا ثكنات الحراس إلى فسحة منبسطة تفصل بين اثنين من التلال. زنزانتي الانفرادية تقع هنا، واحدة من عشرات أفران القرميد التي نشوى فيها وتخرج عصارتنا، حيث السجناء يبعثون الرسائل بالنقر على الجدران باستخدام أكواب الصفيح. قاموا بابتكار شيفرة بسيطة للتواصل، وعلموها لي قبل مدة ليست بالبعيدة. من خلال جيرانهم الذين يتغيرون دورياً تعلمت أشياء عن نشاطات المعسكر والشخصيات التي تقوده، وعن المفوض والقائد. رفاقي من السجناء يكنون لي احتراماً عالياً. الكثير من أعمالي البطولية عرفوها من بون، الذي كثيراً ما يرسل لي تحياته عن طريق جيراني. إنه يعتقد معهم أنني سجنت وحدي لمدة طويلة بسبب تحمسي للنظام الجمهوري وخدمتي في الفرع السري. كانوا يلومون المفوض على مصيري، لأنه الشخص المسؤول في المعسكر، كما يعلم الجميع ومنهم القائد. ربما كان مكلفاً بأمور ذات طابع عسكري، مثل السيطرة على فرقة الإعدام، لكن المفوض هو المسؤول عن التوجيه السياسي، وهو القادر على إصدار مرسوم عما إذا كان القائد مؤهلاً من الناحية الأيديولوجية أم لا، إنه يمتلك تلك الصلاحيات. جيراني سبق أن رأوا المفوض يقترب منهم أثناء محاضراته السياسية الأسبوعية، كم كان منظره مرعباً! بعض السجناء يلعنونه ويشتمونه، ويبتهجون من معاناته. لكن الوجه المشوه يفرض الاحترام على الآخرين، تلك علامة على أنه كرّس نفسه للتضحية، ولو في سبيل قضية يحتقرها السجناء. الحراس أيضاً كانوا يتكلمون عن المفوض بنبرات يختلط فيها الذعر، والخوف، والاحترام، لكنهم لا يسخرون منه أبداً. المفوض يجب أن لا يسخر منه أحد، حتى وسط الزملاء، لأن المرء لا يعلم متى يرسل هؤلاء تقريراً عن مثل هذا التفكير المناهض للثورة.

كنت أفهم سبب اعتقالي المؤقت وظروفي الاستثنائية، لأن على الثورة أن تكون متيقظة، لكن الشيء الذي لم أفهمه، وكنت آمل أن يشرحه لي المفوض، لماذا يخاف الحراس منه، وبصورة عمومية أكثر، لماذا يخاف بعض الثوريين من بعضهم. ألسنا جميعاً رفاقاً؟ سألت القائد في جلسة سابقة. نعم، قال، لكن ليس كل الرفاق لديهم المستوى ذاته من الوعي الأيديولوجي. رغم أنني لست مضطراً للحصول على موافقة المفوض بشأن بعض الأمور، إلا أنني أعترف بأنه يفهم النظرية الماركسية اللينينية وأفكار هوشي مينه أفضل مني. أنا لست باحثاً، لكنه باحث ومفكر. الرجال مثله يقودوننا نحو مجتمع غير طبقي حقاً. لكننا لم نمسح بعد كل العناصر المناهضة للثورة من تفكيرنا، وعلينا أن لا نتسامح مع أخطاء المناهضين للثورة. علينا أن نكون حذرين، حتى من بعضنا، لكن المهم أن نحذر من أنفسنا. الأشياء التي تعلمتها من الكهف الذي عشت فيه أن الصراع بين الحياة الآخرة والموت يكمن في نفوسنا. الغزاة الأجانب ربما يقتلون جسدي، لكني أستطيع وحدي أن أقتل روحي. هذا هو الدرس الذي عليك استيعابه وحفظه عن ظهر قلب، ونحن نمنحك الكثير من الوقت لتحقيق هذا.

بدا لي، وأنا أصعد التل باتجاه خيمة المفوض، أنني أمضيت الكثير من الوقت في تعلم هذا الدرس. لكن لا يمكنني قول هذا خوفاً من تشخيص القائد الذي سوف يأتي سريعاً: «تفكير المنهزمين». إذا وضعت رجلاً ليعمل في حقل أو مصنع فهذا في ذاته لن يجعله ثورياً، قال القائد. الأمر يتطلب تعليماً سياسياً، لأن العقل من أكثر الأسلحة أهمية للإنسان الثوري. اعترفت للقائد أنني كنت متردداً في تغيير قناعاتي، لأنها الآن من الثورية بما يكفي في رأيي وإن لم تكن كذلك في رأي القائد. المفوض يبدو أنه اتفق معي. وقفنا على درجات السلم التي تؤدي إلى الشرفة، حيث كان الحارس ذو الوجه الطفولي وثلاثة حراس ينتظرون. المفوض مسؤول عنك الآن، قال القائد، وهو يتفحصني من الرأس إلى القدمين وهو مقطب الجبين. سوف أكون صريحاً معك. إنه يرى فيك إمكانات أكثر مما أرى أنا. أنت مدمن على شرور اجتماعية منها الكحول، والدعارة، والموسيقى الصفراء. تكتب بطريقة غير مقبولة ومناهضة للثورة. أنت مسؤول عن مقتل رفيقٍ من بروناي وأحد الحراس. لقد فشلت حتى في هذا الفيلم الذي أساء تمثيلنا وأهاننا. لو كان الأمر بيدي لأرسلتك إلى الحقول لتتولى معالجتك حتى النهاية. وإذا لم تسر الأمور بنجاح مع المفوض، فأنا لا أزال أستطيع. تذكر ذلك.

سوف أتذكر، قلت. ولأني عرفت أنني لم أهرب بعد من سلطته، قلت أيضاً، أشكرك، أيها الرفيق القائد، على كل ما فعلته من أجلي. أعرف أنني أبدو رجعياً في نظرك بسبب اعترافاتي، لكن أرجوك صدقني عندما أقول أنني تعلمت الكثير في ظل رعايتكم ونقدكم (هذه، على كل حال، هي الحقيقة).

استعراضي للامتنان أرضى القائد. دعني أقدم لك نصيحة، قال. السجناء يخبرونني بما يتصورون أنني أريد أن أسمع، لكنهم لا يفهمون أن ما أريد أن أسمعه هو الصدق. أليس هذا هو فحوى التعليم؟ جعل الطالب يقول الحقيقة بصدق عن الأشياء التي يريد المعلم أن يسمعها؟ تذكر هذا واجعله في ذهنك. واستدار القائد وبدأ ينزل التل، رجل مهيب منتصب القامة يثير الإعجاب حقاً.

المفوض ينتظر، قال الحارس ذو الوجه الطفولي. لنذهب.

جمعت ما تبقى من العزم في نفسي. كنت ثلاثة أرباع الرجل الذي أعرفه، بحسب قياسات القائد التي استمدها من أمريكا والمأخوذة من خبرات مستشفى في الجنوب. كان القائد مهووساً بضخامته ومتيماً بمقياس الدقة الإحصائي. من خلال دراسة صارمة مطولة لنشاطات الأمعاء، ونماذج للحراس والسجناء، ومنهم أنا نفسي، فالقائد استنتج أن أمعاء المعسكر إجمالاً تنتج قرابة ستمائة كيلوغرام من الفضلات يومياً. السجناء يجمعون ويحملون هذه الفضلات إلى الحقول، حيث تستخدم كسماد. الدقة في إحصاء الفضلات إذن ضرورية للإدارة العلمية للإنتاج الزراعي. حتى الآن، وأنا أصعد الدرجات أمام الحراس وأقرع باب المفوض، كنت أحس بأمعائي تتعامل مع حمامة الغابة وتحولها إلى أشياء صلبة سوف تستخدم غداً في البناء الثوري.

ادخل، قال المفوض. ذلك الصوت..

خيمته تتألف من غرفة مستطيلة واسعة توحي بالصرامة مثل خيمة القائد، جدرانها من الخيزران، وأرضيتها من الخيزران، وأثاثها من الخيزران، وأعمدة تحمل سقف السعف من الخيزران. دخلت إلى منطقة الجلوس التي توزعت فيها بعض الكراسي المنخفضة من الخيزران، وهناك منضدة للقهوة من الخيزران، ومذبح عليه تمثال نصفي مطلي بالذهب لهوشي مينه. فوق رأسه راية حمراء طبعت عليها كلمات بالذهب، «لا

شيء أكثر قيمة من الاستقلال والحرية». في منتصف الغرفة طاولة كبيرة تكدست عليها كتب وأوراق، تحيط بها بعض الكراسي. على أحد الكراسي غيتار جميل غير مألوف الشكل، وعلى أحد أطراف الطاولة جهاز تسجيل يبدو مثل الجهاز الذي تركته في قصر الجنرال.. وعلى طرف بعيد من الغرفة سرير مسطح، محاط بستارة بيضاء شفافة كالسحاب لتمنع البعوض خلفها تململ شبح. أرضية الخيزران باردة تحت قدميّ الحافيتين، والنسيم الذي يهمس من خلال النوافذ المفتوحة أدى إلى ارتعاش الشبكة. أزاحت الستارة يد، جلدها أسمر من الحرارة، وظهر رجل من خلفها على السرير، صورة مرعبة كل شيء فيها غير متناسق. نظرت بعيداً. تعال الآن، قال المفوض. هل أنا حقاً مخيف إلى هذه الدرجة بحيث لا تتعرف عليّ، يا صديقي؟ نظرت إليه من جديد لأرى شفتين مكشرتين تكشفان عن أسنان بحالة جيدة، وعينين جاحظتين من محجرين ذابلين، ومنخرين اختزلا إلى ثقبين بلا أنف، وجمجمة خالية من الشعر، بلا أذنين بل مجرد ندبتين أو حفرتين ضخمتين، والرأس كأنه واحدٌ من تلك الرؤوس المقطوعة الجافة التي يعلقها على حبل صيادٌ ماهر. تنحنح الرجل، كأنما خشخشت خرزة رخام في بلعومه.

ألم أخبرك، قال مان، بأن لا تعود؟

الفصل العشرون

هو المفوض إذن؟ قبل أن أتمكن من قول كلمة، أو يصدر عني أي صوت، أمسك بي الحراس، أسكتوني، وعصبوا عيني. أنت؟ أردت أن أصرخ في الظلام، لكنني لم أتمكن من فعل شيء غير الهمهمة والأنين وهم يجرجروني إلى الخارج على التل، بينما كان غطاء الرأس حاراً ويحتك برقبتي، وذراعاي مربوطتين، إلى مسافة أقلّ من مائة خطوة. افتح الباب، قال الحارس ذو الوجه الطفولي. أصدرت المفاصل صريراً، ودفعوني من الساحة المفتوحة إلى مكان مغلق تتردد فيه الأصداء. ارفع يديك، قال الحارس ذو الوجه الطفولي. ورفعت يدي. شخص ما فك أزرار قميصي وخلعه عني. يدان فتحتا الخيط الذي يمسك سروالي فسقط على كاحلي. انظر إلى هذا، قال حارس آخر، وهو يصفر بإعجاب. مؤخرة الوغد ليست كبيرة مثل مؤخرتي، قال حارس ثالث. دعنا نراها إذن، قال حارس رابع. سوف تراها حين أتزوج أمك.

ربما قيل أكثر من هذا، لكن بعد أن أدخل شخص بأصابعه الغليظة كتلاً من الرغوة في أذني، وآخر وضع كمامات من نوع ما عليهما، لم أسمع شيئاً. أصم، أبكم، وأعمى، هكذا كنت حين سحبوني إلى الفراش. فراش! كنت أنام على ألواح خشبية خلال السنة الماضية. ربط الحراس الحبال حول صدري، وفخذي، ومعصمي وكاحلي حتى لم أتمكن من فعل شيء غير أن يتلوى جسدي الممدد كالنسر الأسير. مادة رغوية وضعت حول يدي وقدمي وغطاء حريري سحب فوق رأسي، النسيج الأكثر رقة الذي سبق أن أحسست به منذ

الملابس الداخلية للانا. توقفت عن التململ وهدأت بحيث يمكنني التركيز على التنفس من وراء الغطاء. ثم سمعت اهتزاز أقدام على الأرضية الإسمنتية، تبعته طقطقة خفيفة لانغلاق الباب، ولم أسمع شيئاً بعد ذلك.

هل كنت وحدي، أم هناك شخص يراقبني؟ بدأت أتعرق من شدة الحرارة، والغضب، والخوف، قطرات العرق تنسكب تحت ظهري بشكل أسرع مما يمتصه الفراش. يداي وقدماي حارة ولزجة أيضاً. فجأة دهمني إحساس بالذعر، بأني أغرق. تلويت مقاوماً قيودي وحاولت الصراخ، لكن جسمي بالكاد يتحرك، وما من صوت يخرج من فمي سوى الشخير. لماذا يفعلون هذا بي؟ ما الذي يريده مان مني؟ حتماً لن يتركني أموت هنا؟ كلا! هذا آخر امتحان لي. يجب أن أهدأ. هذا مجرد امتحان. وأنا بارع في الامتحانات. الشرقي مثالٌ للطالب المجتهد، كما قال رئيس القسم أكثر من مرة. وبحسب رأي البروفيسور هامر، فقد درست أفكار ومقولات الحضارة الغربية، وأشعتها تغلغلت في أعماقي. كنت أفضل ممثل لبلدي، كما أكد لي كلود، وأتصرف على نحو طبيعي في لعبة الاستخبارات. أنت لست أقلّ من أي شخص، كما قالت أمي. أنت متفوق عليهم جميعاً! نعم، بإمكاني أن أجتاز هذا الامتحان، أينما كان، الذي أعده مفوضٌ يدرس حالتي، وكذلك بون، خلال السنة الماضية. كان يقرأ اعترافاتي، رغم أنه على العكس من القائد، يعرف مسبقاً أغلب ما فيها. بإمكانه أن يتركنا نذهب، يطلق سراحنا. بإمكانه أن يخبرني بأنه المفوض. لماذا يخضعني لسنة من العزلة؟ تلاشى هدوئي وكدت أختنق من الكمامة. اهدأ! تنفس ببطء! وأخيراً تمكنت من السيطرة على نفسي. والآن ماذا؟ كيف سأمضي الوقت؟ على الأقل ساعة مضت منذ أن عصبوا عينيّ، أليس كذلك؟ اشتقت لأن ألعق شفتي، لكن مع الكمامة في فمي كدت أتقيأ. إنه موت بالنسبة لي. متى يزورني؟ إلى متى يتركني هنا؟ ما الذي حدث لوجهه؟ الحراس سوف يعطونني الطعام، حتماً. كم مرة راودتني الأفكار، آلاف صراصير الزمن تزحف فوقي إلى أن انتفضت في أسى واشمئزاز.

بكيتُ على نفسي آنذاك، والدموع تحت عصابة العينين كانت ذات فائدة غير متوقعة في تنظيف الغبار عن عينيّ اللتين أصيبتا بالعمى، يكفي بالنسبة لي أن أدرك أنني لست أعمى. العين في ذهني يمكنها الرؤية، وكل ما رأيته آنذاك الرائد البدين وسوني، يدوران حولي وأنا أستلقي على الفراش. كيف انتهى بك الأمر هنا، مع أفضل صديق لك

وأخيك بالدم يراقبك وأنت تلقى نحبك؟ قال الرائد البدين. ألا تعتقد أن حياتك كانت ستتخذ مساراً مختلفاً لو أنك لم تقتلني؟ ولا داعي لذكر قتلي، قال سوني. هل تعرف أن صوفيا سوف تنتحب من أجلي؟ حاولت زيارتها والتخفيف عنها لكنها لم ترني. بينما أنت، الذي تفضل أن لا ترى شيئاً، تراني طوال الوقت. لكن عليّ أن أقول إن رؤيتك بهذه الحال توفر لي بعض المتعة. العدالة موجودة على أي حال! أردت الرد على هذه الاتهامات وأخبرهم بأني أنتظر صديقي، المفوض، كي يشرح كل شيء، لكن حتى في رأسي كنت أخرس. كل ما استطعت فعله أن تذمرت احتجاجاً، وهذا جعلهما يضحكان. الرائد البدين لكزني في فخذي بقدمه وقال، انظر إلى أين قادتك مؤامراتك الآن؟ لكزني أكثر، وارتجفت وتذمرت احتجاجاً. وبقي يلكزني بتلك القدم، وأنا أرتعش، حتى أدركت أنه ليس الرائد البدين وإنما شخص آخر لا أراه يضرب بعقب حذائه على ساقي. أحسست بالباب ينغلق ثانية. دخل شخصٌ دون أن أعرف، أو كان هنا طوال الوقت خرج تواً. كم من الوقت مرّ عليّ؟ لست متأكداً. هل غفوت؟ لو أنني كنت نائماً، إذن لا بد أن تكون قد مضت عدة ساعات، أو ربما يوم كامل. لماذا أريد أن أنام الآن لو مضت عليّ اثنتا عشرة ساعة أو ثلاث عشرة ساعة؟ كنت جائعاً. وأخيراً جزء مني يسمع معدتي وهي تئن. أعلى صوت في العالم هو صوت المعدة وهي تتعذب. حتى إذا كان ذلك الصوت هادئاً مقارنة بالوحش الكاسر للجوع كما تصورته. لم أكن أتضور جوعاً، ليس بعد. كنت جائعاً قليلاً، جسمي انتهى من هضم حمامة الغابة التي كانت في الواقع مجرد جرذ. ألن يعطوني شيئاً من الطعام؟ لماذا يفعل هذا بي؟ ما الذي فعلته له؟

أتذكر هذا النوع من الجوع. لقد جربته كثيراً في شبابي، عندما كانت أمي تقدم لي ثلاثة أرباع الوجبة وتبقي ربعاً لنفسها. لست جائعة، تقول. وحين كبرت بما يكفي لأرى أنها كانت تحرم نفسها، قلت، لست جائعاً أنا أيضاً، ماما. الصراع بين نظراتنا على المساعدات الشحيحة التي تأتينا يقودنا إلى دفع الأكل إلى الوراء والأمام حتى يتغلب حبها لي على حبي لها، كما يحصل دائماً. كنت آكل حصتها، وأبتلع ليس الطعام والملح والفلفل الحب والغضب، توابل أقوى وأصلب من سكر التعاطف. لماذا نجوع؟ صرخت معدتي. حتى في ذلك الوقت كنت أدرك أن الأغنياء إذا خصصوا للجائعين صحناً من الرز فقط، سوف يكونون أقلّ غنى قليلاً لكنهم لن يتضوروا جوعاً. إذا كان الحل بسيطاً هكذا، لماذا الجميع جائعون؟ هل الأمر يتعلق بقلة التعاطف؟ كلا، قال مان. كان يعلمني ضمن

جماعة التثقيف، الكتاب المقدس ورأس المال يؤمنان الإجابة. التعاطف وحده لن يقنع الأغنياء والمقتدرين بأن يشاركوا عن طيب خاطر بالتخلي عن السلطة طواعية. الثورة تجعل الأشياء المستحيلة تحدث. الثورة تحررنا جميعاً، الأغنياء والفقراء.. من خلال ذلك كان مان يعني الحرية للطبقات والجماعات. إنه لا يعني بالضرورة أن يتحرر الأفراد. لا، الكثير من الثوريين ماتوا في السجون، وذلك يبدو كما سيكون مصيري. لكن رغم إحساسي باليأس، علاوة على العرق المتصبب مني، والجوع الذي أشعر به، وحبي، وغضبي، يكاد النوم يطبق عليّ. كنت أذبل وأستسلم للنوم حين لكزتني تلك القدم من جديد، هذه المرة في الضلوع. اهتز رأسي وحاولت أن أنقلب على جنبي، لكن قيودي لم تسمح لي. لكزتني القدم أكثر. تلك القدم الشيطانية لن تسمح لي بالراحة. كم أكره أصابعها التي كأنها قرون تحتك بجلدي العاري وتضغط على فخذي، وأردافي، وكتفي، وجبهتي. القدم تعرف كلما أوشكت أن تطبق أجفاني، تعود في اللحظة التي تحرمني فيها من أقلّ إغماضة جفن أحتاج إليها. رتابة الظلام تشكل تحدياً، والجوع مؤلم، لكن هذا الاستيقاظ المستمر أسوأ. كم من الوقت بقيت صاحياً؟ كم من الوقت بقيت في غرفة الامتحان؟ متى يأتي ليشرح لي كل شيء؟ لا أعرف هذا. الدقات الوحيدة التي تؤشر مرور الزمن حين تأتي تلك القدم واللمسة العارضة لليد التي ترفع الغطاء عن رأسي، وترخي كمامتي، وتصب الماء على حنجرتي. لم أسمع كلمة أو كلمتين قبل أن تشد الكمامة ثانية ويعود الغطاء ليسحب على رقبتي. أوه، دعوني أنام! كان في وسعي أن ألمس تخوم النوم في الظلام.. ثم تأتي تلك القدم اللعينة فتلكزني ثانية.

القدم سوف تبقيني مستيقظاً إلى أن أموت. القدم تقتلني ببطء شديد. القدم تحولت إلى القاضي والحارس والجلاد. أوه، أيتها القدم، كوني متعاطفة معي. القدم التي غرضها الوحيد أن نقف عليها، خلقت لنمشي بها على الأرض الموحلة، التي أهملها كل من عليها، أنت من بين كل الأشياء الحية ينبغي أن تفهمي إحساسي. أيتها القدم، أين كنا سنصبح، نحن البشر، من غيرك؟ أنت أتيت بنا من أفريقيا إلى بقية أنحاء العالم، ومع ذلك فالقليل يقال عنك. واضح أنك حصلت على تقدير بائس بالقياس إلى اليد مثلاً. إذا تركتني أعيش، سوف أكرس الكلمات لك لجعل القراء يعرفون أهميتك. أوه، أيتها القدم! أتوسل إليك، لا تلكزيني مرة أخرى. توقفي عن حك جلدك السميك بجلدي. لا تخدشيني بأظافرك الحادة الطويلة. ليس لأن جلدك السميك وأظافرك هي غلطتك. إنها غلطة

سيدك المهمل. أعترف بأني مهمل مثلك فيما يتعلق بقدمي، أيها الصديق. لكن عليك أن تعدني بأن تتركني أنام ولو للحظات، سوف أكون إنساناً جديداً فيما يتعلق بقدمي، أو ما يتعلق بكل الأقدام! سوف أقدسك، أيتها القدم، مثلما فعل يسوع المسيح حين غسل أقدام الخاطئين وقبّلها.

أيتها القدم، ينبغي أن تكوني رمزاً للثورة، وليس اليد التي تحمل المطرقة والمنجل. لكننا نبقيك تحت الطاولة، أو مخفية داخل حذاء. نحن نسيء إليك، مثلما يفعل الصينيون، من خلال ربطك. كيف يمكن أن نلحق بك هذا الأذى؟ توقفي عن ركلي، أرجوك، أتوسل إليك. أعرف أن البشر يصورونك بصور سيئة، باستثناء عندما نصرف كميات كبيرة من النقود في شراء الأحذية، لأنك بطبيعة الحال لا تستطيعين تمثيل نفسك. أيتها القدم، أتساءل لماذا لم أفكر بك من قبل، أو بالكاد كنت أفكر. مقارنة باليد، أنت عبد. اليد حرة بأن تفعل أي شيء. إنها تكتب! لا عجب لماذا كتبت الكلمات عن اليد أكثر من القدم. نحن نشترك في شيء واحد، أيتها القدم. يدوس علينا العالم. لو توقفت عن الاستمرار في إيقاظي، فقط -

في هذه المرة اليد لكزتني. شخص سحب الغطاء عن رأسي، أرخاه ورفعه فوق أذني، لكن أبقاه على رأسي. ثم سحبت اليد الكمامات وخلعت سدادتَي الأذنين فسمعت صوت الصنادل، زحزحة كرسي ومقعد عال على الإسمنت. أيها الغبي! قال الصوت. كنت أقبع في ظلام دامس، أعمى وما زلت مقيداً، اليدان والقدمان ما زالت مربوطة، الجسم عارٍ ومبلل. الماء يسكب على بلعومي المفتوح حتى كدت أختنق. ألم أخبرك بأن لا ترجع؟ جاء الصوت كأنما من مكانٍ بعيد فوقي، من السقف، صوته هو، كنت أعرفه جيداً حتى في حالتي المعذبة. كيف يمكن أن لا أرجع؟ تمتمت. ماما أخبرتني أن الطير دائماً يرجع إلى العش، ألست مثل ذلك الطير؟ أليس هذا عشي؟ أصلي، مكان ولادتي، وطني؟ بيتي؟ أليس هؤلاء شعبي؟ ألست أنت صديقي، أخي في الدم، رفيقي الحقيقي؟ أخبرني لماذا تفعل هذا بي. أنا لا أفعل هذا حتى بأشد أعدائي.

تنهد الصوت. لا تقلل من شأن أعدائك. حتى هذا الحد الذي وصلت إليه الأمور، ما الذي كان يقوله الكهنة مثل أبيك دائماً؟ افعل مع الآخرين ما تريد أن يفعلوه معك. هذا يبدو جيداً، لكن الأمور ليست بهذه البساطة. المشكلة، كما ترى، كيف نعرف ما يراد أن

يُفعل بنا.

لا فكرة لدي عما تتحدث عنه، قلت. ولكن لماذا تعذبني؟

هل تعتقد أنني أريد أن أفعل هذا بك؟ إنني أبذل ما بوسعي للتأكد من أن أسوأ الأشياء لن تحدث لك. القائد الآن يعتقد أنني أتصرف بلطف شديد معك من خلال أساليبي التربوية، مع أنني أريد أن أسمع اعترافاتك. إنه مثل طبيب الأسنان الذي يعتقد أن الآلام يمكن معالجتها بقلع جميع أسنان المريض. هذا هو الموقف الذي وضعت فيه نفسك بعد أن فعلت ما نهيتك عنه. الآن إذا كنت تريد مغادرة هذا المعسكر بأسنان سليمة، عليك أن تنفذ الأوامر إلى أن يقتنع القائد.

أرجوك لا تغضب مني، بكيت. لا أستطيع التحمل إذا غضبت مني أنت أيضاً! تنهد مرة أخرى. هل تتذكر حين كتبت وقلت إنك نسيت شيئاً، لكنك لا تتذكر ما هو؟ قلت له إنني لا أتذكر. بطبيعة الحال، قال. الذاكرة البشرية محدودة، والزمن طويل. السبب في وجودك هنا في غرفة الامتحان أن تتذكر ما نسيته، أو على الأقل نسيت أن تكتبه. يا صديقي، أنا هنا لأساعدك على رؤية ما لا تستطيع رؤيته بنفسك. قدمه لكزت قاعدة جمجمتي. هنا، عند مؤخرة رأسك.

لكن ما علاقة ذلك بعدم السماح لي بالنوم، قلت. ضحك، لم تكن ضحكة صبي المدرسة الذي كان يستمتع بالمزاح، وإنما ضحكة شخص يكاد يكون مجنوناً. أنت تعرف مثلي لماذا لا أتركك تنام، قال. علينا الوصول إلى ذلك المخبأ الذي فيه آخر أسرارك. كلما أبقيناك مستيقظاً، فإنها أفضل فرصة لفتح تلك الخزانة.

لكني اعترفت بكل شيء.

لا، لم تعترف، قال الصوت. إنني أتهمك بأنك تخفي بعض الأشياء عن قصد، رغم أنني منحتك الكثير من الفرص لكتابة اعترافاتك بطريقة من شأنها أن تقنع القائد. أنت الذي تجلب هذا العذاب على نفسك، وليس أي شخص آخر.

لكن بماذا أعترف؟

إذا قلت لك ما ينبغي أن تعترف به، لن يكون ذلك اعترافاً، قال الصوت. لكن تمتع

بوقتك واعرف أن موقفك ليس مستحيلاً كما تظن. هل تتذكر امتحاناتنا السابقة، عندما كنت دائماً تحقق أفضل الدرجات بينما أنا أنسى بعض النقاط؟ رغم أنني أقرأ وأحفظ بحماس مثلك، فأنت تتفوق عليّ دائماً. لم أتمكن من الحصول على إجابات للأسئلة في رأسي. لكن الإجابات كانت موجودة هناك. العقل لا ينسى. حين نظرت إلى مناهجنا المدرسية مرة أخرى، فكرت، طبعاً! كنت أعرف الإجابات طوال الوقت. في الحقيقة، أنا أدرك أنك تعرف الجواب على السؤال الذي يجب أن تجيب عليه من أجل إنهاء إعادة تأهيلك. سوف أطرح عليك السؤال الآن. أجب عليه كما ينبغي وسوف أحررك من قيودك. هل أنت مستعد؟

هيا، قل ما شئت، قلت، وأنا أكاد أنتفخ من الثقة بالنفس. كل ما أحتاج إليه امتحان يعزز ثقتي بنفسي. سمعت خشخشة الأوراق، كما لو أنه كان يقلب كتاباً، أو ربما هي اعترافاتي. ما الشيء الأكثر أهمية من الاستقلال والحرية؟

يا له من سؤالٍ مراوغ! لأن الجواب واضح. ما الذي يسعى إليه؟ ذهني يتمرغ في سائل لزج أملس. أحسست بصعوبة الجواب، لكن ما ذلك الشيء، لا أعرف. لعل الشيء الواضح في الواقع هو الجواب. وفي نهاية الأمر أخبرته بما تصورت أنه يريد أن يسمع: لا شيء، قلت، أهم من الاستقلال والحرية.

تنهد الصوت. تقريباً، وليس تماماً. تقريباً، لكن هذا ليس جواباً صحيحاً. أليس من المحبط أن يكون الجواب قريباً منك لكنك لا تعرفه؟

لماذا، صرخت، تفعل هذا بي؟ أنت صديقي، أخي، رفيقي!

أعقب ذلك صمتٌ طويل. لم أسمع إلا تقليب الأوراق ولهاث أنفاسه المعذبة. كان يتنفس بصعوبة ومع ذلك فلا تدخل رئتيه إلا كمية قليلة من الهواء. بعد ذلك قال، نعم، أنا صديقك، أخوك، رفيقك، كل هذه الأشياء حتى أموت. كصديق لك، وأخ، ورفيق، سبق أن حذرتك، ألم أفعل ذلك؟ لا يمكن أن أكون أكثر وضوحاً. لم أكن وحدي الذي يقرأ رسائلك، ولا يمكن أن أرسل لك رسالة من غير أن يطلع عليها شخص من فوق كتفي. الجميع هنا لا بد أن يكون معهم شخص ينظر من فوق الكتف. ومع ذلك أصررت على العودة، أيها الغبي.

بون كان سيقتل نفسه، لذلك رجعت لحمايته.

وأنت كنت ستقتل نفسك أيضاً، قال الصوت. أي نوع من الخطط هذه؟ أين تراكما ستكونان لو لم أكن هنا؟ نحن الفرسان الثلاثة، ألسنا كذلك؟ أو ربما الآن نحن العملاء الثلاثة. لا أحد يتطوع للعمل في هذا المعسكر، لكن حينما عرفت أنك ستعود، طلبت أن أكون المفوض وأن ترسلا معاً إلى هنا. هل تعرف من يضعون في هذا المعسكر؟ الأشخاص الذين على وشك اتخاذ خطوتهم الأخيرة، الذين يتابعون خوض حرب العصابات، الذين لن ينسحبوا أو يعترفوا من خلال الندم. بون سبق أن طلب مرتين أن تطلق عليه النار فرقة إعدام. القائد يقبل ذلك بابتهاج لولا تدخلي. أما أنت، فرصك في النجاة مشكوك بها دون حماية.

تسمي هذه حماية؟

لولا تدخلي، من المحتمل جداً أن تكون ميتاً الآن. ألا تتذكر ما أخبرتك به؟ توجد هنا لجنة من أجل المدانين. وفوق هذه لجنة أخرى للمدانين بجرائم أكبر، وفوقها لجنة أخرى، وهكذا... أنا المفوض لكن فوقي العديد من المفوضين، يقرأون رسائلك، ويتابعون تحركاتك. إنهم يفرضون عليك إعادة التأهيل. كل ما يمكنني القيام به أن أتحمل مسؤولية ذلك، وأقنع القائد بأن طريقتي سوف تنجح. القائد كان يريد وضعك ضمن فرقة إزالة الألغام، وتلك ستكون نهايتك. لكني جعلتك تتمتع بالترف لسنة كاملة في كتابة اعترافاتك داخل زنزانة انفرادية. السجناء الآخرون يتقاتلون من أجل هذا الامتياز. لا أقصد هذا مجازياً. أسديت إليك خدمة لا تقدر بثمن، وأقنعت القائد بأن يبقيك محتجزاً. أنت في نظره أخطر من كل المخربين، لكني أقنعته بأن الثورة ستكون في حال أفضل لو عالجناك بدلاً من قتلك.

أنا؟ ألم أثبت أنني ثوري حقيقي؟ ألم أضحي لعقود من الزمن بحياتي في سبيل تحرير وطني؟ أنت من بين كل الناس ينبغي أن تعرف ذلك!

لست أنا من يحتاج للإقناع. إنه القائد. أنت لا تكتب على كل حال لرجل بالإمكان أن يفهم. تدعي أنك ثوري، لكن قصتك تخدعك أنت وحدك، أو بالأحرى أنت تخدع نفسك. لماذا، أيها الوغد العنيد، تصر على الكتابة بهذه الطريقة بينما عليك معرفة أن

الأشخاص من أمثالك يهددون قادة العالم.. لكزتني القدم وأيقظتني. يبدو أنني غفوت للحظات لذيذة، وتصورت أنني كنت أزحف على صحراء قاحلة وأتذوق طعم الدموع. ابق مستيقظاً، قال الصوت. حياتك تعتمد على هذا.

سوف تقتلني إذا لم تتركني أنام، قلت.

سوف أبقيك مستيقظاً إلى أن تفهم، قال الصوت.

لا أفهم شيئاً!

إذن فأنت تفهم كل شيء تقريباً، قال الصوت. ضحك وبدا كأنه صديق مدرستي القديم. أليس من المضحك كيف نجد أنفسنا هنا، يا صديقي؟ أنت جئت لإنقاذ حياة بون وأنا جئت لإنقاذ حياة كل منكما. دعنا نأمل في أن تنجح خطتي بشكل أفضل من خططكما. لكن يجب أن نقول الحقيقة، لم يكن الدافع فقط الصداقة التي دعتني لأن ألتمس أن أكون المفوض هنا. أنت رأيت وجهي، أو بالأحرى اختفاء وجهي. هل تتخيل كيف يمكن لزوجتي وأطفالي تحمل هذا المنظر؟ تهدج الصوت. هل تتخيل مدى رعبهم؟ هل تتخيل مدى رعبي في كل مرة أنظر فيها إلى المرآة؟ ومع ذلك، كي أكون صريحاً، أنا لم أنظر في المرآة منذ سنوات حتى الآن.

بكيت، فكرت فيه منفياً عنهم. كانت زوجته من الثوار أيضاً، فتاة من مدرسة البنات القريبة منا ذات جمال بسيط كنت سأقع في حبها لولا أن وقع هو قبلي. ابنه وابنته لا بد أن يكونا الآن في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، من الملائكة الصغار التي غلطتها الوحيدة أن بعضهم أحياناً يكره بعضاً. إنهم لا ينظرون بخوف إلى.. إلى حالتك، قلت. أنت فقط تتخيل ما يرونه من خلال الطريقة التي ترى فيها نفسك.

أنت لا تعرف شيئاً! صرخ بي. عاد الصمت من جديد، لم تقطعه سوى خشخشة أنفاسه. تخيلت الشقوق على شفتيه، والشقوق في حنجرته، ولكن كل ما أردته أن أنام.. قدمه لكزتني ثانية. أعتذر على عصبيتي، قال الصوت برقة. يا صديقي، لا يمكنك أن تعرف ما أشعر به. تتصور أنك تستطيع. لكن هل يمكنك أن تعرف معنى أن يكون المرء بشعاً إلى درجة أن أطفالك يبكون عندما يرونك، عندما تجفل زوجتك من ملمسك، عندما صديقك لا يتعرف عليك؟ لقد رآني بون خلال السنة الأخيرة ولم يعرفني. هذا

صحيح، كان يجلس في مؤخرة قاعة الاجتماع ولم يرني إلا من مكان بعيد. لم أطلب منه المجيء لكي يعرف من أكون، لأن هذه المعرفة حتماً لن تنفعه بشيء وربما تضره كثيراً. ومع ذلك - أحلم أنه سوف يتعرف عليّ رغم أنفي، حتى لو، لدى التعرف عليّ، أراد قتلي. هل يمكن أن تتخيل الألم في خسارة صداقتي له؟ ربما استطعت ذلك. لكن هل تعرف حقاً الألم الذي تسببه قنابل النابالم التي تحرق البشرة وتزيلها عن وجهك وجسمك؟ كيف لك أن تتخيل هذا؟

إذن أخبرني، صرخت. أريد أن أعرف ما الذي حدث لك!

تبع ذلك صمت، لا أعرف كم استمر، حتى لكزتني القدم من جديد وأدركت أنني أضعت الجزء الأول من حكايته. كنت ألبس بدلتي النظامية، قال الصوت. الإحساس بالشؤم كان عميقاً وسط أفراد وحدتي، والذعر واضح في عيون الضباط والرجال. مع مرور ساعات قليلة على التحرير، أخفيت فرحتي وحماسي لكنني لم أخفِ قلقي عن عائلتي، مع أنهم ينبغي أن يكونوا بأمان. زوجتي كانت في المنزل مع الأطفال، واحد من السعاة التابعين لنا قريب منهم لضمان سلامتهم. عندما اقتربت دبابات جيش التحرير من الجسر أمر القائد الذي معنا أن نقف بثبات، كنت خائفاً على نفسي أيضاً. لم أرد لجيش التحرير أن يطلق النار عليّ في آخر يوم للحرب، وذهني كان يخمن طريقة لتجنب ذلك المصير حين هتف شخصٌ ما، إنها طائرات قوتنا الجوية، جاءت أخيراً. إحدى طائراتنا كانت تحوم فوقنا، تطير عالياً لتجنب مدفعية مقاومة الطائرات، لكنها أيضاً تطير عالياً بحيث لا يتناسب ذلك مع أهدافها في القصف. اقترب، صاح أحدهم. كيف سيتمكن من ضرب أي شيء من ذلك الارتفاع؟ اختنق الصوت. كيف يحدث هذا حقاً؟ لما أسقط الطيار قنابله، استولى الإحساس المرعب على رفاقي الضباط وأنا منهم، لأني رأيت القنابل، بدلاً من أن تسقط باتجاه الدبابات، تسقط علينا نحن، بحركة بطيئة. سقطت القنابل بشكل أسرع مما يمكن أن تتخيله البصيرة، ورغم أننا ركضنا، فلم نقطع مسافة طويلة. سحابة النابالم أحاطت بنا، وأتصور أنني كنت محظوظاً. كنت أركض أسرع من الآخرين والنابالم فقط لفحني بسحابته. كان مؤلماً. أوه، كم كان مؤلماً! لكن ماذا يمكنني أن أقول غير حقيقة أن المرء حينما يحترق يشعر فقط بأنه يحترق؟ ماذا يمكنني أن أقول لك عن الألم غير أنه أبشع ألم يسبق أن أحسست به؟ السبيل الوحيد لأظهر لك بشاعة الألم، يا صديقي، أن

أحرقك بنفسي، وهذا ما لن أفعله أبداً.

لقد أحرقت إصبعي في الفرن مرة، وحاولت تخيل الأمر مضاعفاً عشرة آلاف مرة، بالنابالم الذي هو من أنوار الحضارة الغربية، فقد اخترعوه في هارفارد، أو هكذا علمت من دروس كلود. لكني لم أستطع أن أتخيل. كل ما أشعر فيه رغبتي في النوم وأنا أرى نفسي تذبل، لا تترك شيئاً غير ذوبان الذهن. لكن حتى في حالتي الذائبة هذه، ذهني كان يفهم أن هذا ليس بالوقت المناسب للكلام عن حالتي. مستحيل أن أتخيل، قلت. مستحيل.

كانت معجزة أنني بقيت حياً. أنا معجزة حية! إنسان انقلب رأساً على عقب. كان ينبغي أن أموت لولا زوجتي العزيزة، التي راحت تبحث عني بعد غيابي الطويل عن المنزل. وعثرت عليّ أحتضر في إحدى مستشفيات الجيش، حالة تحظى بأهمية ثانوية. حين أبلغت السلطات بالأمر، أمروا أفضل الجراحين الذين بقوا في سايغون بمعالجتي. وهكذا أنقذوني من الموت! ولكن لماذا؟ الألم الناتج عن الحروق بالكاد أصبح أقلّ من الألم الناتج عن اختفاء الجلد أو الوجه. بقيت أحترق كل يوم لشهور. حين يزول أثر الأدوية، استمر بالاحتراق. التعذيب كلمة مناسبة، ولكنها لا يمكن أن تنقل الإحساس الذي ينبغي أن تصفه.

أعتقد أنني أعرف معنى التعذيب.

أنت تبدأ بالفهم الآن.

ليس عليك أن تفعل هذا!

إذن لم تفهم بعد. الأشياء المؤكدة يمكن أن تفهم فقط من خلال الإحساس بالعذاب. أريدك أن تعرف ما الشيء الذي كنت أعرفه وما زلت. كنت سأعفيك من تلك المعرفة لولا أنك رجعت. لكنك رجعت، والقائد يراقب حالتك. لدي سلطة أكبر من سلطته، لكن هذا لا يعني أنه لا يمتلك سلطة. إنه متلهف لمعرفة السبب الذي يجعلني أتركك تكتب اعترافاتك بطريقتك الأنانية، ولماذا أسمح لك وحدك بأداء هذا الامتحان. إنه لا يدري، مثلك أنت، أنني أحاول إنقاذ حياتك. إذا تركتك وحدك، لن تنجو منه. أنت تشكل مصدر خوف له. أنت لست إلا ظلاً يقف في باب كهفه، مخلوق غريب ينظر للأمور من

الجانبين. أشخاص مثلك يجب أن يطهروا لأنك تحمل جراثيم التلوث التي يمكن أن تدمر نقاء الثورة. مهمتي أن أثبت أنك لا تحتاج إلى التطهير، أن بالإمكان إطلاق سراحك. لقد رتبت مسألة الامتحان لهذا الغرض تحديداً.

ليس عليك أن تفعل هذا، تمتمت.

لكني سأفعل! الأشياء التي تفعل بك الآن لصالحك. القائد سوف يحطمك بالطريقة الوحيدة التي يعرفها، من خلال جسمك. الطريقة الوحيدة لإنقاذك أنني وعدته بأني سوف أجرب وسائل جديدة للامتحان لا تترك أي أثر. لهذا لم نضربك ولو مرة واحدة.

يجب أن أشكركم؟

نعم، تشكرنا. لم يضايقك شيء وأنت تكتب اعترافاتك. كل احتياجاتك كانت توفر، إن لم يكن كل رغباتك. لكن الآن جاء وقت المراجعة الأخيرة. القائد لن يقبل أقلّ من هذا. عليك أن تعطيه أكثر مما لديك.

لم يبق لدي شيء أعترف به!

هناك دائماً شيء. هذه هي طبيعة الاعتراف. لا يمكن أن نتوقف عن الاعتراف لأننا لسنا مثاليين. حتى القائد وأنا يجب أن ننتقد أنفسنا، مثلما يريد الحزب. القائد العسكري والمفوض الحزبي تجسيد حي للمادية الديالكتيكية. إننا معاً نمثل الفرضية ونتيجة الجمع بينها وبين نقيضها الأكثر قوة في الديالكتيك الهيغلي، الوعي الثوري الحقيقي.

إذا كنت تعرف سابقاً ما نسيت الاعتراف به، إذن أخبرني به!

قهقه الصوت ثانية. سمعت تقليب الأوراق. دعني أقتبس من مخطوطتك، قال الصوت. «العميلة الشيوعية التي لديها دليل بشكل قصاصة ورق... لسانها». أنت تذكرها ثلاث مرات في اعترافاتك. نحن نعلم أنك سحبت هذه القائمة من فمها وأنها نظرت إليك باحتقار. يجب أن تخبرنا بما فعلته بها. نريد أن نعرف!

رأيت وجهها مرة أخرى، بشرتها القروية الداكنة وأنفها الواسع المفلطح، يشبه كثيراً تلك الأنوف العريضة المفلطحة للأطباء الذين يحيطون بها في الفيلم الذي عرض على الشاشة. قلت، لم أفعل شيئاً لها.

لا شيء! هل تعتقد أن مصيرها هو الشيء الذي نسيت أنك نسيته؟ لكن كيف يمكن لمأساتها أن تنسى؟ مصيرها واضح جداً. هل هناك من مصير يختلف عما ربما يتخيله أي قارئ، كما يراه في اعترافاتك؟

لكنني لم أفعل لها شيئاً!

تماماً! ألا ترى أن كل شيء يحتاج إلى اعتراف الآن غير معروف؟ أنت في الواقع لم تفعل شيئاً. تلك هي الجريمة التي يجب أن تعترف بها. ألا تتفق معي؟

ربما. صوتي كان خافتاً. لكزتني قدمه مرة أخرى. هل تتركني أنام إذا قلت نعم؟ لكني لم أفعل شيئاً! ذلك هو الشيء الذي لم أذكره في اعترافاتي. كيف يعترف المرء به عندما يكون هذا الشيء لا شيء؟ لكن كل ما خرج من فمي ربما كلمة واحدة.

حان الوقت لأذهب وأرتاح قليلاً، يا صديقي. أحس بالألم الآن. الألم لا يختفي أبداً. هل تعرف كيف أتحمله؟ بالمورفين. قهقه الصوت. لكن ذلك الدواء العجيب فقط يخدر الجسم والدماغ. وماذا عن الذهن؟ اكتشفت أن الطريقة الوحيدة للتغلب على الألم أن أتخيل شخصاً ما يعاني أكثر مني، المعاناة تزيل الألم. إذن تذكر ما تعلمناه في لوسي، كلمات فان بوي شاو55؟ «بالنسبة للإنسان، أعظم معاناة تأتي من خسارة وطنه». هذا الإنسان حين يخسر وجهه، جلده، وعائلته، هذا الإنسان أتخيله أنت، يا صديقي. أنت خسرت وطنك وأنا الذي قمت بنفيك. كنت أحس بمعاناتك بعمق، تلك الخسارة المرعبة تشير إليها فقط في رسائلك المشفرة. ولكنك الآن رجعت، ولم يعد بإمكاني تصور أن معاناتك أكبر من معاناتي.

إنني أعاني حتى الآن، قلت. أرجوك، دعني أنام.

نحن ثوار، يا صديقي. المعاناة هي التي جعلت منا ثواراً. نحن نختار المعاناة من أجل الشعب لأننا نتعاطف مع معاناته.

أعرف كل هذا، قلت.

إذن اسمعني. سمعت صرير الكرسي، وصوته الآن كان عالياً فوقي، ارتفع أكثر من قبل. أرجوك أن تفهم. أنا أفعل هذا بك لأني صديقك وأخوك. إذا لم تنم فقط عندها

ستتمكن من فهم فظائع التاريخ. أخبرك بهذا كشخص نام قليلاً منذ الحادث الذي وقع لي، وجعلني أبقى مستيقظاً عدة ليال محاولاً الإجابة عن السؤال الذي طرحته عليك. الآن أنا أعاني من مراقبة معاناتك، لكن صدقني عندما أقول لك إنني أعرف كيف تشعر، هذا يجب أن يحصل لك.

أحسست بالخوف، لكن هذا الوصف لطريقة التعامل معي ضاعف خوفي أكثر. شخصٌ ما لا بد أنه فعل له شيئاً! هل كنت أنا؟ لا! ذلك ليس صحيحاً، أو هكذا أردت أن أقول له، لكن لساني رفض الامتثال لي. كنت مخطئاً في تصور أنني المسؤول، لأني كما أخبرته، أو تصورت أنني أخبرته، مجرد نكرة. أنا كذبة، حارس، كتاب. لا! أنا ذبابة، حيوان زاحف، آسيوي. لا! أنا.. أنا.. أنا..

أصدر الكرسي صريراً مرة أخرى وشممت رائحة أعرفها، الرائحة النتنة للحارس ذي الوجه الطفولي. لكزتني قدم فارتعشت. أرجوك يا رفيقي، قلت. دعني أنام. سخر الحارس مني ولكزني مرة أخرى بقدمه الحادة، وقال، أنا لست رفيقك.

الفصل الحادي والعشرون

لم يعرف السجين أبداً أنه يحتاج إلى استراحة مؤقتة من مشوار التاريخ، هو الذي كرس حياته في فترة النضج إلى قضيته المصيرية. صديقه مان جعله يتعرف على علم التاريخ ضمن جماعة التثقيف، وكانت المناهج المختارة مكتوبة بحروف بنفسجية. إذا فهم المرء قوانين التاريخ، عندئذ يمكنه السيطرة على حركة التاريخ، يتصارع معها ويبعدها عن الرأسمالية، التي هي الآن عازمة على احتكار الزمن. نحن نستيقظ، ونعمل، ونأكل، وننام وفقاً لما يمليه علينا سادتنا، صاحب الأملاك، البنك، السياسي، مدير المدرسة، القائد، قال مان. نقبل أن يخضع زمننا لمشيئتهم، بينما في الحقيقة الزمن ينتمي لنا. استيقظوا، أيها الفلاحون، والعمال، الخاضعون للاستعمار! استيقظوا، أنتم غير مرئيين! انتفضوا من التقلبات الخافية للتاريخ واسرقوا ساعة الزمن الذهبية من تلك القطط السمان، والكلاب الضالة، ونمور من ورق تدعى الإمبريالية، والاستعمار والرأسمالية! إذا عرفتم كيف تسرقونها، يكون الزمن لصالحكم، وأرقام الساعة أيضاً لكم. هناك الملايين منكم وفقط الآلاف منهم، المستعمرون، والرأسماليون والمستثمرون الذين أقنعوا تعساء الأرض بأن التاريخ الرأسمالي شيء محتوم. نحن، الطليعة، علينا إقناع الشعوب والطبقات المسحوقة التي تعيش تحت الأرض بأن التاريخ الشيوعي هو المحتوم! معاناة الناس الذين يواجهون الاستغلال حتماً تقودهم إلى التمرد، لكن طليعتنا هي التي تسرع الزمن باتجاه ذلك التمرد، تعيد توقيت ساعة التاريخ وتطلق الإنذار بساعة الثورة. تك.. توك.. تك.. توك.. تك.. توك..

السجين مقيد على فراشه، لا، الطالب - كان يفهم أن هذا هو الدرس الأخير لجماعة

التثقيف. لكي يكون ناشطاً ثورياً عليه أن يخضع لنواميس التاريخ ويتذكر كل شيء، وهذا ما يستطيع القيام به إذا آفاق بالكامل، حتى إذا كان الاستيقاظ يعني قتله. ومع ذلك لو نام قليلاً، سوف يفهم بشكل أفضل! كان يتلوى، يتململ، يصارع نفسه في توسلاته العقيمة من أجل النوم، وربما استمر هذا لساعات، أو دقائق، أو ثوان، عندما حدث فجأة أن رفع غطاء الرأس عنه، وتبعته الكمامة، مما سمح له بالتنفس وامتصاص الهواء. يداه المقيدتان الخشنتان انتزعتا اللفافات وسدادات الأذن، وأخيراً، توحدتا لإزاحة عصابة العين بغضب. الضوء! إنه يرى، لكن سرعان ما اضطر لإغلاق عينيه. فوق رأسه عشرات - لا، بل مئات، المصابيح مثبتة على السقف وتعميه بأنوارها مجتمعة، وهجها يشع من خلال المرشحات الحمر لرموش عينيه. القدم دفعت جسده وقال الحارس ذو الوجه الطفولي، لا تنام، يا هذا. فتح عينيه على الكتلة المشعة الحارة من المصابيح المنسقة في نظامٍ غريب، كثافتها الضوئية تكشف عن غرفة امتحان جدرانها وسقفها مطلية باللون الأبيض. الأرضية الأسمنتية بيضاء، وحتى الباب الحديدي أبيض، كلها في حجرة ليست أوسع من ثلاثة أمتار في خمسة. الحارس بزيه الأصفر وقف على أهبة الاستعداد في إحدى الزوايا مع ثلاثة حراس آخرين في الغرفة وقفوا عند حافات سريره، واحد في كل جانب والآخر عند قدميه. كانوا يلبسون معاطف بيضاء تستخدم في المختبرات ويضعون على أنوفهم كمامات طبية خضراء، والأيادي خلف الظهور. كمامات عمليات جراحية ونظارات واقية تخفي وجوههم، عدسات مدارية تركز عليه، الآن لم يعد سجيناً وطالباً فحسب ولكنه مريض.

س. من أنت؟

الرجل الذي يقف إلى يساره طرح السؤال. ألا يعرفون من هو حتى الآن؟ إنه الرجل صاحب الخطط، الجاسوس الذي لديه أكثر من عينين، الجرذ في الحفرة، ولكن لسانه انتفخ من ذاته ليملأ فمه كله. أرجوكم، أراد أن يقول، دعوني أغمض عيني. سوف أخبركم من أنا. الجواب على طرف لساني - أنا الآسيوي الذي يُطهى الآن. تقولون إنني مجرد نصف آسيوي؟ جيد، وفقاً لكلمات ذلك الرائد الأشقر الذي كان مكلفاً بإحصاء الموتى من الشيوعيين بعد معركة «بيان تري»، لما واجهته معضلة رياضية تتعلق بجثة لا تتضمن سوى الرأس، والصدر، والذراعين: النصف آسيوي يبقى آسيوياً. وما دام الآسيوي الوحيد الصالح آسيوياً ميتاً، كما يحب الأمريكان القول، فلا بد أن هذا المريض آسيوي فاسد.

س. ماذا أنت؟

هذا السؤال جاء من الرجل الذي يقف إلى يمين القائد. لدى سماع الصوت، راح المريضُ يتصارع مع حباله حتى كشطت لحمه، السؤال أثار شعلة من الغضب الصامت. أعرف بماذا تفكرون! بأني خائن! مناهض للثورة! وغد لا ينتمي إلى أي مكان، لا ينبغي الوثوق به أبداً! الغضب هدأ فجأة وتحول إلى يأس، وكان المريض ينتحب. هل تضحياته لا ينبغي أن تكرم؟ ألا يفهمه أحد؟ هل يبقى دائماً وحده؟ لماذا يجب أن يكون الرجل الذي توجه إليه الاتهامات؟

س. ما اسمك؟

كان ذلك الرجل الذي يقف عند طرف الفراش، يتكلم بصوت المفوض. سؤال سهل، أو هكذا تصور. فتح فمه، لكن لم يتحرك لسانه، انكمش من الخوف. نسي اسمه؟ لا، مستحيل! لقد أعطى لنفسه اسماً أمريكياً. أما اسمه المحلي، أمه الوحيدة التي تفهمه هي التي أعطته له، وأبوه لم يفعل شيئاً، أبوه الذي لم يعتبره ابناً له أو يناديه باسمه، حتى في الصف كان ببساطة يناديه «أنت». لا، لا يمكن أن ينسى اسمه، وحين تذكره أخيراً، تحرر لسانه من عقدته ونطق بالاسم عالياً.

قال المفوض، إنه حتى لا ينطق اسمه بصورة صحيحة. دكتور، أعتقد أنه يحتاج إلى مصل، وهنا قال الرجل الذي يقف إلى يسار المريض، جيد جداً، إذن. أخرج الطبيب يديه من وراء ظهره، لبس قفازات بيضاء مطاطية، إحدى يديه تحمل أنبوبة بحجم خرطوشة البندقية، واليد الأخرى فيها إبرة. بحركة خاطفة أدخل الطبيب سائلاً شفافاً من الأنبوبة إلى الإبرة، ثم قرفص قرب المريض. لما ارتعش وتلوى، قال الطبيب، مهما فعلت سوف أحقنك، وإذا تحركت سيحدث شيء أسوأ لك. توقف المريض عن المقاومة والوخزة التي أحس بها في المرفق أشعرته تقريباً بالارتياح، إحساس من نوع آخر غير هلوسة الدافع للنوم. تقريباً، وليس تماماً. أرجوكم، أطفئوا الأضواء.

قال المفوض، هذا ما لا نستطيع فعله. ألا ترى أنك يجب أن ترى؟ قال القائد مستهجناً. إنه لن يرى شيئاً، ليس مع كل الأضواء التي في العالم. بقي تحت الأرض فترة طويلة. إنه أعمى كلياً! الآن، اهدأ، اهدأ، قال الطبيب، وكان يربّت على ذراع المريض.

رجال العلم يجب أن لا يفقدوا الأمل، خصوصاً حين يعالجون العقل. لأننا لا نستطيع أن نرى أو نلمس العقل، كل ما يمكننا القيام به مساعدة المريض على رؤية عقله بأن نجعله يبقى مستيقظاً، حتى ينظر إلى نفسه كشخص آخر. هذا شيءٌ مهم جداً، لأننا الأشخاص القادرون على معرفة أنفسنا ومع ذلك فنحن عاجزون أكثر من غيرنا عن معرفة أنفسنا. كما لو أن أنوفنا تضغط على صفحات كتاب، الكلمات أمامنا لكننا لا نستطيع قراءتها. مثلما نحتاج إلى مسافة لنرى بوضوح، فنحن كما لو أننا نستطيع فقط تجزئة أنفسنا إلى قسمين والحصول على بعض المسافة بعيداً عن أنفسنا، يمكننا عندئذ رؤية أنفسنا بشكل أفضل من أي شخص آخر. هذه هي طبيعة تجربتنا التي نحتاج فيها لتطبيق وسيلة أخرى. أشار الطبيب إلى حقيبة جلدية بنية لم ينتبه إليها المريض لكنه رآها فوراً، تلفون عسكري ميداني ارتجف من منظره من جديد. السوفييت وفروا المصل الذي يجبر مريضنا على قول الحقيقة، قال الدكتور. وهذه الآلة الأخرى أمريكية. هل ترى النظرة في عيني مريضنا؟ إنه يتذكر ما رآه في غرف الاستجواب تلك. لكننا لن نربطه بأسلاك على الحلمات وكيس الصفن إلى أقطاب البطارية التي تعمل على مولدة كهرباء التلفون. بدلاً من ذلك - مد الطبيب يده نحو الحقيبة وأخرج سلكاً أسود - نربط هذا السلك بطرف إصبع القدم. أما العتلة اليدوية فهي تولد تياراً كهربائياً عالياً. لا نريد الكثير من الألم. لا نريد التعذيب. كل ما نريده تحفيز يكفي لجعله مستيقظاً. وبهذا أكون قد عدلت الكهرباء الناتجة وربطت التلفون بهذا. أمسك الطبيب ساعة يدوية. كل مرة يعبر فيها عقرب الثواني الساعة الثانية عشرة، ترسل نبضة صغيرة إلى إصبع المريض.

ربط الطبيب كيس الخيش على قدم المريض، ورغم أن المريض رفع رقبته ليرى ابتكار الطبيب، إلا أنه لم يستطع رؤية التفاصيل. كل ما استطاع رؤيته السلك الأسود يمر من طرف إصبع القدم إلى حقيبة وضع الطبيب بداخلها ساعته. ستون ثانية، أيها السادة، قال الطبيب.. تك.. توك.. ارتعش المريض، منتظراً الصعقة. رأى المريض أن أي إنسان يواجه هذه الصعقة لا بد أن يرد عليها بالصراخ ومحاولة تخليص نفسه. مع الصعقة العاشرة أو العشرين لهذا الجهاز، تلمع عيناه وتعكسان الضوء كالزجاج فتبدوان كأنهما محنطتان تعرضان في متحف، عيون حية ومع هذا فهي ميتة، أو العكس بالعكس، لأن من يخضع لهذا التجربة يتوقع الدورة التالية للعتلة. كلود، الذي أخذ ذات مرة طلاب الصف لرؤية مثل هذا الاستجواب، قال، أي واحد منكم، أيها المهرجون، يضحك أو يمزح

سوف أطرده. هذا اختبار حقيقي. تذكر المريض أنه أحس بالارتياح لأن لم يسأله أحد أن يدير العتلة. مشاهدة الشخص الذي يخضع للتجربة وهو يلهث، جعلته يجفل ويتساءل عن الألم الذي تسببه تلك الصعقات. الآن ها هو ذا، ينضح عرقاً ويرتجف مع طقطقة الثواني إلى أن جعلته صعقة الكهرباء الستاتيكية يقفز، ليس من الألم ولكن من الفزع. انظروا؟ هذا غير مؤلم على الإطلاق، قال الطبيب. فقط تابعوا تحويل السلك إلى أصابع مختلفة بحيث لا يصاب بالحروق من صعقة السلك.

أشكرك، دكتور، قال المفوض. والآن إذا سمحت، أحب بعض العزلة مع مريضنا. استمتع بوقتك كما تشاء، قال القائد، متجهاً إلى الباب. عقل هذا المريض ملوث. يحتاج إلى غسيل كامل. بعد أن خرج القائد، والطبيب، والحارس ذو الوجه الطفولي - بقي سوني والرائد البدين اللذان كانا يراقبان المريض بصبر لا يلين ويقفان في ركن ما - جلس المفوض على كرسي خشبي، قطعة الأثاث الوحيدة التي في الغرفة إلى جانب فراش المريض. أرجوكم، قال المريض، فقط دعوني أرتاح. لم يقل المفوض شيئاً إلى أن جاءت اللحظة التالية لصعقة الكهرباء فانتفض المريض. ثم انحنى وأظهر للمريض كتاباً صغيراً كان حتى الآن مخفياً عنه. وجدنا هذا في غرفتك في قصر الجنرال.

س. ما هو العنوان؟

ج. (كوبارك: تحقيقات مكافحة الاستخبارات)، 1963.

س. ما معنى «كوبارك»؟

ج. اسم مختصر لـ CIA.

س. ما معنى CIA؟

ج. وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية التابعة لـ USA.

س. ما معنى USA؟

ج. الولايات المتحدة الأمريكية.

أنت ترى أنني لا أخفي شيئاً عنك، قال المفوض، وهو يرجع إلى الوراء. لقد قرأت تعليقاتك الهامشية، وانتبهت إلى رسائلك المبطنة. كل شيء فعلناه معك مستمد من هذا

الكتاب. بعبارة أخرى، اختبارك هذا كتاب مفتوح. لا توجد مفاجآت.

أريد أن أنام..

كلا. إنني أراقب حالتك لأرى إن كان هذا المصل يؤدي وظيفته. إنها منحة من المخابرات السوفييتية، ونحن نعرف القدرات العظيمة المتوقعة لهداياهم. إنهم يختبرون تقنياتهم جيداً، وأسلحتهم، وأفكارهم على بلادنا الصغيرة. كنا خاضعين للتجربة التي يسمونها، بكل صراحة، الحرب الباردة. يا لها من نكتة، إذا نظرنا إلى حرارة الحرب التي وقعت علينا! شيء مضحك، لأننا أنا وأنت هدف هذه النكتة. (تصورت أننا نحن هدف النكتة، قال سوني. اصمت، قال الرائد البدين. أريد أن أسمع هذا. المشهد يزداد إثارة!) ولكن كما يحصل دائماً، تابع المفوض كلامه، عدلنا تقنياتهم. هذه المصابيح؟ التي صنعت في الولايات المتحدة، ومولد الكهرباء أيضاً، مع أن النفط مستورد من السوفييت. هناك الكثير من الضوء، ومع ذلك، الظلال تحوم. هناك ظل خلفي على الجدار. وأنت أيها الظل الذي يقف في مدخل كهف القائد. أنت نفسك، رغم كل شيء، لا تلقي ظلاً، لأن الظلال لا ظلال لها. هذه الرؤية مجرد خطوة في طريقك إلى التنوير.

أرجوكم، أطفئوا الأضواء، قال المريض، وكان يسبح في العرق من الحرارة التي تولدها شبكة المصابيح. ولما لم يسمع جواباً، أعاد الطلب نفسه، ولم يسمع شيئاً، فعرف أن المفوض ترك المكان. أغمض عينيه، وللحظة تصور أنه نائم، إلى أن جاءته صعقة كهربائية على طرف أصابعه. لقد خضعت لهذه الأساليب بنفسي في المزرعة، هكذا أخبر كلود طلاب الصف. إنها تؤدي إلى النتيجة المطلوبة حتى إذا كنت مدركاً لما يحصل لك. كان يشير إلى التقنيات المذكورة في كتيب كوبارك المستنسخ الذي استقر الآن بين يدي المفوض، وهو من المناهج المطلوبة في دورة الاستجواب. المريض، قبل أن يصبح مريضاً وعندما كان مجرد طالب، كان قد قرأ هذا الكتاب عدة مرات. حفظ قصصه، وشخصياته، ووسائله، وفهم أهمية العزلة، والحرمان من الإحساس، ووجود عدة محققين وعملاء مخترقين. استوعب أساليب إيفان أو طريقة دوب، والذئب في ثياب الخروف، وأليس في بلاد العجائب، والعين التي ترى كل شيء، وطريقة لا أحد يحبك. باختصار، كان يحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب، بما فيه تركيزه على الروتين غير المتوقع. وبهذا لم تكن مفاجأة عندما جاء الحارس ذو الوجه الطفولي وأعاد ربط السلك على أحد أصابعه. بينما كان

الحارس يلف السلك على قدمه، ارتعش المريض ونطق بشيء لم يفهمه، لم يقل الحارس شيئاً. هذا الحارس سبق أن أظهر للمريض الوشم على جسمه، «ولد في الشمال لكي يموت في الجنوب»، منقوشاً بالحبر الأزرق على لوح الكتف. لكن لأنه كان ضمن الكتيبة الأخيرة التي زحفت إلى سايغون، كانت الحرب قد انتهت في الوقت الذي وصل فيه لتحرير المدينة. لكن وشمه ربما ما يزال يصلح للنبوءة. لقد أوشك أن يموت سابقاً من السفلس الذي انتقل إليه بعد زيارة زوجة أحد السجناء، التي دفعت إليه الرشوة من المورد الوحيد الذي تملكه. منذ ذلك الوقت، الحارس كان يتفاخر كثيراً أمام المريض عن كيف أنه أصبح ضحية أيضاً. متى أرجع إلى بيتي؟ كان ينوح. ما الذي فعلته لكي أستحق أن أكون هنا؟ حقيقة أن الحارس لم يكن يشتكي الآن تقلق المريض، الذي قال، أرجوكم، أطفئوا الأنوار. لكن الحارس لم يكترث له. كان مجرد مراهق يأتي له بالطعام. ألم يأكل منذ مدة قريبة؟ لم يكن جائعاً، لكن الحارس المراهق أدخل ثريد الرز في حلقه عنوة باستعمال ملعقة معدنية. جدول احتياجاته الأساسية يجب أن يتغير، أحاسيسه غير منتظمة ولا متوقعة، كما جاء في الكتاب. مثل طبيب يشخص مرضاً قاتلاً وفجأة يصاب به، كان يعرف كل شيء حدث سابقاً وسوف يحدث له، ومع ذلك فهذا لا يشكل فارقاً. حاول أن يقول شيئاً للحارس المراهق، الذي أخبره أن يصمت قبل أن يركله في أضلاعه ويتركه. السلك الكهربائي صعقه مرة أخرى، في هذه المرة لم يكن مربوطاً بإصبعه وإنما في أذنه. اهتز رأسه لكن السلك لم يتحرر عن فكيه، يلح عليه أن يبقى يقظاً. ذهنه كان هشاً ومتصدعاً، مثل حلمتا صدر أمه بعد أن يرضع منهما. أنت يا طفلي الجائع، كانت تناديه. وكان عمره وقتها بضع ساعات، لا يمكنك حتى أن تفتح عينيك ومع ذلك تعرف أين تجد حلمة الثدي. وحين تطبق على ثديي، لا تتركهما أبداً! تطلب الحليب في كل ساعة. ذلك المذاق الأول لحليب أمه لا بد أنه مثالي، لمسة الحنان التي لا يمكن استردادها حتى إذا حاول ذلك وهو ناضج. ما مذاق الحنان؟ كل ما يعرفه أنه لا يشبه مذاق: الخوف، الصعقة الحادة لبطارية تسعة فولت مع احتكاك السلك بلسانه.

س. كيف تشعر؟

عاد المفوض يحوم فوق المريض بمعطفه الأبيض، قناع جراحي ونظارات واقية من الفولاذ، يداه داخل قفاز مطاطي، يحمل ورقة وقلماً.

س. قلت لك كيف تشعر؟

ج. لا يمكنني الإحساس بجسمي.

س. لكنك تحس بعقلك؟

ج. عقلي يحس بكل شيء.

س. الآن هل تتذكر؟

ج. ماذا؟

س. هل تتذكر الأشياء التي نسيتها؟

وظهر للمريض أنه يتذكر الأشياء التي نسيها، وأنه إذا تمكن فقط من النطق بها، فالسلك سوف يرفع من طرف أنفه، مذاق البطارية في فمه سيزول، الأضواء تنطفئ، وبإمكانه على الأقل أن ينام أخيراً. راح يبكي، دموعه بدأت تتساقط على بحر النسيان الشاسع، ذلك المذاق الملحي الطفيف لسائل النسيان جعل متحجرات الماضي تطفو إلى السطح. ظهرت ببطء مسلة من بحر النسيان، خرجت أشياء لا يعرف أنها دفنت تحت سطح البحر. على المسلة حفرت حروف هيروغليفية، صور غامضة لثلاثة فئران، سلسلة من المستطيلات، منحنيات متموجة، حروف يابانية أو صينية متناثرة، وجهاز عرض الأفلام، الأشياء التي نسيها صار يتذكرها الآن، ظهرت له في الغرفة التي يسمونها صالة العرض.

س. من كان يسميها صالة العرض؟

ج. رجال الشرطة.

س. ولماذا تسمى صالة العرض؟

ج. حين يزورنا الأجانب تصبح الغرفة صالة لعرض الأفلام.

س. وحين لا يزوركم الأجانب؟

ج. ...

س. وحين لا يزوركم الأجانب؟

ج. المحققون يبقون هناك ويقومون بالاستجواب.

س. كيف يفعل المحققون ذلك؟

ج. هناك طرق كثيرة.

س. أعطنا مثالاً واحداً؟

مثال واحد! هناك الكثير من الأمثلة لطرق الاستجواب بالإمكان الاختيار منها. مكالمة الهاتف، بطبيعة الحال، وركوب الطائرة، وطبل الماء، والطريقة العبقرية التي لا تترك أثراً وتتضمن استعمال الدبابيس، والورق، ومروحة كهربائية، والتدليك، والسحالي، والحروق الموضعية، والانقليس. ولا واحدة منها مذكورة في الكتاب. حتى كلود لا يعرف هذه الطرق، سبق أن مورست منذ فترات طويلة قبل أن ينتمي للمنظمة. (كان هذا يجري منذ زمن طويل، قال الرائد البدين. لقد نال ما يكفي. لا، قال سوني. إنه ينضح عرقاً الآن. بدأنا نصل إلى مكان ما!)

س. من كان في صالة العرض؟

ج. ثلاثة من رجال شرطة. والرائد، وكلود.

س. ومن غيرهم كان في صالة العرض؟

ج. أنا.

س. ومن غيرهم في صالة العرض؟

ج. ...

س. من غيرهم..

ج. العميلة الشيوعية.

س. ما الذي حدث لها؟

كيف له أن ينسى العميلة التي لديها الدليل على شكل قصاصة الورق في فمها؟

اسمه نفسه كان مكتوباً ضمن قائمة رجال الشرطة التي حاولت بلعها حين أمسكوا بها. أثناء مراقبتها في صالة العرض، كان متأكداً من أنها لا تعرف هويته الحقيقية، ورغم ذلك فهو الذي أرسل القائمة إلى مان. لكن العميلة، بما أنها من سعاة مان، فهي تعرف هويته. كانت تستلقي في ركن من الغرفة الواسعة، عارية على الطاولة المغطاة بملاءة بلاستيكية سوداء، اليدان والقدمان مربوطة بأعمدة الطاولة الأربعة. صالة العرض كانت مضاءة فقط بمصباح نيون فوق الرأس، وستائرها المعتمة ملمومة. تتوزع عشوائياً عند الجدران كراس معدنية رمادية قابلة للطي، بينما في مؤخرة الغرفة جهاز عرض أفلام من نوع سوني. على الجدار المقابل شاشة بيضاء جاهزة لاستقبال الوفد الأجنبي القادم، دبلوماسيون يابانيون بأكمام قصيرة وربطات عنق، يبحثون عن تأكيد بأن طائرات ب - 52 التي انطلقت من أوكيناوا لم تقصف المدنيين. الرائد البدين أعد لهم جولة إلى مركز إعادة التأهيل، وهنا، في قاعة العرض شاهدوا فيلماً من 16 ملم عن حملات الاغتيالات الشيوعية التي أرعبت قرى الحياة الجديدة. لقد نسي أن يرفع الشاشة من مكانها، وكانت الآن تشكل خلفية المشهد، من هناك كان كلود يراقب استجواب العميلة. كان الرائد البدين هو المسؤول، ولكنه تنازل عن دوره إلى ثلاثة رجال شرطة آخرين في صالة العرض، فجلس يشاهد على كرسي قابل للطي، وجهه يبدو كئيباً وينضح عرقاً. الزائرون الأجانب وحدهم استفادوا من تكييف الهواء.

س. أين كنت؟

ج. مع كلود.

س. ماذا كنت تفعل؟

ج. كنت أراقب.

س. ماذا رأيت؟

في وقتٍ لاحق، ربما في المستقبل المشرق، عرض المفوض على المريض شريطاً مسجلاً لإجاباته، رغم أنه لا يتذكر وجود جهاز للتسجيل. الكثير من الناس الذين سمعوا أصواتهم على الشريط يتصورون أنهم لا يشبهون أولئك الذين يتكلمون، وهذا شيء يثير الاستغراب، وهو ليس بالاستثناء من تلك الظاهرة. لكنه في هذه المرة عرف أن ما كان

مثيراً للاستغراب حقاً بشأن الاستماع إلى صوته مسجلاً على شريط أنه صار يدرك بصورة ضمنية أن ذلك الصوت الغريب أكثر مصداقية من صوته، لأن الإنسان لا بد أن يكون كياناً غريباً على الآخرين، ولا داعي للقول إنه غريب حتى على نفسه. بهذا الفهم المربك سمع الصوت الغريب يقول، رأيت كل شيء. كلود أخبرني أن هذا عمل حقير، وكان عليّ أن أرى بنفسي. قلت، هل هذا ضروري حقاً؟ قال كلود، تكلم مع الرائد. هو المسؤول. أنا مجرد مستشار. لذلك ذهبت إلى الرائد، الذي قال. لا شيء يمكنني القيام به. لا شيء! الجنرال يريد أن يعرف كيف حصلت على الأسماء، يريد أن يعرف الآن. لكن هذا خطأ، قلت. ألا تفهم. هذا الشيء لا ينبغي أن يحصل. جلس الرائد هناك ولم يقل شيئاً، أما كلود فوقف قرب جهاز العرض صامتاً أيضاً. فقط امنحوني بعض الوقت وحدي معها، قلت لرجال الشرطة الثلاثة. مع أن الأمريكان يسمون رجال شرطتنا الفئران البيض بسبب بدلاتهم النظامية البيضاء وقبعاتهم، لا أحد من هؤلاء الثلاثة كان يشبه الفأر. كانوا نماذج متواضعة للرجولة الوطنية، أجسامهم نحيفة والبشرة داكنة من ركوب سيارات الجيب المكشوفة والدراجات. كانت بدلاتهم نظامية من قمصان بيضاء وبناطيل زرقاء خفيفة، وقد خلعوا قبعاتهم العريضة. فقط امنحوني ساعتين معها، قلت. الشرطي الشاب كان يزمجر. أراد أن يكون الأول في الاعتداء عليها. احمر وجهي من الغضب والخجل، وقال الشرطي العجوز، الأمريكان لا يقلقون الآن بشأن هذا. لا تقلق أنت. خذ، اشرب الصودا. في الزاوية ثلاجة مليئة بالصودا، والشرطي العجوز الذي حمل الآن زجاجة مفتوحة بيده، دسها في يدي قبل أن يدلني على الكرسي المجاور للرائد. جلست وأصابع يدي تمسك الزجاجة المثلجة، وبدأت أحس بالخدر.

بعد أن انتهى الشرطي العجوز، أصبحت الغرفة هادئة إلا من نحيب العميلة وهسيس السجائر التي يدخنها الرجلان الآخران. الشرطي العجوز لمحني وأنا أنظر إليه وهو يلبس قميصه، ارتعد فجأة. شخصٌ ما سوف يفعل هذا. فلماذا لا نفعله نحن؟ الشرطي الشاب قال، لا تضيع وقتك في الكلام معه. هو لم يتمكن من إعطائها العلاج على أي حال. انظر، لم يلمس حتى زجاجة الصودا. ذلك صحيح، لقد نسيت زجاجتي بيدي. لم تعد باردة. إذا لم تشربها، قال الشرطي متوسط العمر، أعطها لي. لم أتحرك ومشى الشرطي المنهك ثلاث خطوات نحوي وأمسك الزجاجة. تناول رشفة وظهرت ملامح غريبة على وجهه. كم أكره الصودا الدافئة! قال باشمئزاز وأرجع لي الزجاجة، لكنني كنت أنظر فقط

إلى الفراغ، ذهني متبلد مثل أصابعي. انتظر لحظة، قال الشرطي العجوز. لا داعي لإجبار الرجل على شرب الصودا الدافئة حين يحتاج المرء إلى تنظيف المكان جيداً. ربّت على ركبة العميلة، وحين لمسها، ومع تلك الكلمات، كأنها عادت للحياة، أرجعت رأسها ونظرت إلينا جميعاً نظرة كراهية عميقة تكفي لتحويل كل رجل في الغرفة إلى نفايات ودخان. لكن لا شيء حدث لنا. بقينا ننبض بالحياة والدماء الحارة، وهكذا فعلت هي عندما ضحك الشرطي متوسط العمر، ووضع إبهامه على عنق الزجاجة وهزها بوحشية. إنها فكرة جيدة، قال. لكنها ستكون لزجة!

نعم، الذكرى لزجة أيضاً. لا بد أنني دست على شيء من الصودا، رغم أن رجال الشرطة بعد ذلك رشوا جرادل من الماء على العميلة والطاولة، ثم مسحوا الأرضية. (أنا الذي أمرتهم بذلك، قال الرائد البدين. لم يكونوا سعداء بتنظيف قذارتهم، يمكنني أن أؤكد لك هذا). أما العميلة، فتركت على الطاولة، لم تعد تصرخ أو حتى تبكي لكنها صمتت، أغمضت عينيها مرة أخرى، والرأس تدلى للوراء، والظهر مقوس. بعد أن انتهى رجال الشرطة منها، تركوا الزجاجة الفارغة في الداخل، مدفونة إلى حافة عنقها. يمكنني الرؤية من خلالها، قال الشرطي متوسط العمر، وانحنى لينظر من خلال قعر الزجاجة باهتمام طبيب بالأمراض النسائية. دعني أنظر، قال الشرطي الشاب، وهو يزيحه جانباً. لا أرى شيئاً، قال مشتكياً. إنني أمزح أيها الغبي! صاح الشرطي العجوز. مزحة! نعم، مزحة قبيحة جداً، تمثيلية هزلية سخيفة يفهمها المرء في أي لغة، كما فهمها كلود. بينما كان رجال الشرطة يتناوبون في الفحص، اقترب مني وقال، هل تعرف؟ أنا لم أعلمهم كيف يقومون بذلك. الزجاجة، هذا ما أعنيه. الفكرة من وحي خيالهم.

كانوا من الطلاب المجتهدين، مثلي تماماً. تعلموا درسهم جيداً، وتعلمت أنا، لذلك لو سمحت فقط أن تطفئ الأضواء، لو سمحت أوقف الهاتف، لو سمحت توقف عن مناداتي، لو تتذكر أننا كنا في يوم من الأيام وربما ما نزال من أفضل الأصدقاء، إذا استطعت أن ترى أنني لم يبق لدي شيء لأعترف به، إذا أخذت سفينة التاريخ مساراً مختلفاً، إذا أصبحت أنا محاسباً، إذا وقعت في الحب مع فتاة، إذا كنت منتصراً أكثر في الحب، إذا كانت أمي أقلّ من مستوى الأمهات، إذا ذهب أبي لإنقاذ الأرواح في الجزائر بدلاً من إنقاذها هنا، إذا لم يحتج القائد لإصلاحي، إذا لم يشك أبناء وطني بي، إذا نظروا إلي كواحد

منهم، إذا نسينا كراهيتنا، إذا تجاهلنا الانتقام، إذا اعترفنا بأننا دمى يلعب بها الآخرون، إذا لم يقاتل بعضنا بعضاً، إذا لم نطلق على أنفسنا تسميات مثل قوميين أو شيوعيين أو رأسماليين أو واقعيين، إذا لم تحرق عظامنا للتخلص منها، إذا لم يأت الأمريكان لإنقاذنا من أنفسنا، إذا امتنعنا عن شراء ما يبيعون، إذا توقف السوفييت عن تسميتنا بالرفاق، إذا لم يسع ماو ليفعل الشيء نفسه، إذا لم يعلمنا اليابانيون تفوق العرق الأصفر، إذا لم يحاول الفرنسيون جعلنا متحضرين، إذا لم يكن هوشي مينه ديالكتيكياً وكارل ماركس لم يكن تحليلياً، إذا لم تمسكنا اليد غير المرئية للسوق من القفا، إذا دحر البريطانيون المتمردين في العالم الجديد، إذا قال المواطنون ببساطة لا للجحيم وهم يرون الرجل الأبيض لأول مرة، إذا لم يختلف أباطرتنا وأفنديتنا مع أنفسهم، إذا لم يحكمنا الصينيون لألف سنة، إذا استخدموا البارود لأغراض أكثر من الألعاب النارية، إذا لم يعش بوذا أبداً، إذا لم يكتب الكتاب المقدس ويسوع لم يضحي بحياته، إذا بقي آدم وحواء يمرحان في جنة عدن، إذا لم يأت الملك التنين والملكة الخرافية بنا إلى الأرض، إذا لم يفترق الاثنان منهما، إذا لم يتبع خمسون طفلاً من أطفالهما أمهما الخرافية إلى الجبال، إذا لم يتبع خمسون طفلاً آخرون أباهما التنين إلى البحر، إذا انتفض أبو الهول الأسطوري من رماده بدلاً من أن يسقط ببساطة ويحترق في أريافنا، إذا لم يخلق الضوء ولا الكلمة، إذا لم تفترق السماء والأرض، إذا لم يخلق التاريخ، سواء كمهزلة أو تراجيديا، إذا أفعوان اللغة لم تعضنا بنابها، إذا لم أولد أنا، إذا أمي لم تجعلني مصاباً بانفصام الشخصية، إذا أنت لم تحتج إلى مراجعات، إذا لم أشاهد المزيد من الرؤى، أرجوكم، أرجوكم ألا يمكنكم فقط أن تتركوني أنام؟

الفصل الثاني والعشرون

بطبيعة الحال لا يمكنك النوم. الثوار يبقون مؤرقين، يخافون من كابوس التاريخ إذا ناموا، تزعجهم أمراض العالم فلا يمكن أن يكونوا إلا يقظين، هكذا قال القائد. كان يتكلم وأنا أستلقي على فراشي، عينة على شريحة زجاجية تحت المجهر، ومع الصوت الخفيف الذي جاء من درفات النافذة أدركت أن تجربة الطبيب نجحت. كنت ممزقاً، الجسم المادي معذب في الحضيض، والوعي هادئ يطفو فوقي، وراء السقف المضيء، يضرب بجناحيه بعيداً عن آلامي من خلال آلية جايروسكوبية غير مرئية. من هذا الارتفاع رأيت التشريح الذي أخضع له في الواقع مثيراً للاهتمام، يترك المادة المترجرجة لجسمي تلمع تحت عقل شرير. من الناحية الذاتية كنت أخضع للتعذيب، أو هكذا يدعي جسمي، ولكن من الناحية الموضوعية، فأنا أتلقى دروساً، أو هكذا فهم عقلي. لا شيء مختلف بين العقاب وأصول التعليم على كل حال، لكنها مسألة وجهة نظر، الطريقة التي ينظر بها المرء إلى نفسه كسجين أو كطالب، أو، في هذه الحالة، سجين وطالب.

لهذا، وأنا أخضع وأرتفع وأنخفض في آن واحد، كنت خارج استيعاب حتى سوني والرائد البدين، إذ بقيا على حافات الأرق المزمن، يحملقان من فوق أكتاف الطبيب، القائد والمفوض وهم يقفون حولي، لا يلبسون بدلات المختبر، والقفازات، ونظارات واقية، ولكن أزياء رسمية صفراء عليها رتب حمراء، والمسدسات تتدلى من أردافهم. بين أولئك الذين في الأسفل من البشر والأشباح، كنت أنا الروح الخارقة لنواميس الطبيعة

والقادرة على التنبؤ بالمستقبل. على هذا النحو المفكك، رأيت القائد ينحني ليمد يده باتجاه الذات الدنيوية، السبابة تمتد ببطء حتى ضغطت برفق على حدقة عيني المفتوحة، لمسة جعلت جسمي المسكين ينتفض من الأعماق.

نفسي: أرجوكم، دعوني أنام.

القائد: يمكنك أن تنام إذا اقتنعت باعترافاتك.

نفسي: لكني لم أفعل شيئاً!

القائد: تماماً.

نفسي: الأضواء ساطعة جداً. لو سمحت -

القائد: العالم شاهد ما حدث لبلادنا وأغلبهم لم يفعل شيئاً. ليس هذا فقط - كانوا يستمتعون كثيراً. وأنت لست بالاستثناء.

نفسي: لقد تكلمت، ألم أفعل ذلك؟ هل من خطأي أن لم يسمعني أحد؟

القائد: لا تختلق الأعذار! نحن لم نتذمر. نحن جميعاً على استعداد لأن نكون من الشهداء. الحظ وحده جعل الطبيب، المفوض، وأنا نفسي نبقى أحياء. أنت ببساطة لم تكن على استعداد للتضحية بنفسك لإنقاذ العميلة، مع أنها كانت على استعداد للتضحية بحياتها لإنقاذ حياة المفوض.

نفسي: لا، أنا -

القائد والمفوض والطبيب (معاً): اعترف بالأمر!

رأيت نفسي أعترف إذن. سمعت نفسي تعترف بأني لم أكن أتعرض للعقاب أو إعادة التأهيل للأخطاء التي ارتكبتها، ولكني اعترفت بالأشياء التي لم أفعلها. بكيت وصحت من غير خجل نتيجة العار الذي أحسست به. كنت مذنباً بجريمة عدم فعل شيء. الرجل الذي يقام عليه الحد لأنه لم يفعل شيئاً! بكيت وصحت؛ كنت أزمجر، عاصفة من المشاعر جعلت نوافذ روحي ترتعش وتطقطق. منظر وصوت انحطاطي كان مثيراً بحيث أن كل شخص حول نظره عن الكتلة البائسة التي تحولت إليها، باستثناء القائد، والمفوض، وأنا.

المفوض: هل اكتفيت؟

القائد: إذن الرجل اعترف بأنه لم يفعل شيئاً. لكن ماذا عن الرفيق من بروناي وصانع الساعات؟

المفوض: لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً لإنقاذ الرفيق من بروناي وصانع الساعات. أما عن العميلة، فقد عاشت.

القائد: كانت عاجزة عن المشي حين حررناها.

المفوض: ربما كانت محطمة جسدياً، وليس روحياً.

الطبيب: ما الذي حدث لرجال الشرطة هؤلاء؟

المفوض: عثرت عليهم.

القائد: دفعوا الثمن. أليس من الواجب أن يدفع الثمن هو أيضاً؟

المفوض: نعم، ولكن ينبغي أيضاً أن يتلقى مكافأة على الأرواح التي أزهقها.

القائد: سوني والرائد؟ حياتهما البائسة لا تساوي العذاب الذي تعرضت له العميلة.

المفوض: ولكن هل حياة أبيه تساوي ذلك؟

أبي؟ ما هذا؟ حتى سوني والرائد البدين أعجبهما التقييم القاسي لحياتهما وموتهما، توقفا عن الاستفزاز لكي يستمعا.

القائد: ما الذي فعله لأبيه؟

المفوض: اسأله بنفسك.

القائد: أنت! انظر إلي! ما الذي فعلته لأبيك؟

نفسي: لم أفعل شيئاً لأبي!

القائد والمفوض والطبيب (معاً): اعترف بالأمر!

وكانت نفسي المترجرجة مثل بيضة مكسورة تنظر من الأعلى وتراقب نحيبي، لم

أعرف ما إذا كان ينبغي أن أضحك أم أبكي في تعاطف معها. ألا أتذكر ما كتبته إلى مان عن أبي. أتمنى لو كان ميتاً.

نفسي: لكنني لم أقصد ذلك!

القائد: كن صادقاً مع نفسك.

نفسي: لم أقصد لك أن تفعل ذلك!

القائد: بطبيعة الحال أنت كنت تقصد! من تظن أنك كنت تكتب إليه؟

كنت أكتب إلى الإنسان الثوري الذي يرأس لجنة قوية والذي يعرف، حتى في ذلك الوقت، أنه ربما يصبح ذات يوم مفوضاً، أكتب إلى أحد الكوادر السياسية الذي تعلم مسبقاً المرونة في تغيير أرواح وعقول البشر، أكتب إلى صديق مستعد لأن يفعل أي شيء أطلبه منه، أكتب إلى كاتب يعرف قيمة العبارة وثقل الكلمة، أكتب إلى أخ يعرف ما أريده أكثر مني أنا.

القائد والمفوض والطبيب (معاً): ماذا فعلت؟

نفسي: كم تمنيت له الموت!

مسح القائد على ذقنه ونظر بارتياب إلى الطبيب الذي بدا مستهجناً. لا يفعل الطبيب شيئاً سوى أنه يفتح الأجساد والعقول؛ وليس مسؤولاً عما يجده هناك.

الطبيب: كيف مات أبوه؟

المفوض: رصاصة في الرأس، وهو يستمع إلى اعترافات قاتله.

القائد: لن أقبل أن تلفق هذه القصة لإنقاذه.

المفوض: اسأل العميلة. لقد رتبت لموت الأب.

نظر القائد إلى الأسفل باتجاهي. لو كنت مذنباً بعدم فعل شيء، ألا أستحق أيضاً أن أحصل على شيء؟ في هذه الحالة، موت أبي. هذا الأب، في نظر القائد الإلحادي، يعمل على تخدير الناس، المتحدث باسم الرب أمام الملايين من الناس ذوي البشرة السمراء الذين ضحوا بحياتهم، يفترض من أجل خلاص أرواحهم، بينما هناك صليب محترق يضيء

طريقهم الشاق نحو الفردوس. موته لم يكن جريمة ولكنه حكم عادل، هذا كل ما أردت كتابته.

القائد: سوف أفكر في الأمر.

استدار القائد وخرج، وتبعه الطبيب بإذعان، تاركاً سوني والرائد البدين يراقبان بينما استقر المفوض ببطء على الكرسي وهو متجهم.

المفوض: يا لنا من متضادين!

نفسي: أطفئوا الأضواء. لا أستطيع الرؤية.

المفوض: ما الشيء الأكثر قيمة من الاستقلال والحرية؟

نفسي: السعادة؟

المفوض: ما الشيء الأكثر قيمة من الاستقلال والحرية؟

نفسي: الحب؟

المفوض: ما الشيء الأكثر قيمة من الاستقلال والحرية؟

نفسي: لا أعرف!

المفوض: ما الشيء الأكثر قيمة من الاستقلال والحرية؟

نفسي: أتمنى لو كنتُ ميتاً!

هناك، قلتها، وأنا أبكي وأصرخ. الآن أخيراً عرفت الشيء الذي أريده لنفسي، الشيء الذي يريده الكثير من الناس لي. سوني والرائد البدين صفقا تأييداً لي، بينما سحب المفوض مسدسه. أخيراً! الموت يؤلم للحظة، وتلك ليست فكرة سيئة عندما يفكر الإنسان إلى أي مدى، وإلى أي مدة، يمكن أن تكون الحياة مؤلمة. صوت الرصاصة وهي توضع في حجرتها كان واضحاً كأنه جرس كنيسة أبي، وكنا أنا وأمي نسمعه من كوخنا صباح كل يوم أحد. نظرت من فوق على نفسي، فرأيت الطفل في الرجل والرجل في الطفل. لطالما كنت منقسماً على نفسي، رغم أن ذلك جزئياً خطأي أنا. بينما اخترت أن أعيش حياتين وأن أكون رجلاً بعقلين، من الصعب أن لا أفعل ذلك، إذا نظرنا إلى أن الناس كانوا دائماً

يسمونني ابن الحرام. بلادنا نفسها ملعونة، تحولت إلى بنت حرام، انقسمت إلى شمال وجنوب، كما لو أننا اخترنا الانقسام والموت في حربنا غير الأهلية، ذلك صحيح جزئياً فقط. نحن لم نختر أن يخدعنا الفرنسيون، أو يقسموا بلادنا إلى إقليم غير مقدس في الشمال، والوسط، والجنوب، أو نلجأ إلى الدول العظمى من رأسمالية وشيوعية لتعمل المزيد من الانقسامات، ثم أعطونا أدواراً كجيوش في شطرنج الحرب الباردة التي تلعب في غرف مكيفة الهواء بين رجال بيض يلبسون البدلات والأكاذيب. لا، تماماً كما كان جيلي المقهور مقسماً قبل أن يولد، هكذا وجدت نفسي منقسماً منذ الولادة، أتيت إلى عالم ما بعد الولادة حيث بالكاد يتقبلني أي شخص على ما أنا عليه، لكن ذلك دفعني دائماً للاختيار بين الجانبين اللذين أنتمي إليهما. لم يكن هذا ببساطة أمراً صعباً - لا، كان مستحيلاً حقاً، فكيف لي أن أختار نفسي ضد نفسي؟ كيف لي أن أكون شيئاً آخر غير أنا ونفسي؟ الآن صديقي سوف يحررني من هذا العالم الصغير بشعبه الساذج، الرعاع الذين يعاملون إنساناً بعقلين ووجهين على أنه شاذ، فقط يريد جواباً واحداً على أي سؤال.

لكن لحظة - ماذا كان يفعل؟ وضع المسدس على الأرض وانحنى بجانبي، فتح الكيس الذي قرب يدي اليمنى، ثم فتح الحبل الذي يربط الكيس. رأيت نفسي أرفع يدي أمام عيني، عليها ندبة حمراء من عهد أخوتنا. من خلال هاتين العينين الخارقتين ومن خلال نظرتي الخارقة من فوق، رأيت صديقي يضع مسدس توكاريف في يدي. السوفييت وضعوا تصميم المسدس على نمط المسدس الأمريكي كولت، بينما وزنه لم يكن غير مألوف، لم أتمكن من إمساك المسدس بتوازن، مما اضطر صديقي لأن يلف أصابعي حول القبضة.

المفوض: أنت الوحيد الذي يمكنه أن يفعل هذا من أجلي. هل تفعل؟

وهنا انحنى ووضع فوهة المسدس بكاتم الصوت بين عينيه، ويداه تثبتان يدي.

نفسي: لماذا تفعل هذا؟

بكيت وأنا أسأل. هو أيضاً بكى، سقطت الدموع على وجهه الغائب البشع الذي لم أره من هذا القرب منذ سنوات. أين ذلك الأخ من زمن شبابي، اختفى من كل مكان باستثناء ذاكرتي؟ وجهه الجاد بقي هناك، جاداً ومثالياً، بعظام خدين بارزين، وذقن، وشفتين ضيقتين، وأنف أرستقراطي نحيف، وحاجبين عريضين يلمحان إلى ذكاء قوي

أخفت قوته أي أثر للشعر. كل ما بقي لأتعرف عليه هما العينان، بقيتا على قيد الحياة تترقرقان بالدموع، وخشونة صوته.

المفوض: أنا أبكي لأني لا أستطيع تحمل رؤيتك تتأذى هكذا. لكني لا أستطيع إنقاذك إلا إذا عرضتك للتعذيب. القائد لن يرضى بأي شيء آخر.

عندها ضحكت، مع أن الجسم الذي على الفراش فقط ارتعش.

نفسي: كيف ينقذني هذا؟

ابتسم من وراء ستارة دموعه. تعرفت على الابتسامة أيضاً، أكثر الابتسامات بياضاً، تناسب ابن طبيب أسنان. ما تغير ليس الابتسامة ولكن الوجه، أو غياب الوجه بحيث أن هذه الابتسامة الشاحبة طفت في الفراغ، كأنها تكشيرة مرعبة لقطة من شيشاير في إنكلترا.

المفوض: نحن في وضع مستحيل. القائد سوف يتركك ترحل فقط عندما تسترد نفسك. وماذا عن بون؟ حتى إذا استطاع المغادرة، ماذا ستفعلان أنتما معاً؟

نفسي: إذا لم يتمكن بون من المغادرة.. فلن أذهب.

المفوض: سوف تموت هنا.

ضغط سبطانة المسدس على رأسه بقوة أكبر.

المفوض: أطلق علي النار أولاً. ليس بسبب وجهي القبيح. لن أموت من أجل وجهي. سوف أنفي نفسي هنا حتى لا ترى عائلتي هذا الشيء من جديد. لكني سأعيش. سوف أستمر في الكفاح لإعادة تأهيل كل أولئك الذين صدقوا بالأشياء الخاطئة، لأني المفوض هنا!

لم أعد أمثل جسدي ولا نفسي، كنت مجرد مسدس، ومن خلال فولاذه جاءت ذبذبات كلماته، تشير إلى الوصول الوشيك لقاطرة سوف تسحقنا معاً.

المفوض: إنني المفوض هنا، لكن أي نوع من مدارس التأهيل أشرف عليها؟ مدرسة أنت فيها، دون غيرك، يعاد تأهيلك. أنت هنا ليس لأنك لم تفعل شيئاً. وإنما لأنك مثقف

يعاد تأهيلك. ولكن ما الذي تعلمته؟

نفسي: كنت أراقب ولا أفعل شيئاً!

المفوض: سوف أخبرك بشيء لا يمكنك العثور عليه في أي كتاب. في كل بلدة، وقرية، ومدرسة، الكوادر تعطي المحاضرات نفسها. إنهم لا يؤكدون لهؤلاء المواطنين أهمية إعادة تأهيل نوايانا الطيبة. لكن اللجان والمفوضين لا يبالون في الواقع بإعادة تأهيل هؤلاء السجناء. الكل يعرفون لكن لا أحد يقول هذا بصوت مسموع. كل الثرثرة التي تثيرها الكوادر تخفي حقيقة فظيعة..

نفسي: كنت أتمنى موت أبي!

المفوض: الآن بعد أن أصبحنا أقوياء، لا نحتاج الفرنسيين أو الأمريكان لخداعنا مرة أخرى. يمكننا الاهتمام بأنفسنا.

كان الوهج فوق جسمي يعمي بصري. لم أعد متأكداً مما إذا كنت أرى كل شيء أم لا شيء، تحت حرارة الأضواء كانت راحة يدي ملساء ورطبة من العرق. قبضتي على المسدس تنزلق، لكن يدَي المفوض تثبتان السبطانة في مكانها.

المفوض: إذا عرف أي شخص غيرك أنني تكلمت بأشياء ينبغي السكوت عنها، سوف أكون أنا من يحتاج إلى إعادة تأهيل. ليست إعادة التأهيل ما أخاف منه. التعليم هو الذي يرعبني. كيف يمكن لمعلم أن يلقن شيئاً لا يؤمن به؟ كيف أعيش وأنا أراك بهذه الحال؟ لا أستطيع. الآن اضغط على الزناد.

أعتقد أنني قلت إنني أفضل إطلاق النار على نفسي أولاً، لكني لم أسمع نفسي، وعندما حاولت سحب المسدس عن رأسه وتحويله إلى رأسي، لم تسعفني القوة. تلك العيون لن تمل من النظر لي، الآن هي يابسة كالعظام، ومن مكان عميق في داخله جاءت دمدمة. ثم تفجرت الدمدمة فجأة، ورأيته يضحك. ما الذي يضحكك؟ هذه الكوميديا السوداء؟ لا، إنها ثقيلة جداً. الغرفة المضاءة تسمح فقط بكوميديا خفيفة، كوميديا بيضاء يمكن للمرء فيها أن يموت من الضحك، والسبب الحقيقي لا علاقة له بالضحك لمدة طويلة. توقف عن الضحك وترك يدي، ذراعي سقطت إلى جانبي والمسدس يطقطق على الأرضية الإسمنتية. خلف المفوض، سوني والرائد البدين يحملقان باشتياق في مسدس

توكاريف. كل واحد منهما كان سعيداً لأن يلتقطه ويطلق النار عليّ لو استطاع، لكنهما لم يعودا يمتلكان أجسادهما. أما المفوض وأنا، لدينا أجساد لكننا لا نستطيع إطلاق النار، وربما ذلك جعل المفوض يضحك. فراغ وجهه ما يزال يلوح لي، سعادته مرت بسرعة بحيث لم أكن واثقاً من أنني سمعت شيئاً محدداً. تصورت أنني رأيت التعاسة بكل صورها في ذلك الوجه الفارغ، لكني لست متأكداً. العيون والأسنان وحدها تعبر عن أي عاطفة، لم يعد يبتسم ولا يبكي.

المفوض: أعتذر. كان ذلك عملاً أنانياً وضعفاً مني. لو أنني مت، فأنت ستموت، ثم بون يموت. القائد لا يمكن أن ينتظر حتى يسحبه أمام فرقة الإعدام. على الأقل الآن يمكنك إنقاذ نفسك وصديقنا أيضاً، إذا لم تنقذني هذا شيء يمكنني تحمله.

نفسي: أرجوك، يمكننا التكلم عن هذا بعد أن أنام؟

المفوض: أولاً أجب على سؤالي.

نفسي: ولكن لماذا؟

أرجع المفوض مسدسه إلى خصره. ثم ربط يدي المتحررتين مرة أخرى ووقف. راح ينظر لي من ارتفاع شاهق، ربما بسبب زاوية النظر القصيرة، لكني رأيت في غياب وجهه شيئاً آخر إلى جانب الذعر.. ظلاً باهتاً يلقيه الحزن، رغم أنه ربما كان مجرد تأثير بصري خلقه الوهج خلف رأسه.

المفوض: يا صديقي، ربما يتركك القائد تذهب لأنك تمنيت أن يموت أبوك، لكني سوف أتركك تذهب عندما تتمكن من الإجابة على سؤال. تذكر فقط، يا أخي، أنني أفعل هذا من أجلك.

رفع يده لي مودعاً، وعلى راحة يده لاحت الندبة الحمراء لعهد أخوتنا. وبذلك تركني. تلك أكثر الكلمات خطورة يمكن للمرء سماعها، قال سوني وكان يجلس على الكرسي الشاغر. وانضم إليه الرائد البدين، دفعه جانباً لكي يجلس معه. من أجل صالحك ربما تعني شيئاً سيئاً، قال. كأننا نقف في صف، مكبرات الصوت المعلقة عالياً في الزوايا تقعقع وتهمهم، هي الوحيدة التي لاحظتها حين شغل المفوض جهاز التسجيل فسمعت صوتي الغريب. السؤال عما ينبغي أن يفعل بي أجيب عنه حين بدأ شخص ما يصرخ، وبينما كان

سوني والرائد البدين يصفقان فوق الأذنين، لم أستطع أن أفعل مثلهما. لكن حتى بأذنين محميتين، سوني والرائد لم يتحملا هذا الصراخ لأكثر من دقيقة، بكاء طفل يتعذب، وفي طرفة عين، هما أيضاً اختفيا.

في مكانٍ ما كان طفل يصرخ، شاركته معاناته، وهو لا يحتاج لأكثر من هذا. رأيت نفسي أجبر عيني على الانغلاق، وبدا كما لو أنني أستطيع أيضاً أن أجبر أذني على الانغلاق. كان من المستحيل التفكير مع وجود الصراخ في غرفة الامتحان هذه - من المستحيل التفكير إلى أن يتوقف الطفل عن الصراخ، كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة. للحظة فكرت في أنه، أو أنها، معه شخص يهدهده، لكن في ذلك الوقت عاد الطفل إلى الصراخ من جديد ولأول مرة منذ فترة طويلة أردت شيئاً غير النوم. أردت الصمت. شخص ما يصرخ ولن يتوقف، صرخات قوية تخرج من القلب، لا تنتهي لوحش صغير أحادي العقل لا يبالي بأمه، أو بي، أو بنفسي أو بأي شخص يصغي لصراخه. أوه، أرجوكم - سمعت نفسي تنوح بصوت مسموع - توقفوا! حتى الأشباح تخاف وتهرب، فلا مجال في هذه الغرفة لأي شيء غير الضوضاء المشمئزة لهذا الطفل المجنون الذي يقتلني ببطء.

ثم، جاءت صعقة أخرى، وتوقف الصراخ. شريط! إنني أستمع إلى شريط. لا طفل يتعذب في زنزانة مجاورة، صرخاته تخترق زنزانتي. إنه مجرد شريط مسجل، ولبضع لحظات كنت منزعجاً من الضوء الذي لا يتوقف والحرارة وصعقة السلك الكهربائي المغلف بالمطاط على طرف إصبعي الصغير. لكني عندئذ سمعت الصعقة ثانية، وتحفز جسمي من التوقعات. شخص يصرخ مرة أخرى. يصرخ عالياً بحيث فقدت الإحساس بنفسي، فقدت مسار الزمن. الزمن لم يعد يجري باستقامة مثل سكة القطار؛ الزمن لم يعد يدور على عجلة؛ الزمن لم يعد يزحف تحت ظهري؛ الزمن يلف كالأنشوطة بلا حدود، شريط كاسيت يتكرر بلا نهاية؛ الزمن يعوي في أذني، يصرخ متضاحكاً من فكرة أننا نسيطر عليه بساعات الرسغ، وبأجهزة الإنذار، بالثورات، وبالتاريخ. نحن، جميعاً، نجري خارج مسار الزمن، باستثناء ذلك الطفل المزعج. الطفل الذي يصرخ لديه كل الزمن المتوفر في العالم، ومما يثير السخرية أن الطفل لا يعرف.

أرجوكم - سمعت نفسي مرة أخرى - توقفوا! سوف أفعل أي شيء تريدونه مني! كيف يحصل أن أكثر المخلوقات ضعفاً في العالم يمكن أن يكون أكثرها قوة؟ هل كنت

أصرخ هكذا في وجه أمي؟ إذا كان ذلك صحيحاً، سامحيني، ماما! إذا كنت أصرخ، ليس بسببك أنت. فأنا شخص واحد وشخصان في الوقت نفسه، خلقت من الحيامن والبيض، إذا كنت اصرخ، فالسبب تلك الجينات الزرقاء من أبي. أرى الأمر الآن، تلك اللحظة التي كونت أصلي، البهلوان الصيني للزمن ينحني بحركة صعبة على ظهره بحيث أرى حشداً من الحيامن الخرساء تخترق رحم أمي، كائنات من الذكور، جماعة من البدو المتلفعين بالعمامات ينوون بإصرار اختراق السور العظيم لبيضة أمي. من هذا الغزو، اللاشيء الذي كنت عليه أصبح شيئاً هو أنا. شخص يصرخ وهو ليس الطفل. خليتي انقسمت، وانقسمت أكثر، وانقسمت مرات ومرات، إلى أن تحولت إلى ملايين الخلايا، تتضاعف وتتضاعف، أصبحت بلادي، أمتي، الإمبراطور والدكتاتور الذي يتحكم بالحشود وبنفسي أنا، يتحكم بذهن أمي غير المشتت. شخص يصرخ وهو العميلة الشيوعية. وجدت نفسي محشوراً داخل حوض الأسماك في جسم أمي، لا أعرف شيئاً عن الاستقلال والحرية، أرى كل حواسي باستثناء حاسة البصر بإزاء تجربة غريبة على الجميع، أتحول إلى كيان بشري آخر. كنت دمية داخل دمية، منوماً مغناطيسياً من خلال بندول يطقطق بانتظام شامل، نبضات قلب أمي قوية وثابتة. شخص يصرخ وهي أمي. صوتها أول صوت سمعته حين خرج رأسي في البداية، خرج إلى غرفة رطبة ودافئة مثل الرحم، أمسكتني يدٌ متغضنة للقابلة الكريهة المنظر التي ستخبرني، بعد سنوات كيف أنها استعملت أظافرها الحادة في تقطيع النسيج المشدود على لساني، الأفضل لي أن أرضع وأتكلم. تلك المرأة أيضاً أخبرتني، وهي تضحك بمرح، كيف أن أمي كانت تدفعني بقوة بحيث لم تنبذني أنا فقط بل الفضلات من أحشائها، ألقت بي على سواحل عالم جديد غريب وسط دفق من الدماء والفضلات. شخص ما يصرخ لا أعرف من يكون. القيد قطع عني وتحولت نفسي العارية، الملوثة، الأرجوانية باتجاه نبضات الضوء التي كشفت عالماً من الظلال والأشكال الكالحة التي تتحدث بلسان أمي، بلغة أجنبية. شخص ما يصرخ وكنت أعرف من يكون. إنه أنا، أصرخ وأنطق الكلمة الوحيدة التي تتدلى أمامي منذ طرح السؤال لأول مرة - لا شيء - الجواب الذي لم أتمكن من رؤيته ولا سماعه حتى الآن - لا شيء! - الجواب الذي صرختُ به مرة بعد مرة - لا شيء! - لأني أخيراً وصلت إلى حالة التنوير.

الفصل الثالث والعشرون

مع تلك الكلمة أكملتُ إعادة تأهيلي. كل ما تبقى أن أقوله كيف تمكنت من لصق أجزاء نفسي معاً، كيف وجدت نفسي في المكان الذي أنا فيه الآن، أتهيأ لرحلة عاجلة عن وطني. مثل كل شيء آخر له أهمية في حياتي، كلا المهمتين ليست سهلة. الرحيل على وجه التحديد ليس الشيء الذي أريد فعله، لكن يجب أن أفعل ذلك. أي شيء في الحياة بقي لي، أو بقي لأي خريج من جامعة إعادة التأهيل؟ لا مكان لنا في هذا المجتمع الثوري، حتى أولئك الذين ينظرون لأنفسهم كثوريين. نحن عاجزون عن تمثيل أنفسنا هنا، وهذه حقيقة تؤلم أكثر من أي شيء فعلوه بي خلال الامتحان. الألم ينتهي لكن معرفة الحقيقة لن تنتهي، على الأقل إلى أن يتعفن الدماغ ويزول - ومتى يحدث ذلك لي، أنا الإنسان الذي لديه عقلان؟

نهاية الألم، على الأقل، بدأت حين قلت تلك الكلمة. إذا تأملت فالجواب يبدو بسيطاً. إذن لماذا احتجت إلى وقت طويل للفهم؟ لماذا كان ينبغي تثقيفي ويعاد تأهيلي لعدة سنوات، ومثل هذا الثمن الباهظ الذي يستقطع من دافع الضرائب الأمريكي والمجتمع الفيتنامي، ولا حاجة لذكر الضرر البالغ الذي يلحق بنفسي، لكي أرى على الأقل تلك الكلمة التي كانت موجودة منذ البداية؟ الجواب يبدو عبثياً إلى درجة أنني الآن، بعد شهور وفي الأمان المؤقت الذي يوفره منزل الملاح، أجد نفسي أضحك حتى وأنا أعيد قراءة هذا المشهد لرحلة التنوير التي مررت بها، والتي تطورت - هل تطورت؟ - من أحلام إلى ضحكات. بطبيعة الحال كنت ما أزال أصرخ لما جاء المفوض ليطفئ الأضواء ويسكت الأصوات. كنت مستمراً في الصراخ وهو يفك قيودي ويعانقني، احتضن رأسي

وضغطه على صدره حتى سكتت. اهدأ، اهدأ، قال في غرفة الامتحان المظلمة، الصامتة في كل شيء إلا من نحيبي. الآن أنت تعرف ما أعرفه أنا، أليس كذلك؟ نعم، قلت، وكنت أنتحب. فهمت. فهمت!

ما الذي فهمته؟ المزحة. اللاشيء هي الكلمة الثاقبة فيها، وإذا كان جزء مني قد تعرض للأذى من الصعقات الكهربائية - لأني لم أفعل شيئاً، لا أكثر ولا أقلّ من ذلك! - فالجزء الآخر مني كان يفكر في أنه سعيد. ذلك هو السبب، وأنا أرتجف في غرفة الامتحان المظلمة، تحول نحيبي وبكائي إلى ضحك. كنت أضحك بقوة بحيث جاء الحارس ذو الوجه الطفولي والقائد للتحقق من سبب الضوضاء. ما الذي يضحكك؟ قال القائد. لا شيء! صحت. كنت محطماً. وأخيراً تكلمت. ألم تفهم بعد؟ صحت. الجواب هو: لا شيء! لا شيء، لا شيء، لا شيء!

القائد وحده ربما فهم قصدي. ارتبك من سلوكي الغريب، وقال مخاطباً الطبيب، انظر ماذا فعلت به. لقد فقد عقله. لم يكن يبدي اهتماماً بي أكثر من اهتمامه بصحة السجناء في المعسكر، وكيف يهتم بإنسان مجنون لا يكف عن قول «لا شيء»! ذلك شيء سيء للمعنويات في تصوره. كنت مجنوناً إلى درجة أن تطلب الأمر مني وقتاً لفهم اللاشيء، رغم أن فشلي، في إدراك متأخر، كان محتوماً. الطالب المجتهد لا يفهم اللاشيء؛ فقط المهرج الطبقي، المعتوه الذي لا يفهمه أحد، الغبي الشرير، الممازح باستمرار يمكن أن يفهم ذلك. ولكن مثل هذا الإدراك لا يمكن أن يعفيني من التطلع إلى شيء واضح، الألم دفعني لإزاحة القائد بعيداً، حتى أضرب يدي على جبهتي.

توقف عن هذا! قال القائد. استدار نحو الحارس. أوقفه!

الحارس ذو الوجه الطفولي تصارع معي لأني لم أكن أضرب جبهتي فقط، ولكني أخبط رأسي بالجدار. وأخيراً، اضطر المفوض والقائد لمساعدته على طرحي أرضاً مرة أخرى. المفوض أدرك أنني مضطر لضرب نفسي. كم كنت غبياً! كيف نسيت أن أي حقيقة لا بد أن تعني شيئين على الأقل، الشعارات أغطية فارغة تخفي جثة الفكرة؟ الأغطية تعتمد على كيف يضعها المرء على جسمه، وهذه الأغطية تمزقت الآن. كنت مجنوناً لكني لم أفقد عقلي، مع أنني كنت سأعتدي على القائد. رأى فقط معنى واحداً في اللاشيء - المعنى السلبي، الغياب، لأن لا شيء هناك. أما المعنى الإيجابي فقد أفلت منه، الحقيقة

المثيرة للجدل أن اللاشيء، في الواقع، يعني شيئاً. ولكن قائدنا لم يفهم المزحة، والناس الذين لا يفهمون المزحة خطرون في الواقع. إنهم الأشخاص الذين لا يقولون شيئاً ويتظاهرون بالتقوى والورع، ويسألون كل شخص آخر أن يموت من أجل لا شيء، ولا يحترمون شيئاً. مثل هذا الشخص لا يمكن أن يتحمل شخصاً يضحك على لا شيء. هل اكتفيت؟ وجه سؤاله إلى المفوض، كلاهما نظر لي، وأنا أبكي، وأبكي، وأضحك في وقت واحد. والآن علينا أن نستدعي الطبيب مرة أخرى.

استدعوه إذن، قال المفوض. الجزء الصعب انتهى.

***

أرجعني الطبيب إلى زنزانتي القديمة، رغم أن الغرفة الآن كانت غير مقفلة ولم أكن مقيداً. كنت حراً في التحرك أينما أشاء لكني تكاسلت عن ذلك، أحياناً يأتي الحارس ذو الوجه الطفولي لينتزعني من إحدى الزوايا. حتى في تلك المناسبات النادرة، حين أريد أن أخرج بإرادتي، فأنا لا أخرج إلى ضوء الشمس، شدة الأضواء هي التي جعلت عيني حساستين لعالم الضوء. وصف لي الطبيب نظام غذاء محسن، ضوء الشمس، والتمارين، لكن كل ما أردته أن أنام، وحين لا أتمكن من النوم، أبقى مؤرقاً وصامتاً، باستثناء الأوقات التي يأتي فيها القائد. هل ما يزال لا يقول شيئاً؟ كان القائد يطرح هذا السؤال كلما زارني، وأنا لا أقول شيئاً، لا شيء، لا شيء، لا شيء، لا شيء.. مجرد معتوه يضحك مكوم في الزاوية. يا للمسكين، قال الطبيب. إنه إلى حد ما، كيف نعبر عن الأمر، مشوش الذهن بعد التجارب التي مر بها.

حسناً! افعل شيئاً بشأن هذا! صاح القائد.

سوف أبذل ما بوسعي، ولكن كل ذلك في عقله، قال الطبيب، وهو يشير إلى جبهتي التي تغطيها الكدمات. كان الطبيب على حق جزئياً. الأمر كله في عقلي، ولكن أي عقل؟ باشر الطبيب لاحقاً بتطبيق العلاج الذي وضعني على الطريق البطيء المؤدي للشفاء، نهايته تعني اندماجي مع نفسي من جديد. ربما، قال الطبيب ذات يوم، وكان يجلس على كرسي قريب مني وأنا منحشر في الزاوية، وقد طويت ذراعي ورأسي مستقر عليهما، إنه وضع ممتاز ربما يساعدك. نظرت إليه بعين واحدة. قبل أن يبدأ الامتحان، كانت أيامك

مشغولة بكتابة اعترافاتك. حالتك الذهنية في وضع لا يتيح لي التصور أنك تستطيع كتابة أي شيء الآن، ربما مراجعة المفاهيم تساعدنا. حملقت فيه بعيني معاً.

أخرج من حقيبته رزمة أوراق سميكة. هل يبدو هذا مألوفاً؟ بحذر، فتحت ذراعي وأخذت الرزمة. نظرت إلى الصفحة الأولى، ثم الثانية، والثالثة، وببطء رحت أقلب بأصابعي ثلاثمائة واثنتين وعشرين صفحة. ماذا تتصور هذه؟ قال الطبيب. إنها اعترافاتي، تمتمت. صحيح، يا صديقي العزيز! جيد جداً! والآن ما أريده منك أن تستنسخ هذه الاعترافات. وأخرج رزمة أخرى من الأوراق، مع كمية من الأقلام. كلمة بعد كلمة. هل يمكنك أن تفعل ذلك لي؟

أومأت برأسي، ببطء. تركني وحدي مع رزمتين من الأوراق لمدة طويلة جداً - لا بد أنها ساعات - نظرت إلى الصفحة الأولى الفارغة، والقلم بيدي المرتعشة. ثم بدأت، وكان لساني ملتصقاً بشفتي. في بداية الأمر كنت أستنسخ بضع كلمات خلال ساعة، ثم صفحة، ثم بضع صفحات. كان لعابي يلطخ الصفحات وأنا أرى حياتي كلها تتكشف خلال الشهور التي أمضيتها في استنساخ اعترافاتي. وتدريجياً، بينما كانت جبهتي المليئة بالكدمات تشفى، وبينما كنت أستوعب معاني كلماتي، تطور لدي تعاطف مستمر مع الإنسان الذي وجدته على تلك الصفحات، حدة الذكاء التي تنبثق من الذكاء المريب. هل كان غبياً أم ذكياً جداً من أجل مصلحته؟ هل اختار الجانب الصحيح أم الجانب الخاطئ من التاريخ؟ أليست هذه الأسئلة هي التي ينبغي علينا أن نطرحها على أنفسنا؟ أم أنا ونفسي فقط المعنيون بالأمر؟

في الوقت الذي انتهيت فيه من استنساخ اعترافاتي، عادت أحاسيسي بما يكفي لكي أفهم أن الأجوبة ليست في تلك الصفحات. لما جاء الطبيب أخيراً لفحصي، طلبت منه أن يسدي لي معروفاً. ما هو، يا صديقي العزيز؟ أريد المزيد من الأوراق، يا دكتور. المزيد من الأوراق! قلت مفسراً، أريد كتابة الحوادث التي حصلت بعد أن أدليت باعترافاتي، في الوقت الطويل الذي استغرقه امتحاني. لذلك أحضر لي المزيد من الأوراق، وكتبت صفحات جديدة عما فعلوه بي داخل غرفة الامتحان. أحسست بالأسف الشديد على الإنسان صاحب العقلين، كما هو متوقع. هو لم يدرك أن مثل هذا الإنسان من الأفضل أن يجسد في فيلم منخفض الميزانية، فيلم هوليوودي أو ربما ياباني عن تجربة علمية ذات

أغراض عسكرية انتهت إلى كارثة مرعبة. كيف يجرؤ إنسان بعقلين على التفكير بأنه يمكن أن يمثل نفسه على نحو أقلّ من أي شخص آخر، بما فيهم شعبه العنيد؟ إنهم في النهاية غير قابلين للتمثيل، بصرف النظر عن الأشياء التي يدعيها ممثلوهم. ولكن مع تراكم الصفحات، أحسست بشيء آخر أثار دهشتي، التعاطف مع الإنسان الذي فعل تلك الأشياء لي. ألن يتعرض صديقي للتعذيب بسبب الأشياء التي قدمها لي؟ كنت واثقاً من حدوث ذلك فور انتهائي من الكتابة، ومع توقفي عن الصراخ مع نفسي بتلك الكلمة المرعبة في وجه الضوء الساطع. كل ما تبقى أن أسال الطبيب أن يسمح لي برؤية المفوض مرة أخرى.

إنها فكرة جيدة، قال الطبيب، وكان يربت على صفحات مخطوطتي ويومئ بالاقتناع. أنت انتهيت تقريباً، يا فتى. انتهيت تقريباً.

***

لم أقابل المفوض منذ انتهاء الامتحان. لقد تركني وحدي لأبدأ باسترداد عافيتي، ويمكنني فقط التكهن بأنه أصيب بالحمى بسبب ما فعله بي، رغم أن ما جرى كان ينبغي أن يجري، كان يجب أن أتوصل إلى الجواب بنفسي. لا أحد يمكن أن يخبرني بالحل لهذه الأحجية، حتى هو. كل ما كان بوسعه عمله أن يسرع في إعادة تأهيلي، من خلال الطريقة المؤلمة التي تورث الندم. بعد أن استخدم هذه الطريقة، كان متردداً في رؤيتي من جديد، فهو يتوقع أن أكرهه لأسباب معقولة. لدى اللقاء معه في خيمته مرة أخرى وربما ستكون الأخيرة، لاحظت أنه منزعج، عرض عليّ الشاي، وربت بأصابعه على ركبتيه، وكان يتفحص الصفحات الجديدة التي كتبتها. ما الذي يمكن أن يقوله الجلاد والضحية لبعضهما بعد انتهاء التعذيب؟ لا أعرف، ولكني عندما جلست أراقبه على كرسي الخيزران، وما زلت منقسماً إلى نفسي والآخر، لمحت فيه انقساماً مماثلاً، في الفراغ المرعب الذي سبق أن كان وجهاً. إنه المفوض ومع ذلك فهو مان؛ المحقق معي وموضع أسراري الوحيد؛ الرجل الذي عذبني وصديقي. البعض ربما يقولون إنني أتخيل الأشياء، لكن الوهم البصري الحقيقي يكمن في رؤية الآخر ونفسي كحالة متكاملة لا تنفصل، كأنها حالة تركيز حقيقية أكثر من عدم التركيز. كنا نظن أن انعكاس صورتنا في المرآة هي حالتنا الحقيقية، كيف نرى أنفسنا وكيف يرانا الآخر غالباً ما لا يكون الشيء نفسه. وعلى نحو

مماثل، غالباً ما نخدع أنفسنا حين نتصور أننا نرى أنفسنا بوضوح. وكيف لي أن أعرف أنني لا أخدع نفسي وأنا أسمع صديقي يتكلم؟ لا أعرف.. كان بوسعي فقط محاولة أن أفهم ما إذا كان يخدعني وهو يتجاوز الاستفسار عن صحتي المثيرة للشكوك، حالتي البدنية والعقلية، ويقول إنني مع بون سوف نترك المعسكر والبلاد كلها. تصورت أنني سأموت هنا، ونهاية ما قاله أرعبتني. نرحل؟ قلت. كيف؟

هناك شاحنة تنتظركما عند البوابات. سمعت أنك تريد رؤيتي، لم أُضِع الوقت. ستذهبان إلى سايغون. بون لديه ابن عم هناك، وأنا متأكد من أنه سوف يتصل بكما. هذا الرجل سبق أن حاول الهرب مرتين من هذه البلاد، وأمسكوا به في المرتين. هذه المرة الثالثة، معك أنت وبون، سوف ينجح.

خطته أذهلتني. كيف تعرف ذلك؟ قلت أخيراً.

كيف أعرف؟ وجهه الفارغ بدا خالياً من التعبير، لكن صوته بدا مبتهجاً، ربما فيه مرارة. أعطيت النقود إلى المسؤولين، الذين سوف يحرصون على أن يتجاهل ضباط الشرطة وجودكما عندما يحين الوقت. هل تعرف مصدر الأموال؟ لم تكن لدي فكرة. النساء اليائسات يدفعن أي ثمن لرؤية أزواجهن في هذا المعسكر. الحراس يأخذون نصيبهم، ويتركون الباقي لي وللقائد، أرسلت بعض النقود لزوجتي، إنني أدفع عشر النقود إلى رؤسائي، واستخدمت ما تبقى لهربكما. أليس من الرائع أن الأموال في بلد شيوعي يمكن أن تشتري أي شيء تريده؟

هذا ليس رائعاً، تمتمت. إنه شيء مضحك.

حقاً؟ لا أعني أنني أضحك من سرقة نقود وذهب النساء الفقيرات. ولكن كما ترى، بينما الاعترافات ربما تنفع لتحريرك من هذا المعسكر، إذا أخذنا بنظر الاعتبار خلفيتك الثورية، فلا شيء غير المال يحرر بون. القائد يجب أن يستلم الأموال، على كل حال، هي مبالغ لا بأس بها، نظراً للجرائم التي ارتكبها بون. لا شيء غير مبلغ كبير من المال يضمن أنكما تغادران البلاد، عليكما أن تفعلا ذلك. هذا، يا صديقي، ما قمت به مع هؤلاء النساء بدافع الصداقة لك. فهل ما زلت صديقي الذي عرفته وأحببته؟

ذلك هو الرجل الغامض الذي فقد وجهه وتولى تعذيبي، من أجل مصلحتي، أو من

أجل لا شيء. لكني ما زلت أعرفه، فمن غير إنسان بعقلين يستطيع فهم إنسان بلا وجه؟ عانقته ونحن نبكي، عرفت أنه حين يطلق سراحنا، فهو نفسه يمكن أن يحرم من الحرية، يعجز أو لا يرغب في مغادرة المعسكر باستثناء أن ينتحر، وهذا على الأقل سيكون مصدر راحة بالقياس إلى موته وهو حي. المنفعة الوحيدة من وضعه الحالي أنه يرى ما لا يراه الآخرون، أو ربما ما رأوه وتنصلوا منه، لأنه حين ينظر إلى المرآة ويرى الفراغ، يفهم معنى اللاشيء.

لكن ما هذا المعنى؟ ما الذي فهمته أخيراً؟ إنه هذا: بينما لا شيء أكثر أهمية من الاستقلال والحرية، اللاشيء أيضاً أكثر أهمية من الاستقلال والحرية! هذان الشعاران ربما كانا شعاراً واحداً، ليس تماماً. الشعار الأول الملهم يجسد سترة هوشي مينه الفارغة، التي لم يعد يرتديها. كيف استطاع ذلك؟ إنه ميت. والشعار الثاني مخادع، إنه تلك المزحة. شعار العم هوشي بسترته الفارغة التي قلبت من الداخل إلى الخارج، فقط الإنسان صاحب العقلين، أو الذي بلا وجه، يجرؤ أن يلبسها. هذه السترة الغريبة تناسبني، لأن خطوطها وحافاتها حادة. بعد ارتداء هذه السترة المقلوبة، وبطانتها مكشوفة بطريقة غريبة، فهمت على الأقل كيف أن ثورتنا تحولت من الحرس الطليعي للتغيير السياسي نحو الحرس الرجعي الذي يحتكر السلطة. ضمن هذا التحول، لم نكن استثنائيين. ألم يفعل الفرنسيون والأمريكان الشيء نفسه بالضبط؟ حين كانوا ثواراً بأنفسهم أصبحوا بعد ذلك إمبرياليين، ومستعمرين واحتلوا أرضنا الصغيرة الضعيفة، وسلبوا حريتنا بذريعة أنهم ينقذوننا. ثورتنا استغرقت وقتاً أطول من ثوراتهم، وكانت أكثر شجاعة، لكننا قررنا العمل في الوقت الضائع. حين يتعلق الأمر بالتعلم فنحن طبقنا أسوأ عادات أسيادنا الفرنسيين وبدلائهم من الأمريكان، نحن نثبت بسرعة لأنفسنا أننا أفضل منهم. ولكن نحن أيضاً يمكننا الإساءة إلى مثلنا العليا! بعد أن حررنا أنفسنا باسم الاستقلال والحرية - كم أشعر بالتعب من هذه الكلمات! - حرمنا إخوتنا المنهزمين من تلك الأشياء. وإذا اعترض الأسرى، فالأشخاص الذين يعتقلونهم يستغربون من افتقارهم للشعور بالامتنان، هل هناك شيء أفضل في مناهج التعليم من إعادة التأهيل؟ حتى إذا كانت إعادة التأهيل النوع الوحيد من التعليم الذي يوفر الامتنان مقابل لا شيء؟ فقط الشخص الذي يفهم المزحة يمكنه أن يرى روح السخرية في هذا الدور المعكوس، كم من الصفعات والصعقات الكهربائية تدخل ضمن نسختنا هذه من التمثيلية الهزلية. حتى أنا، هدف

المزحة، كنت أضحك، رغم أن خدي يلسعني من الصعقات الكهربائية والركلات بين الساقين، أستغرب كثيراً من السخرية وأتساءل كيف أن ثورة قاتلت من أجل الاستقلال والحرية يمكن أن تجعل تلك الأشياء لا تستحق أكثر من اللاشيء. أوه، يا للسخرية! يا للسخرية!

إلى جانب إنسان بلا وجه، فقط الإنسان صاحب العقلين يمكن أن يفهم المزحة، أنا ذلك الإنسان، أنا ونفسي. عشنا معاً منذ مدة طويلة، أنا ونفسي. كل شخص نلتقي به أراد أن يفصلنا عن بعض، أراد لنا أن نختار إما هذا الشيء أو ذاك، عدا المفوض. لقد مد لنا يده ومددنا له أيادينا، تلك الندب الحمراء واضحة كما كانت منذ أيام شبابنا. بعد كل ما مررنا به، بقيت تلك العلامة الوحيدة على أجسامنا. تصافحنا وقال، قبل أن تذهب، لدي شيء لك. من تحت مكتبه أخرج كيس أمتعتنا البالي ونسخة من كتاب (الشيوعية في آسيا والنمط الشرقي للدمار). آخر مرة رأينا فيها الكتاب يكاد يتمزق إلى نصفين، مجعداً من المنتصف. الغلاف الجلدي انخلع منه، ورباط مطاطي يحيط بنصفي الكتاب. حاولنا الرفض، لكنه دس الكتاب في الكيس وضغط علينا لقبوله. في حال احتجت لأن تبعث رسالة لي، قال. أو بالعكس، فلدي نسختي الخاصة.

بتردد، أخذنا كيس الأمتعة، يا صديقي العزيز..

بقي شيءٌ أخير. التقط مخطوطتنا، نسخة اعترافاتنا وكل شيء حدث بعد ذلك، وأشار لنا لفتح الكيس. كل الذي حدث في غرفة الامتحان سوف يبقى سراً بيننا. خذ هذه معك أيضاً.

نريدك فقط أن تعرف..

اذهب! بون ينتظرك.

وهكذا ذهبنا، والكيس فوق أكتافنا، أطلق سراحنا أخيراً. لا مزيد من أقلام الرصاص، لا كتب، لا نظرات قذرة للمعلم. إيقاعات سخيفة ولعب أطفال بالكلمات، ولكن إذا فكرنا بأي شيء أكثر جدية سوف نسقط تحت وطأة الشكوك من الخلاص، من نشوة تحررنا الغامرة.

***

رافقنا الحارس ذو الوجه الطفولي إلى بوابات المعسكر، حيث وجدنا القائد وبون واقفين قرب شاحنة مولتوفا قديمة. لم نشاهد بون منذ سنة وأشهر، وأول كلمات قالها، تبدو بحالة يرثى لها. نحن؟ وماذا عنه هو؟ عقلان منفصلان ضحكا معاً، لكن النفسين المتصلتين لم تضحكا. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ صديقنا المسكين يتعثر أمامنا في ثياب مرقعة رثة، كأنه دمية بين يدَي مدمن على الكحول، والشعر خفيف والجلد شاحب كأنه من خضار الغابات الذابلة. على إحدى عينيه رقعة سوداء، وكنت أعرف أن من الأفضل عدم سؤاله عما فعلوه به. على بعد بضعة أمتار، خلف الأسلاك الشائكة، رأينا ثلاثة رجال آخرين بثياب رثة يراقبوننا. تطلب الأمر منا لحظات لنتعرف على رفاقنا، الكشاف من هامونغ، والمسعف المتفلسف، والمارينز الأسود. لا تبدو في حالة يرثى لها، قال الكشاف من هامونغ، بل أسوأ من ذلك. أما المسعف المتفلسف فأطلق ابتسامة حزينة كشفت عن نصف أسنانه التي فقدت. لا تهتم بكلامه، قال. إنه حسود فقط. أما المارينز الأسود، فقال، كنت أعرف أنكم أيها الأوغاد سوف ترحلون من هنا قبلنا. حظاً سعيداً لكما.

لم نقل شيئاً، فقط ابتسمنا ورفعنا أيدينا لتوديعهم قبل الصعود إلى الشاحنة مع بون. الحارس ذو الوجه الطفولي رفع المزلاج ثم أغلقه. ماذا؟ قال القائد، وكان ينظر إلينا. ما زلت لا تريد أن تقول شيئاً؟ في الحقيقة لدينا الكثير من الأشياء لنقولها، ولكن لا نريد إثارة القائد فيلغي إطلاق سراحنا، فقط هززنا رأسنا. فليكن الأمر بطريقتك. أنت اعترفت بأخطائك ولا يوجد شيء نقوله الآن، هل يوجد شيء؟

لا شيء في الواقع! اللاشيء كان شيئاً لا يمكن التصريح به حقاً. وبينما كانت الشاحنة تغادر وسط سحابة من الغبار سمعنا الأحمر الحارس ذو الوجه الطفولي يسعل، نظرنا إلى القائد يمشي بعيداً والكشاف من هامونغ، والمسعف المتفلسف، والمارينز الأسود يغطون عيونهم. ثم انعطف بنا الطريق واختفى المعسكر. عندما سألنا بون عن رفاقنا الآخرين، أخبرنا أن القروي من لاوس غرق في النهر أثناء محاولته للهرب، بينما المارينز الأكثر سمرة نزف حتى الموت بعد أن انفجر عليه لغمٌ أرضي وقطع ساقيه. في البداية التزمنا الصمت ونحن نسمع هذه الأخبار. ما الذي ماتوا من أجله؟ لماذا ماتت ملايين أخرى من البشر في حربنا العظيمة لتوحيد بلادنا وتحرير أنفسنا؟ لأي سبب ضحى مئات الآلاف بأنفسهم؟ لأي نتيجة ضحى مئات الآلاف غيرهم دون اختيار منهم؟ إنهم جميعاً موتى وكذلك نحن

موتى لا نختلف عنهم في شيء، ضحينا بكل شيء، بما في ذلك حياتنا، والآن لم نعد نملك حتى أسمال اعتقاداتنا. ما زال لدينا إحساس بروح الفكاهة، رغم كل شيء، وإذا فكر الإنسان بالأمر جيداً، من مسافة قليلة، حتى بإحساس واهن من المرح، يمكن أن يضحك من هذه المزحة التي انطلت علينا، أولئك الذين ضحوا بإرادتهم أو الآخرين. لذلك فنحن نضحك، ونضحك، ونضحك، وحين نظر بون لنا كما لو كنا معتوهين وسأل عن الأمر المضحك، مسحنا الدموع عن العيون وقلنا، لا شيء.

***

بعد رحلة مضجرة ليومين وسط ممرات جبلية ضيقة وطرق متعرجة، أنزلتنا الشاحنة قريباً من ضواحي سايغون. ومن هناك رحنا نجوب شوارع موحلة يسكنها أناس ملطخون بالوحل، متجهين إلى منزل الملاح، خطواتنا تباطأت بسبب بون الذي يعرج. كل شخص كان يحملق فينا، بمنظرنا القذر، لكن القليل منهم يردون على نظراتنا حين ننظر إليهم. الشوارع التي كانت ذات مرة مكتظة بالعربات والسيارات رأيناها الآن أكثر هدوءاً، والدراجات الهوائية أكثر انتشاراً. رفوف المحلات التي كانت ذات مرة متخمة بالبضاعة الأجنبية التي تأتي من الأسواق الأمريكية الآن تبدو خاوية. عدنا إلى الوطن أخيراً ولكنها عودة في حلم بواكير الصباح، عودة مألوفة وغريبة في وقتٍ واحد، المدينة المخنوقة أصبحت خرساء بشكل مخيف. عندما وصلنا إلى منزل الملاح، ابن عم بون، تبين لنا أننا لم نسمع أغنية رومانسية واحدة أو قطعة من موسيقى البوب. مقاهي الأرصفة وراديوات الترانزستور كانت دائماً تبث مثل هذه النغمات، لكن على الغذاء الذي لا يكاد يختلف إلا هامشياً عن وجبات القائد، أكد لنا الملاح ما ألمح إليه القائد. الموسيقى الصفراء الآن ممنوعة، فقط الموسيقى الحمراء، والثورية، مسموح بها.

لا موسيقى صفراء في أرض شعب يسمى بالأصفر؟ لم نقاتل من أجل هذا، لم يكن في وسعنا إلا أن نضحك. نظر إلينا الملاح باهتمام. رأيت أسوأ من هذا، قال. اثنان من السجناء ماتا من الجوع أثناء إعادة التأهيل ورأيت أسوأ من هذا أيضاً. لقد واجه مرحلة إعادة التأهيل عقاباً على جريمة محاولة الهرب من البلاد بأحد القوارب. في تلك المحاولات السابقة، لم يأخذ عائلته معه، على أمل أن يواجه المخاطر وحده ويصل إلى بلد أجنبي ومن هناك يمكنه إرسال النقود لمساعدة عائلته في البقاء أو الهرب، إذا أصبح الطريق

آمناً. ولكنه كان متأكداً من أن ثالث مرة يعتقل فيها سوف تؤدي إلى إعادة تأهيل في معسكر شمالي، من هناك لا أحد عاد إلى منزله. في هذه المحاولة قرر أن يأخذ زوجته، وأبناءه الثلاثة وعائلاتهم، ابنتيه وعائلاتهن، وعائلات ثلاثة من أصهاره، القبيلة كلها تعيش أو تموت معاً على البحر المكشوف. بحسب رأي الملاح لا شيء بقي لديهم هنا سوى المقاطعات الاقتصادية الجديدة حيث سكان المدن المنفيون حولوا المستنقعات إلى مزارع، أو ماتوا وهم يحاولون ذلك. مقاطعات اقتصادية جديدة؟ كنا نتعلم المزيد عن هذا المجتمع الثوري الذي ساعدنا في إيجاده.

ما هي الاحتمالات؟ سأل بون الملاح، وهو بحّار متمرس من النظام القديم يثق بون في كفاءته. خمسون بالمائة، قال الملاح. هكذا سمعت من نصف الذين هربوا. من المعقول افتراض أن النصف الآخر منهم لم ينجحوا. هز بون كتفيه استهجاناً. يبدو هذا جيداً بما يكفي، قال. ما رأيك؟ كان السؤال موجهاً لنا. نظرنا إلى السقف، حيث سوني والرائد البدين يستلقيان على ظهريهما، يبعدان الحشرات. الآن هما معاً يريدان الكلام، قالا، إنها احتمالات رائعة، لأن فرص المرء في الموت هي مائة بالمائة. ولهذا قررنا، فاستدرنا نحو بون والملاح، وبإيحاءات ساخرة، أشرنا إليه بالموافقة. واعتبرا هذه علامة على إحراز تقدم.

***

خلال الشهرين القادمين، ونحن بانتظار موعد رحيلنا، تابعنا العمل على إعادة كتابة مخطوطتنا. رغم النقص المزمن في مستلزمات الراحة، لم يكن هناك نقص في الورق، لأن كل شخص في الجوار طلب منه كتابة اعترافات دورية. حتى نحن، الذين اعترفنا على هذا النحو المكثف، كان علينا كتابة هذه الأوراق وتقديمها إلى الكوادر المحلية. كأنها تدريبات على كتابة القصة، إذ كان علينا إيجاد أشياء للاعتراف بها حتى لو لم نفعل أي شيء منذ عودتنا إلى سايغون. أشياء صغيرة، من قبيل الفشل في إظهار ما يكفي من الحماس في جلسات النقد الذاتي، تعتبر مع ذلك مقبولة. ولكن بالتأكيد لا يمكن التسامح مع أشياء أكبر، ولم نفشل في إنهاء الاعترافات دون كتابة شعار أن لا شيء أكثر أهمية من الاستقلال والحرية.

الآن جاء المساء الذي يسبق مغادرتنا. كان علينا أن ندفع أجرة بون وأجرتنا من

الذهب الذي أعطاه لنا المفوض، مخبأ في قعر كيس أمتعتي المخفي. الشيفرة التي أعطاها لنا المفوض مفتاحها الذهب، أثقل شيء ما زلنا نحمله بعد هذه المخطوطة، عهدنا الأخير إن لم تكن وصيتنا. ليس لدينا شيء نتركه لأحد غير هذه الكلمات، أفضل محاولة منا لتمثيل أنفسنا بإزاء كل هؤلاء الذين يدّعون تمثيلنا. غداً ننضم إلى عشرات الآلاف من الذين لجؤوا إلى البحر، فراراً من الثورة. حين نصل إلى سطح البحر لن نحمل معنا أي شيء. كل ما نحتاج إليه متوفر في القارب، وضع هناك قبل أسابيع استعداداً للانطلاق. ولكن التعقل مطلوب. في كل زقاق، ودرب، وشارع، يتابع المخبرون مراقبة هؤلاء الذين يخططون لتقويض الثورة بالهرب من الوطن، الذي كنا نعرف الآن أنه تحول إلى سجن. وفقاً لخطة الملاح، في ظهيرة رحيلنا غداً، من المنازل التي تنتشر في أرجاء سايغون، العائلات سوف تغادر كما لو في رحلة قصيرة لا تستغرق أكثر من يوم. سوف نرحل بالحافلة إلى قرية على بعد ثلاث ساعات جنوباً، حيث تنتظرنا عبّارة على ضفة النهر صاحبها يضع قبعة مخروطية تخفي ملامحه. هل يمكنك أن تأخذنا إلى ضريح عمنا؟ بإزاء هذا السؤال المشفر، يأتي الجواب المشفر: كان عمك رجلاً عظيماً. نحن، إلى جانب الملاح، وزوجته، وبون، صعدنا إلى زورق صغير، حملنا كيس أمتعتنا وشيفرتنا المغلفة بشريط مطاطي وهذه المخطوطة غير المربوطة، لففناها في كيس بلاستيكي يحميها من الماء. انزلقنا على النهر متجهين إلى قرية يسكنها ما تبقى من قبيلة الملاح الذين سينضمون إلينا. حين يهبط الظلام، هناك زوارق أخرى عليها أبناء صاحب العبارة تحملنا على النهر نحو خليج تقف فيه سفينة لنقل الفحم، تكفي لأربعين شخصاً من قبيلة الملاح. وحين نصعد المركب، يتابع رحلته على النهر، والحمولة من البشر تختفي تحت السطح. السفينة الأم تنتظر، وهي سفينة صيد تكفي لمائة وخمسين راكباً، كلهم تقريباً يختفون في المخزن. سوف يكون المكان حاراً، كما حذرنا الملاح. تجعلنا ننضح عرقاً. حالما يغلق الطاقم أقفال المخزن، نواجه صعوبة في التنفس، لا فتحات للتهوية تخفف معاناة مائة وخمسين جسداً يقبعون في مكان يكفي لثلث هذا العدد. لكن الشيء الأثقل من الهواء المستنفد معرفة أن حتى رواد الفضاء لديهم فرصة منا أفضل في النجاة.

حول أكتافنا وصدورنا ربطنا كيس الأمتعة، الشيفرة والمخطوطة بداخله. سواءً عشنا أم متنا، تلك الكلمات تبقى معنا. حتى إذا ابتلعنا البحر، ربما ينجو شخصٌ ما وينتشل جسدنا من المياه وتبقى الكلمات سليمة. أما عن تلك الكلمات، فالقليل منها كان يحتاج

للكتابة على ضوء المصباح النفطي في منزل الملاح، حيث كل شخص باستثنائنا نحن كان نائماً عشية هربنا. نحن لا نستطيع النوم لأننا حتى الآن ما نزال نحاول فهم أنفسنا، أنا ونفسي، الرجل صاحب الوجهين والعقلين. بعد أن أجبنا عن سؤال المفوض، نواجه المزيد من الأسئلة، أسئلة شاملة لا تنتهي ولا تتعب. ماذا يفعل أولئك الذين يكافحون ضد السلطة الظالمة حين يستولون على السلطة؟ ما الذي يفعله الثوري عندما تنتصر الثورة؟ لماذا هؤلاء الذين كانوا ينادون بالاستقلال والحرية يسلبون الآخرين استقلالهم وحريتهم؟ هل من المعقول أم من غير المعقول الاعتقاد، كما يعتقد الكثيرون حولنا على ما يبدو، بلا شيء؟

بإمكاننا فقط الإجابة عن هذه التساؤلات بأنفسنا. من خلال حياتنا وموتنا تعلمنا دائماً أن نتعاطف مع الأشياء غير المرغوبة. هكذا علمتنا التجربة، بوصلتنا تشير باستمرار باتجاه الذين يعانون. حتى الآن، نحن نفكر في صديقنا الذي يعاني، أخينا في الدم، المفوض، الرجل الذي ضاع وجهه، الإنسان الذي تكلم بما لا يُسمح الكلام عنه، ينام ويحلم بعد أن تخدر بالمورفين، يحلم بنوم أبدي، أو ربما يحلم بلا شيء. أما نحن، كم من الوقت نحتاج لننظر إلى لا شيء حتى نرى شيئاً! هل هذا ما أحست به أمنا؟ هل نظرت إلى نفسها واستغربت من أن هناك لا شيء في المكان الذي كان فيه شيءٌ الآن، وهو على وجه التحديد، نحن؟ أين كانت نقطة التحول التي بدأت فيها تريدنا بدلاً من عدم الرغبة فينا، بذور أب كان ينبغي أن لا يكون أباً؟ متى توقفت عن التفكير بنفسها وبدأت تفكر فينا؟ ألم تكن هذه ربما الطريقة التي نلملم فيها أنفسنا مرة أخرى ونراجعها؟ شيءٌ ما ينبغي أن يفعل. شيءٌ ينبغي أن يفعل، وربما يكون ذلك الشيء نحن.

غداً نجد أنفسنا وسط الغرباء، من المارينز الكسالى الذين بالإمكان كتابة مانيفستو بحذر عنهم. بيننا أطفال ولدوا حديثاً، فضلاً عن الناضجين والآباء، ولكن ليس كبار السن، لأن لا أحد منهم يجرؤ على الرحلة. بيننا رجالٌ ونساء، فضلاً عن النحيفين ومكسوري الظهر، لن يكون بيننا أشخاصٌ سمان، الأمة كلها واجهت حمية إجبارية. بيننا أشخاصٌ بيض البشرة، وسمر البشرة وكل ظل بين هذا وذاك، البعض منهم يتكلم لهجات فصيحة وبعضهم لهجات ركيكة. الكثير منهم صينيون، اضطهدوا لأنهم صينيون، مع الكثير من الحاصلين على شهادات في إعادة التأهيل. في وقتٍ سابق من هذه الليلة، حين كنا نصغي

سراً إلى إذاعة صوت أمريكا على راديو الملاح، سمعنا مرة أخرى الاسم الذي صار يطلق علينا، سكان القوارب. الآن بعد أن صرنا ننتمي إليهم، اسمهم يزعجنا، الاسم يضربنا كالسوط من التعاطف الأنثروبولوجي، يثير فينا ذكريات عن الفرع المنسي من شجرة العائلة الإنسانية، البعض فقدوا قبيلتهم من البرمائيات التي ظهرت من ضباب المحيط، تتوجها أعشاب البحر. لكننا لسنا بدائيين، ولا نريد الشفقة من أحد. إذا وصلنا إلى مرفأ آمن، لن تكون مفاجأة إذاً، بالمقابل، أدرنا ظهورنا إلى الطبيعة البشرية المنبوذة بسبب ما نعرفه عنها. لكننا لن نسخر من أحد. رغم كل شيء - نعم، رغم كل شيء، بمواجهة اللاشيء - ما نزال نعتبر أنفسنا ثوريين. نبقى مخلوقات تعيش بالأمل، ثوريين نبحث عن ثورة، رغم أننا لن نختلف على تسميتنا بالحالمين الغارقين بالأوهام. إذا نظرنا ثانية لتاريخنا هذا، أنا ونفسي، يمكننا رؤية أن ما يحدد شخصيتنا ويزعجنا أكثر أننا لسنا ثوريين فقط ولكن متعاطفين أيضاً. الإنسان يحتاج إلى التعاطف ليصبح ثورياً، الإنسان الذي يشعر بمعاناة الآخرين. لكن الإنسان لا يستطيع التعاطف إذا أصبح ثورياً، لأن الثوري لا يمكنه الإحساس بالآخرين الذين عليه أن يفعل أشياءً لهم، هل يمكنه ذلك؟ الذي يميز المتعاطف عن الثوري هو ما يميز العاطفة عن الفعل، الفكرة عن العمل، المثالية عن النتائج. ومع ذلك فإذا كان الإنسان الذي بعقلين لديه أي شيء يقدمه، فهي الفرصة لأن يكون ثورياً ومتعاطفاً في وقتٍ واحد، يندمجان مثل اندماج أفق البحر بالسماء. سرعان ما نرى ضوء الغروب القرمزي على الأفق حيث الشرق دائماً أحمر، لكن الآن المنظر الذي نراه من خلال النافذة منظر زقاق مظلم، الرصيف مهجور، الستائر مسدلة. حتماً لسنا الوحيدين الذين نبقى مستيقظين، حتى إذا كنا الوحيدين الذين لديهم مصباح هزيل ينير الظلام. كلا، لا يمكن أن نكون وحدنا! الآلاف غيرنا لا بد أنهم يحملقون في الظلام مثلنا، تستحوذ عليهم أفكار مخزية، وطموحات متطرفة، وآمال محبطة. نحن نبقى هنا بانتظار اللحظة المناسبة والقضية العادلة، هذه اللحظة تعني الآن ببساطة الرغبة في الحياة. وهكذا، حتى ونحن نكتب هذه الجملة الأخيرة، الجملة التي لن تخضع للمراجعة، نعترف بأننا على ثقة من شيءٍ واحد فقط - نقسم، ولو كانت عقوبة ذلك الموت، على الإيفاء بهذا الوعد -

أننا سوف نعيش!

Notes

[1 ←]

يقورية مذهب ينسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور (340-270 ق.م) ساد لستة قرون مؤداه أن اللذة وحدها الخير الأسمى، والألم وحده الشر الأقصى، والمراد باللذة ليس الانغماس في الملذات بل ممارسة الفضيلة والجمع بين الزهد والمنفعة. (المترجم)

[2 ←]

كولاي شيرنيشفكسي: فيلسوف وناقد اشتراكي روسي (1828-1889) كان قائد الحركة الثورية الديموقراطية في الستينيات وله تأثير على فلاديمير لينين وغيره. كتب رواية مهمة بعنوان (ماذا نفعل؟) 1863. (المترجم)

[3 ←]

مناو أو الدفع الصاعد تمرين رياضي لعضلات الذراعين والكتفين عن طريق الانبطاح على الأرض ومحاولة الارتفاع عنها مرة بعد مرة بالاستناد إلى اليدين وأصابع القدمين. (المترجم)

[4 ←]

اكايا: نوع من الفواكه ذات الألياف لها رائحة عطرية ومذاق لذيذ تنتشر في الهند وسريلانكا وبنغلاديش ولها العديد من الفوائد الصحية. (المترجم)

[5 ←]

خمير الحمر كان الحزب السياسي الحاكم في كمبوديا منذ عام 1975 إلى 1979 وهو عبارة عن حلف لمجموعة أحزاب شيوعية تعتبر مسؤولة عن موت أكثر من مليون إنسان في ظل حكمهم القمعي. (المترجم)

[6 ←]

ولوخ اسم ورد ذكره في الكتاب العبري كإله كنعاني قديم له نزعة شريرة لا يرضى بشيء إلا قرابين الأطفال. (المترجم)

[7 ←]

ف والدو امرسون: (1803-1882) أديب وفيلسوف وشاعر أمريكي كان أحد أبرز أعلام فلسفة التسامي أو المتعالية في أوائل القرن التاسع عشر. (المترجم)

[8 ←]

كراندة: من أشجار الزينة الجميلة أوراقها ريشية متقابلة ذات لون أخضر فاتح وأزهارها أنبوبية بنفسجية وبيضاء وزرقاء تظهر في الربيع قبل ظهور الأوراق وهي سريعة النمو ويصل ارتفاعها إلى 15 متر ولها فوائد طبية كثيرة. (المترجم)

[9 ←]

ل ستانلي غاردنر: (1870-1989) كان محامياً وكاتباً أمريكياً. يعرف أنه ابتكر شخصية بيري ماسون في القصص البوليسية، وله روايات أخرى وكتب غير قصصية عن رحلاته في باجا كاليفورنيا وغيرها من المناطق في المكسيك. (المترجم)

[10 ←]

لاسي: أو مولّد ابن أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود. (المترجم)

[11 ←]

وراسي: شخص أحد أبويه أوروبي والآخر آسيوي. (المترجم)

[12 ←]

راسيان: في معناها الأصلي، الكلمة تعني الشخص الذي ولد في آسيا لأب أمريكي وأم آسيوية بسبب ظروف الحروب في مناطق مثل اليابان، تايلاند، كوريا الجنوبية، فيتنام، كمبوديا، وغيرها. (المترجم)

[13 ←]

ويو: لعبة مؤلفة من قرص مزدوج محزوز ومزود بسلك أحد طرفيه ملفوف حول الحز والآخر مشدود إلى يد المرء أو إصبعه على نحو يمكنه من قذف القرص في اتجاه ما وإعادته من ثم إلى اليد وهكذا. (المترجم)

[14 ←]

ن بيان فو: معركة مصيرية بين قوات تحرير فيتنام والجيش الفرنسي مدعوماً من قوات حلف الناتو. حدثت المعركة بين آذار وأيار 1954 وانتهت باندحار الفرنسيين رغم تكبد الفيتناميين خسائر جسيمة. (المترجم)

[15 ←]

ند الصينية: شبه جزيرة في جنوب شرق آسيا تقع في منطقة قريبة من شرق الهند، متأثرة بكلا الثقافتين تضم فيتنام وكمبوديا ولاوس وتايلند. (المترجم)

[16 ←]

ٍوض مسؤول في الحزب الشيوعي يعهد إليه ببث المبادئ الحزبية في الوحدات العسكرية والتأكد من صدق ولاء أفرادها للحزب. (المترجم)

[17 ←]

ٰرك كينت: شخصية خيالية تظهر في مجلات وكتب أمريكية للقصص المصورة ابتكرها جيري سيغيل 1938 واستمرت حتى الثمانينيات متمثلة في البطل الخارق القوة سوبرمان. (المترجم)

[18 ←]

ٰالفيل: برنامج تلفزيوني أمريكي طوره الكاتب والمنتج الفريد غاوغ ومايلز ميلار، يعتمد على الشخصية الخيالية سوبرمان. بدأت حلقاته في سنة 2001 ولاقى شعبية واسعة. (المترجم)

[19 ←]

ٰو دينه دايم (1901-1963) سياسي من فيتنام الجنوبية شغل منصب رئيس الوزراء لدولة فيتنام في عهد الرئيس باو داي سنة 1954. (المترجم)

[20 ←]

ٰارد كبلنغ: (1865-1936) كاتب وشاعر وقاص بريطاني ولد في الهند، من أهم أعماله «كتاب الأدغال» مجموعة قصص، و«قصة كيم» 1901، قال عنه جورج أورويل إنه نبي الإمبراطورية البريطانية. (المترجم)

[21 ←]

 ويانغ: مفهوم تقليدي في الفلسفة الصينية أو الثقافة عموماً يعود إلى القرن الثالث ق. م. وهو أن الأشياء جميعها موجودة على شكل متناقضات لا تنفصل، على سبيل المثال، الذكر والأنثى، الظلام والنور، الشباب والشيخوخة.. المتناقضات في حالة تجاذب ويكمل بعضها بعضاً وكل منها في جوهره عنصر من الآخر. (المترجم)

[22 ←]

الم سوزي وونغ» فيلم بريطاني أمريكي إنتاج سنة 1960 ومن إخراج ريتشارد كوين. مقتبس من رواية تحمل العنوان نفسه لريتشارد ماسون شارك في التمثيل وليم هولدن ونانسي كوان. (المترجم)

[23 ←]

جادة الصلاة الدنيوية» رواية من التراث الصيني تعود إلى القرن السابع عشر تتسم بالشهوانية وقضايا الجنس نشرت باسم مستعار وتنسب عادة إلى كاتب اسمه لي يو نشرها سنة 1693 أثناء فترة حكم سلالة كيتغ وقد منعت وصودرت بعد ذلك. (المترجم)

[24 ←]

ى الضنك: أو أبو الركب أو حمى عدن هو مرض مداري منقول بالبعوض يسبب آلام المفاصل والطفح الجلدي شبيه بالحصبة. (المترجم)

[25 ←]

ت وايتمان: شاعر أمريكي (1819-1892) ولد لأبوين ينتميان إلى أصول إنجليزية وهولندية عاش حياته في بروكلين، أشهر أعماله ديوان (أوراق العشب) أصيب بالشلل في آخر حياته. (المترجم)

[26 ←]

أمريكي الهادئ» رواية للكاتب الإنكليزي غراهام غرين، 1955 تصور الاستعمار الفرنسي والبريطاني لفيتنام. (المترجم)

[27 ←]

ل كاورد: (1899-1973) كاتب مسرحي إنكليزي ومخرج وممثل معروف بفكاهته، من مسرحياته «زمن الضحك». (المترجم)

[28 ←]

ي ويست: ممثلة ومغنية أمريكية (1893-1980) كانت رمزاً للإغراء في زمانها امتدت شهرتها لعقود. (المترجم)

[29 ←]

نا هيوارث: ممثلة وراقصة أمريكية شهيرة (1918-1987) حققت النجاح في فترة الأربعينيات ووصلت إلى ذروة النجومية مثلت في 61 فيلماً خلال 37 سنة من حياتها حتى أطلقوا عليها لقب «إلهة الحب». (المترجم)

[30 ←]

ملت هنا تعني «القرية». (المترجم)

[31 ←]

ب سينغ: شخصية خيالية لبائع مأكولات متجول ظهر في التلفزيون الأمريكي في مسلسل بونانزا الذي عرض على قناة أن بي سي من 1959 إلى 1973، قام بأداء الدور الممثل فكتور سين يونغ وكان مهاجراً صينياً. (المترجم)

[32 ←]

كي روني ممثل أمريكي شهير (1920-2014) امتدت مهنته إلى عقود ولم يتوقف عن التمثيل في السينما والتلفزيون والمسرح والراديو إلا قبل وفاته بقليل، ظهر في أكثر من 300 فيلم وكان واحداً من آخر الممثلين الأحياء ممن مثلوا في السينما الصامتة. (المترجم)

[33 ←]

ان ديديون كاتبة أمريكية ولدت سنة 1934 تعرف برواياتها وكتاباتها الصحفية. تستكشف رواياتها التفكك في الأخلاق الأمريكية والفوضى الثقافية وإحساس من الذعر يهيمن على الكثير من أعمالها. من رواياتها «آخر شيء أراده» 1996. (المترجم)

[34 ←]

وند تشاندلر (1888-1959) كاتب روايات وقصص قصيرة وسيناريوهات أمريكي من أصل بريطاني وصار يكتب فيما بعد القصص البوليسية له تأثير واسع على الأدب الشعبي الأمريكي أول رواية له (النوم الطويل) نشرت سنة 1939. (المترجم)

[35 ←]

زيف باتنغير سياسي نمساوي (1906-1992) بعد هجرته إلى الولايات المتحدة أصبح من الخبراء البارزين في شؤون شرق آسيا. من كتبه «الفجر الكاذب للاشتراكية» 1953. (المترجم)

[36 ←]

ـسيس فتزجيرالد: سياسية ايرلندية ولدت سنة 1950 عملت كوزيرة للعدل والمساواة في الحكومة الايرلندية وعينت كنائب لرئيس الوزراء في 6 أيار 2016. (المترجم)

[37 ←]

ـزيف غوبلز (1897-1945) سياسي ألماني في حكومة الرايخ الثالث وكان من المقربين لهتلر عرف بمهاراته في الدعاية للنازية والخطابة ومعاداته للسامية، انتحر مع زوجته بعد أن سمما أطفالهما الستة قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

[38 ←]

ـي وارهول فنان أمريكي ولد سنة 1928 وكان من الشخصيات الرائدة في حركة الفن البصري الحديث، تستكشف أعماله العلاقة بين التعبير الفني الجماهيري وثقافة النخبة وأساليب الدعاية التي ازدهرت في الستينيات. (المترجم)

[39 ←]

ـا غابور (1917-2016) ممثلة أمريكية من أصل هنغاري فازت بلقب ملكة جمال هنغاريا في فينا سنة 1936تزوجت تسع مرات وتعرضت لحادث سيارة أصيبت على أثره بالشلل، ماتت عن عمر 99 سنة. (المترجم)

[40 ←]

ـليون: نبات أخضر من الفصيلة الزنبقية. (المترجم)

[41 ←]

ـريسيون: أحد الأحزاب السياسية والدينية التي برزت في القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين وكانوا يتبعون مذهباً متشدداً في العزلة عن الخاطئين ويحافظون على شريعة موسى والتعاليم الشفهية التي استنبطوها. (المترجم)

[42 ←]

ـجنت فرانكلن جون روك شخصية خيالية في القصص الشعبية التي ظهرت في كتب التسلية الأمريكية وكان أول كتاب من هذه السلسلة «جيشنا في حالة حرب» ظهر سنة 1959 لمؤلفه روبرت كانيغر وجو كوبرت. (المترجم)

[43 ←]

ـيبة: شجرة استوائية ضخمة. (المترجم)

[44 ←]

ا هاري: راقصة هولندية شهيرة (1876-1917) كانت تعمل جاسوسة لألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، أعدمت رمياً بالرصاص في فرنسا. (المترجم)

[45 ←]

ريان: شجر ذو ثمار بيضوية. (المترجم)

[46 ←]

كارثر: دوغلاس ماكارثر (1880-1964) جنرال أمريكي خدم في قوات الأمم المتحدة وفي الجيش الفيتنامي وكان قائد جيش الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين ولعب دوراً بارزاً في حرب المحيط الهادي أثناء الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

[47 ←]

يت: عملة في تايلاند، تقسم إلى 100 ساتانغ. (المترجم)

[48 ←]

ن كونسي آدمز (1767-1848) سياسي ودبلوماسي أمريكي وسناتور في البرلمان كان من الجمهوريين وتولى الحكم كسادس رئيس للولايات المتحدة من 1825 إلى 1829. (المترجم)

[49 ←]

زيف مينغيلي (1911-1979) كان ضابطاً في قوة حماية هتلر وطبيباً في معسكرات الاعتقال النازية أثناء الحرب العالمية الثانية ومسؤولاً عن اختيار الضحايا من السجناء لتقديمهم للإعدام أو لإجراء التجارب عليهم. (المترجم)

[50 ←]

وم وعمورة: وبحسب ما جاء في العهد القديم مجموعة من القرى التي خسفها الله تعالى بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد. يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أنها تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن. (المترجم)

[51 ←]

اجيبوت شجرة يستقطر من ورقها زيت أخضر زكي الرائحة. (المترجم)

[52 ←]

بف طوعنا الفولاذ) رواية روسية تنتمي إلى الواقعية الاشتراكية كتبها نيكولاي أوسترفسكي (1904-1936). (المترجم)

[53 ←]

ار في الغابة الثلجية) رواية للكاتب الصيني كيو بو (1923-2002) حققت مبيعات هائلة وجعلته أشهر كاتب في زمانه. (المترجم)

[54 ←]

يهوت: نبات يستخرج منه نشاء مغذ. (المترجم)

[55 ←]

ٔ بوي شاو (1867-1940) كان سجيناً فيتنامياً من أنصار الحركة الوطنية في القرن العشرين. في سنة 1903 أسس منظمة ثورية تسمى «مجتمع الإصلاح» وعاش في اليابان حيث كتب مقالات سياسية تنادي باستقلال فيتنام عن الاستعمار الفرنسي. (المترجم)